مشروع

التفسير الموضوعي الميسر

لقصار سور المفصل

مشروع المسودة الخامسة ١٤٣١/٠٨/٠١هـ

نأمل من الإخوة مراجعته وإبداء المرئيات والمقترحات حوله

في إطار الأهداف والتصور المرفق

إعداد/

د. محمد بن عبدالعزيز بن محمد العواجي

الأستاذ المشارك بكلية القرآن الكريم والدراسات الإسلامية

aboayob@hotmail.com

المدينة المنورة ص.ب (٢٠٠٤٤) فاكس ٠٤٨٢٦١٩٥٤

مع خالص الشكر والتقدير

نسأل الله أن لا يحرمهم الأجر والثواب

بسم الله الرحمن الرحيم

المقدمة

الحمد لله رب العالمين، المتفرد بكمال الجمال والإنعام على الخلق أجمعين، الذي أرسل رسله لهداية العالمين، وختم رسله بسيد الخلق وإمام المرسلين نبينا محمد عليه وعلى آل بيته وصحابته أفضل الصلاة وأتم التسليم والحمد لله رب العالمين.

فإنّ كتاب الله خير ما تقضى فيه الأعمار، وتستغل الأوقات في حفظه وتدبره، ومن ثمّ العمل به وتطبيقه في واقع الحياة، وما زال العلماء قديماً وحديثاً يخدمونه بتأليف تفاسيره، إذا بلغت أعداداً كثيرة، مع اختلاف مشاربها، وتنوع مناهجها، وتباين طرقها، غير أنها تلتقي في نهاية الأمر على خدمة كتاب الله، وتوضيح مبهمة، وبيان غامضة.

و"إنَّ أيَّ علم إنّما يَنال شَرفه من إحدى ثلاثة أمور: من جهة موضوعه، أو من جهة غرضه، أو من جهة الحاجة إليه.

أمَّا من جهة الموضوع فإن موضوعه: كلام الله تعالى الذي هو ينبوع كل حكمة ومعدن كل فضيلة، فيه نبأ ما قبلكم وخبر ما بعدكم وحكم ما بينكم، لا يَخْلَق على كثرة الرد ، ولا تنقضي عجائبه.

وأمَّا من جهة الغرض فإن غرضه: الاعتصام بالعروة الوثقى، والوصول إلى السعادة الحقيقية التي لا تفنى.

وأمَّا من جهة شدة الحاجة ؛ فإن كل كمال ديني أو دنيوي، عاجل أو آجل مفتقرٌ إلى العلوم الشرعية والمعارف الدينية، وهي متوقفة على العلم بكتاب الله تعالى"[1].

وثمَّة اسم جديد للتفسير ظهر على ساحة المعرفة في القرن الرابع عشر الهجري، وأصبح مدرسة بحدّ ذاته، له ضوابطه وطرقه يُسمّى بالتفسير الموضوعي، فيه تجمع الآيات التي تتحدث عن موضوع واحد في مكان واحد، ويتمُّ تناولُها بالدراسة والتحليل والترتيب؛ كيما تستخرج هدايات القرآن، وتستنبط فوائده.

ومن أنواعه المشتهرة : البحث عن **موضوع من خلال سورة من القرآن** بتحديد الهدف الأساسي للسورة أو غيره من الأهداف ودراسته من خلال تلك السورة. ، فيحدد هدفاً أو مجالاً من مجالات

(١) الإتقان في علوم القرآن، للسيوطي ٤٣٧/١.

السورة، ثم يستنبط الهدايات والأحكام ويذكر المناسبة بينها، ويُبرز في هذه التقسيمات ما يدل على فقه الآيات، وسعة أسلوب القرآن الكريم وبراعته.

ومهما كانت أقسامه أوتسمياته فإننا لاننكر أنه كان موجوداً عند الأئمة بقدر حاجة الناس إليه، فما رسالة العبودية ، ورسالة تزكية النفس ، ورسالة التحفة العراقية ثلاثتها لشيخ الإسلام ابن تيمية إلاّ برهان على وجود هذا اللون من التفسير ، إذ بنى كل رسالة منها على آية ودار مع موضوعها في القرآن بياناً وتفسيراً جامعاً لكل ما يُعينه على تلك المعاني التي يُفسر بها من مأثور ولغة وغيرها.

وإن حاجة الناس اليوم إلى القرآن أشدّ لما يكتنفهم من التحديات ، ويُحيط بهم من الشبهات والشهوات، لانتشار المعلومات، وكثرة التقنيات، ومن أعظم ما يحتاجون إليه الاعتزاز بقيمهم الربانية. ولما في قصار سور المفصل من سور القرآن من تأصيل وبيان؛ فقد أحببت أن أُساهم بشيء من ذلك، فإن القرآن الكريم هو كتاب الله الخالد المعجز بلفظه ونظمه، وأشرف العلوم هي تلك التي تدور حوله ؛ فتشرح غامضه ، وتوضح مبهمه ، وتبيِّن جوانب العظمة في آياته ، وشرف العلم من شرف المعلوم ، ومن أجل إحياء شعيرة التدبُّر في النفوس وهذا ما آمل أن يظهر شيئاً منه هذا البحث.

فهذا المشروع عبارة عن تفسير موضوعي لقصار سور المفصل من سورة الضحى إلى الناس.

وبيان ذلك في النقاط التالية:

أولاً: أسباب اختيار المشروع:

أ -أهداف المشروع :

١) ربط المتلقي بكتاب الله، وتهيئته لحفظه والعمل بمقتضاه.(توحيد مصدر التلقي).

٢) إبراز منهج النبي ﷺ والسلف الصالح في تلقي القرآن والعمل به (إتباع الأثر).

٣) تربية المتلقي وتزكيته بالقرآن (إصلاح وتوجيه).

٤) بيان إعجاز وعظمة وشمولية القرآن الكريم وحاجتنا إليه في كافة الميادين (إيمان وتقدير).

٥) إبراز عظمة القرآن الكريم، وأثره في سعادة البشرية وهدايتها. (عظم الأثر).

٦) تحصين المتلقي وحلِّ مشكلاته من خلال المنهج القرآني. (وقاية وعلاج).

٧) نشر معاني القرآن السامية إلى العالم بلغاتهم عبر منهجية سهلة ميسرة (دعوة وتعريف).

٨) إثراء الخطط والمناهج التعليمية والتربوية والدعوية بالأسس والمفاهيم القرآنية.(تأصيل وتعليم).

ب -أسباب ومناسبات:

١ العناية بقصار المفصل يأتي بسبب كثرة قراءتها في الفرائض، وحفظ الكثير من الناس لها، مع الجهل الموجود ببعض مفرداتها ومعانيها .

٢ أن هذه السور يبتدئ بها العوام، وطالب العلم أول أمره، ولا يستغني عنها طالب العلم، فناسب طرحها بشكل تذكيري موضوعي ميسر، لتقرير المسلك إلى الله، وفتح باب التفكر والتدبر في كلامه.

٣ -كثرة تردد هذه السور على المسامع، مع عظم ما تضمنته من المعاني، والتي غالباً ما نغفل عنها، فأحببنا ربط الشيخ، والمتعلم في بداية مشواره؛ بمعانيها العظيمة.

٤ -أن هذه السور في أغلبها مكية، تعالج قضايا اعتقادية كلية، لا ينبغي التفريط فيها ولا إغفالها؛ لاسيما من الدعاة إلى الله.

٥ -اشتمال هذه السور إجمالاً على جانب الوعظ وربط القلوب بالله تعالى والتذكير بالمنعم.

٦ العناية بتفسيرها من شأن طلاب العلم والدعاة إلى الله والمربين، فهي جديرة بالتدارس في البيت والعائلة والمسجد وحلقات تحفيظ القرآن ...الخ.

٧ -تضمن المنهج التربوي لرعاية طلاب العلم، جزءاً كبيراً من تلك الموضوعات التي تضمنتها قصار المفصل، وعدم توفر مراجع كافية للتحضير منها، مع تزاحم الأعمال على المشرف.

٨ إعداد هذا المشروع معونة على استفادة الطلاب بجمعه في محل واحد، وذلك لأنهم يقرؤون من عدة تفاسير ويكتبون الفوائد والعبر المتناثرة مما يقرؤون أو يسمعون، فجمعها في مكان واحد عملٌ يستفيدون منه مستقبلاً بإذن الله تعالى .

ثانياً: خطة البحث :

اشتملت الخطة على: مقدمة ، وتمهيد ، وثلاثة وعشرين فصلاً ، وخاتمة ، وفهارس:

المقدمة : وتضمنت التعريف بالموضوع، وأهميته وأسباب اختياره، وخطة ومنهج البحث.

تمهيد: في مقدمات عن المفصل:

أولاً: فضل قراءة وتعلُّم المفصل.

ثانياً: أوجه التناسب بين قصار السور.

الفصل الأول : تفسير سورة الضحى.

الفصل الثاني : تفسير سورة الشرح.

ثالثاً: منهجية البحث :

لقد سلكت في تسطير وصياغة هذه الورقات المتواضعة، والتي أسأل الله تعالى أن ينفع بها ، المنهج العلمي التالي :

- سلكت أسلوب ومنهجية التفسير الموضوعي بنوعه المشهور "تتبع المعنى المذكور في الآيات ودراستها وتفسيرها مع مراعاة شروط المفسر أثناء عرض الموضوع".
- التفسير للآيات بطريق الحديث عن ركائز السور وموضوعاتها الأساسية .
- اتبعت أسلوب المقالة في صياغة البحث "لأنه ذا طابع وعظي تذكيري"، مع المحافظة على نصوص الأئمة المنقولة، وذلك قدر جهدي.
- التزمت ما ذكره العلماء المشتهرون في الفن في معنى الآيات على الوجه الأرجح، معرضاً عن ذكر الخلاف في ذلك- ما أمكن- بناء على منهجية هذا النوع من التفسير .
- ما صغته في معاني الآيات والاستشهاد بها فهو ممّا فهمته من جرد كتب التفسير عامّة، وعلى الأخص الكتب التالية:
    ١. الجامع لأحكام القرآن للإمام القرطبي رحمه الله ط.دار الكتاب العربي لبنان.
    ٢. تفسير القرآن العظيم للإمام ابن كثير رحمه الله ط.دار طيبة ، تحقيق سامي سلامه.
    ٣. تيسير الكريم الرحمن للإمام ابن سعدي رحمه الله ط.مؤسسة الرسالة عناية د.اللويحق١٤٢٠هـ.
- كل آية ذكرتها أو استشهدت بها فعلى المعنى الذي ذكره المشار إليهم، بإجمال مني وصياغة تقتضيها منهجية المقالة العلمية الموضوعية.
- قدمت بمقدمة عن متعلقات موضوع السورة، حاولت أن أبين فيها ملامح السورة الرئيسة وربطها بحيث تكون موضوعاً واحداً، ونزولها وفضلها ومناسبتها لما قبلها وعدّها، دون ذكر الخلاف والروايات، قدر الجهد والاستطاعة.
- تناولت الموضوعات المذكورة في السورة، مع التقيد بالانطلاق مما ذكره أهل التفسير ورجعت إلى مراجع أخرى تخدم الموضوع الذي تتحدث عنه الآيات.
- حاولت أن تكون خطوات وخطة البحث موافقة لما اتفق عليه أهل فن "التفسير الموضوعي للقرآن الكريم"، وفقاً لما قيده د.زاهر عواض الألمعي في (دراسات في التفسير الموضوعي) ود.مصطفى مسلم في (مباحث في التفسير الموضوعي)، واستلهاماً ممّا سلكه الشيخ العلامة

عبدالرحمن بن ناصر السعدي في كتابيه (تيسير اللطيف المنان في خلاصة تفسير القرآن) و (فتح الرحيم الملك العلام)، وإني لأرجو أن أكون وفقت لذلك.

- حاولت ربط الواقع الدعوي الأول بالواقع الدعوي الحاضر. مع التركيز في المعنى على الفوائد العملية، وحرصت على عدم إيراد معلومة لا ينبني عليها فائدة عملية.
- ربطت جوانب السورة ببعضها لكي تخرج كموضوع واحد.
- الحرص على اعتماد الروايات الصحيحة في تفسير الآيات وفي أسباب النزول.
- التزمت الاستشهاد في السنة بالأحاديث الصحيحة فقط، و لم أستشهد بالحديث الضعيف إلا في الضرورة وهذا نادر جداً. واعتمدت على حكم الشيخ الألباني رحمه الله، وعلماء الحديث، وما لم أصل إلى الحكم عليها–وهو قليل جداً – اكتفيت بذكر مصدرها فقط.
- أدرجت في عنوان النزول كلَّ ما يتعلق به ؛ من المكي والمدني ، وسبب النزول إن وجد ، وعدَّ آياتها وكلماتها وحروفها. ثم أتبعته بمناسبة السورة لما قبلها على سبيل الإجمال والإيجاز ، وتسهيل الفكرة والعبارة.
- قدمت لهذا البحث بتمهيد ضمنته مسألتين: فضل قراءة وتعلُّم المفصل، وأوجه التناسب بين قصار السور، تهيئة للدخول في الموضوع.
-

تمهيد
في مقدمات عن المفصل:
أولاً: فضل قراءة وتعلُّم المفصل:

١. تقسيم سور القرآن:

تنقسم سور القرآن إلى أقسام، فعن واثلة بن الأسقع الليثي رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم (أعطيت مكان التوراة السبع وأعطيت مكان الزبور المئين وأعطيت مكان الإنجيل المثاني وفضلت بالمفصل)[١] ويقصد **بالسبع**: السور السبع الطوال من البقرة حتى الأنفال والتوبة. **والمئين**: هي السور التي يكون عدد آياتها مائة آية فأكثر. **والمثاني**: وهي التي أقل من مائة آية. **والمفصل**: ما ولي المثاني من قصار السور، سمي بذلك لكثرة الفصول التي بين السور بالبسملة. وقيل: لقلة المنسوخ منه. ولهذا يسمى بالمحكم أيضاً، كما روى البخاري عن سعيد بن جبير قال: إن الذي تدعونه المفصل هو المُحْكَم[٢].

وقال الحسن البصري: إن الله أودع علوم الكتب السابقة في القرآن، ثم أودع علوم القرآن في المفصل، ثم أودع علوم المفصل في الفاتحة، فمن علم تفسيرها كان كمن علم تفسير جميع الكتب المنزلة[٣].

وآخره سورة الناس بلا نزاع. "واختلف في أوله فقيل: ق، وقيل : الحجرات، وقيل، وقيل: الضحى، ووجهه بأن القارئ يفصل بين السور بالتكبير. وقيل غير ذلك.

وللمفصل طوال وأوساط وقصار: فطواله إلى عَمَّ ، وأوساطه منها إلى الضُحَى، ومنها إلى آخر القرآن قِصَاره، وهذا أقرب ما قيل فيه"[٤].

وسُمِّيَ مفصلا لقصر سوره، وكثرة فواصله[٥].

٢. البدء بالمفصل في العلم والحفظ:

عن البراء بن عازب رضي اللّه عنهما قال: (أوّل من قدم علينا مصعب بن عمير وابن أمّ مكتوم، وكانوا يقرئون[٦] النّاس، فقدم بلال وسعد وعمّار بن ياسر، ثمّ قدم عمر بن الخطّاب في عشرين من

---

(١) أخرجه الإمام أحمد ١٠٧/٤ (١٧٠٢٣)، والطيالسي ١٣٦/١ (١٠١٢)، والطبراني في الكبير ٢٥٨/٨ (٨٠٠٣) و٧٦/٢٢ (١٨٦)، وفي الشاميين ٦٢/٤ (٢٧٣٤)، والبيهقي في شعب الإيمان ٤٦٥/٢ ، والمنذري في الترغيب والترهيب وحسنه الألباني في صحيح الترغيب (١٤٥٧) وصححه بمجموع طرقه في السلسلة الصحيحة (١٤٨٠) وصحيح الجامع (١٠٥٩).

(٢) أخرجه البخاري كتاب فضائل القرآن باب صبيان القرآن رقم (٥٠٣٥).

(٣) أخرجه البيهقي في شعب الإيمان ٤٥٠/٢ (٢٣٧١)، والثعلبي في الكشف والبيان ٩١/١.

(٤) انظر الإتقان ١٧٩/١-١٨١.مختصراً.

(٥) فتاوى نور على الدرب – ابن عثيمين- ١١٥/١٩.

(٦) وكانوا يقرئون الناس: هكذا وردت. ووجهها ابن حجر على أن أقل الجمع اثنان، وإما على أن من كان يقرأ بأنه كان يقرأ معهما أيضا. وفي رواية الأصيلي وكريمة «فكانا يقرئان الناس» قال ابن حجر: وهو أوجه. أنظر فتح الباري ٣٠٦/٧.

أصحاب نبيّ اللّه صلّى اللّه عليه وسلّم، ثمّ قدم النّبيّ صلّى اللّه عليه وسلّم فما رأيت أهل المدينة فرحوا بشيء فرحهم برسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلّم، حتّى جعل الإماء يقلن: قدم رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلّم، فما قدم حتّى قرأت ﴿سَبِّحِ ٱسْمَ رَبِّكَ ٱلْأَعْلَى﴾ [الأعلى١] في سُوَرٍ من المفصّل»)[1]. وعن عاصم بن عمر بن الخطاب عن أبيه أنه: كان يأمر بنيه بتعليم المفصل[2].

"لقد كان السلف الصالح لهذه الأمة من أشد الناس حرصاً على الاهتمام بكتاب الله تلاوة وتعليماً بعد سماعهم الأحاديث الدالة على الترغيب في تعلمه واستظهاره من نحو قوله صلى الله عليه وسلم: (خيركم من تعلم القرآن وعلمه)[3]، فلا يقدمون على تعلمه شيئا من العلوم، فما أن يعقل الطفل حتى يبدأ في تعليمه حروف [أبي جاد][4] ثم قصار السور من المفصل[5]، ويلقن ذلك تلقيناً خمس آيات أو عشر آيات حتى يتم حفظ كتاب الله أو ما تيسر منه بحسب همته وسعة حفظه وإدراكه."أ.هـ[6].

قال ابن عباس رضي الله عنهما: "توفي رسول الله صلى الله عليه وسلم وأنا ابن عشر سنين، وقد قرأت المحكم". وعنه: "جمعت المحكم في عهد النبي صلى الله عليه وسلم، فقيل له: ما المحكم؟ قال: المفصل"[7]، قال ابن كثير: "فيه دلالة على جواز تعليم الصبيان القرآن لأن ابن عباس أخبر عن سنّه حيث موت النبي صلى الله عليه وسلم، وقد كان جمع المفصل وهو من الحجرات، وعمره إذ ذاك عشر سنين"[8]. فهذا ابن عباس رضي الله عنهم يفاخر أنه قرأ المفصل على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم، وهو طفل صغير.

٣. كثرة قراءة النبي لها في الصلاة الجهرية:

عن سليمان بن يسار عن أبي هريرة رضي الله عنه قال ما صليت وراء أحد أشبه صلاة برسول الله

---

(١) أخرجه البخاري كتاب مناقب الأنصار باب مقدم النبي صلى الله عليه وسلم وأصحابه المدينة (٣٧١٠) وانظر: (٤٦٥٧ ، ٤٧٠٩).

(٢) تفسير القرآن من الجامع لابن وهب ١٤/١ (١٧).

(٣) أخرجه البخاري فضائل القرآن باب خيركم من تعلم القرآن وعلمه (٥٠٢٧).

(٤) الترتيب الأبجدي. تُرتَّب حروف الكلام العربي ترتيباً أبجديًا، وهذا يتعلمون القراءة والكتابة والحساب ، والمشتهر للتعلم والتعليم الترتيب الألفبائي: وهو ترتيب مبني على المشابهة بين الحروف في الشكل، والرسم، والتقابل بين الإعجام والنقط، والصوتي بحسب مخارجها. وانظر: الموسوعة العربية العالمية٢/١.

(٥) بين الإمام البقاعي وجه تسمية هذا الحزب من القرآن الكريم بالمفصل وما قبله بالمثاني بان ذلك من وجهين :

"الأول: أنّ المفصّل أوّل لقب جامع للسور باعتبار القراءة. وفوقه المثاني، ثُمّ المئون، ثُمّ الطول. فالمثاني: ثانية له حقيقة وما هي ثانية للمئين، إلا أنّا ألفينا البداءة بالطُّول من الطرف الآخر.

الثاني: أنّها لمّا زادت على المفصّل كانت قسمة السورة منها في ركعتين من الصلاة كقراءة سورتين من المفصّل، فكانت مثاني، لتثنيتها في مجموع الصلاة باعتبار قراءة بعضها في كلّ من الركعتين". نظم الدرر ٣٥٧/٨-٣٥٨.

(٦) انظر ندوة: إجازات قراء القرآن الكريم - الجمعية العلمية السعودية للقرآن الكريم وعلومه - بتاريخ ١٤٢٤/١٠/٢٢ هـ كلية أصول الدين ـــ جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية ـــ الرياض.

(٧) فتح الباري ٨٣/٩ .

(٨) فضائل القرآن لابن كثير ٢٢٥، وفتح الباري: ٨٣/٩ .

صلى الله عليه وسلم من فلان[1] قال سليمان: كان يطيل الركعتين من الظهر ويخفف الأخريين ويخفف العصر ويقرأ في المغرب بقصار المفصل ويقرأ في العشاء بوسط المفصل ويقرأ في الصبح بطوال المفصل[2].

عن عبدالله بن عمر رضي الله عنهما قال: رَمَقْتُ رسول الله صلى الله عليه وسلم عشرين مرة يقرأ بعد المغرب وفي الركعتين قبل الفجر ﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْكَٰفِرُونَ﴾ و ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ﴾[3].

وأخرج مالك في الموطأ عن الصنابحي قال: قدمت المدينة في خلافة أبي بكر الصديق فصليت وراءه المغرب فقرأ في الركعتين الأوليين بأم القرآن وسورة سورة من قصار المفصل ..."[4].

وكتب عمر إلى أبي موسى الأشعري أن يقرأ في صلاة المغرب بقصار المفصل[5].

قال الترمذي: "**وعلى هذا العمل عند أهل العلم** . وبه يقول: ابن المبارك وأحمد وإسحق.

وذُكر عن مالك أنه كره أن يقرأ في صلاة المغرب بالسور الطوال، نحو: الطور والمرسلات. قال الشافعي: لا أكره ذلك، بل أستحب أن يقرأ بهذه السور في صلاة المغرب"[6].

قال الطحاوي: "فثبت بما ذكرنا أن ما ينبغي أن يقرأ به في صلاة المغرب هو قصار المفصل وهذا قول أبي حنيفة، وأبي يوسف ، ومحمد، رحمهم الله تعالى"[7].

قال الحافظ ابن رجب: "وهذا يُشعر بحكاية الإجماع عليه"[8].

وكذا في صلاة العصر، قال الترمذي: "ورأى بعض أهل العلم أن القراءة في صلاة العصر كنحو القراءة في صلاة المغرب يقرأ بقصار المفصل، وروي عن إبراهيم النخعي أنه قال: تعدل صلاة العصر بصلاة المغرب في القراءة"[9].

---

(1) كان عمر بن عبدالعزيز أشبه الناس في زمانه صلاة برسول الله صلى الله عليه وسلم كما نص عليه في رواية الضياء في الأحاديث المختارة (٢١٤١) وحسن محققه إسنادها.

(2) أخرجه النسائي في الكبرى باب طول القراءة وقصرها (٣٨١٨-٣٨١٩). وفي الصغرى كتاب الصلاة باب القراءة في المغرب (٩٨٣) وصححه النووي في المجموع ٣٨٣/٣، وابن تيمية في اقتضاء الصراط المستقيم ٣٢٠/١ وقال: إسناده على شرط مسلم، وصححه ابن عبدالهادي في المحرر ١١٣، والألباني في صحيح النسائي ٩٨٣.

(3) أخرجه النسائي كتاب الصلاة باب القراءة في المغرب (٩٩٢)، والترمذي كتاب الصلاة باب ما جاء في تخفيف ركعتي الفجر(٤١٧) وقال حديث حسن، وأحمد ٢٤/٢(٤٧٦٣) و٥٨/٢(٥٢١٥)، وأبو داود الطيالسي (٢٠٠٥) ومن طريقه البيهقي ٤٣/٣، وابن أبي شيبة في المصنف ٥٠/٢، ومن طريقه مسلم في التمييز ٢٠٧، والطبراني في الكبير (١٣٥٢٨)، ومن طريقه ابن المنذر في الأوسط ٢٢٦/٥ ، وابن عبد البر في التمهيد ٤١/٢٤. والخلال في فضائل سورة الإخلاص (٢٠) وانظر: ابن حجر في نتائج الأفكار٤٩٨/١ وقال: "هذا حديث حسن...ورجاله رجال الصحيح"، وإتحاف الخيرة المهرة للبوصيري (٢٣٠٠).

(4) أخرجه مالك في الموطأ ٧٨/١.

(5) أخرجه ابن أبي شيبة في مصنفه ١٠٤/٢ (٢٦٧٢) وعبدالرزاق ١٠٤/٢ (٢٦٧٢) ، والترمذي تعليقا، كتاب الصلاة باب القراءة في المغرب ٤٠١/١-٤٠٣.

(6) جامع الترمذي ١١٢/٢ عند حديث (٣٠٨) .

(7) شرح معاني الآثار ٢١٤/١ بعد الأثر (١٢٨٠).

(8) فتح الباري لابن رجب ٤٣١/٤.

(9) جامع الترمذي ١١٠/٢ عند حديث (٣٠٧) .

وكان صلى الله عليه وسلم يقرأ بركعتي الوتر قبل الأخيرة بـــ ﴿سَبِّحِ ٱسْمَ رَبِّكَ ٱلْأَعْلَى﴾ و ﴿قُلْ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلْكَـٰفِرُونَ﴾ وفي الركعة الأخيرة من الوتر بسورة ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ﴾ و ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلْفَلَقِ﴾ و﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلنَّاسِ﴾وبذلك عمل الشافعي ومالك وأحمد فاستحبا قراءة قل هو الله أحد في الركعة الأخيرة من الوتر وحدها.

ومعرفة المفصل مهمة حتى **نقتدى فى صلاتنا** برسولنا الحبيب صلى الله عليه وسلم بأبي هو وأمي وروحي ، ولذلك ينبغي على الإنسان أن يعرف هذا وخصوصا من الأئمة أن يعرفوا هذا الأمر حتى يقرأوا في صلاتهم بما كان النبي صلى الله عليه وسلم يقرأ في صلاته الجهرية والسرية.

ومهمة من **جهة التدبر** والتكرار والتجديد في قراءتها كما كان النبي صلى الله عليه وسلم وسلفنا الصالح يفعلون، فيخالفون ذلك أحياناً، قال ابن القيم : "المحافظة فيها على الآية القصيرة والسورة من قصار المفصل خلاف السنة "[1].

"وإنما اختير المفصل ، ليكون ذلك أسهل في حفظه على المأمومين ، لأنه إذا تكرر عليهم المفصل حفظوه ،...الأفضل المحافظة على المفصل"[2]. "ومن الحكمة في الاستمرار بقراءة المفصل: أن المأمومين كلما تكررت عليهم السور حفظوها وسهل عليهم قراءتها" .. و "إذا قرأ – الإمام – من السور القصيرة عرف– المأموم– المُبْتَدى والمُنْتَهى فاطمأن"[3] أي: في صلاته، وانصرف ذهنه للقرآن وتدبره.

٤ . التقسيم للتسهيل والتنويع:

"قال بعض السلف: في القرآن ميادين وبساتين ومقاصير وعرائس وديابيج ورياض فميادينه ما افتتح بـــ ﴿الٓمٓ﴾ وبساتينه ما افتتح بـــ﴿الٓر﴾ ومقاصيره الحامدات وعرائسه المسبحات وديابيجه آل عمران ورياضه المفصل"[4]. فإذا دخل القارئ الميادين، وقطف من البساتين، ودخل المقاصير، وشهد العرائس، ولبس الديابيج، وتنزه في الرياض؛ استغرقه ذلك، وشغله عما سواه، فلم يعزب قلبه، ولم يتفرق فكره[5].

٥. الحكمة من التدرج :

وقد تضمن المفصل الحكمة من التدرج في التشريع قالت أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها: ". . . إنما نزل أوَّل ما نزل منه – أي القرآن – سورة من المفصل فيها ذكر الجنة والنار، حتى إذا ثاب الناس إلى الإسلام نزل الحلال والحرام. ولو نزل أول شيء: لا تشربوا الخمر، لقالوا: لا ندع الخمر أبدًا. ولو

---

(١) زاد المعاد ٢٠٣/١.

(٢) الشرح الممتع ١٨/١ وذكر في الحاشية عن الشيخ في الدرس التالي قوله : بأنَّ ذلك "**على سبيل الاستحباب**".

(٣) فتاوى نور على الدرب – ابن عثيمين– ١١٥/١٩.

(٤) جمال القراء ٣٥/١.

(٥) وانظر: إحياء علوم الدين ٢٨٢/١ ، والبرهان في علوم القرآن ٤٥٤/١ ، وقوت القلوب ٨٦/١ .

نزل: لا تزنوا، لقالوا: لا ندع الزنا أبدًا "[1].

وقد بيَّن ابن حجر رحمه الله في شرحه لهذا الحديث الحكمة من هذا التدرُّج فقال: "أشارت إلى الحكمة الإلهية في ترتيب الترول، وأن أول ما نزل من القرآن الدعاء إلى التوحيد، والتبشير للمؤمن والمطيع بالجنة، وللكافر والعاصي بالنار، فلما اطمأنت النفوس على ذلك أنزلت الأحكام، ولهذا قالت: (ولو نزل أول شيء لا تشربوا الخمر لقالوا لا ندعها) وذلك لما طبعت عليه النفوس من النفرة عن ترك المألوف[2].

٦. صفة قراءته للمفصل في الصلاة:

وعن ابن مسعود رضي الله عنه أن رجلا قال له: إني أقرأ المفصل في ركعة واحدة. فقال: (هذا كهذّ الشعر؟!! إن قوما يقرؤون القرآن لا يجاوز تراقيهم. ولكن إذا وقع في القلب فرسخ فيه نفع)[3].

قال النووي: "لا بأس بالجمع بين سورتين في ركعة واحدة فقد ثبت في الصحيحين من حديث عبدالله بن مسعود رضي الله عنه قال: لقد عرفت النظائر التي كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يقرن بينهن فذكر عشرين سورة من المفصل كل سورتين في ركعة."[4].

عن أبي وائل قال: غدونا على عبد اللّه بن مسعود فقال رجل: قرأت المفصّل البارحة. فقال: (هذا كهذّ الشّعر!! إنّا قد سمعنا القراءة وإنّي لأحفظ القرناء الّتي كان يقرأ بهنّ النّبيّ صلّى اللّه عليه وسلّم: ثماني عشرة سورة من المفصّل وسورتين من آل حم)[5].

---

(١) أخرجه البخاري كتاب فضائل القرآن باب تأليف القرآن (٤٧٠٧).

(٢) فتح الباري ٤٨/١٠.

(٣) أخرجه مسلم كتاب صلاة المسافرين، باب ترتيل القرآن...وإباحة سورتين فأكثر في كل ركعة (٨٢٢)، والبخاري كتاب صفة الصلاة، باب الجمع بين السورتين في الركعة (٧٧٥).

(٤) التبيان في آداب حملة القرآن ٥٨ .

(٥) أخرجه البخاري كتاب فضائل القرآن، باب وما يكره أن يهد كهد الشعر (٤٧٥٦). ومسلم كتاب صلاة المسافرين، باب ترتيل القرآن... وإباحة سورتين فأكثر في ركعة(٧٢٢) من حديث طويل. والقرناء: السور التي كان يقرنها رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلّم ببعضها في قراءته.

ثانياً: أوجه التناسب بين قصار السور عموماً

قال ابن تيمية رحمة الله عليه: " فصلٌ: السور القصار في أواخر المصحف متناسبة.

فسورة ﴿ ٱقۡرَأۡ ﴾ هي أول ما نزل من القرآن ، ولهذا افتتحت بالأمر بالقراءة ، وختمت بالأمر بالسجود، ووسطت بالصلاة التي أفضل أقوالها وأولها بعد التحريم هو القراءة وأفضل أفعالها وآخرها قبل التحليل هو السجود. ولهذا لما أمر بأن يقرأ . وأنزل عليه بعدها المدثر لأجل التبليغ فقيل له ﴿ قُمۡ فَأَنذِرۡ ﴾ فبالأولى صار نبيا . وبالثانية صار رسولاً . ولهذا خوطب بالمتدثر وهو المتدفئ من برد الرعب ، والفزع الحاصل بعظمة ما دهمه لما رجع إلى خديجة ترجف بوادره ، وقال: دثروني دثروني[1]. فكأنه نُهِيَ عن الإستدفاء، وأُمر بالقيام للإنذار. كما خوطب في المزمل وهو المتلفف للنوم لما أمر بالقيام إلى الصلاة.

فلما أمر في هذه السورة بالقراءة ذُكر في التي تليها نزول القرآن ليلة القدر ، وذكر فيها تنزل الملائكة والروح، وفي المعارج: عروج الملائكة والروح ، وفي النبأ قيام الملائكة والروح ، فذكر الصعود والنزول والقيام.

ثم في التي تليها تلاوته على المنذرين حيث قال : ﴿ رَسُولٞ مِّنَ ٱللَّهِ يَتۡلُواْ صُحُفٗا مُّطَهَّرَةٗ ۝٢ فِيهَا كُتُبٞ قَيِّمَةٞ ﴾ فهذه السور الثلاث منتظمة للقرآن أمرا به و ذكرا لنزوله و لتلاوة الرسول له على المنذرين.

ثم سورة الزلزلة والعاديات والقارعة والتكاثر ؛ متضمنة لذكر اليوم الآخر وما فيه من الثواب والعقاب، وكل واحد من القرآن واليوم الآخر قيل: هو ﴿ ٱلنَّبَإِ ٱلۡعَظِيمِ ﴾.

ثم سورة العصر والهمزة والفيل و﴿ لِإِيلَٰفِ ﴾ و﴿ أَرَءَيۡتَ ﴾ والكوثر والكافرون والنصر و﴿ تَبَّتۡ ﴾ متضمنة لذكر الأعمال، حسنها وسيئها، وإن كان لكل سورة خاصة.

وأما سورة الإخلاص والمعوذتان ؛ ففي الإخلاص : الثناء على الله ، وفي المعوذتين : دعاء العبد ربه ليعيذه. والثناء مقرون بالدعاء كما قرن بينهما في أم القرآن المقسومة بين الرب والعبد نصفها ثناء للرب ونصفها دعاء للعبد [2]. والمناسبة في ذلك ظاهرة ؛ فإن أول الإيمان بالرسول : الإيمان بما جاء به من الرسالة، وهو القرآن، ثم الإيمان بمقصود ذلك وغايته وهو ما ينتهي الأمر إليه من النعيم والعذاب ، وهو الجزاء، ثم معرفة طريق المقصود وسببه، وهو الأعمال؛ خيرها ليفعل، وشرها ليترك.

ثم ختم المصحف بحقيقة الإيمان ، وهو ذكر الله ودعاؤه ، كما بنيت عليه أم القرآن ، فإن حقيقة الإنسان المعنوية: هو المنطق. والمنطق قسمان : خبر وإنشاء، وأفضل الخبر وأنفعه وأوجبه ما كان خبرا عن الله كنصف الفاتحة وسورة الإخلاص ، وأفضل الإنشاء -الذي هو الطلب- وأنفعه وأوجبه ما كان طلبا من الله كالنصف الثاني من الفاتحة والمعوذتين"أ.هـ[3].

---

(١) يشير إلى حديث بدء الوحي وسيأتي في تفسير سورة العلق، أخرجه البخاري كتاب بدء الوحي باب كيف كان بدء الوحي إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم (٣)، ومسلم كتاب الإيمان باب بدء الوحي إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم (١٦٠).

(٢) يشير إلى حديث (قسمت الصلاة بيني وبين عبدي نصفين ولعبدي ما سأل) أخرجه مسلم كتاب الصلاة باب وجوب قراءة الفاتحة في كل ركعة (٣٩٥).

(٣) مجموع الفتاوى ١٦/٤٧٧.

تفسير سورة الضحى

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿ وَالضُّحَى ﴿١﴾ وَاللَّيْلِ إِذَا سَجَى ﴿٢﴾ مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَى ﴿٣﴾ وَلَلْآخِرَةُ خَيْرٌ لَكَ مِنَ الْأُولَى ﴿٤﴾ وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَى ﴿٥﴾ أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيمًا فَآوَى ﴿٦﴾ وَوَجَدَكَ ضَالًّا فَهَدَى ﴿٧﴾ وَوَجَدَكَ عَائِلًا فَأَغْنَى ﴿٨﴾ فَأَمَّا الْيَتِيمَ فَلَا تَقْهَرْ ﴿٩﴾ وَأَمَّا السَّائِلَ فَلَا تَنْهَرْ ﴿١٠﴾ وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ ﴿١١﴾ ﴾

المبحث الأول

مقدمات حول السورة

أولاً: نزولها ومناسبتها:

هي مكية باتفاق[(١)]، وهي أول سورة في قصار المفصل.

أما عدد آياتها: (١١)، وكلماتها: (٤٠)، وحروفها: (١٧٢)[(٢)].

وورد في **سبب نزولها:** عن جندب بن سفيان رضى الله عنه قال اشتكى رسول الله صلى الله عليه وسلم فلم يقم ليلتين أو ثلاثا ، فجاءت امرأة فقالت يا محمد إني لأرجو أن يكون شيطانك قد تركك، لم أره قربك منذ ليلتين أو ثلاثا. فأنزل الله عز وجل ﴿ وَالضُّحَى ﴿١﴾ وَاللَّيْلِ إِذَا سَجَى ﴿٢﴾ مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَى ﴿٣﴾ ﴾[(٣)].

مناسبتها لما قبلها:

"أقسم سبحانه في سورة « الليل » ، بالليل إذا يغشى ، وبالنهار إذا تجلى ..

وبدأ بالقسم بالليل ، ثم أعقبه بالقسم بالنهار ..

وهنا يقسم اللّه سبحانه بالنهار أولا « و الضحى » ثم بالليل ثانيا .. « و لليل إذا سجى » وبهذا يتوازن الليل والنهار ، فيقدّم أحدهما في موضع ويقدم الآخر في موضع ، ولكل من التقديم والتأخير في الموضعين مناسبته .. وقد أشار قبل إلى تقديم الليل على النهار في سورة الليل ، وهنا كانت المناسبة تقديم النهار على الليل"[(٤)].

---

(١) الجامع لأحكام القرآن ٩١/٢٠، المحرر والوجيز٤٨٦/١٥، ولم يذكرها صاحب الإتقان في السور المختلف فيها، الإتقان ٣٠/١.

(٢) التفسير القرآني للقرآن ٧٣/٣.

(٣) أخرجه البخاري كتاب التفسير باب تفسير سورة الضحى(٤٩٥٠)، ومسلم كتاب الجهاد والسير باب ما لقي النبي صلى الله عليه وسلم من أذي المشركين والمنافقين (١٧٩٧).

(٤) التفسير القرآني للقرآن ٧٣/٣. بتصرف .

ثانياً: موضوعها :

"إبطال قول المشركين إذ زعموا أن ما يأتي من الوحي للنبي صلى الله عليه و سلم قد انقطع عنه، وزاده بشارة بأن الآخرة خير له من الأولى على معنيين في الآخرة والأولى. وأنه سيعطيه ربه ما فيه رضاه وذلك يغيظ المشركين.

ثم ذَكَّره الله بما حفه به من ألطافه وعنايته في صباه وفي فتوته وفي وقت اكتهاله، وأمره بالشكر على تلك النعم بما يناسبها مع نفع لعبيده وثناء على الله بما هو أهله"[1].

فهذه السورة فيها عدة أمور:

قسم:بـــ﴿ وَٱلضُّحَىٰ ۝١ وَٱلَّيۡلِ إِذَا سَجَىٰ ﴾

وتوضيح : أنه ﴿ مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَىٰ ﴾

وبشرى : بأنه ﴿ وَلَلۡأٓخِرَةُ خَيۡرٞ لَّكَ مِنَ ٱلۡأُولَىٰ ﴾

ووعد : بأنه ﴿ وَلَسَوۡفَ يُعۡطِيكَ رَبُّكَ فَتَرۡضَىٰٓ ﴾

وامتنان:﴿ أَلَمۡ يَجِدۡكَ يَتِيمٗا فَـَٔاوَىٰ ۝٦ وَوَجَدَكَ ضَآلّٗا فَهَدَىٰ ۝٧ وَوَجَدَكَ عَآئِلٗا فَأَغۡنَىٰ ﴾

ووصية :﴿ فَأَمَّا ٱلۡيَتِيمَ فَلَا تَقۡهَرۡ ۝٩ وَأَمَّا ٱلسَّآئِلَ فَلَا تَنۡهَرۡ ۝١٠ وَأَمَّا بِنِعۡمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثۡ ۝١١ ﴾

ثالثاً: المعنى الإجمالي للسورة:

أقسم الله تعالى بوقت الضحى، والمراد به النهار كله، وبالليل إذا سكن بالخلق واشتد ظلامه. ثم بين الله تعالى لنبيه أنه ما تركه، وما أبغضه بإبطاء الوحي عنه، ثم بشره بأن الدَّار الآخرة خير من دار الدنيا، وأن الله سيعطيه من أنواع الإنعام في الآخرة، ما يرضيه بذلك.

ثم امتن الله عليه بعدد من المنن أولها: ألم يَجِدْك من قبلُ يتيمًا، فآواك ورعاك؟ ووجدك لا تدري ما الكتاب ولا الإيمان، فعلَّمك ما لم تكن تعلم، ووفقك لأحسن الأعمال؟ ووجدك فقيرًا، فساق لك رزقك، وأغنى نفسك بالقناعة والصبر؟

وبعد ذلك أوصاه ثلاثة وصايا وهي: فأما اليتيم فلا تُسِئْ معاملته، وأما السائل فلا تزجره، بل أطعمه، واقض حاجته، وأما بنعمة ربك التي أسبغها عليك فتحدث بها[2].

---

(١) التحرير والتنوير ٣٩٣/٣٠.

(٢) التفسير الميسر باختصار وتصرف ص٥٩٦.

المبحث الثاني

وقفات حول السورة

المطلب الأول

وقفات مع المقسم به والمقسم عليه

أولاً: المقسم به : ﴿وَٱلضُّحَىٰ ۝١ وَٱلَّيۡلِ إِذَا سَجَىٰ﴾

﴿وَٱلضُّحَىٰ﴾ أي: سطوع الضوء وعظمه[1]،"ومناسبة القسم بـــ ﴿وَٱلضُّحَىٰ﴾ أن الضحى وقت انبثاق نور الشمس فهو إيماء إلى تمثيل نزول الوحي وحصول الاهتداء به، ﴿وَٱلَّيۡلِ إِذَا سَجَىٰ﴾: سكن واستقر ليلاً تاماً"[2].

"لقد أطلق التعبير جواً من الحنان اللطيف، والرحمة الوديعة، والرضا الشامل، والشجى الشفيف ذلك الحنان. وتلك الرحمة. وذاك الرضى. وهذا الشجى: تنسرب كلها من خلال النظم اللطيف العبارة، الرقيق اللفظ.

وقد جعل الله تعالى الإطار من الضحى الرائق، ومن الليل الساجي. أصفى آنين من آونة الليل والنهار. وأشف آنين تسري فيهما التأملات، وتتصل فيها الروح بالخالق. وتحس بعبادة الكون كله لمبدعه، وتوجهه لبارئه بالتسبيح والفرح والصفاء. وصوّرهما في اللفظ المناسب. فالليل هو ﴿وَٱلَّيۡلِ إِذَا سَجَىٰ﴾، لا الليل على إطلاقه بوحشته وظلامه. الليل الساجي الذي يَرِّقُ ويسكن ويصفو، وتغشاه سحابة رقيقة من الشجى الشفيف، والتأمل الوديع، كجو اليتم والعيلة، ثم ينكشف ويجلى مع الضحى الرائق الصافي .. فتلتئم ألوان الصورة مع ألوان الإطار، ويتم التناسق والاتساق.

إن هذا الإبداع في كمال ليدل على الصنعة- صنعة الله التي لا تماثلها صنعة، ولا يتلبس بها تقليد!"[3].

ثانياً: المقسم عليه ﴿مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَىٰ﴾ :

إن جواب القسم هو قوله تعالى: ﴿مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ﴾ "أي: ما تركك منذ اعتنى بك، ولا أهملك منذ رباك ورعاك، بل لم يزل يربيك أحسن تربية، ويعليك درجة بعد درجة"[4].

أما قوله: ﴿وَمَا قَلَىٰ﴾ أي: وما أبغضك[5].

---

(١) التحرير والتنوير٣٠/٣٩٤.

(٢) المحرر الوجيز ١٥/٤٨٦.

(٣) في ظلال القرآن ٦/٣٩٢٦ بتصرف .

(٤) تيسير الكريم الرحمن ٩٢٨.

(٥) تفسير القرآن العظيم ٨/٤٢٥.

"إن الوحي ولقاء جبريل والاتصال بالله، كانت هي: زاد الرسول صلى الله عليه وسلم في مشقة الطريق، وسقياه في هجير الجحود، وروْحه في لأواء التكذيب، وكان صلى الله عليه وسلم يحيا بها في هذه الهاجرة المحرقة التي يعانيها في النفوس النافرة الشاردة العصية العنيدة، ويعانيها في المكر والكيد والأذى المصبوب على الدعوة ؛ على الإيمان ، وعلى الهدى من طغاة المشركين .

فلما فتر الوحي انقطع عنه الزاد، وانحبس عنه الينبوع، واستوحش قلبه من الحبيب، وبقي للهاجرة وحده بغير ما اعتاد من صلة الحبيب الودود، وهو أمر أشد من الاحتمال من جميع الوجوه ، وخصوصاً أنه في بداية أمر الدعوة"[(١)].

ثالثاً: الحكمة من فتور الوحي:

تحدث علماء السيرة قديمًا وحديثًا عن فترة الوحي، فقال ابن حجر: "وفتور الوحي عبارة عن تأخيره مدة من الزمان، وكان ذلك لِيُذْهِبَ ما كان صلى الله عليه وسلم وجده من الروع، وليحصل له التشوق إلى العود[(٢)].

فعن جابر بن عبد الله الأنصاري رضي الله عنهما قال وهو يحدث- أي بحديث النبي صلى الله عليه وسلم- عن فترة الوحي: (بينا أنا أمشي إذ سمعت صوتاً من السماء فرفعت بصري، فإذا الملك الذي جاءني بحراء جالس على كرسي بين السماء والأرض، فرعبت منه، فرجعت فقلت: زملوني فأنزل الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡمُدَّثِّرُ ۝١ قُمۡ فَأَنذِرۡ ۝٢ وَرَبَّكَ فَكَبِّرۡ ۝٣ وَثِيَابَكَ فَطَهِّرۡ ۝٤ وَٱلرُّجۡزَ فَٱهۡجُرۡ ۝٥﴾ [المدثر:١-٥] فحمى الوحي وتتابع)[(٣)].

قال المباركفوري: أما مدة فترة الوحي فاختلفوا فيها على عدة أقوال، والصحيح أنها كانت أيامًا، وقد روى ابن سعد عن ابن عباس رضي الله عنهما ما يفيد ذلك[(٤)]، وأما ما اشتهر من أنها دامت ثلاث سنين أو سنتين ونصف فليس بصحيح[(٥)]، وقد بقي صلى الله عليه وسلم في فترة الانقطاع حزينًا كئيباً تعتريه الحيرة والدهشة[(٦)]، وأما ما يقال أن ذلك جعله يغدو ليتردى من شواهق الجبال، وأن جبريل عليه السلام كان يظهر له في كل مرة ويبشره بأنه رسول الله فمرسل ضعيف، كما أنه يتنافى مع عصمة النبي صلى الله عليه وسلم"[(٧)].

---

(١) في ظلال القرآن ٣٩٢٥/٦

(٢) فتح الباري ٣٦/١.

(٣) أخرجه البخاري،كتاب بدء الوحي باب٣ح(٤). ومسلم كتاب الإيمان باب بدء الوحي(١٦١).

(٤) أخرجه الطبري ٤٨٦/٢٤ بلفظ (أبطأ عنه جبريل أياما) ...

(٥) وانظر: فتح الباري ٧١٠/٨.

(٦) الرحيق المختوم ص٧٩-٨٠.

(٧) الروض الأنف للسهيلي ٤٣٣/٢-٤٣٤.

المطلب الثاني

بشرى ووعد من الله لنبيه محمد صلى الله عليه وسلم

قال تعالى: ﴿وَلَلْآخِرَةُ خَيْرٌ لَّكَ مِنَ الْأُولَىٰ ﴿٤﴾ وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ ﴿٥﴾﴾

أما البشري: ﴿وَلَلْآخِرَةُ خَيْرٌ لَّكَ مِنَ الْأُولَىٰ﴾ أي: "كل حالة متأخرة من أحوالك، فإن لها الفضل على الحالة السابقة"[(١)].

والمراد أن " الدار الآخرة: خير لك من هذه الدار. ولهذا كان رسول الله صلى الله عليه وسلم أزهد الناس في الدنيا، وأعظمهم لها إطراحًا، كما هو معلوم من سيرته. ولما خُيِّرَ عليه السلام في آخر عمره بين الخلد في الدنيا إلى آخرها ثم الجنة، وبين الصيرورة إلى الله عز وجل، اختار ما عند الله على هذه الدنيا الدنية"[(٢)].

فعن أبي سعيد الخدري رضى الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم جلس على المنبر فقال: (إن عبدا خيره الله بين أن يؤتيه من زهرة الدنيا ما شاء، وبين ما عنده، فاختار ما عنده)، فبكى أبو بكر رضي الله عنه وقال: فديناك بآبائنا وأمهاتنا. فعجبنا له!! وقال الناس انظروا إلى هذا الشيخ، يخبر رسول الله صلى الله عليه وسلم عن عبد خيره الله بين أن يؤتيه من زهرة الدنيا وبين ما عنده وهو يقول فديناك بآبائنا وأمهاتنا. فكان رسول الله صلى الله عليه وسلم هو المخير، وكان أبو بكر هو أعلمنا به[(٣)].

وأما الوعد: ﴿وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَىٰ﴾ أي: "لا تَسْأَل عن حاله في الآخرة من تفاصيل الإكرام وأنواع الإنعام. فهذا أمر لا يمكن التعبير عنه بغير هذه العبارة الجامعة الشاملة"[(٤)].

ويشمل أيضاً: "أن يعطيه في الدار الآخرة حتى يرضيه في أمته، وفيما أعدَّه له من الكرامة، ومن جملته نهر الكوثر. وقيل: من رضاء محمد صلى الله عليه وسلم ألا يدخل أحد من أهل بيته الذين ماتوا على سنته وهديه النار، وقيل معنى العطاء: الشفاعة"[(٥)] .

---

(١) تيسير الكريم الرحمن ٩٢٨.

(٢) تيسير الكريم الرحمن ٩٢٨.

(٣) أخرجه البخاري كتاب مناقب الأنصار باب هجرة النبي صلى الله عليه وسلم وأصحابه إلى المدينة(٣٩٠٤)، ومسلم كتاب فضائل الصحابة باب فضائل أبي بكر الصديق ٢٣٨٢.

(٤) تيسير الكريم الرحمن ٩٢٨.

(٥) انظر هذه الأقوال في تفسير القرآن العظيم ٤٢٦/٨ بتصرف واختصار .

المطلب الثالث

صور رحمة الله تعالى ورعايته لنبيه صلى الله عليه وسلم

قال تعالى: ﴿ أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيمًا فَآوَىٰ ﴿٦﴾ وَوَجَدَكَ ضَالًّا فَهَدَىٰ ﴿٧﴾ وَوَجَدَكَ عَائِلًا فَأَغْنَىٰ ﴾

يمضي سياق السورة يُذَكِّر الرسول صلى الله عليه وسلم ما كان من شأن ربه معه منذ أول الطريق. ليستحضر في خاطره جميل صنع ربه به، ومودته له، وفيضه عليه، ويستمتع باستعادة مواقع الرحمة والود والإيناس الإلهي وذلك من خلال الصور التالية:

الصورة الأولى : ﴿ أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيمًا فَآوَىٰ ﴾

"وذلك أن أباه تُوفّي وهو حَملٌ في بطن أمه، وقيل: بعد أن ولد عليه السلام، ثم توفيت أمه آمنة بنت وهب وله من العمر ست سنين. ثم كان في كفالة جده عبد المطلب، إلى أن توفي وله من العمر ثمان سنين، فكفله عمه أبو طالب. ثم لم يزل يحوطه وينصره ويَرفع من قَدره وَيُوقّره، ويكفّ عنه أذى قومه بعد أن ابتعثه الله على رأس أربعين سنة من عمره، هذا وأبو طالب على دين قومه من عبادة الأوثان، وكل ذلك بقدر الله وحُسن تدبيره، إلى أن تُوفي أبو طالب قبل الهجرة بقليل، فأقدم عليه سفهاء قريش وجُهَّالهم، فاختار الله له الهجرة من بين أظهرهم إلى بلد الأنصار من الأوس والخزرج، كما أجرى الله سُنَّته على الوجه الأتم والأكمل. فلما وصل إليهم آوَوه ونَصَرُوه وأحاطوه وقاتلوا بين يديه رضي الله عنهم أجمعين، وكل هذا من حفظ الله له وكلاءته وعنايته به"[١].

الصورة الثانية : ﴿ وَوَجَدَكَ ضَالًّا فَهَدَىٰ ﴾

قال ابن كثير: "هذا مثل قوله تعالى: ﴿ وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا ۚ مَا كُنتَ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ وَلَا الْإِيمَانُ وَلَٰكِن جَعَلْنَاهُ نُورًا نَّهْدِي بِهِ مَن نَّشَاءُ مِنْ عِبَادِنَا ۚ وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٥٢﴾ صِرَاطِ اللَّهِ الَّذِي لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ ﴾[الشورى: ٥٢– ٥٣].

أي: وجدك لا تدري ما الكتاب ولا الإيمان، فعلمك ما لم تكن تعلم، ووفقك لأحسن الأعمال والأخلاق"[٢].

"ولقد نشأت في جاهلية مضطربة التصورات والعقائد، منحرفة السلوك والأوضاع، فلم تطمئن روحك إليها، ولكنك لم تكن تجد لك طريقاً واضحاً مطمئناً، لا فيما عند الجاهلية ولا فيما عند أتباع

---

(١) تفسير القرآن العظيم ٤٢٦/٨.

(٢) تيسير الكريم الرحمن ٩٢٨.

موسى وعيسى عليهما السلام الذين حرفوا وبدلوا وانحرفوا وتاهوا، ثم هداك الله بالأمر الذي أوحى به إليك، وبالمنهج الذي يصلك به.

والهداية من حيرة العقيدة وضلال الشِعاب فيها هي: المنة الكبرى، التي لا تعدلها منة؛ وهي الراحة والطمأنينة من القلق الذي لا يعدله قلق؛ ومن التعب الذي لا يعدله تعب، ولعلها كانت بسبب مما كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يعانيه في هذه الفترة، من انقطاع الوحي وشماتة المشركين ووحشة الحبيب من الحبيب. فجاءت هذه الآيات تُذَكِّره وتطمئنه على أن ربه لن يتركه بلا وحي في التيه وهو لم يتركه من قبل في الحيرة والتيه!"[1].

قال شيخ الإسلام رحمه الله: "فإن الله سبحانه وتعالى هدى نبيه بما أوحاه إليه وعلمه ما لم يكن يعلم وأمره بسؤال الزيادة من العلم بقوله: ﴿ رَّبِّ زِدۡنِي عِلۡمٗا ﴾ [طه: ١١٤] وهذا يقتضي أنه كان عالما، وأنه أُمِرَ بطلب المزيد من العلم، ولذلك أُمِرَ هو والمؤمنون بطلب الهداية في قوله: ﴿ ٱهۡدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلۡمُسۡتَقِيمَ ٦ ﴾ [الفاتحة: ٦]،وقد قال تعالى: ﴿ وَإِنَّكَ لَتَهۡدِيٓ إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ ﴾ [الشورى: ٥٢]، فمن يهدي الخلق كيف يكون حائراً والله قد ذم الحيرة في القرآن في قوله: ﴿ قُلۡ أَنَدۡعُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُنَا وَلَا يَضُرُّنَا وَنُرَدُّ عَلَىٰٓ أَعۡقَابِنَا بَعۡدَ إِذۡ هَدَىٰنَا ٱللَّهُ كَٱلَّذِي ٱسۡتَهۡوَتۡهُ ٱلشَّيَٰطِينُ فِي ٱلۡأَرۡضِ ﴾ [الأنعام: ٧١].

وفي الجملة فالحيرة من جنس الجهل والضلال **ومحمد صلى الله عليه وسلم أكمل الخلق علما بالله وبأمره، وأكمل الخلق اهتداء في نفسه، وأهدى لغيره، وأبعد الخلق عن الضلال والجهل** قال تعالى: ﴿ وَٱلنَّجۡمِ إِذَا هَوَىٰ ١ مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمۡ وَمَا غَوَىٰ ٢ وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلۡهَوَىٰٓ ٣ إِنۡ هُوَ إِلَّا وَحۡيٞ يُوحَىٰ ٤ ﴾[النجم: ١ – ٤]"[2].

الصورة الثالثة: ﴿ وَوَجَدَكَ عَآئِلٗا فَأَغۡنَىٰ ﴾ العائل: "الذي لا مال له﴿ فَأَغۡنَىٰ ﴾ أي: "بما فتح الله عليك من البلدان، التي جُبِيَتْ لك أموالها وخراجها"[3].

وقيل: أي "فأغناك بخديجة رضي الله عنها. وقيل: فرضاك بما أعطاك من الرزق ، وقيل: قنعك بالرزق، وقيل: ووجدك فقير النفس، فأغنى قلبك، وقيل: وجدك فقيراً من الحجج والبراهين، فأغناك بها"[4].

---

(١) في ظلال القرآن ٣٩٢٧/٦

(٢) الفتاوى الكبرى ٥٧/٥.

(٣) تيسير الكريم الرحمن ٩٢٨ باختصار..

(٤) الجامع لأحكام القرآن ٩٩/٢٠–١٠٠مختصراً.

ويدخل في ذلك نشأته صلى الله عليه وسلم في مكة في قبيلة قريش التي كانت تتاجر في الشتاء والصيف، وكانت مشهورة بذلك، وكانت قائمة على أمور الحج، وهذا أعطاها مركزاً تجارياً عظيماً في المنطقة، بينما هي في مكان يصعب العيش فيه، كما في قوله تعالى حكاية عن دعاء إبراهيم عليه السلام: ﴿رَّبَّنَآ إِنِّيٓ أَسۡكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيۡرِ ذِي زَرۡعٍ عِندَ بَيۡتِكَ ٱلۡمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ فَٱجۡعَلۡ أَفۡـِٔدَةٗ مِّنَ ٱلنَّاسِ تَهۡوِيٓ إِلَيۡهِمۡ وَٱرۡزُقۡهُم مِّنَ ٱلثَّمَرَٰتِ لَعَلَّهُمۡ يَشۡكُرُونَ ﴿٣٧﴾﴾ [إبراهيم: ٣٧].

فإبراهيم عليه السلام دعا لهذه المنطقة أن تكون منطقة مليئة بالثمرات فاستجاب الله دعاء إبراهيم عليه السلام فقال تعالى ممتناً عليهم: ﴿وَقَالُوٓاْ إِن نَّتَّبِعِ ٱلۡهُدَىٰ مَعَكَ نُتَخَطَّفۡ مِنۡ أَرۡضِنَآۚ أَوَلَمۡ نُمَكِّن لَّهُمۡ حَرَمًا ءَامِنٗا يُجۡبَىٰٓ إِلَيۡهِ ثَمَرَٰتُ كُلِّ شَيۡءٖ رِّزۡقٗا مِّن لَّدُنَّا وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَهُمۡ لَا يَعۡلَمُونَ ﴿٥٧﴾﴾[القصص: ٥٧].

وقال تعالى: ﴿لِإِيلَٰفِ قُرَيۡشٍ ﴿١﴾ إِۦلَٰفِهِمۡ رِحۡلَةَ ٱلشِّتَآءِ وَٱلصَّيۡفِ ﴿٢﴾ فَلۡيَعۡبُدُواْ رَبَّ هَٰذَا ٱلۡبَيۡتِ ﴿٣﴾ ٱلَّذِيٓ أَطۡعَمَهُم مِّن جُوعٖ وَءَامَنَهُم مِّنۡ خَوۡفِۭ ﴿٤﴾﴾.

فنشأة النبي صلى الله عليه وسلم في هذه المنطقة الفقيرة الخالية من الثمرات، ثم بتيسير الله وفضل من الله أصبحت هذه المنطقة من أغنى المناطق وأوفرها رزقاً، كل ذلك فضل من الله على نبيه محمد صلى الله عليه وسلم.

ثم لما هاجر إلى المدينة المنورة لم تكن أقل من مكة في التجارة والخير بل كانت مركزاً تجارياً، وبه مجموعة كبيرة من التجارات كما في مكة.

وكذلك أنعم الله عليه بالغنى بالأولاد والذرية، والصحة والأخلاق الرفيعة، والسُمعة الحسنة والجاه الرفيع، وهذه المعاني كلها داخلة في الآية ولا شك، لكنها على سبيل المثال لا الحصر. فهذه دعوة الله تعالى ييسر لها السبل والطرق والأشخاص والغنى بجميع أشكاله؛ غنى في الرزق، وفي النفس، وفي الأسرة وفي الصحة، والعافية، وفي الأخلاق الكريمة.

وهذا كله لكي نقوم بالدعوة إلى الله حق القيام، فما على الدعاة إلا استغلال هذا الغنى المتاح، وألاّ ينظروا إلى العقبات والمشكلات؛ بل ينظروا إلى الحلول والإمكانات المتاحة.

المطلب الرابع

واجب النبي صلى الله عليه وسلم تجاه هذه النعم

قال تعالى: ﴿فَأَمَّا ٱلْيَتِيمَ فَلَا تَقْهَرْ ﴿٩﴾ وَأَمَّا ٱلسَّآئِلَ فَلَا تَنْهَرْ ﴿١٠﴾ وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ ﴿١١﴾﴾.

هذه ثلاث واجبات مقابل النعم الثلاث، فالذي أزال عنك هذه النقائص، سيزيل عنك كل نقص، والذي أوصلك إلى الغنى، وآواك ونصرك وهداك، قابل نعمته بالشكران بفعل الواجبات الثلاث:

الواجب الأول: ﴿فَأَمَّا ٱلْيَتِيمَ فَلَا تَقْهَرْ﴾: وهذا يقابل نعمته في قوله: ﴿أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيمًا فَـَٔاوَىٰ﴾ "أي: كما كنت يتيمًا فآواك الله؛ فلا تقهر اليتيم، أي: لا تذله وتنهره وتُهِنْهُ، ولكن أحسنْ إليه، وتلطف به. وقيل: كن لليتيم كالأب الرحيم"[(١)]، "ولا تسيء معاملة اليتيم، ولا يضق صدرك عليه، ولا تنهره. بل أكرمه، وأعطه ما تيسر، واصنع به كما تحب أن يصنع بولدك من بعدك"[(٢)].

وعن أبي هريرة رضي الله عنه: أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: (أنا وكافل اليتيم له أو لغيره كهاتين). وأشار بالسبابة والوسطى[(٣)].

الواجب الثاني: ﴿وَأَمَّا ٱلسَّآئِلَ فَلَا تَنْهَرْ﴾: وهذا يقابل نعمته في قوله تعالى: ﴿وَوَجَدَكَ ضَآلًّا فَهَدَىٰ ﴿٧﴾ وَوَجَدَكَ عَآئِلًا فَأَغْنَىٰ﴾ أي: "وكما كنت ضالاً فهداك الله، فلا تنهر السائل في العلم المسترشد. وقيل: فلا تكن جبارًا، ولا متكبرًا، ولا فَحَّاشاً، ولا فَظًّا على الضعفاء من عباد الله. وقيل: يعني رَدَّ المسكين برحمة ولين"[(٤)].

"وهذا يدخل فيه السائل للمال، والسائل للعلم، ولهذا كان المعلم مأمورًا بحسن الخلق مع المتعلم، ومباشرته بالإكرام والتحنن عليه، فإن في ذلك معونة له على مقصده، وإكرامًا لمن كان يسعى في نفع العباد والبلاد"[(٥)].

وقد كان رسول الله صلى الله عليه وسلم كذلك: فعن معاوية بن الحكم السلمي رضي الله عنه قال: بينا أنا أصلى مع رسول الله صلى الله عليه وسلم إذ عطس رجل من القوم فقلت: يرحمك الله. فرماني القوم بأبصارهم. فقلت: واثكل أمِّياه!! ما شأنكم تنظرون إلي. فجعلوا يضربون بأيديهم على أفخاذهم،

---

(١) تفسير القرآن العظيم ٨/٤٢٧.

(٢) تيسير الكريم الرحمن ٩٢٨.

(٣) أخرجه مسلم كتاب الزهد والرقائق باب الإحسان إلى الأرملة واليتيم والمسكين (٢٩٨٣).

(٤) تفسير القرآن العظيم ٨/٤٢٧.

(٥) تيسير الكريم الرحمن ٩٢٨.

فلما رأيتهم يصمتونني لكني سكت، فلما صلى رسول الله صلى الله عليه وسلم؛ **فبأبي هو وأمي ما رأيت معلماً قبله ولا بعده أحسن تعليماً منه فوالله ما كهرني ولا ضربني ولا شتمني،** قال: (إن هذه الصلاة لا يصلح فيها شيء من كلام الناس، إنما هو التسبيح والتكبير وقراءة القرآن)[1].

وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم يوصي بطلاب العلم: (سيأتيكم أقوام يطلبون العلم، فإذا رأيتموهم فقولوا لهم: مرحباً بوصية رسول الله صلى الله عليه وسلم، وأقنوهم[2])[3].

وعن صفوان بن عسال المرادي رضي الله عنه قال: أتيت رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو متكئ في المسجد على برد له، فقلت له: يا رسول الله إني جئت أطلب العلم. فقال: مرحبا بطالب العلم، إن طالب العلم لتحفة الملائكة وتظله بأجنحتها ثم يركب بعضه بعضا حتى يبلغوا السماء الدنيا من حبهم لما يطلب فما جئت تطلب؟ قال صفوان: يا رسول الله لا نزال نسافر بين مكة والمدينة فأفتنا عن المسح على الخفين؟ فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم:(ثلاثة أيام للمسافر ويوم وليلة للمقيم)[4].

وعن أبي سعيد الخدري ﷺ قال: إن النبي ﷺ قال: (يأتيكم رجال من قبل المشرق يتعلمون ، فإذا جاءوكم فاستوصوا بهم خيراً)، قال الراوي: وكان أبو سعيد إذا رآنا قال: (مرحباً بوصية رسول الله ﷺ) وفي لفظ: قال الراوي – وهو أبو هارون العبدي –: (كنا نأتي أبا سعيد فيقول: مرحباً بوصية رسول الله ﷺ، إن رسول الله ﷺ قال: إن الناس لكم تبع، وإن رجالاً يأتونكم من أقطار الأرض يتفقهون في الدين، فإذا أتوكم فاستوصوا بهم خيراً)[5].

هذا في مجال السؤال والتعليم أما في مجال المعاملات فحدث ولا حرج، فعن أنس بن مالك رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال لعائشة رضي الله عنها: (يا عائشة لا تردى المسكين ولو بشق تمرة، يا عائشة أحبي المساكين وقربيهم فإن الله يقربك يوم القيامة)[6].

---

(١) أخرجه مسلم كتاب المساجد باب تحريم الكلام في الصلاة ونسخ ما كان من إباحته (٥٣٧) مطولاً .

(٢) أقنوهم : أي علموهم، انظر : تحفة الأحوذي ٣٤٣/٧، وقال السيوطي: أي علموهم واجعلوا لهم قنية من العلم يستغنون بها إذا احتاجوا إليه كذا في المجمع القنية بالكسر والضم ما اكتسبه وخزنه لحاجته، انظر شرح سنن ابن ماجة :٢٢/١.

(٣) أخرجه ابن ماجة باب الوصية بطلبة العلم (٢٤٧) وحسنه الألباني انظر الصحيحة ٢٨٠ وصحيح سنن ابن ماجة (٢٠١).

(٤) أخرجه الطبراني في المعجم الكبير ٥٤/٨ ح(٧٣٤٧) وحسنه في صحيح الترغيب والترهيب (٧١). وانظر الصحيحة (٣٣٩٧).

(٥) أخرجه ابن حبان ٦٩/١٥ (٦٦٧٧) قال شعيب الأرناؤو ط: رجاله ثقات رجال الصحيحين إلا أنه مرسل، وحلية الأولياء ٢٥٣/٩.

(٦) أخرجه الترمذي كتاب الزهد باب ما جاء أن فقراء المهاجرين يدخلون الجنة قبل أغنيائهم (٢٥٢٦)، قال الألباني: حسن لغيره، انظر: صحيح وضعيف الترغيب والترهيب برقم (٣١٩٢).

الواجب الثالث: ﴿ وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ ﴿١١﴾ ﴾ وهذا يقابل نعمته في قوله تعالى: ﴿ وَوَجَدَكَ ضَآلًّا فَهَدَىٰ ﴿٧﴾ وَوَجَدَكَ عَآئِلًا فَأَغْنَىٰ ﴾ أي: "أثن على الله بها، وخصِّصْها بالذكر إن كان هناك مصلحة. وإلا فحدث بنعم الله على الإطلاق، فإن التحدث بنعمة الله، داع لشكرها، وموجب لتحبيب القلوب إلى من أنعم بها، فإن القلوب مجبولة على محبة المحسن"(١).

وقيل: "أي أنشر ما أنعم الله عليك بالشكر والثناء. والخطاب للنبي صلى الله عليه وسلم، والحكم عام له ولغيره"(٢).

وعن الحسن بن علي رضي الله عنهما قال: "إذا أصبت خيرا، أو عملت خيرا، فحدث به الثقة من إخوانك"(٣).

وقال الحسن البصري: "أكثروا من ذكر هذه النعم، فإن ذكرها شكر"(٤)، "وقد أمر الله تعالى نبيه أن يحدث بنعمة ربه، والله تعالى يحب من عبده أن يرى عليه أثر نعمته، فإن ذلك شكرها بلسان الحال"(٥).

قال ابن القيم: "وفي هذا التحديث المأمور به قولان، أحدهما: أنه ذكر النعمة والإخبار بها؛ وقوله: أنعم الله عليَّ بكذا وكذا، قال مقاتل: يعني اشكر ما ذكر من النعم عليك في هذه السورة: من جبر اليتيم والهدى بعد الضلال والإغناء بعد العيلة، والتحدث بنعمة الله شكر كما في حديث جابر مرفوعا: (من صنع إليه معروف فليجز به فإن لم يجد ما يجزي به فليثن فإنه إذا أثنى عليه فقد شكره وإن كتمه فقد كفره)(٦)... والقول الثاني: أن التحدث بالنعمة المأمور به في هذه الآية: هو الدعوة إلى الله وتبليغ رسالته وتعليم الأمة"(٧).

قال ابن عثيمين: "لكن تحدث بها إظهاراً للنعمة وشكراً للمنعم، لا افتخاراً بها على الخلق؛ لأنك إذا فعلت ذلك افتخاراً على الخلق كان هذا مذموماً. أما إذا قلت أو إذا ذكرت نعمة الله عليك تحدثاً بالنعم، وشكراً للمنعم فهذا مما أمر الله به"(٨).

---

(١) تيسير الكريم الرحمن ٩٢٨.

(٢) الجامع لأحكام القرآن٢٠/١٠٢.

(٣) أخرجه ابن أبي حاتم في تفسيره ١٢/٤٢٤ من طريقين ، و الطيوريات ٥/٩٠ (٤٣٤)، وانظر الدر المنثو ر ٨/٥٤٥، وذكره الرازي في تفسيره: ٣١/٢٢١ ثم قال: "إلا أن هذا إنما يحسن إذا لم يتضمن رياء، وظن أن غيره يقتدي به".

(٤) أخرجه البيهقي في شعب الإيمان ٤/١٠٢ (٤٤٢١) ، وابن المبارك في الزهد ٥٠٣ (١٤٣٤) ، وابن أبي الدنيا في الشكر ٢١ (٣٣) ، وذكر السيوطي آثاراً بمعناه أيضا في الدر المنثور ٨/٥٤٥-٥٤٧.

(٥) عدة الصابرين ٩٨.

(٦) صحيح الأدب المفرد باب من صنع إليه معروف فليكافئه ح(٢١٥).

(٧) مدارج السالكين٢/٢٤٨.

(٨) تفسير جزء النبأ لابن عثيمين (٢٤٤).

ويمكن أن يستنبط من هذه الآية جواز إخبار الرجل عن جوانب الخير في نفسه إن لم يكن فخرًا أو كبرًا والتحدث بنعمة الله تعالى التي مَنَّ بها على العبد، فلقد أكرم الله تعالى كعب بن مالك وصاحبيه رضي الله عنهم بالتوبة عند تخلفهم عن غزوة تبوك[1].

فإخبار كعب رضي الله عنه عن هذه التوبة وإتمام نعمة الله عليهم فرحةً وتحدثًا بنعمة الله، كل هذا جائز، وإن كانت تزكية النفس منهيًا عنها فإنها في هذا الموطن جائزة.

وتجوز حين يريد الرجل أن يلفت النظر إلى نِعَمِ الله التي أنعم بها عليه ليستفيد منه الآخرون، فلقد قال يوسف عليه السلام عن نفسه أنه ﴿ حَفِيظٌ عَلِيمٌ ﴾ يذكر بذلك نعمة الله عليه بالعلم والحفظ، ولكي يستغل هذه النعمة، ويشترك بها في خدمة مجتمعه وأمته: ﴿ قَالَ ٱجْعَلْنِي عَلَىٰ خَزَآئِنِ ٱلْأَرْضِ إِنِّي حَفِيظٌ عَلِيمٌ ۝٥٥ ﴾ [يوسف: ٥٥]، فلو لم يتحدث يوسف عليه السلام بنعمة الله عليه من الحفظ والعلم لاستولى على خزائن مصر من ليس أهل لها وحصلت بذلك الفوضى الاقتصادية . والله تعالى أعلم.

---

(١) انظر القصة في: صحيح البخاري كتاب المغازي باب حديث كعب بن مالك (٤٤١٨)، ومسلم كتاب التوبة باب حديث توبة كعب بن مالك وصاحبيه (٢٧٦٩)

تفسير سورة الشرح

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿ أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ ﴿١﴾ وَوَضَعْنَا عَنكَ وِزْرَكَ ﴿٢﴾ الَّذِي أَنقَضَ ظَهْرَكَ ﴿٣﴾ وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ ﴿٤﴾ فَإِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا ﴿٥﴾ إِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا ﴿٦﴾ فَإِذَا فَرَغْتَ فَانصَبْ ﴿٧﴾ وَإِلَىٰ رَبِّكَ فَارْغَب ﴿٨﴾ ﴾

المبحث الأول

مقدمات حول السورة

أولاً: تسميتها ونزولها ومناسبتها:

سميت في معظم التفاسير وفي صحيح البخاري وجامع الترمذي: سورة ألم نشرح[١]. وسميت في بعض التفاسير: سورة الشرح[٢] وفي بعض التفاسير تسميتها : سورة الانشراح[٣].

نزولها:

مكية في قول الجميع[٤].وآياتها: ٨ آيات، وكلماتها: ٢٦كلمة، وحروفها: ١٥٠ حرفا[٥].

مناسبتها لما قبلها

"هذه السورة متمة لسورة « الضحى » قبلها ، فكلتاهما عرض لما أنعم اللّه به على النبي ، وتذكير له بهذه النعم ، وتوجيه له إلى ما ينبغي أن يؤديه لها من حقّ عليه .. وهكذا شأن كل نعمة ينعم اللّه بها على الإنسان ، لا تتم إلا بالشكر للمنعم ، وبالإنفاق منها على كل ذي حاجة إليها"[٦].

ثانياً: موضوعها :

"هذه السورة تتحدث عن:

١ – مكانة الرسول صلى الله عليه وسلم الجليلة ومقامه الرفيع عند الله تعالى.

٢ – نعم الله العديدة على عبده ورسوله محمد صلى الله عليه وسلم.

---

(١) الدر المنثور ٤٩٥/١٥، جامع البيان ٤٩٢/٢٤، الجامع لأحكام القرآن ١٠٤/١٥، تفسير القرآن العظيم ٤٢٩/٨.

(٢) التحرير والتنوير ٤٠٧/٣٠، معالم التتريل ٤٦٣/٨، روح المعاني ١٦٥/٣٠، المحرر الوجيز٤٩٤/١٥.

(٣) تفسير حقي ١٩٣/٥ ، زاد المسير ١٦٢/٩.

(٤) انظر : الجامع لأحكام القرآن ١٠٤/٢٠، والمحرر الوجيز٤٩٤/١٥، ولم يذكرها صاحب الإتقان في السور المختلف فيها، انظر الإتقان ٣٠/١.

(٥) انظر : التفسير القرآني للقرآن ٧٨/٣.

(٦) التفسير القرآني للقرآن ٧٨/٣.

٣ - دعوة الرسول صلى الله عليه وسلم وهو بمكة يقاسي مع المؤمنين الشدائد والأهوال من الكفرة المكذبين، فآنسته بقرب الفرج، وقرب النصر على الأعداء.

٤ - تذكير المصطفى صلى الله عليه وسلم بأسباب انشراح الصدر. من التفرغ لعبادة الله تعالى، وتبليغ دعوته شكراً لله على ما أولاه من النعم الجليلة"[١].

ثالثاً: المعنى الإجمالي للسورة:

يمتن الله على نبيه صلى الله عليه وسلم بعدد من النعم بقوله: ألم نوسع -أيها النبي- لك صدرك لشرائع الدين، والدعوة إلى الله، والاتصاف بمكارم الأخلاق، وحططنا عنك بذلك حِمْلك الذي أثقل ظهرك، وجعلناك -بما أنعمنا عليك من المكارم- في منزلة رفيعة عالية؟

وبناء على ذلك فلا يثنك أذى أعدائك عن نشر الرسالة؛ فإن مع الضيق فرجًا، إن مع الضيق فرجًا، وإذا فرغت من أمور الدنيا وأشغالها فَجِدَّ في العبادة، وإلى ربك وحده فارغب فيما عنده.

---

(١) إيجاز البيان في سور القرآن ص٢٠٣.

المبحث الثاني

وقفات مع السورة

المطلب الأول

تعدد نعم الله تعالى على نبينا محمد ورفع مكانته في العالمين

قال تعالى: ﴿أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ ۝١ وَوَضَعْنَا عَنكَ وِزْرَكَ ۝٢ الَّذِي أَنقَضَ ظَهْرَكَ ۝٣ وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ ﴾

هذه الآيات "تشير بأن هناك ضائقة كانت في نفس الرسول صلى الله عليه وسلم لأمر من أمور هذه الدعوة التي كُلِّفَها ، ومن العقبات الوعرة في طريقها؛ ومن الكيد والمكر المضروب حولها . . تُوحي بأن صدره صلى الله عليه وسلم كان مثقلاً بهموم هذه الدعوة الثقيلة، وأنه كان يحس العبء فادحاً على كاهله، وأنه كان في حاجة إلى عون وزاد ورصيد . .

ثم كانت هذه المناجاة الحلوة، وهذا الحديث الودود"(١) بذكر عدد من النعم والمنن التي أعطاها الله تعالى لحبيبه صلى الله عليه وسلم، ومنها:

أولاً ﴿أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ﴾:"أي: نوسعه لشرائع الدين والدعوة إلى الله، والاتصاف بمكارم الأخلاق، والإقبال على الآخرة، وتسهيل الخيرات؛ فلم يكن ضيقًا حرجًا، لا يكاد ينقاد لخير، ولا تكاد تجده منبسطًا"(٢) كقوله تعالى : ﴿فَمَن يُرِدِ اللَّهُ أَن يَهْدِيَهُ يَشْرَحْ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ﴾ [الأنعام: ١٢٥] .

وابتدأت الآية بـــ " الاستفهام التقريري، ومقصوده التذكير لأجل أن يراعي هذه المنة عندما يخالجه ضيق صدر مما يلقاه من أذى قوم يريد صلاحهم وإنقاذهم من النار ورفع شأنهم بين الأمم، ليدوم على دعوته العظيمة نشيطاً غير ذي أسف ولا كمد، كما قال تعالى : ﴿فَلَا تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسَرَاتٍ ۚ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِمَا يَصْنَعُونَ ۝٨﴾ [فاطر: ٨]، والصدر المراد به الإحساس الداخلي الباطني الجامع لمعنى العقل والإدراك"(٣).

قال ابن كثير: "وكما شرح الله صدره جعل شرعه فسيحاً واسعاً سمحاً سهلاً لا حرج فيه ولا ضيق"(٤).

---

(١) في ظلال القرآن ٣٩٢٩/٦.

(٢) تيسير الكريم الرحمن ٩٢٩.

(٣) التحرير والتنوير ٤٠٨/٣٠ باختصار وزيادة.

(٤) تفسير القرآن العظيم ٤٢٩/٨.

وقد شرح الله صدر نبيه صلى الله عليه وسلم في الحس والواقع أيضاً ، فعن أنس بن مالك رضي الله عنه، عن مالك بن صعصعة رضي الله عنه: أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: (بينا أنا عند البيت بين النائم واليقظان إذ سمعت قائلا يقول أحد الثلاثة بين الرجلين. فأُتيت فَانْطُلق بي فأُتِيتُ بطست من ذهب فيها من ماء زمزم، فشرح صدري إلى كذا وكذا). قال قتادة :فقلت للذي معي: ما يعني؟ قال إلى أسفل بطنه (فاستخرج قلبي فغسل بماء زمزم، ثم أعيد مكانه ثم حُشِي إيماناً)[1].

وعلى هذا فشرح صدر النبي صلى الله عليه وسلم يشتمل على ثلاثة أمور:

١ - تهيئته لحمل الرسالة ونشرها في العالمين.

٢ - تشجيعه على المضي في الدعوة إلى الله وإظهار الحق ولو كره المشركون .

٣ - تنظيف صدره من غوائل الدنيا وشهواتها وإبداله مكانها بالعلم والإيمان .

ثانياً ﴿ وَوَضَعْنَا عَنكَ وِزْرَكَ ۝٢ ٱلَّذِىٓ أَنقَضَ ظَهْرَكَ ﴾: "أي حططنا عنك ذنبك، وهذه الآية مثل قوله تعالى: ﴿ لِّيَغْفِرَ لَكَ ٱللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنۢبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ وَيُتِمَّ نِعْمَتَهُۥ عَلَيْكَ وَيَهْدِيَكَ صِرَٰطًا مُّسْتَقِيمًا ۝٢ ﴾[الفتح: ٢]"[2].

"الوزر هو: الثقل الذي كان على رسول الله صلى الله عليه وسلم، وحيرته قبل البعثة إذ كان يرى سوء ما قريش فيه من عبادة الأصنام، وكان لم يتجه له من الله أمر واضح، فوضع الله تعالى عنه ذلك الثقل بنبوته وإرساله. وقيل: خففنا عنك أثقال النبوة، وأعنَّاك على الناس"[3].

"وقوله: ﴿ ٱلَّذِىٓ أَنقَضَ ظَهْرَكَ ﴾ أي أثقله حتى سمع قيضه، أي صوته. وأهل اللغة يقولون: أنقض الحمل ظهر الناقة: إذا سمعت له صريرا من شدة الحمل.

فـــ ﴿ ٱلَّذِىٓ أَنقَضَ ظَهْرَكَ ﴾ أي: أثقله وأوهنه، وإنما وصفت ذنوب الأنبياء بهذا الثقل، مع كونها مغفورة لشدة اهتمامهم بها وندمهم منها وتحسرهم عليها.

قال الحسين ابن المفضل: يعني الخطأ والسهو. وقيل: كان في الابتداء يثقل عليه الوحي.

وقيل: عصمناك عن احتمال الوزر، وحفظناك قبل النبوة في الأربعين من الأدناس، حتى نزل عليك الوحي وأنت مطهر من الأدناس"[4].

---

(١) أخرجه مسلم كتاب الإيمان باب الإسراء برسول الله صلى الله عليه وسلم (١٦٤).

(٢) انظر : جامع البيان ٢٤/ ٤٩٣-٤٩٤، والجامع لأحكام القرآن ٢٠/١٠٥-١٠٦ بتصرف واختصار.

(٣) المحرر الوجيز١٥/٤٩٧.

(٤) انظر: جامع البيان ٢٤/ ٤٩٣-٤٩٤، والجامع لأحكام القرآن ٢٠/١٠٥-١٠٦ بتصرف واختصار.

ثالثاً: ﴿ وَرَفَعۡنَا لَكَ ذِكۡرَكَ ﴾: "أي: أعلينا قدرك، وجعلنا لك الثناء الحسن العالي الذي لم يصل إليه أحد من الخلق، فلا يذكر الله عز وجل- غالباً- إلا ويذكر معه رسوله صلى الله عليه وسلم، كما في شهادة الدخول في الإسلام، وفي الأذان، والإقامة، والخطب، وغير ذلك من الأمور التي أعلى الله بها ذكر رسوله محمد صلى الله عليه وسلم.

وله في قلوب أمته من المحبة والإجلال والتعظيم ما ليس لأحد غيره، بعد الله تعالى، فجزاه الله عن أمته أفضل ما جازى نبيًا عن أمته"(١).

" ورفع الذكر يكون بإلهام الناس لأن يذكروه بخير، وذلك بإيجاد أسباب تلك السمعة حتى يتحدث بها الناس، واستعير الرفع لحسن الذكر لأن الرفع جَعْلُ الشيء عالياً لا تناله جميع الأيدي ولا تدوسه الأرجل، فقد فُطِر صلى الله عليه وسلم على مكارم أخلاقٍ يَعِزُّ وجود نوعها و لم يبلغ أحدٌ شأو ما بلغه منها حتى لُقب في قومه بالأمين"(٢).

"ورفع الذكر نعمة على الرسول صلى الله عليه وسلم، وكذلك جميلٌ حسنٌ للقائمين بأمور الناس، وخمول الذكر والاسم حسن للمنفردين للعبادة"(٣).

وهنا نقطتان يجب التنبيه عليهما:

النقطة الأولى: مواطن الصلاة على النبي صلى الله عليه وسلم:

ومن المواطن التي يشرع فيها الصلاة على الرسول صلى الله عليه وسلم رفعة لشأنه وتذكيراً بفضله:

١ **بعد الأذان**: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (إذا سمعتم المؤذن فقولوا مثلما يقول، ثم صلوا عليَّ، فإنه من صلى علي صلاة صلى الله عليه بها عشراً ...)(٤).

٢ **في التشهد الأخير وهي واجبة** (٥): عن أبي مسعود البدري رضي الله عنه قال: أقبل رجل حتى جلس إلى النبي ﷺ ونحن عنده فقال: أما السلام عليك فقد عرفناه، فكيف نصلي عليك إذا نحن صلينا صلاتنا صلى الله عليك؟ قال: (قولوا: اللهم صل على محمد، وعلى آل محمد، كما صليت على إبراهيم وعلى آل إبراهيم، وبارك على محمد وعلى آل محمد، كما باركت على إبراهيم، في العالمين إنك حميد مجيد)(٦).

---

(١) تيسير الكريم الرحمن ٩٢٩ بتصرف.

(٢) التحرير والتنوير ٤١٢/٣٠.

(٣) المحرر الوجيز ٤٩٨/١٥.

(٤) أخرجه مسلم كتاب الأذان باب استحباب القول مثل قول المؤذن لمن سمعه ثم يصلي على النبي صلى الله عليه وسلم(٣٨٤).

(٥) انظر: تفسير القرآن العظيم وترجيحه الوجوب وأدلة ذلك٤٦٠/٦.

(٦) أخرجه مسلم كتاب الصلاة باب الصلاة على النبي بعد التشهد(٤٠٧).

٣ **في صلاة الجنازة بعد التكبيرة الثانية:** عن أبي أمامة بن سهل أنه أخبره رجل من أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم أن السنة في صلاة الجنازة أن يكبر الإمام ثم يقرأ بفاتحة الكتاب بعد التكبيرة الأولى سراً ثم يصلي على النبي صلى الله عليه وسلم ...[(١)].

٤ **في الدعاء أوله وآخره:** قال أبو سليمان الداراني "من أراد أن يسأل الله حاجة فليبدأ بالصلاة على النبي ﷺ، ثم يسأل الله حاجته، ثم يختم بالصلاة على النبي ﷺ، فإن الله يقبل الصلاتين، وهو أكرم من أن يرد ما بينهما"[(٢)].

٥ **عند دخول المسجد والخروج منه** : لقول النبي ﷺ (إذا دخل أحدكم المسجد فليسلم على النبي ﷺ ثم ليقل: اللهم افتح لي أبواب رحمتك وإذا خرج فليسلم على النبي ﷺ وليقل اللهم أجرني من الشيطان)[(٣)].

٦ **في يوم وليلة الجمعة** : فقد ورد أنه ﷺ قال: (من أفضل أيامكم يوم الجمعة، فيه خلق آدم، وفيه قبض، وفيه النفخة، وفيه الصعقة، فأكثروا علي من الصلاة فيه، فإن صلاتكم معروضة علي)[(٤)].

٧ **عند السلام عليه ﷺ:** سواء عند زيارته، أو من أي مكان كان الإنسان، عن عبدالله بن مسعود رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: (إن لله ملائكة سياحين في الأرض يبلغوني من أمتي السلام) [(٥)]. و قال: (وصلّوا عليّ فإن صلاتكم تبلغني حيث كنتم)[(٦)].

٨ **عند ذكره ﷺ:** قال رسول الله ﷺ : (البخيل من ذكرت عنده ثم لم يصل علي)[(٧)].

فعلى هذا يجب علينا أن نداوم على الصلاة على النبي ﷺ في جميع أحوالنا، وكلما ذُكر سواء باللسان أو بالكتابة ونحن نقرأ أو نكتب، ولا يفتر لساننا عن الصلاة عليه على كل حال[(٨)].

النقطة الثانية: ومن مظاهر رفع ذكره صلى الله عليه وسلم غير ما سبق:

١ وجوب احترام صحابته رضي الله عنهم.

---

(١) أخرجه البيهقي في السنن٤/٣٩ ، المستدرك على الصحيحين٢/٣٧٥. وصححه الألباني في الإرواء٣/١٨٠.

(٢) الجامع لأحكام القرآن ١٤/ ٢٣٥.

(٣) صحيح سنن ابن ماجة كتاب المساجد باب الدعاء عند دخول المسجد (٧٧٣).

(٤) صحيح سنن أبي داود كتاب الصلاة باب فضل يوم الجمعة وليلة الجمعة (١٠٤٧). وصحيح سنن ابن ماجة كتاب الجنائز باب ذكر وفاته ودفنه ﷺ (١٦٣٦).

(٥) أخرجه أحمد ١/ ٤٤١ (٣٦٦٦)، إسناده صحيح ورجاله رجال الصحيح الموسوعة الحديثية٧/٢٦٠.

(٦) أخرجه أبو داود كتاب المناسك باب زيارة القبور (٢٠٤٢)، وأحمد ٢/٣٦٧ (٨٧٩٠). وانظر : صحيح سنن أبي داود.

(٧) أخرجه أحمد ١/٢٠١(١٧٣٦)، إسناده قوي ورجاله رجال الصحيحين الموسوعة الحديثية ٣/٢٥٨.

(٨) للاستزادة حول موضوع الصلاة على النبي ﷺ انظر: تفسير القرآن العظيم ٦/ ٤٥٩. وبحث حقوق النبي صلى الله عليه وسلم وأهل بيته دراسة موضوعية من خلال سورة الأحزاب للمؤلف .

٢ وجوب احترام أزواجه وأهل بيته رضي الله عنهم.

٣ وجوب العمل بكل ما روي عنه ، والدفاع عنه وعن سنته: فذلك برهان على صدق محبة الله تعالى ومحبة رسوله ﷺ قال تعالى: ﴿ قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِى يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ ۗ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٣١﴾ ﴾[آل عمران ١٨].

٤ وجوب احترام أهل العلم وورثته صلى الله عليه وسلم المبلغون عنه[١].

٥ عدم الإسراع بقول أو فعل قبل أن يقول فيه الله تعالى أو رسول الله ﷺ: قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تُقَدِّمُوا۟ بَيْنَ يَدَىِ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ۖ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿١﴾ ﴾ [الحجرات: ١] إشارة إلى احترام رسول الله وعدم تقديم قول أحد على قوله، وعدم إصدار الأحكام قبل معرفة قول رسول الله ﷺ فيها.

٦ التأدب مع رسول الله في الاستماع والإنصات: قال تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَرْفَعُوٓا۟ أَصْوَٰتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ ٱلنَّبِىِّ وَلَا تَجْهَرُوا۟ لَهُۥ بِٱلْقَوْلِ كَجَهْرِ بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ أَن تَحْبَطَ أَعْمَٰلُكُمْ وَأَنتُمْ لَا تَشْعُرُونَ ﴿٢﴾ ﴾ [الحجرات: ٢] قال القاضي أبو بكر بن العربي "حرمة النبي ميتاً كحرمته حياً، وكلامه المأثور بعد موته في الرفعة مثال كلامه المسموع من لفظه، فإذا قرئ كلامه وجب على كل حاضر ألا يرفع صوته عليه ولا يعرض عنه، كما كان يلزمه ذلك في مجلسه عند تلفظه به"[٢].

٧ لا يخاطب الرسول ﷺ باسمه وكنيته كما يخاطب الناس بعضهم بعضا: قال تعالى: ﴿وَلَا تَجْهَرُوا۟ لَهُۥ بِٱلْقَوْلِ كَجَهْرِ بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ أَن تَحْبَطَ أَعْمَٰلُكُمْ وَأَنتُمْ لَا تَشْعُرُونَ ﴿٢﴾ ﴾ وقال تعالى: ﴿ لَّا تَجْعَلُوا۟ دُعَآءَ ٱلرَّسُولِ بَيْنَكُمْ كَدُعَآءِ بَعْضِكُم بَعْضًا ﴾[النور ٦٣]

٨- محبة الرسول ﷺ:

وهذا من أعظم رفع الذكر مع رسول الله ﷺ حيث إنه المبلغ عن الله تعالى فهو أعظم الخلق إحسانا إلى المرء، فهو الذي أرشدنا إلى الصراط المستقيم، طريق الجنة قال تعالى: ﴿ وَإِنَّكَ لَتَهْدِىٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٥٢﴾ صِرَٰطِ ٱللَّهِ ٱلَّذِى لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۗ أَلَآ إِلَى ٱللَّهِ تَصِيرُ ٱلْأُمُورُ ﴿٥٣﴾ ﴾[الشورى ٥٢-٥٣][٣].

---

(١) للاستزادة حول الموضوع يمكن مراجعة بحث تفسير سورة الأحزاب دراسة موضوعية للمؤلف تحت موضوع : الأدب مع العلماء.

(٢) الجامع لأحكام القرآن ١٦/ ٣٠٧ .

(٣) للاستزادة حول الموضوع يمكن مراجعة بحث تفسير سورة الحجرات دراسة موضوعية للمؤلف تحت موضوع : الأدب مع النبي صلى الله عليه وسلم .

المطلب الثاني
بشرى من الله تعالى

قال تعالى: ﴿فَإِنَّ مَعَ ٱلْعُسْرِ يُسْرًا ۝٥ إِنَّ مَعَ ٱلْعُسْرِ يُسْرًا﴾:

"العُسْر: المشقة في تحصيل المرغوب والعمل المقصود، واليسر: سهولة تحصيل المرغوب، وعدم التعب فيه"[1].

وهذه"بشارة عظيمة، أنه كلما وجد عسر وصعوبة، فإن اليسر يقارنه ويصاحبه، حتى لو دخل العسر جحر ضب لدخل عليه اليسر"[2]، كما قال تعالى : ﴿سَيَجْعَلُ ٱللَّهُ بَعْدَ عُسْرٍ يُسْرًا﴾ [الطلاق: ٧] وكما قال النبي صلى الله عليه وسلم: (وإن الفرج مع الكرب، وإن مع العسر يسرا)[3].

وتعريف العسر في الآيتين يدل على أنه واحد، وتنكير اليسر يدل على تكراره، فلن يغلب عسر يسرين[4].

وفي تعريفه بالألف واللام، الدالة على الاستغراق والعموم يدل على أن كل عسر –وإن بلغ من الصعوبة ما بلغ– فإنه في آخره التيسير ملازم له"[5].

"وكتب أبو عبيدة بن الجراح إلى عمر بن الخطاب رضي الله عنهما يذكر له جموعاً من الروم، وما يتخوف منهم، فكتب إليه عمر رضي الله عنه: أما بعد، فإنه مهما يترل بعبد مؤمن من مترل شدة، يجعل الله بعده فرجاً، وإنه لن يغلب عسر يسرين، وإن الله تعالى يقول في كتابه : ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱصْبِرُوا۟ وَصَابِرُوا۟ وَرَابِطُوا۟ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ۝٢٠٠﴾ [آل عمران: ٢٠٠]"[6].

قال القرطبي " فهذا الفضل كله في أمور الدنيا، وإن كان –لفظه– خاصاً بالنبي صلى الله عليه وسلم فقد يدخل فيه بعض أمته –إن شاء الله تعالى–.. فهذا وعد من الله تعالى عامٌ لجميع المؤمنين لا يخرج أحد منه، أي: إن مع العسر في الدنيا للمؤمنين يسراً في الآخرة لا محالة، وربما اجتمع يسر الدنيا ويسر الآخرة"[7].

---

(١) التحرير والتنوير ٣٠/٤١٥.

(٢) هذا القول لابن مسعود انظر : جامع البيان ٢٤/٤٩٦.

(٣) مسند أحمد ١/٣٠٧ح(٣٨٠٤)، قال: شعيب الأرنؤوط: صحيح، وصححه الألباني في السلسلة الصحيحة(٢٣٨٢).

(٤) هذه المقولة مروية عن عمر بن الخطاب كما سيأتي الموطأ ٢/٤٤٦.

(٥) تيسير الكريم الرحمن ص ٩٢٩.

(٦) الموطأ ٢/٤٤٦.

(٧) الجامع لأحكام القرآن ٢٠/١٠٨مختصراً.

وقفة مع مبدأ التيسير في الإسلام:

ومن هذا أخذ الفقهاء رحمهم الله قاعدة: (المشقة تجلب التيسير) [1] أي: "المشقة التي تنفك عنها التكليفات الشرعية، أما المشقة التي لا تنفك عنها التكليفات الشرعية كمشقة الجهاد وألم الحدود ؛ ورجم الزناة وقتل البغاة والمفسدين والجناة فلا أثر لها في جلب تيسير ولا تخفيف"[2].

ودلت على هذه القاعدة آيات قرآنية، منها قوله تعالى : ﴿يُرِيدُ ٱللَّهُ بِكُمُ ٱلْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ ٱلْعُسْرَ﴾[البقرة ١٨٥]، وقوله تعالى: ﴿لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا﴾[البقرة ٢٨٦]، وقوله تعالى: ﴿يُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُخَفِّفَ عَنكُمْ ۚ وَخُلِقَ ٱلْإِنسَـٰنُ ضَعِيفًا ﴿٢٨﴾﴾ [النساء ٢٨]، وقوله تعالى: ﴿مَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيَجْعَلَ عَلَيْكُم مِّنْ حَرَجٍ﴾[المائدة: ٦].

ومن الأحاديث قول المصطفى صلى الله عليه وسلم: (إن الدين يسر ولن يشاد الدين أحد إلا غلبه فسددوا وقاربوا وأبشروا)[3]. وقوله: (لولا أن أشق على أمتي ما قعدت خلف سرية، ولوددت أني أقتل في سبيل الله ثم أحيا ثم أقتل ثم أحيا ثم أقتل)[4]، وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: (ما نهيتكم عنه فاجتنبوه، وما أمرتكم به فأتوا منه ما استطعتم)[5].

وأوصى الرسول صلى الله عليه وسلم معاذ بن جبل و أبا موسى الأشعري رضي الله عنهما حين بعثهما إلى اليمن فقال: (يَسّرا ولا تُعَسّرا، وبَشِّرا ولا تُنَفّرا)[6]. وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قام أعرابي فبال في المسجد فتناوله الناس، فقال لهم النبي صلى الله عليه وسلم: (دعوه وأهريقوا على بوله سجلا من ماء، أو ذنوبا من ماء، فإنما بعثتم ميسرين، و لم تبعثوا معسرين)[7].

وعن عائشة رضي الله عنها قالت: كان رسول الله صلى الله عليه وسلم: (إذا أمرهم، أمرهم من الأعمال بما يطيقون)[8].

وعن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: (لولا أن أشقّ على أمتي

---

(١) هذه القاعدة مبثوثة في كتب القواعد الفقهية، انظر: شرح القواعد الفقهية للزرقا١/١٥٧.

(٢) شرح القواعد الفقهية للزرقا ١/١٥٧.

(٣) أخرجه البخاري كتاب الإيمان باب الدين يسر (٣٩).

(٤) أخرجه البخاري كتاب الإيمان باب الجهاد من الإيمان (٣٦).

(٥) أخرجه مسلم كتاب الحج باب فرض الحج مرة في العمر(١٣٣٧).

(٦) أخرجه البخاري كتاب الجهاد والسير باب ما يكره من التنازع والاختلاف في الحرب وعقوبة من عصى إمامه (٣٠٣٨)، ومسلم كتاب الجهاد والسير باب في الأمر باليسر وترك التنفير (١٧٣٣) .

(٧) أخرجه البخاري كتاب الوضوء باب صب الماء على البول في المسجد(٢٢٠).

(٨) أخرجه البخاري كتاب الإيمان باب قول النبي صلى الله عليه وسلم(أنا أعلمكم بالله..)(٢٠) .

لأمرهم بالسواك مع كل صلاة)[1]، وعن عائشة رضى الله عنها أنها قالت: "ما خير رسول الله صلى الله عليه وسلم بين أمرين إلا أخذ أيسرهما، ما لم يكن إثما، فإن كان إثما كان أبعد الناس منه"[2].

قال عمر بن إسحاق: "لما أدركت من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم أكثر ممن سبقني منهم؛ فما رأيت قوماً أيسر سيرة ولا أقلّ تشديداً منهم"[3].

والأدلة التي تؤيد هذه القاعدة أكثر من أن تحصر، ولذا يقول الإمام الشافعي: "إن الأدلة على رفع الحرج في هذه الأمة بلغت مبلغ القطع"[4].

"المشقة التي تجلب التيسير سبعة أنواع:

١ - السفر وتيسيراته كثيرة.

٢ - المرض وتيسيراته.

٣ - الإكراه وهو التهديد ممن هو قادر على الإيقاع بضربٍ مبرح، أو بإتلاف نفس، أو عضوٍ ، أو بحبس، أو قيد مديدين مطلقاً، أو بما هو دون ذلك لذي جاه، وبما يوجب غماً يعدم الرضا.

٤ - النسيان، وهو عدم تذكر الشيء عند الحاجة إليه، واتفق العلماء على أنه مسقط للعقاب.

٥ - الجهل، وهو عدم العلم ممن شأنه أن يَعلمُ وهو قد يجلب التيسير.

٦ - العسر وعموم البلوى.

٧ - النقص، وفيه نوع من المشقة يتسبب عنها التخفيف، وذلك كالصغر والجنون والأنوثة"[5].

---

(١) أخرجه البخاري كتاب الجمعة باب السواك يوم الجمعة(٨٨٧)، ومسلم كتاب الطهارة باب السواك (٢٥٢).

(٢) أخرجه البخاري كتاب المناقب باب صفة النبي صلى الله عليه وسلم (٣٥٦٠). ومسلم كتاب الفضائل باب مباعدته صلى الله عليه وسلم للآثام واختياره من المباح أسهله (٢٣٢٧).

(٣) أخرجه الدارمي ٥١/١ .

(٤) الموافقات ٢٣١/١ .

(٥) شرح القواعد الفقهية للزرقا ١٥٧/١- ١٦١ مختصراً، وللاستزادة من الأمثلة يمكن الرجوع للكتاب.

المطلب الثالث: ذكر مواقع التيسير وأسباب الانشراح

قال تعالى: ﴿ فَإِذَا فَرَغْتَ فَٱنصَبْ ۝٧ وَإِلَىٰ رَبِّكَ فَٱرْغَب ۝٨ ﴾

أمر الله رسوله صلى الله عليه وسلم والمؤمنين تبعًا: بشكره والقيام بواجب نعمه، وذلك بأمرين مرتبطين ببعضهما:

أولاً: متابعة العمل: قال تعالى: ﴿ فَإِذَا فَرَغْتَ فَٱنصَبْ ﴾ قيل في معنى هذه الآية أقوال كثيرة، ومنها:

١- "إذا تفرغت من أشغالك وأمور دنياك وأشغالها ، ولم يبق في قلبك ما يعوقه، فاجتهد في العبادة والدعاء، وقم إليها نشطاً فارغ البال وأخلص لربك في النية والرغبة"(١).

والنصب : أن يدأب على ما أمر به ولا يفتر(٢).

٢- وقيل: ﴿ فَإِذَا فَرَغْتَ ﴾ من صلاتك ﴿ فَٱنصَبْ ﴾ أي بالغ في الدعاء وسله حاجتك، كما قال تعالى: ﴿ فَإِذَا قَضَيْتُمُ ٱلصَّلَوٰةَ فَٱذْكُرُوا۟ ٱللَّهَ قِيَٰمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِكُمْ ۚ فَإِذَا ٱطْمَأْنَنتُمْ فَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ ۚ إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ كَانَتْ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ كِتَٰبًا مَّوْقُوتًا ۝١٠٣ ﴾ [النساء: ١٠٣].

٣- وقيل: ﴿ فَإِذَا فَرَغْتَ ﴾ من الفرائض ﴿ فَٱنصَبْ ﴾ في قيام الليل، كما قال تعالى: ﴿ فَإِذَا قَضَيْتُم مَّنَٰسِكَكُمْ فَٱذْكُرُوا۟ ٱللَّهَ كَذِكْرِكُمْ ءَابَآءَكُمْ أَوْ أَشَدَّ ذِكْرًا ۗ ﴾ [البقرة: ٢٠٠].

٤- وقيل: ﴿ فَإِذَا فَرَغْتَ ﴾ من تبليغ الرسالة ﴿ فَٱنصَبْ ﴾ أي استغفر لذنبك وللمؤمنين والمؤمنات ، كما قال تعالى: ﴿ إِذَا جَآءَ نَصْرُ ٱللَّهِ وَٱلْفَتْحُ ۝١ وَرَأَيْتَ ٱلنَّاسَ يَدْخُلُونَ فِى دِينِ ٱللَّهِ أَفْوَاجًا ۝٢ فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَٱسْتَغْفِرْهُ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ تَوَّابًۢا ۝٣ ﴾ [النصر: ١ - ٣]، وقوله: ﴿ فَٱعْلَمْ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ وَٱسْتَغْفِرْ لِذَنۢبِكَ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ ۗ ﴾ [محمد: ١٩].

٥- وقيل: ﴿ فَإِذَا فَرَغْتَ ﴾ من جهاد عدوك، ﴿ فَٱنصَبْ ﴾ لعبادة ربك، كما قال تعالى: ﴿ ٱلَّذِينَ إِن مَّكَّنَّٰهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ أَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُا۟ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَمَرُوا۟ بِٱلْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا۟ عَنِ ٱلْمُنكَرِ ۗ وَلِلَّهِ عَٰقِبَةُ ٱلْأُمُورِ ۝٤١ ﴾ [الحج: ٤١].

٦- وقيل: ﴿ فَإِذَا فَرَغْتَ ﴾ من دنياك، ﴿ فَٱنصَبْ ﴾ في صلاتك، كما قال تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِذَا نُودِىَ لِلصَّلَوٰةِ مِن يَوْمِ ٱلْجُمُعَةِ فَٱسْعَوْا۟ إِلَىٰ ذِكْرِ ٱللَّهِ وَذَرُوا۟ ٱلْبَيْعَ ۚ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ۝٩ فَإِذَا

---

(١) تفسير القرآن العظيم ٤٣٣/٨ بتصرف .

(٢) المحرر الوجيز ٤٩٩/١٥.

﴿ قُضِيَتِ ٱلصَّلَوٰةُ فَٱنتَشِرُواْ فِي ٱلْأَرْضِ وَٱبْتَغُواْ مِن فَضْلِ ٱللَّهِ وَٱذْكُرُواْ ٱللَّهَ كَثِيرًا لَّعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿١٠﴾ ﴾ [الجمعة: ٩ - ١٠].

٧- وقيل: ﴿ فَإِذَا فَرَغْتَ ﴾ من أمر الخلق، فاجتهد في عبادة الحق، كما قال تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمُزَّمِّلُ ﴿١﴾ قُمِ ٱلَّيْلَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٢﴾ نِّصْفَهُۥٓ أَوِ ٱنقُصْ مِنْهُ قَلِيلًا ﴿٣﴾ أَوْ زِدْ عَلَيْهِ وَرَتِّلِ ٱلْقُرْءَانَ تَرْتِيلًا ﴿٤﴾ إِنَّا سَنُلْقِي عَلَيْكَ قَوْلًا ثَقِيلًا ﴿٥﴾ إِنَّ نَاشِئَةَ ٱلَّيْلِ هِيَ أَشَدُّ وَطْـًٔا وَأَقْوَمُ قِيلًا ﴿٦﴾ إِنَّ لَكَ فِي ٱلنَّهَارِ سَبْحًا طَوِيلًا ﴿٧﴾ وَٱذْكُرِ ٱسْمَ رَبِّكَ وَتَبَتَّلْ إِلَيْهِ تَبْتِيلًا ﴿٨﴾ رَّبُّ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ فَٱتَّخِذْهُ وَكِيلًا ﴿٩﴾ وَٱصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَٱهْجُرْهُمْ هَجْرًا جَمِيلًا ﴿١٠﴾ ﴾ [المزمل ١-١٠][1].

وكل هذه الأقوال تشير إلى المسارعة والإكثار من العبادة في جميع الأوقات، وأن يخرج المؤمن من عبادة فيبادر في الدخول إلى عبادة أخرى، كما قال تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱصْبِرُواْ وَصَابِرُواْ وَرَابِطُواْ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٢٠٠﴾ ﴾ [آل عمران: ٢٠٠].

وقوله صلى الله عليه وسلم: (ألا أدلكم على ما يمحو الله به الخطايا ويرفع الله به الدرجات؟) قالوا: بلى يا رسول الله. قال: (إسباغ الوضوء على المكاره، وكثرة الخُطى إلى المساجد، وانتظار الصلاة بعد الصلاة، فذلكم الرباط، فذلكم الرباط)[2].

ثانياً: حسن الرجاء: قال تعالى: ﴿ وَإِلَىٰ رَبِّكَ فَٱرْغَب ﴾ أي : ﴿ وَإِلَىٰ رَبِّكَ ﴾وحده ﴿ فَٱرْغَب ﴾ فقد "أُمِر رسول الله صلى الله عليه وسلم بالتوكل على الله عز وجل وصرف وجه الرغبات إليه لا سواه"[3].

وقيل: "أعظم الرغبة في إجابة دعائك وقبول عباداتك، ولا تكن ممن إذا فرغوا وتفرغوا لعبوا وأعرضوا عن ربهم وعن ذكره، فتكون من الخاسرين[4].

وقد مدح الله تعالى الأنبياء بقوله: ﴿ إِنَّهُمْ كَانُواْ يُسَٰرِعُونَ فِي ٱلْخَيْرَٰتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا ۖ وَكَانُواْ لَنَا خَٰشِعِينَ ﴿٩٠﴾ ﴾ [الأنبياء: ٩٠]. قال ابن القيم رحمه الله: " الرغبة طلب وهي ثمرة الرجاء فإنه إذا رجا الشيء طلبه والرغبة من الرجاء كالهرب من الخوف فمن رجا شيئا طلبه ورغب فيه"[5]، فالذي يقبل على الله تعالى ويرغب فيما عنده هانت عليه كل مصائب وهموم وضيق الدنيا.

---

(١) في هذه الأقوال انظر: جامع البيان ٢٤/ ٤٩٧- ٥٠٠ ، والجامع لأحكام القرآن ٢٠/ ١٠٨-١٠٩باختصار وزيادة الأدلة.

(٢) أخرجه مسلم كتاب الطهارة باب تبلغ الحلية حيث يبلغ الوضوء (٢٥١).

(٣) المحررالوجيز٥/١٥٠٠.

(٤) تيسير الكريم الرحمن ٩٢٩.

(٥) مدارج السالكين ٢/٥٥.

المطلب الرابع

ماذا بعد العبادة

المسألة الأولى: الذكر بعد العبادة:

"قيل: إن معنى قوله: فإذا فرغت من الصلاة وأكملتها، فانصب في الدعاء، وإلى ربك فارغب في سؤال مطالبك.

واستدل من قال بهذا القول، على مشروعية الدعاء والذكر عقب الصلوات المكتوبات"[1] كما قال تعالى: ﴿فَإِذَا قَضَيْتُمُ ٱلصَّلَوٰةَ فَٱذْكُرُواْ ٱللَّهَ قِيَٰمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِكُمْۚ فَإِذَا ٱطْمَأْنَنتُمْ فَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَۚ إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ كَانَتْ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ كِتَٰبًا مَّوْقُوتًا ﴿١٠٣﴾﴾ [النساء: ١٠٣] .

وكذلك ذكر الله بعد الصيام، قال تعالى: ﴿وَلِتُكْمِلُواْ ٱلْعِدَّةَ وَلِتُكَبِّرُواْ ٱللَّهَ عَلَىٰ مَا هَدَىٰكُمْ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿١٨٥﴾﴾ [البقرة: ١٨٥].

وكذلك بعد الحج: ﴿ثُمَّ أَفِيضُواْ مِنْ حَيْثُ أَفَاضَ ٱلنَّاسُ وَٱسْتَغْفِرُواْ ٱللَّهَۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٩٩﴾ فَإِذَا قَضَيْتُم مَّنَٰسِكَكُمْ فَٱذْكُرُواْ ٱللَّهَ كَذِكْرِكُمْ ءَابَآءَكُمْ أَوْ أَشَدَّ ذِكْرًاۗ﴾[البقرة: ٩٩-٢٠٠].

"ولما كانت هذه الإفاضة، والمذكورات آخر المناسك، أمر تعالى عند الفراغ منها باستغفاره والإكثار من ذكره، فالاستغفار للخلل الواقع من العبد، في أداء عبادته وتقصيره فيها، وذكر الله شكر الله على إنعامه عليه بالتوفيق لهذه العبادة العظيمة والمنة الجسيمة.

وهكذا ينبغي للعبد، كلما فرغ من عبادة، أن يستغفر الله عن التقصير، ويشكره على التوفيق، لا كمن يرى أنه قد أكمل العبادة، ومن بها على ربه، وجعلت له محلا ومنزلة رفيعة، فهذا حقيق بالمقت، ورد الفعل"[2].

المسألة الثاني: الفرح بعد العبادة:

روي عن شريح رحمه الله أنه مر بقوم يلعبون يوم عيد، فقال ما بهذا أمر الفارغ[3].

---

(١) تيسير الكريم الرحمن ٩٢٩.

(٢) تيسير الكريم الرحمن ٩٣.

(٣) أحكام القرآن لابن العربي ١٩٣٨/٤، وأخرجه عبد الله بن أحمد بن حنبل في زوائده على الزهد(٢٦٢).

قال القرطبي رحمه الله: " وفيه نظر، فإن الحبش كانوا يلعبون بالدرق والحراب في المسجد يوم العيد، والنبي صلى الله عليه وسلم ينظر، وجعل عائشة رضي الله عنها تنظر [1]، ودخل أبو بكر رضي الله عنه في بيت رسول الله صلى الله عليه وسلم على عائشة رضي الله عنها وعندها جاريتان من جواري الأنصار تغنيان، فقال أبو بكر: أبمزمور الشيطان في بيت رسول الله صلى الله عليه وسلم؟ فقال: (دعهما يا أبا بكر)[2]"[3].

وانظر إلى صفات المؤمنين التي جمعت كثير من العبادات القلبية والبدنية فقد ختمها الله بصفة الذكر فقال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْمُسْلِمِينَ وَٱلْمُسْلِمَٰتِ وَٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ وَٱلْقَٰنِتِينَ وَٱلْقَٰنِتَٰتِ وَٱلصَّٰدِقِينَ وَٱلصَّٰدِقَٰتِ وَٱلصَّٰبِرِينَ وَٱلصَّٰبِرَٰتِ وَٱلْخَٰشِعِينَ وَٱلْخَٰشِعَٰتِ وَٱلْمُتَصَدِّقِينَ وَٱلْمُتَصَدِّقَٰتِ وَٱلصَّٰٓئِمِينَ وَٱلصَّٰٓئِمَٰتِ وَٱلْحَٰفِظِينَ فُرُوجَهُمْ وَٱلْحَٰفِظَٰتِ وَٱلذَّٰكِرِينَ ٱللَّهَ كَثِيرًا وَٱلذَّٰكِرَٰتِ أَعَدَّ ٱللَّهُ لَهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا ﴿٣٥﴾﴾ [الأحزاب: ٣٥].

---

(١) أخرج القصة البخاري في صحيحة كتاب العيدين باب الحراب والرق يوم العيد(٩٥٠)، ومسلم كتاب صلاة العيدين باب الرخصة في اللعب الذي لا معصية فيه أيام العيد (٨٩٢).

(٢)أخرج القصة البخاري في صحيحة كتاب العيدين باب الحراب والرق يوم العيد(٩٤٩)، ومسلم كتاب صلاة العيدين باب الرخصة في اللعب الذي لا معصية فيه أيام العيد (٨٩٢).

(٣) الجامع لأحكام القرآن ١٠٩/٢٠-١١٠.

المطلب الخامس

حسن الختام للسورة

"وتنتهي هذه السورة كما انتهت سورة الضحى، وقد تركت في النفس شعورين ممتزجين: الشعور بعظمة الود الحبيب الجليل الذي ينسم على روح الرسول صلى الله عليه وسلم من ربه الودود الرحيم. والشعور بالعطف على شخصه صلى الله عليه وسلم، ونحن نكاد نلمس ما كان يساور قلبه الكريم في هذه الآونة التي اقتضت ذلك الود الجميل، إنها الدعوة؛ هذه الأمانة الثقيلة والعبء الذي ينقض الظهر!"[(1)].

النور الإلهي هو الوحي الذي يستضاء به، والروح التي يحيا بها العبد المؤمن، ويشقى بها المنافق والكافر، والدواء والشفاء لعباد الله الصالحين، كما قال تعالى: ﴿ وَنُنَزِّلُ مِنَ ٱلْقُرْءَانِ مَا هُوَ شِفَآءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ ۙ وَلَا يَزِيدُ ٱلظَّٰلِمِينَ إِلَّا خَسَارًا ﴿٨٢﴾ ﴾ [الإسراء: ٨٢] وقوله تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا ۚ مَا كُنتَ تَدْرِى مَا ٱلْكِتَٰبُ وَلَا ٱلْإِيمَٰنُ وَلَٰكِن جَعَلْنَٰهُ نُورًا نَّهْدِى بِهِۦ مَن نَّشَآءُ مِنْ عِبَادِنَا ۚ وَإِنَّكَ لَتَهْدِىٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٥٢﴾ ﴾ [الشورى: ٥٢] .

(١) في ظلال القرآن ٦/٣٩٣٠.

تفسير سورة التين

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿ وَالتِّينِ وَالزَّيْتُونِ (١) وَطُورِ سِينِينَ (٢) وَهَذَا الْبَلَدِ الْأَمِينِ (٣) لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ (٤) ثُمَّ رَدَدْنَاهُ أَسْفَلَ سَافِلِينَ (٥) إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَلَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ (٦) فَمَا يُكَذِّبُكَ بَعْدُ بِالدِّينِ (٧) أَلَيْسَ اللَّهُ بِأَحْكَمِ الْحَاكِمِينَ (٨) ﴾

المبحث الأول

مقدمات حول السورة

أولا: تسميتها :

"سميت في معظم كتب التفسير ومعظم المصاحف (سورة والتين) بإثبات الواو تسمية بأول كلمة فيها . وسماها بعض المفسرين (سورة التين) وبذلك عنونها الترمذي[١]وبعض المصاحف"[٢].

ثانياً: نزولها ومناسبتها:

وهي مكية عند أكثر العلماء[٣] قال ابن عطية: لا أعرف في ذلك خلافا بين المفسرين[٤]، و لم يذكرها في الإتقان في عداد السور المختلف فيها.

أما عدد آياتها (٨) آيات، وكلماتها: (٣٤) كلمة، وحروفها: (١٥٠) حرفاً[٥].

مناسبتها لما قبلها:

"ختمت سورة « الانشراح » بالدعوة إلى الكد والنصب ، في الحياة الدنيا ، ليبنى الإنسان بذلك دار مقامه في الآخرة ، ويعمرها بما يساق إليه فيها من نعيم اللّه ورضوانه"[٦].

---

(١) جامع الترمذي كتاب التفسير باب سورة التين .

(٢) التحرير والتنوير ٣٠/٤١٩.

(٣) الجامع لأحكام القرآن ٢٠/١١٤. التحرير والتنوير ٣٠/٤١٩.

(٤) المحرر الوجيز ١٥/٥٠١.

(٥) التفسير القرآني للقرآن ٣/٧٩.

(٦) التفسير القرآني للقرآن ٣/٧٩.

ثالثاً: فضلها :

عن البراء بن عازب رضي الله عنه قال : "كان النبي صلى الله عليه وسلم يقرأ في سَفَر في إحدى الركعتين بالتين والزيتون"[(١)]، وفي رواية لمسلم: "فما سمعت أحدًا أحسن صوتًا أو قراءة منه"[(٢)].

رابعاً: موضوعها :

تعرض السورة حقيقة الفطرة القويمة التي فطر الله الإنسان عليها، واستقامة طبيعتها مع طبيعة الإيمان، والوصول بها معه إلى كمالها المقدور لها، وهبوط الإنسان وسفوله حين ينحرف عن سواء الفطرة واستقامة الإيمان بالله واليوم الآخر، وعن شكر نعمة الله تعالى.

فتعالج من الموضوعات :

١ - رفع شأن البقاع المقدسة والأماكن المشرفة.
٢ - تكريم الله تعالى للنوع البشري.
٣ - بيان جزاء من كفر وجزاء من شكر هذه النعمة.
٤ - بيان الإيمان بالجزاء والحساب.
٥ - بيان عدل الله تعالى بإثابته المؤمنين وعقابه الكافرين.

خامساً: المعنى الإجمالي للسورة:

أَقْسم الله تعالى بالتين والزيتون، وهما من الثمار المشهورة، وأقسم بجبل "طور سيناء" الذي كلَّم الله عليه موسى تكليمًا، وأقسم بهذا البلد الأمين من كل خوف وهو "مكة" مهبط الإسلام.

وهذا القسم كله على أنه قد خلق الإنسان في أحسن صورة، ثم سيرده إلى النار إن لم يطع الله ويتبع الرسل، لكن الذين آمنوا وعملوا الأعمال الصالحة لهم أجر عظيم غير مقطوع ولا منقوص.

ثم يخاطب الله تعالى الإنسان ويسأله سؤال استنكار: أيُّ شيء يحملك -أيها الإنسان- على أن تكذِّب بالبعث والجزاء مع وضوح الأدلة على قدرة الله تعالى على ذلك؟ أليس الله الذي جعل هذا اليوم للفصل بين الناس بأحكم الحاكمين في كل ما خلق؟[(٣)].

---

(١) أخرجه البخاري كتاب التفسير باب سورة التين (٤٩٥٢)، ومسلم كتاب الصلاة باب القراءة في العشاء (٤٦٤).
(٢) أخرجه مسلم كتاب الصلاة باب القراءة في العشاء (٤٦٤).
(٣) التفسير الميسر ص٥٩٧.

المبحث الثاني
وقفات مع السورة
المطلب الأول
وقفات مع المقسم به

قال تعالى: ﴿وَٱلتِّينِ وَٱلزَّيْتُونِ ۝١ وَطُورِ سِينِينَ ۝٢ وَهَٰذَا ٱلْبَلَدِ ٱلْأَمِينِ﴾

الوقفة الأولى: رفع شأن التين والزيتون:

قوله تعالى: ﴿وَٱلتِّينِ وَٱلزَّيْتُونِ﴾:

"﴿وَٱلتِّينِ﴾: الثمرة المشهورة بهذا الاسم، وهي: ثمرة تشبه في شكلها شكل الكمثرى، ذات قشر لونه أزرق إلى السواد، تتفاوت أصنافه في قتومة قشره، سهلة التقشير، تحتوي على مثل وعاء أبيض في وسطه عسل طيب الرائحة، مخلوط ببزور دقيقة مثل السمسم الصغير.

وهي من أحسن الثمار صورة وطعما وسهولة مضغ، فحالتها دالة على دقة صنع الله ومؤذنة بعلمه وقدرته.

فالقسم بها لأجل دلالتها إلى صفات إلهية كما يقسم بالاسم لدلالته على الذات مع الإيذان بالمنة على الناس إذ خلق لهم هذه الفاكهة التي تنبت في كل البلاد والتي هي سهلة النبات لا تحتاج إلى كثرة عمل وعلاج

﴿وَٱلزَّيْتُونِ﴾ ظاهره: الثمرة المشهورة، ذات الزيت الذي يعصر منها فيطعمه الناس ويستصبحون به . والقسم بها كالقسم بالتين من حيث إنها دالة على صفات الله، مع الإشارة إلى نعمة خلق هذه الثمرة النافعة الصالحة التي تكفي الناس حوائج طعامهم وإضاءتهم"[(1)].

وهذا أصح ما قيل في تفسير ﴿وَٱلتِّينِ وَٱلزَّيْتُونِ﴾ أنهما هذان الأكلان اللذان نعرفهما بحقيقتهما، وليس هناك رمز لشيء وراءهما، أو أنهما هما رمز لمنبتهما من الأرض[(2)].

قال ابن جرير: " والصواب من القول في ذلك عندنا: قول من قال: التين: هو التين الذي يُؤكل، والزيتون: هو الزيتون الذي يُعصر منه الزيت. لأن ذلك هو المعروف عند العرب، ولا يُعرف جبل يسمى تينا، ولا جبل يقال له زيتون، إلا أن يقول قائل: أقسم ربنا جلّ ثناؤه بالتين والزيتون، والمراد من

---

(١) التحرير والتنوير ٣٠/٤٢٠.

(٢) انظر هذه الأقوال في تفسير الطبري ٢٤/٥٠١ – ٥٠٦، وتفسير القرآن العظيم ٨/٤٣٤.

الكلام: القسم بمنابت التين، ومنابت الزيتون، فيكون ذلك مذهباً، وإن لم يكن على صحة ذلك أنه كذلك دلالة في ظاهر التنزيل، ولا من قول من لا يجوّز خلافه، لأن دمشق بها منابت التين، وبيت المقدس منابت الزيتون"(١).

الوقفة الثانية : رفع شأن الأماكن المشرفة:

قوله تعالى: ﴿ وَطُورِ سِينِينَ ﴾: الطور: اسم الجبل الذي كلم الله عليه موسى(٢) "و﴿ سِينِينَ ﴾ لغة في سيناء وهي صحراء بين مصر وبلاد فلسطين"(٣).

أما القسم الأخير في قوله تعالى: ﴿ وَهَٰذَا ٱلْبَلَدِ ٱلْأَمِينِ ﴾ مكة المكرمة(٤).

"وإن الأقرب أن يكون ذكر التين والزيتون إشارة إلى أماكن أو ذكريات ذات علاقة بالدين والإيمان"(٥)، ولذا "قال بعض الأئمة: هذه مَحَالٌّ ثلاثة، بعث الله في كل واحد منها نبيًا مرسلا من أولي العزم أصحاب الشرائع الكبار:

فالأول: محلة التين والزيتون: وهي بيت المقدس التي بعث الله فيها عيسى ابن مريم عليه الصلاة والسلام.

والثاني: طور سينين: وهو طور سيناء الذي كلم الله عليه موسى بن عمران عليه الصلاة والسلام.

والثالث: البلد الأمين: مكة الذي من دخله كان آمنا، وهو الذي أرسل فيه محمداً صلى الله عليه وسلم"(٦).

"وإن في ذكر البلد الأمين لترشيح لهذا المعنى-أي ردّ الإنسان لإلى التوحيد- ؛ لأن الله جعل الحرم لأهل مكة أمنا كصورة الآمن في الجنة، فإن امتثلوا وأطاعوا نعموا بهذا الأمن ، وإن تمردوا وعصوا ، فيخرجون منها ويحرمون أمنها.

وهكذا تكون السورة ربطا بين الماضي والحاضر ، وانطلاقا من الحاضر إلى المستقبل"(٧).

"والأمن: أكبر شروط حسن المكان لأن الساكن أول ما يتطلب الأمن وهو السلامة من المكاره والمخاوف فإذا كان آمنا في مترلة كان مطمئن البال شاعرا بالنعيم الذي يناله."(٨). فهو الذي يأمن

(١) تفسير الطبري ٥٠٦/٢٤.
(٢) تفسير القرآن العظيم ٤٣٤/٨.
(٣) التحرير والتنوير ٤٢١/٣٠.
(٤) تفسير القرآن العظيم ٤٣٤/٨.
(٥) في ظلال القرآن ٣٩٣٣/٦.
(٦) تفسير القرآن العظيم ٤٣٤/٨.
(٧) أضواء البيان ١٠/٩.
(٨) التحرير والتنوير ٣١٧/٢٥.

صاحبه ومن دخل فيه من كل صوب ، بل يأمن فيها الطير والوحش والقاتل المطلوب.

فقد كان مطلع الرسالة الخاتمة لما شرع اللّه للناس ، وبها يختم الفصل الأخير من حياة الإنسان على هذه الأرض، وهو الذي أرسل فيه محمدا صلى الله عليه وسلم، وجعله الله خير بلاده "فلو لم يكن البلد الأمين خير بلاده ، وأحبها إليه ، ومختاره من البلاد ؛ لما جعل عرصاتها مناسك لعباده ؛ فرض عليهم قصدها ، وجعل ذلك من آكد فروض الإسلام ، وأقسم به في كتابه العزيز في موضعين منه ، فقال تعالى : ﴿ وَهَٰذَا ٱلْبَلَدِ ٱلْأَمِينِ ﴾ [التين ٣] ، وقال تعالى : ﴿ لَآ أُقْسِمُ بِهَٰذَا ٱلْبَلَدِ ۝١ وَأَنتَ حِلٌّۢ بِهَٰذَا ٱلْبَلَدِ ۝٢ ﴾ [البلد١-٢] .

وليس على وجه الأرض بقعة يجب على كل قادر السعي إليها ، والطواف بالبيت الذي فيها ؛ غيرها ، وليس على وجه الأرض موضع يشرع تقبيله واستلامه ، وتحط الخطايا والأوزار فيه ؛ غير الحجر الأسود ، والركن اليماني"(١).

فأقسم سبحانه بهذه الأمكنة الثلاثة العظيمة التي هي مظاهر أنبيائه ورسله أصحاب الشرائع العظام والأمم الكثيرة، أقسم بها على بداية الإنسان ونهايته.

---

(١) خصائص جزيرة العرب ٢٢.

المطلب الثاني

وقفات مع المقسم عليه

الوقفة الأولى: تكريم الله تعالى للنوع البشري:

قال تعالى: ﴿لَقَدۡ خَلَقۡنَا ٱلۡإِنسَٰنَ فِيٓ أَحۡسَنِ تَقۡوِيمٖ﴾

"هذا هو المقسم عليه، وهو أنه تعالى خلق الإنسان في أحسن صورة، وشكل منتصب القامة، سَويّ الأعضاء حسنها"[1].

"وفي ابتداء السورة بالقسم بما يشمل إرادة مهابط أشهر الأديان الإلهية؛ براعة استهلال لغرض السورة وهو أن الله خلق الإنسان ﴿فِيٓ أَحۡسَنِ تَقۡوِيمٖ﴾ أي خلقه على الفطرة السليمة، مدركا لأدلة وجود الخالق ووحدانيته. وفيه إيماء إلى أن ما خالف ذلك من النحل والملل قد حاد عن أصول شرائع الله كلها، بقطع النظر عن اختلافها في الفروع، ويكفي في تَقَوّم معنى براعة الاستهلال ما يلوح في المعنى من احتمال"[2].

وقوله: ﴿فِيٓ أَحۡسَنِ تَقۡوِيمٖ﴾ "وهو اعتداله واستواء شبابه، كذا قال عامة المفسرين. وهو أحسن ما يكون، لأنه- سبحانه وتعالى- خلق كل شئ منكباً علي وجهه، وخلقه هو مستوياً، وله لسان ذلق، ويد وأصابع يقبض بها"[3].

قال ابن العربي: "ليس لله تعالى خلق أحسن من الانسان، فإن الله خلقه حيا عالما، قادرا مريدا متكلما، سميعا بصيرا، مدبرا حكيما. وهذه صفات الرب سبحانه"[4].

"والله سبحانه ﴿أَحۡسَنَ كُلَّ شَيۡءٍ خَلَقَهُۥ﴾ [السجدة: ٧]، ولكن تخصيص الإنسان هنا وفي مواضع قرآنية أخرى بحسن التركيب، وحسن التقويم، وحسن التعديل . . فيه فضل عناية بهذا المخلوق.

وإن عناية الله بأمر هذا المخلوق على ما به من ضعف؛ وعلى ما يقع منه من انحراف عن الفطرة وفساد، لتشير إلى أن له شأناً عند الله، ووزناً في نظام هذا الوجود، وتتجلى هذه العناية في خلقه وتركيبه على هذا النحو الفائق، سواء في تكوينه الجثماني البالغ الدقة والتعقيد، أم في تكوينه العقلي الفريد، أم في تكوينه الروحي العجيب"[5].

و"أفادت الآية أن الله كون الإنسان تكوينا ذاتياً متناسباً لم خلق له نوعه، من الإعداد لنظامه وحضارته. وليس تقويم صورة الإنسان الظاهرة هو المعتبر عند الله تعالى، ولا جديراً بأن يقسم عليه، إذ لا أثر له في

---

(١) تفسير القرآن العظيم ٨/٤٣٥.

(٢) التحرير والتنوير ٣٠/٤٢٢-٤٢٣.

(٣) الجامع لأحكام القرآن ٢٠/١١٤.

(٤) أحكام القرآن لابن العربي ٤/١٩٥٢.

(٥) في ظلال القرآن ٦/٣٩٣٣.

إصلاح النفس وإصلاح الغير وإصلاح الأرض، ولأنه لو كان هو المراد لذهبت المناسبة التي في القسم بالتين والزيتون وطور سنين والبلد الأمين. وإنما هو متمم لتقويم النفس قال النبي صلى الله عليه وسلم : (إن الله لا ينظر إلى أجسادكم ولا إلى صوركم، ولكن ينظر إلى قلوبكم)[1] فإن العقل أشرف ما خص به نوع الإنسان من بين الأنواع ..

فالمرضِيُ عند الله هو تقويم إدراك الإنسان ونظره العقلي الصحيح لأن ذلك هو الذي تصدر عنه أعمال الجسد إذ الجسم آلة خادمة للعقل"[2].

والله تعالى كرم هذه البشرية بأن خلقها على الفطرة فعن أبي هريرة رضي الله عنه أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: (ما من مولود إلا يولد على الفطرة، فأبواه يهودانه أو ينصرانه أو يمجسانه، كما تنتج البهيمة بهيمة جمعاء هل تحسون فيها من جدعاء). ثم قال أبو هريرة رضى الله عنه: واقرؤوا إن شئتم قوله تعالى: ﴿ فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا ۚ فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَا ۚ لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٠﴾ ﴾ [الروم: ٣٠][3].

الوقفة الثانيةَ: بيان جزاء من كفر نعمة التكريم وجزاء من شكرها:

قال تعالى: ﴿ ثُمَّ رَدَدْنَٰهُ أَسْفَلَ سَٰفِلِينَ ﴿٥﴾ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَلَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ ﴾

أولاً: **جزاء من كفر ، قال تعالى:** ﴿ ثُمَّ رَدَدْنَٰهُ أَسْفَلَ سَٰفِلِينَ ﴾:

"الإنسان مهيأ حين ينتكس لأن يهوي إلى الدرك الذي لا يبلغ إليه مخلوق قط: ﴿ أَسْفَلَ سَٰفِلِينَ ﴾.. حيث تصبح البهائم أرفع منه وأقوم، لاستقامتها على فطرتها، وإلهامها تسبيح ربها، وأداء وظيفتها في الأرض على هدى، بينما هو المخلوق في أحسن تقويم، يجحد ربه، ويرتكس مع هواه، إلى درك لا تملك البهيمة أن ترتكس إليه"[4]، قال تعالى: ﴿ وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِّنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ ۖ لَهُمْ قُلُوبٌ لَّا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَّا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ ءَاذَانٌ لَّا يَسْمَعُونَ بِهَآ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ كَٱلْأَنْعَٰمِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْغَٰفِلُونَ ﴿١٧٩﴾ ﴾ [الأعراف ١٧٩]. وقال تعالى: ﴿ أَرَءَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ أَفَأَنتَ تَكُونُ عَلَيْهِ وَكِيلًا ﴿٤٣﴾ أَمْ تَحْسَبُ أَنَّ أَكْثَرَهُمْ يَسْمَعُونَ أَوْ يَعْقِلُونَ ۚ إِنْ هُمْ إِلَّا كَٱلْأَنْعَٰمِ ۖ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلًا ﴿٤٤﴾ ﴾ [الفرقان ٤٣-٤٤].

فهم لما ابتعدوا عن الفطرة حصل لهم هذا السفول بل والخسران كما قال تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَفِى خُسْرٍ ﴾ والخسران هو: "مصدر وهو: ضد الربح في التجارة، واستعير هنا لسوء العاقبة لمن يظن لنفسه

---

(١) أخرجه مسلم كتاب البر والصلة باب تحريم ظلم المسلم..(٢٥٦٤).

(٢) التحرير والتنوير٣٠/٤٢٤.

(٣) أخرجه البخاري كتاب الجنائز باب إذا أسلم الصبي فمات هل يصلى عليه(١٣٥٨)، ومسلم كتاب القدر باب معنى كل مولود يولد على الفطرة (٢٦٥٨).

(٤) في ظلال القرآن ٦/٣٩٣٣.

عاقبة حسنة"[1]، وعلى هذا فالخسران المقصود في الآية هو: " ذهاب رأس مال الإنسان في هلاك نفسه وعمره بالمعاصي، وهما أكبر رأس ماله"[2].

قال ابن كثير رحمه الله عند قوله تعالى: ﴿ كَلَّآ إِنَّ كِتَٰبَ ٱلْفُجَّارِ لَفِى سِجِّينٍ ﴾ [المطففين: ٧]،" أي: إن مصيرهم ومأواهم لفي سجين–فعيل من السَّجن، وهو الضيق، و"سجين" مأخوذ من السَّجن، وهو الضيق، فإن المخلوقات كل ما تسافل منها ضاق، وكل ما تعالى منها اتسع، فإن الأفلاك السبعة كل واحد منها أوسع وأعلى من الذي دونه، وكذلك الأرضون كل واحدة أوسع من التي دونها، حتى ينتهي السفول المطلق والمحل الأضيق إلى المركز في وسط الأرض السابعة.

ولما كان مصير الفجار إلى جهنم وهي أسفل السافلين، كما قال تعالى: ﴿ ثُمَّ رَدَدْنَٰهُ أَسْفَلَ سَٰفِلِينَ ۝٥ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَلَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ ﴾"[3].

ثانياً: جزاء من شكر: ﴿ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَلَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ ﴾.

ثم استثنى الله تعالى فرقة لن تكون في أسفل سافلين وهم: ﴿ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ ﴾ كما استثناهم من الخاسرين فقال تعالى: ﴿ وَٱلْعَصْرِ ۝١ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَفِى خُسْرٍ ۝٢ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلْحَقِّ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلصَّبْرِ ۝٣ ﴾ .

فالإنسان سيرد في أسفل سافلين وإلى الخسران إلا إذا آمن بالله تعالى وعمل عملاً صالحاً، قال القرطبي: "إن الانسان إذا عمر في الدنيا وهرم؛ لفي نقص وضعف وتراجع، إلا المؤمنين، فإنهم تكتب لهم أجورهم التي كانوا يعملونها في حال شبابهم"[4].

فهؤلاء هم الذين يبقون على الفطرة، ويكملونها بالإيمان والعمل الصالح[5]، ويرتقون بها إلى الكمال المقدر لها، حتى ينتهوا بها إلى حياة الكمال في دار الكمال"[6].

"فهذه وتلك نهايتان طبيعيتان لنقطة البدء: إما استقامة على الفطرة القويمة، وتكميل لها بالإيمان، ورفع لها بالعمل الصالح، فهي واصلة في النهاية إلى كمالها المقدر في حياة النعيم وهو المعبر عنه في قوله تعالى: ﴿ فَلَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ ﴾.

وإما انحراف عن الفطرة القويمة، واندفاع مع النكسة، وانقطاع عن النفخة الإلهية، فهي واصلة في النهاية إلى دركها المقرر في حياة الجحيم وهو المعبر عن في قوله تعالى: ﴿ ثُمَّ رَدَدْنَٰهُ أَسْفَلَ سَٰفِلِينَ ﴾"[1].

---

(١) التحرير والتنوير مختصراً ٥٣١/٣٠.

(٢) معالم التتريل ٥٢٢/٨.

(٣) تفسير القرآن العظيم٨/ ٣٤٩.

(٤) الجامع لأحكام القرآن١٨٠/٢٠.

(٥) سيأتي الحديث في سورة العصر عن دور الإيمان والعمل الصالح نجاة الإنسان من السفول والخسران، وما علاقة الإيمان والعمل الصالح بالنجاة وما حقيقة الإيمان والعمل الصالح الذي ينجي .

(٦) الجامع لأحكام القرآن١١٦/٢٠.

ثالثاً: وقفة مع نوعية الجزاء:

قال تعالى :﴿ فَلَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ ﴾ أي: "غير مقطوع"[٢].

وإن المتدبر لقوله تعالى: ﴿فَلَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ ﴾ يجد الفضل الكبير من الله تعالى للذي يحافظ على نعمه. يقول ابن بطال: " فإن قطع العمل بمرض أو شغل وضعف عنه فلا لوم عليه، بل يرجى له من الله ألا يقطع أجره، فقد جاء عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: (إذا مرض العبد أو سافر، كتب له مثل ما كان يعمل مقيما صحيحاً)[٣]، وفى كتاب الله ما يشهد لذلك قوله: ﴿ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَلَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ ﴾ أي: غير مقطوع وإن ضعفوا عن العمل يكتب لهم أجر عملهم في الشباب والصحة"[٤].

وقال: "﴿ فَلَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ ﴾ أي: يريد أن لهم أجرهم في حال الكبر والضعف عما كانوا يفعلونه في الصحة غير مقطوع لهم؛ فلذلك كل مرض وكل آفة من سفر وغيره يمنع من العمل الصالح المعتاد؛ فإن الله قد تفضل بإجراء أجره"[٥]."فهو غير مقطوع بزمان، أو كبر، أو ضعف.

ففي هذا أن الإنسان يبلغ بنيته أجر العامل إذا كان لا يستطيع العمل الذي ينويه"[٦]. كما قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (إن بالمدينة أقوامًا ما سلكنا واديًا وشعبًا إلا وهم معنا، حبسهم العذر)[٧].

والذي يدعو إلى الله ثم يتوفاه الأجل فإن أجر من علَّمهم ودعاهم إلى الله سيظل يجري عليه إلى يوم القيامة، كما قال صلى الله عليه وسلم: (من دعا إلى هدى كان له من الأجر مثل أجور من تبعه لا ينقص ذلك من أجورهم شيئا)[٨]، وقال : (من سن في الإسلام سنة حسنة فعمل بها بعده كتب له مثل أجر من عمل بها ولا ينقص من أجورهم شيء) [٩].

---

(١) في ظلال القرآن ٣٩٣٣/٦ بتصرف.

(٢) الجامع لأحكام القرآن١١٦/٢٠.

(٣) كتاب الجهاد والسير باب يكتب للمسافر مثل ما كان يعمل في الإقامة(٢٩٩٦).

(٤) شرح ابن بطال على البخاري١٤٦/٣.

(٥) شرح ابن بطال على البخاري ١٥٤/٤.

(٦) شرح ابن بطال على البخاري ٤٥/٥.

(٧) أخرجه البخاري كتاب المغازي باب نزول النبي صلى الله عليه و سلم الحجر (٤٤٢٣).

(٨) أخرجه مسلم كتاب العلم باب من سن في الإسلام سنة حسنة..(٢٦٧٤).

(٩) أخرجه مسلم كتاب الزكاة باب الحث على الصدقة..(١٠١٧).

المطلب الثالث

تذكير بموضوع الإيمان بالجزاء والحساب

قال تعالى: ﴿ فَمَا يُكَذِّبُكَ بَعْدُ بِالدِّينِ ﴾ :

"﴿ فَمَا يُكَذِّبُكَ ﴾ يعني: يا ابن آدم ﴿ بَعْدُ بِالدِّينِ ﴾ أي: بالجزاء في المعاد، وقد علمت البدأة، وعرفت أن من قدر على البدأة. فهو قادر على الرجعة بطريق الأولى، فأي شيء يحملك على التكذيب بالمعاد وقد عرفت هذا؟"[(١)]، كما قال تعالى: ﴿ يَوْمَ نَطْوِي السَّمَاءَ كَطَيِّ السِّجِلِّ لِلْكُتُبِ كَمَا بَدَأْنَا أَوَّلَ خَلْقٍ نُعِيدُهُ وَعْدًا عَلَيْنَا إِنَّا كُنَّا فَاعِلِينَ (١٠٤) ﴾ [الأنبياء: ١٠٤].

"فما الذي يكذبك بأن الناس يدانون بأعمالهم، كأنه قال: ومن يقدر على تكذيبك بالثواب والعقاب بعد ما تبين له خلقنا الإنسان على ما وصفنا"[(٢)].

"وإن كان الخطاب للكافر؛ فهو: توبيخ وإلزام للحجة. أي: إذا عرفت أيها الإنسان أن الله خلقك في أحسن تقويم، وأنه يردك إلى أرذل العمر، وينقلك من حال إلى حال، فما يحملك على أن تكذب بالبعث والجزاء، وقد أخبرك محمد صلى الله عليه وسلم به؟

كأنه قال: فمن يقدر على ذلك. أي على تكذيب الثواب والعقاب، بعد ما ظهر من قدرتنا على خلق الإنسان والدين والجزاء"[(٣)].

---

(١) تفسير القرآن العظيم ٨/٤٣٥.

(٢) أخرجه البخاري كتاب التفسير باب(٩٥) والتين والزيتون، وقد ذكره ابن جرير في جامع البيان ٢٤/٥٢٤.

(٣) الجامع لأحكام القرآن ٢٠/١١٦.

المطلب الرابع

الشهادة لله بالحكمة والحكم والإحكام

قال تعالى : ﴿ أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِأَحْكَمِ ٱلْحَٰكِمِينَ ﴿٨﴾ ﴾:

بعد إدراك قيمة الإيمان في حياة الناس، وبعدما تبين مصير الذين لا يؤمنون، ولا يهتدون بهذا النور، ولا يمسكون بحبل الله المتين!! بعد هذا يقرر الله سبحانه قضية مهمة وهي قوله تعالى: ﴿ أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِأَحْكَمِ ٱلْحَٰكِمِينَ ﴾ وهذا الاستفهام التقريري له معان كلها تصب في باب الحكمة والعدل وإحسان الخلق، فيمن معاني الآية :

أولاً: العادل في حكمه: قال ابن كثير: أي: أما هو أحكم الحاكمين، الذي لا يجور ولا يظلم أحدًا، ومن عَدْله أن يقيم القيامة فينصف المظلوم في الدنيا ممن ظلمه"[1].

ومما يستفاد من هذا المعنى:

١ -"وعيد للكفار وأنه عز وجل يحكم عليهم بما هم أهله من العذاب"[2].

٢ -"وتسليته صلى الله عليه وسلم في تركهم والإعراض عنهم"[3].

٣ -"أن هذا تنبيه من الله تعالى لنبيه عليه السلام بأنه يحكم بينه وبين خصومه يوم القيامة بالعدل"[4].

٤ -"يعمل بالعدل مع الكفار، ومع المؤمنين بالفضل"[5].

٥ -"ومعنى التفضيل أن حكمه أسد وأنفذ"[6].

٦ -"كيف يظن إذا أن الناس يعملون متفاوتين في أعمالهم في هذه الدنيا ثم يموتون سواء ولا جزاء بعد بالثواب ولا بالعقاب هذا ظلم وباطل ومنكر يتره الرب عنه سبحانه وتعالى فقضية البعث الآخر لا تقبل الجدل والمماحكة بحال من الأحوال"[7].

"فهل تقتضي حكمته أن يترك الخلق سدى لا يؤمرون ولا ينهون، ولا يثابون ولا يعاقبون؟ أم الذي خلق الإنسان أطوارًا بعد أطوار، وأوصل إليهم من النعم والخير والبر ما لا يحصونه، ورباهم التربية الحسنة، لا بد أن يعيدهم إلى دار هي مستقرهم وغايتهم، التي إليها يقصدون، ونحوها يؤمون"[1].

---

(١) تفسير القرآن العظيم ٨/٤٣٥.

(٢) روح المعاني ٣٠/ ٢٢٦

(٣) زاد المسير ٩/١٧٤.

(٤) مفاتيح الغيب ٣٢/١٢.

(٥) بحر العلوم للسمرقندي ٣/٥٩٦ .

(٦) التحرير والتنوير ٣٠/٥٣٣.

(٧) أيسر التفسير للجزائري ٤/٤١٤.

ثانياً: المتقن لخلقه: قال القرطبي: " أي أتقن الحاكمين صنعاً في كل ما خلق: ﴿بِأَحۡكَمِ ٱلۡحَٰكِمِينَ ﴾ قضاء بالحق، وعدلا بين الخلق"[2].

ومما يستفاد من هذا المعنى:

١ - " تحقيق لما ذكر من خلق الإنسان ثم رده إلى أرذل العمر.

٢ - وإذا ثبتت القدرة والحكمة بهذه الدلالة صح القول بإمكان الحشر ووقوعه، أما الإمكان فبالنظر إلى القدرة، وأما الوقوع فبالنظر إلى الحكمة لأن عدم ذلك يقدح في الحكمة ، كما قال تعالى: ﴿وَمَا خَلَقۡنَا ٱلسَّمَآءَ وَٱلۡأَرۡضَ وَمَا بَيۡنَهُمَا بَٰطِلٗاۚ ذَٰلِكَ ظَنُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْۚ فَوَيۡلٞ لِّلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنَ ٱلنَّارِ ٢٧﴾ [ص: ٢٧]"[3].

ثالثاً: "أحكم الحاكمين علماً وقدرة وعدلاً وحكمة: بما شوهد من إبداعه الخلق ومفاوتته بينهم، وجعل الإنسان من بينهم على أحسن تقويم، فلا بد أن يقيم الجزاء ويضع الموازين القسط ليوم القيامة فيظهر عدله وحكمته وفضله، وهذا الآخر هو أولها قسماً من جهة النبوات التي ظهر بها حكمه وحكمته، ومقسماً عليه من حيث إن الخلق في أحسن تقويم يقتضي العدل لا محالة، والرد أسفل سافلين يتقاضى الحكم حتماً لأجل ما يقع من الظلم والتشاجر بين من استمر على الفطرة القويمة ومن رد لأسفل سافلين"[4].

"وأياً ما كان فالاستفهام على ما قيل تقرير بما بعد النفي"[5]، فقد ورد عن أبي هريرة رضي الله عنه مرفوعًا: (فإذا قرأ أحدكم ﴿وَٱلتِّينِ وَٱلزَّيۡتُونِ ﴾ فأتى على آخرها: ﴿ أَلَيۡسَ ٱللَّهُ بِأَحۡكَمِ ٱلۡحَٰكِمِينَ ﴾ فليقل: بلى، وأنا على ذلك من الشاهدين)[6].

---

(١) تيسر الكريم الرحمن ٩٢٩.

(٢) الجامع لأحكام القرآن ١١٧/٢٠.

(٣) مفاتيح الغيب ١٢/٣٢.

(٤) نظم الدر للبقاعي ٤٦٦/٩.

(٥) روح المعاني٣٠/ ٢٢٦.

(٦) أخرجه أبو داود باب مقدار الركوع والسجود (٨٨٤)، وأحمد ٢٤٩/٢(٧٣٨٥)، والترمذي كتاب تفسير القرآن باب ومن سورة التين (٣٣٤٧)، قال البوصيري في إتحاف المهرة ٩٨/٦ " هذا إسناد ضعيف لجهالة التابعي"، ضعيف أبي داود (١٥٦)، وحسنه بعضهم موقوفاً ، انظر: تخريج أحاديث وآثار كتاب في ظلال القرآن ٥١٦ (٩٦٢).

تفسير سورة العلق

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿ اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ (١) خَلَقَ الْإِنسَانَ مِنْ عَلَقٍ (٢) اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ (٣) الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ (٤) عَلَّمَ الْإِنسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ (٥) كَلَّا إِنَّ الْإِنسَانَ لَيَطْغَىٰ (٦) أَن رَّآهُ اسْتَغْنَىٰ (٧) إِنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ الرُّجْعَىٰ (٨) أَرَأَيْتَ الَّذِي يَنْهَىٰ (٩) عَبْدًا إِذَا صَلَّىٰ (١٠) أَرَأَيْتَ إِن كَانَ عَلَى الْهُدَىٰ (١١) أَوْ أَمَرَ بِالتَّقْوَىٰ (١٢) أَرَأَيْتَ إِن كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ (١٣) أَلَمْ يَعْلَم بِأَنَّ اللَّهَ يَرَىٰ (١٤) كَلَّا لَئِن لَّمْ يَنتَهِ لَنَسْفَعًا بِالنَّاصِيَةِ (١٥) نَاصِيَةٍ كَاذِبَةٍ خَاطِئَةٍ (١٦) فَلْيَدْعُ نَادِيَهُ (١٧) سَنَدْعُ الزَّبَانِيَةَ (١٨) كَلَّا لَا تُطِعْهُ وَاسْجُدْ وَاقْتَرِب ۩ (١٩) ﴾

المبحث الأول

مقدمات حول السورة

أولاً : تسميتها:

عن عائشة رضي الله عنها قالت: (أول سورة نزلت من القرآن ﴿ اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ ﴾)(١)،وبذلك عنونها الترمذي(٢)، وعنونها البخاري ﴿ اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ ﴾ (٣).

وسميت في المصاحف ومعظم التفاسير (سورة العلق)(٤)،وتسمى (سورة اقرأ) (٥) وقد تسمى بهما(٦).

أما عدد آياتها (١٩) آية، وكلماتها: (٣٤) كلمة، وحروفها: (١٥٠) حرفاً(٧).

ثانياً: نزولها:

وهي مكية باتفاق، وأول ما نزل من القرآن(٨).

---

(١) أخرجه الحاكم في المستدرك ١٧٩/٩برقم(٣٩١٤)،وقال حديث صحيح على شرطهما و لم يخرجاه.

(٢) جامع الترمذي كتاب التفسير باب ما جاء في ﴿ اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ ﴾ رقم (٨٤).

(٣) أخرجه البخاري كتاب التفسير باب سورة ﴿ اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ ﴾.

(٤) القرطبي ١١٧/٢٠، البغوي ٤٧٤/٨، روح المعاني ١٧٧/٣٠ وغيرها .

(٥) جامع البيان ٥٢٧/٢٤ ، تفسير القرآن العظيم ٤٣٦/٨، تيسير الكريم الرحمن ٩٢٩ وغيرهم .

(٦) ذكر ذلك ابن عاشور في التحرير والتنوير ٤٣٣/٣٠ عن الكواشي في التلخيص.

(٧) التفسير القرآني للقرآن ٧٩/٣.

(٨) تفسير القرآن العظيم ٤٣٧/٨ القرطبي ١١٧/٢٠

فعن عائشة أم المؤمنين رضي الله عنها أنها قالت: أول ما بدئ به رسول الله – صلى الله عليه وسلم – من الوحي الرؤيا الصالحة في النوم، فكان لا يرى رؤيا إلا جاءت مثل فلق الصبح، ثم حُبب إليه الخلاء، وكان يخلو بغار حراء فيتحنث فيه – وهو التعبد – الليالي ذوات العدد قبل أن ينزع إلى أهله ، ويتزود لذلك، ثم يرجع إلى خديجة فيتزود لمثلها، حتى جاءه الحق وهو في غار حراء، فجاءه الملك فقال: اقرأ . قال: (ما أنا بقارئ) . قال: (فأخذني فغطني حتى بلغ مني الجهد ، ثم أرسلني فقال: اقرأ. قلت: ما أنا بقارئ. (فأخذني فغطني الثانية حتى بلغ مني الجهد، ثم أرسلني فقال: اقرأ. فقلت: ما أنا بقارئ. فأخذني فغطني الثالثة، ثم أرسلني فقال: ﴿ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلَّذِى خَلَقَ ﴿١﴾ خَلَقَ ٱلْإِنسَـٰنَ مِنْ عَلَقٍ ﴿٢﴾ ٱقْرَأْ وَرَبُّكَ ٱلْأَكْرَمُ ﴿٣﴾ ٱلَّذِى عَلَّمَ بِٱلْقَلَمِ ﴿٤﴾ عَلَّمَ ٱلْإِنسَـٰنَ مَا لَمْ يَعْلَمْ ﴾) .

فرجع بها رسول الله – صلى الله عليه وسلم – يرجف فؤاده، فدخل على خديجة بنت خويلد رضى الله عنها فقال: (زملوني زملوني)[1] . فزملوه حتى ذهب عنه الروع[2] ، فقال لخديجة وأخبرها الخبر (لقد خشيت على نفسي) . فقالت خديجة: كلا والله ما يخزيك الله أبداً، إنك لتصل الرحم، وتحمل الكل[3]، وتكسب المعدوم[4]، وتقري[5] الضيف، وتعين على نوائب الحق. فانطلقت به خديجة حتى أتت به ورقة بن نوفل بن أسد بن عبدالعزى– ابن عم خديجة – وكان امرءاً تنصر في الجاهلية، وكان يكتب الكتاب العبراني، فيكتب من الإنجيل بالعبرانية ما شاء الله أن يكتب، وكان شيخاً كبيرا قد عمى – فقالت له خديجة: يا ابن عم اسمع من ابن أخيك. فقال له ورقة: يا ابن أخي ماذا ترى؟ فأخبره رسول الله – صلى الله عليه وسلم – خبر ما رأى. فقال له ورقة: هذا الناموس[6] الذي نَزَّل الله على موسى عليه السلام يا ليتني فيها جذعاً[7]، ليتني أكون حياً إذ يخرجك قومك. فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : (أومخرجي هم؟!). قال: نعم، لم يأت رجل قط بمثل ما جئت به إلا عودي، وإن يدركني يومك أنصرك نصرا مؤزرا. ثم لم ينشب ورقة أن توفى، وفتر[8] الوحي[9] .

---

(١) زمل: لف وغطى.

(٢) الروع: الفزع والخوف.

(٣) الكل: أصله الثقل ويدخل في حمل الكل الإنفاق على الضعيف واليتيم والعيال .

(٤) تكسب: تعطى المال للفقير، والمعدوم : الشيء المعدوم الذي لا يجدونه أو الفقير الذي صار كالمعدوم .

(٥) تقري: تكرم الضيف وتقوم بحق ضيافته .

(٦) الناموس: الوحي.

(٧) جذعا: شابا فتيا.

(٨) فتر: انقطع .

(٩) أخرجه البخاري كتاب بدأ الوحي باب كيف كان بدء الوحي إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم(٣)، ومسلم كتاب الإيمان باب بدء الوحي إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم (١٦٠).

ثالثاً: فضلها ومناسبتها :

قال ابن كثير رحمه الله: "فأول شيء نزل من القرآن هذه الآيات الكريمات المباركات وهُنَّ أول رحمة رَحم الله بها العباد، وأول نعمة أنعم الله بها عليهم"[(١)].

مناسبتها لما قبلها :

تضمنت "سورة « التين » مواجهة للإنسان فى خلقه القويم ، الجليل ، الذي خلقه اللّه عليه ، وأن هذا الإنسان إذا استطاع أن يحتفظ بهذا الخلق الكريم ، كان فى أعلى عليين .. أما إذا لم يحسن سياسة هذا الخلق ، و لم يحسن تدبيره فإنه يهوى إلى أسفل سافلين.

وتبدا سورة « العلق » بهذه الواجهة مع الإنسان فى أعلى منازله ، وأكرم وأشرف صورة له ، وهو رسول اللّه « محمد » صلوات اللّه وسلامه عليه ، مدعوّا من ربه إلى أكمل كمالات الإنسان ، وأكرم ما يتناسب مع كماله وشرفه ، وهو القراءة ، التي هى مجلى العقل ، ومنارة هديه ورشده.

وبهذا تكون المناسبة جامعة بين السورتين ، ختاما ، وبدءا"[(٢)].

رابعاً: موضوعها :

١- ابتدأت بفضل الله تعالى بإنزاله القرآن ، وعرض نعم الله تعالى على الإنسان من الخلق والتربية، والتعليم، والكرامة بالإسلام والهداية بعدما ما كانت البشرية في جهل في جميع المجالات، وذل للواقع والشهوات.

٢- وتحدثت عن طغيان الإنسان في هذه الحياة بالقوة والثراء وتمرده على أوامر الله بسبب الغنى، بينما الواجب عليه أن يشكر النعمة لا أن يجحدها.

٣- ثم تناولت قصة أبي جهل الذي كان يتوعد الرسول عليه الصلاة والسلام وينهاه عن الصلاة والدعوة إلى الهدى والتقوى.

٤- إعلام النبي صلى الله عليه وسلم أن الله عالم بأمر من يناوؤنه وأنه قامعهم وناصر رسوله صلى الله عليه وسلم وأن لا يعبأ بقوة أعداءه لأن قوة الله تقهرهم.

٥- تثبيت الرسول صلى الله عليه وسلم على ما جاءه من الحق والصلاة والتقرب إلى الله، وتابعت ذلك بوعيد ذلك الكافر بأشد العقاب إن استمر على ضلاله ،كما أمرت الرسول الكريم بعدم الإصغاء له ، ثم ختمت بالدعوة للصلاة والعبادة وبذالك يتناسق البدء مع الختام.

---

(١) تفسير القرآن العظيم ٤٣٧/٨.

(٢) تفسير القرآن العظيم ٤٣٧/٨ ، والقرطبي ١١٧/٢٠

خامساً: المعنى الإجمالي للسورة:

﴿ ٱقۡرَأۡ ﴾ أيها النبي ما أُنزل إليك من القرآن مُفْتَتِحًا ﴿ بِٱسۡمِ رَبِّكَ ﴾ المتفرد بالخلق، الذي خلق كل إنسان من قطعة دم غليظ أحمر. ﴿ ٱقۡرَأۡ ﴾ أيها النبي- ما أُنزل إليك، وإن ربك لكثير الإحسان واسع الجود، ﴿ ٱلَّذِى عَلَّمَ ﴾ خلقه الكتابة ﴿ بِٱلۡقَلَمِ ﴾، ﴿ عَلَّمَ ٱلۡإِنسَٰنَ ﴾ ما لم يكن يعلم، ونقله من ظلمة الجهل إلى نور العلم.

﴿ كَلَّآ إِنَّ ٱلۡإِنسَٰنَ لَيَطۡغَىٰٓ ﴿٦﴾ أَن رَّءَاهُ ٱسۡتَغۡنَىٰٓ ﴿٧﴾ إِنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ ٱلرُّجۡعَىٰٓ ﴿٨﴾ ﴾ حقاًإن الإنسان ليتجاوز حدود الله إذا أبطره الغنى، فليعلم كل طاغية أن المصير إلى الله، فيجازي كلَّ إنسان بعمله.

﴿ أَرَءَيۡتَ ﴾ أعجب مِن طغيان هذا الرجل -وهو أبو جهل - ﴿ ٱلَّذِى يَنۡهَىٰ ﴿٩﴾ عَبۡدًا ﴾ لنا ﴿ إِذَا صَلَّىٰٓ ﴾ لربه. ﴿ أَرَءَيۡتَ إِن كَانَ ﴾ المنهي عن الصلاة ﴿ عَلَى ٱلۡهُدَىٰٓ ﴾ فكيف ينهاه؟ أو إن كان آمرًا غيره ﴿ بِٱلتَّقۡوَىٰٓ ﴾ أينهاه عن ذلك؟ ﴿ أَرَءَيۡتَ إِن كَذَّبَ ﴾ هذا الناهي بما يُدعى إليه، وأعرض عنه، ﴿ أَلَمۡ يَعۡلَم بِأَنَّ ٱللَّهَ يَرَىٰ ﴾ يرى كل ما يفعل؟ ليس الأمر كما يزعم أبو جهل.

فلئن لم يرجع هذا عن شقاقه وأذاه لنأخذنَّ بمقدَّم رأسه أخذًا عنيفًا، ويُطرح في النار، ناصيته ﴿ نَاصِيَةٍ كَٰذِبَةٍ ﴾ في مقالها، ﴿ خَاطِئَةٍ ﴾ في أفعالها. فليُحْضِر هذا الطاغية أهل ناديه الذين يستنصر بهم، سندعو ملائكة العذاب. فـــ ﴿ لَا تُطِعۡهُ ﴾ فيما دعاك إليه مِن تَرْك الصلاة، ﴿ وَٱسۡجُدۡ ﴾ لربك ﴿ وَٱقۡتَرِب ﴿١٩﴾ ﴾ منه بالتحبب إليه بطاعته[1].

(١) التفسير الميسر ٥٩٧- ٥٩٨.

المبحث الثاني
وقفات حول سورة العلق
المطلب الأول
حدث عظيم في تاريخ البشرية

إنه حادث عظيم، عظيم جداً، ومهما حاولنا اليوم أن نحيط بقيمته فإن جوانب كثيرة منه ستظل خارج تصورنا! إنه حادث عظيم بحقيقته، وعظيم بدلالته، وبعيدٌ بآثاره في حياة البشرية.. وهذه اللحظة التي تم فيها هذا الحادث تعد – بغير مبالغة – أهم لحظة مرت بهذه الأرض في تاريخها الطويل.

حقيقة هذا الحدث: أن الله جل جلاله قد كرّم هذه الخليقة باختيار واحد منها ليكون مُلتقِي نوره الإلهي، ومبلغ كلماته إلى العالمين، وممثل قدره الذي يريده سبحانه بهذه الخليقة، وخاتم رسله إلى الناس أجمعين. بل رسوله إلى الثقلين.

أما دلالة هذا الحدث: فهي أن الله سبحانه ذو الفضل الواسع، والرحمة السابغة، الكريم الودود المنان. يفيض من عطائه ورحمته على خلقه بلا سبب منهم، ولا حاجة إليهم، سوى أن هذا الفيض والعطاء بعض آثار أسمائه وصفاته الحسنى .

ومن دلالاته: أن الله سبحانه قد أكرم الإنسان كرامة لا يكاد يتصورها، ولا يملك أن يشكرها. وأن هذه وحدها لا ينهض لها شكره ولو قضى عمره راكعاً ساجداً.. وهي: أن يَذكره الله، ويلتفت إليه، ويصله به، ويختار من جنسه رسولاً يوحي إليه بكلماته. وأن تصبح الأرض مهبطاً لهذه الكلمات التي يحيا بها الخلق في خشوع وابتهال، قال تعالى: ﴿لَقَدْ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ يَتْلُواْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَإِن كَانُواْ مِن قَبْلُ لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿١٦٤﴾﴾ [آل عمران: ١٦٤].

فأما آثار هذا الحادث: فقد بدأت منذ اللحظة الأولى، بدأت في تحويل خط الجهة التي يتطلع إليها الإنسان ويتلقى عنها تصوراته وقيمه وموازينه.. إنها ليست الأرض وليس الهوى .. إنما هي الرسالة والوحي الذي يبلغه الرسول صلى الله عليه وسلم عن الرب سبحانه وتعالى.

ومنذ هذه اللحظة عاش الذين استقرت في أرواحهم هذه الحقيقة .. في كنف الله ورعايته المباشرة الظاهرة. عاشوا يتطلعون إلى الله مباشرة في كل أمرهم – كبيره وصغيره– يعيشون ويتحركون تحت عين الله. وينتظرون ويتلهفون أن تمتد رعايته سبحانه فتنقل خطاهم في الطريق خطوة خطوة، تردهم عن الخطأ وتقودهم إلى الصواب، وفي كل ليلة كانوا يبيتون في ارتقاب أن يتنزل عليهم من الله وحي يحدثهم بما تحتاجه نفوسهم، ويفصل في مشكلاتهم، ويقول لهم: خذوا هذا ودعوا ذاك!.

لقد كانت فترة الثلاثة والعشرين عاماً التالية لهذا الحدث العظيم فترة لا يتصور حقيقتها إلا الذين عاشوها، وأحسوها، وشهدوا بدأها ونهايتها، وذاقوا حلاوة هذا الاتصال، ورأوا من أين بدأوا وإلى أين انتهوا..كيف كانوا في السابق وكيف أصبحوا بعد هذا الوحي، وهي مسافة هائلة لا تقاس بأي مقياس من مقاييس الأرض، قال تعالى: ﴿أَوَمَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُورًا يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ كَمَن مَّثَلُهُ فِي الظُّلُمَاتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِّنْهَا كَذَلِكَ زُيِّنَ لِلْكَافِرِينَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (١٢٢)﴾ [الأنعام: ١٢٢].

وكانوا يعرفون مذاقها. ويدركون حلاوتها. ويشعرون بقيمتها ، ويحسون وقع فقدانها حينما انتقل رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى الرفيق الأعلى، وانقطعت هذه الفترة العجيبة التي لا يكاد العقل يتصورها لولا أنها وقعت حقاً، ونحن نعيش اليوم نقتطف ثمارها ونرى آثارها .

فعن أنس رضي الله عنه قال: قال أبو بكر لعمر رضي الله عنهما بعد وفاة رسول الله صلى الله عليه وسلم: انطلق بنا إلى أم أيمن رضي الله عنها نزورها كما كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يزورها. فلما أتيا إليها بكت. فقالا لها: ما يبكيك؟! أما تعلمين أن ما عند الله خير لرسول الله صلى الله عليه وسلم! قالت: بلى، إني لأعلم أن ما عند الله خير لرسول صلى الله عليه وسلم، ولكن أبكي أن الوحي قد انقطع من السماء. فهيجتهما على البكاء، فجعلا يبكيان معها[1].

ولقد ظلت آثار هذا الوحي ظاهرة في حياة البشر منذ تلك اللحظة إلى هذه اللحظة، وإلى أن يرث الله الأرض ومن عليها، لقد ولد الإنسان من جديد باستمداد قيمه من السماء لا من الأرض، واستمداد شريعته من الوحي الإلهي لا من الهوى قال تعالى: ﴿أَوَمَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُورًا يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ﴾ .

وكان هذا الحدث هو مفرق الطريق . وقامت المعالم عليه ومنه في الأرض، واضحة عالية لا يطمسها الزمان، ولا تطمسها الأحداث. وقام في الإنسان تصور للوجود وللحياة وللقيم لم يسبق أن اتضح بمثل هذه الصورة بغير وحي من الله عز وجل . ولن يجيء بعده تصور في مثل شموله ونصاعته وطلاقته من اعتبارات الأرض جميعاً، مع واقعيته وملاءمته للحياة الإنسانية. ولقد استقرت قواعد هذا الدين الإلهي في الأرض، وتبينت خطوطه ومعالمه ﴿لِّيَقْضِيَ اللَّهُ أَمْرًا كَانَ مَفْعُولًا لِّيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَن بَيِّنَةٍ وَيَحْيَىٰ مَنْ حَيَّ عَن بَيِّنَةٍ﴾ [الأنفال: ٤٢] لا غموض ولا إبهام. إنما هو الضلال عن علم، والانحراف عن عمد، والالتواء عن قصد[2]، قال تعالى: ﴿ قَدْ نَعْلَمُ إِنَّهُ لَيَحْزُنُكَ الَّذِي يَقُولُونَ فَإِنَّهُمْ لَا يُكَذِّبُونَكَ وَلَٰكِنَّ الظَّالِمِينَ بِآيَاتِ اللَّهِ يَجْحَدُونَ (٣٣)﴾ [الأنعام: ٣٣].

نسأل الله العفو والعافية، وأن يثبتنا على الهدى والنور إلى يوم نلقاه.

---

(١) أخرجه مسلم كتاب فضائل الصحابة باب فضائل أم أيمن (٢٤٥٤).

(٢) في ظلال القرآن ٦/٣٩٣٦-٣٩٣٨ باختصار وتصرف .

المطلب الثاني

آيات التوجيه الأولى للأمة

﴿ اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ (١) خَلَقَ الْإِنسَانَ مِنْ عَلَقٍ (٢) اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ (٣) الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ (٤) عَلَّمَ الْإِنسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ (٥) ﴾ هذه خمس آيات هي أول توجيه لمحمد صلى الله عليه وسلم وأمته، فيا ترى ما هي أسرار ذلك التوجيه وأثره في بداية الدعوة ؟

المحور الأول: أسرار التوجيه في الآيات

أولاً: البداية بالأمر بالبسملة:: ﴿ اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ ﴾ :

هذه بداية السورة الأولى من القرآن، وهي التوجيه الأول؛ في اللحظة الأولى من الوحي، وفي أول خطوة من خطوات طريق الدعوة إلى الله فهي تبدأ باسم الله .

وفي هذا إشارة إلى بداية كل أمر أن تكون بالبسملة، وهذه سنة الله تعالى في كتابه فقد بدأت أول سورة في المصحف بالبسملة وهي آية من الفاتحة على الراجح.

وهذا نبي الله سليمان عليه السلام يفتتح كاتبه إلى ملكة سبأ بالمسملة قال تعالى: ﴿ إِنَّهُ مِن سُلَيْمَانَ وَإِنَّهُ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ (٣٠) ﴾ [النمل: ٣٠].

وفي قصة نوح عليه السلام يقول الله تعالى: ﴿ وَقَالَ ارْكَبُوا فِيهَا بِسْمِ اللَّهِ مَجْرَاهَا وَمُرْسَاهَا ۚ إِنَّ رَبِّي لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ (٤١) ﴾ [هود: ٤١].

ونرى هذا جلياً في تعليم النبي صلى الله عليه وسلم لأمته حيث كان يأمرهم في بداية كل أمر أن يقولوا بسم الله، في الوضوء ودخول المسجد، ودخول البيت والخروج منه، وفي بداية الطعام، وفي اتيان الرجل زوجته وفي كل أحوالهم، والأدلة على ذلك كثيرة.

وقد ابتدأ البخاري رحمه الله كتابه الصحيح بالبسملة فقال رحمه الله: "بِسْمِ اللَّه الرَّحْمَن الرَّحِيم . كَيْفَ كَانَ بَدْء الْوَحْي إِلَى رَسُول اللَّه صَلَّى اللَّه عَلَيْهِ وَسَلَّمَ"، وعلق ابن حجر على هذه البداية بقوله:"

ويؤيده أن أول شيء نزل من القرآن ﴿ اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ ﴾ فطريق التأسي به الافتتاح بالبسملة، ويؤيده أيضا وقوع كتب رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى الملوك وكتبه في القضايا مفتتحة بالتسمية كما سيأتي في حديث أبي سفيان في قصة هرقل في هذا الباب، وفي حديث البراء في قصة سهيل بن عمرو في صلح الحديبية، وغير ذلك من الأحاديث .."[1].

---

(١) انظر: فتح الباري١/١ مختصراً.

ثانياً: اختيار اسم الله (الرب) في بداية التنزيل:﴿ بِٱسۡمِ رَبِّكَ ﴾:

﴿ بِٱسۡمِ رَبِّكَ ﴾ فيه إشارة على ربوبية الله تعالى، وعنايته به وبخلقه، وتذكيرهم بهذه النعمة، فعندما خلقهم لم يتركهم سدى!! بل ربّاهم وقام على إصلاح شؤونهم .

"وعدل عن اسم: (الله) العلم إلى صفة ﴿ رَبِّكَ ﴾ لما يؤذن وصف الرب من الرأفة بالمربوب والعناية به، مع ما يتأتى بذكره من إضافته إلى ضمير النبي صلى الله عليه وسلم إضافة مُؤْذِنَة بأنه المنفرد بربوبيته عنده، رداً على الذين جعلوا لأنفسهم أربابا من دون الله، فكانت هذه الآية أصلاً للتوحيد في الإسلام"[1].

ثالثاً: من أعظم آثار الرب صفة الخلق والبدء : ﴿ ٱلَّذِى خَلَقَ ﴾:

مِنّةٌ من الله تعالى في بداية رسالته لخلقه أن يُذكرهم أنه هو الذي خلقهم، ولذلك فهو أعلم بهم وبما يصلحهم، وأنه يجب عليهم أن يشكروا تلك النعمة بالاستسلام لما سيمليه عليهم من توجيهات.

"وجاء في وصف الرب ﴿ ٱلَّذِى خَلَقَ ﴾ لأن في ذلك استدلالا على انفراد الله بالإلهية لأن هذا القرآن سيتلى على المشركين ،وإذا كانت علة الإقبال على ذكر اسم الرب هي أنه خَالِقٌ دلَّ ذلك على بطلان الإقبال على ذكر غيره مما ليس بخالق، فالمشركون كانوا يقبلون على اسم اللات واسم العزى!! وأما كون الله هو الخالق فهم يعترفون به، قال تعالى : ﴿وَلَئِن سَأَلۡتَهُم مَّنۡ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُۚ قُلِ ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِۚ بَلۡ أَكۡثَرُهُمۡ لَا يَعۡلَمُونَ ٢٥﴾ [لقمان: ٢٥]، فلما كان المقام مقام ابتداء الإسلام دين التوحيد كان مقتضياً لذكر أدل الأوصاف على وحدانيته"[2].

رابعاً: تخصيص خلق الإنسان بالذكر:﴿ خَلَقَ ٱلۡإِنسَٰنَ ﴾:

وهذا التخصيص سببه "أن الإنسان هو المقصود من الاستدلال إذ لا يغفل أحد من الناس عن نفسه، ولا يخلو من أن يخطر له خاطر البحث عن الذي خلقه وأوجده لذلك، وفيه تعريض بتحميق المشركين الذين ضلوا عن توحيد الله تعالى مع أن دليل الوحدانية قائم في أنفسهم"[3]. وخص الإنسان بالذكر تشريفاً له.

خامساً: أول خلق الإنسان ومبدأه وأول مرحلة من مراحله: ﴿ خَلَقَ ٱلۡإِنسَٰنَ مِنۡ عَلَقٍ ﴾:

العلق:"جمع علقة، والعلقة الدم الجامد، سميت بذلك لأنه تعلق لرطوبتها بما تمر عليه، فإذا جفت لم تكن علقة، وأراد أن يبين قدر نعمته عليه بأن خلقه من علقة حتى صار بشراً سوياً وعقلاً مميزاً"[4].

---

(١) التحرير والتنوير٣٠/٤٣٧.
(٢) التحرير والتنوير٣٠/٤٣٧، باختصار وتصرف .
(٣) التحرير والتنوير٣٠/٤٣٨. مختصراً
(٤) الجامع لأحكام القرآن ٢٠/١١٩.

وفي هذا "إشارة إلى ما ينطوي في أصل خلق الإنسان من بديع الأطوار والصفات التي جعلته سلطان هذا العالم الأرضي .

ومن المعلوم أن نطفة الذكر ونطفة المرأة بعد الاختلاط ومضي مدة كافية تصيران علقة، فقد أخذت الآية في ذكر أطوار التكون؛ فجعلت العلقة مبدأ الخلق، ولم تجعل النطفة مبدأ الخلق ؛ ولأن النطفة اشتهرت في ماء الرجل فلو لم تخالطه نطفة المرأة لم تصر العلقة فلا يتخلق الجنين.

وفيه إشارة إلى أن خلق الإنسان من علق ثم مصيره إلى كمال أشده هو خلق ينطوي على قوى كامنة وقابليات عظيمة أقصاها قابلية العلم والكتابة"[1] المشار إليها في الآية بعْدُ .

سادساً: بيان كرم الله تعالى على خلقه: ﴿ ٱقۡرَأۡ وَرَبُّكَ ٱلۡأَكۡرَمُ ﴾ :

﴿ ٱلۡأَكۡرَمُ ﴾ هو: "كثير الصفات واسعها، كثير الكرم والإحسان، واسع الجود"[2].

"وَوَصْفُ ﴿ ٱلۡأَكۡرَمُ ﴾ مصوغٌ للدلالة على قوة الاتصاف بالكرم وليس مصوغا للمفاضلة"[3].

"فدل على كمال كرمه سبحانه، بأنه علم عباده ما لم يعلموا، ونقلهم من ظلمة الجهل إلى نور العلم"[4]، وقبل ذلك خلقهم من العدم ﴿ فِيٓ أَحۡسَنِ تَقۡوِيمٖ ﴾ [التين: ٤]، وأرسل إليهم أفضل رسله وأنزل إليهم خير كتبه، وجعلهم الأمة الخاتمة، وأكمل لهم دينهم، ورضي لهم الإسلام دينا، قال تعالى: ﴿ ٱلۡيَوۡمَ أَكۡمَلۡتُ لَكُمۡ دِينَكُمۡ وَأَتۡمَمۡتُ عَلَيۡكُمۡ نِعۡمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلۡإِسۡلَٰمَ دِينٗا ﴾[المائدة: ٣].

وجعلهم من خير أمة أخرجت للناس متى تمسكوا بهذا الدين علماً وعملاً ودعوة، قال تعالى: ﴿ كُنتُمۡ خَيۡرَ أُمَّةٍ أُخۡرِجَتۡ لِلنَّاسِ ﴾ [آل عمران: ١١٠] .

بل رحمهم بشريعة سمحة كلها تيسير ورحمة، قال تعالى: ﴿ ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلرَّسُولَ ٱلنَّبِيَّ ٱلۡأُمِّيَّ ٱلَّذِي يَجِدُونَهُۥ مَكۡتُوبًا عِندَهُمۡ فِي ٱلتَّوۡرَىٰةِ وَٱلۡإِنجِيلِ يَأۡمُرُهُم بِٱلۡمَعۡرُوفِ وَيَنۡهَىٰهُمۡ عَنِ ٱلۡمُنكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيۡهِمُ ٱلۡخَبَٰٓئِثَ وَيَضَعُ عَنۡهُمۡ إِصۡرَهُمۡ وَٱلۡأَغۡلَٰلَ ٱلَّتِي كَانَتۡ عَلَيۡهِمۡۚ فَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِهِۦ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَٱتَّبَعُواْ ٱلنُّورَ ٱلَّذِيٓ أُنزِلَ مَعَهُۥٓ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُفۡلِحُونَ ﴿١٥٧﴾ ﴾ [الأعراف: ١٥٧].

ولو تركنا المجال للحديث عن كرم الله تعالى من خلال هذه الرسالة الخالدة لن نحصيها والله يقول: ﴿ وَإِن تَعُدُّواْ نِعۡمَةَ ٱللَّهِ لَا تُحۡصُوهَآۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَغَفُورٞ رَّحِيمٞ ﴿١٨﴾ ﴾ [النحل: ١٨].

ومن كرمه نعمة العلم بعد الجهل التي في الآية التالية :

---

(١) التحرير والتنوير٣٠/٤٣٨. مختصراً

(٢) تيسير الكريم الرحمن٩٣٠.

(٣) التحرير والتنوير ٣٠/٤٣٦.

(٤) الجامع لأحكام القرآن ٢٠/١٢٠.

سابعاً: المنة بتعليم الإنسان: ﴿ٱلَّذِى عَلَّمَ بِٱلْقَلَمِ﴾:

وذكر القلم عن سائر أدوات التعليم: "لأن القلم كان وما يزال أوسع وأعمق أدوات التعليم أثراً في حياة الإنسان، و لم تكن هذه الحقيقة إذ ذاك بهذا الوضوح الذي نلمسه الآن ونعرفه في حياة البشرية.

ويعلمنا الله سبحانه قيمة القلم، فيشير إليه في أول لحظة من لحظات الرسالة الخاتمة للبشرية، في أول سورة من سور القرآن الكريم، مع أن الرسول الذي جاء بها لم يكن كاتباً بالقلم"[١].

قال قتادة: "القلم نعمة من الله تعالى عظيمة، لولا ذلك لم يقم دين، و لم يصلح عيش"[٢]، فدل"ونبه على فضل علم الكتابة، لما فيه من المنافع العظيمة، التي لا يحيط بها إلا هو.

وما دونت العلوم، ولا قيدت الحِكَم، ولا ضبطت أخبار الأولين ومقالاتهم، ولا كتب الله المترلة إلا بالكتابة، ولولا هي ما استقامت أمور الدين والدنيا"[٣].

قال القرطبي: "قال علمائنا: الأقلام في الأصل ثلاثة :

الأول: الذي خلقه الله بيده وأمره أن يكتب[٤].

والثاني: أقلام الملائكة جعلها الله بأيديهم يكتبون بها المقادير والكوائن والأعمال[٥].

والثالث: أقلام الناس جعلها الله بأيديهم يكتبون بها كلامهم"[٦] .

"وهذه إشادة بالقلم وخطره، والعلم ومترلته، في بناء الشعوب والأمم وفيها إشارة واضحة بأن من أخص خصائص الإنسان العلم والمعرفة"[٧].

ثامناً: **مصدر العلم والتعلم:** ﴿عَلَّمَ ٱلْإِنسَٰنَ مَا لَمْ يَعْلَمْ﴾:

"إذا نظرت إلى الآية مستقلة عما تضمنه حديث عائشة في وصف سبب نزولها كان الاستئناف ناشئاً عن سؤال يجيش في خاطر الرسول صلى الله عليه و سلم أن يقول كيف : أقرأ وأنا لا أحسن القراءة والكتابة فأجيب بأن الذي علم القراءة بواسطة القلم أي بواسطة الكتابة يعلمك ما لم تعلم.

---

(١) في ظلال القرآن ٦/ ٣٩٣٩بتصرف.

(٢) جامع البيان ٥١٩/٢٤.

(٣) الجامع لأحكام القرآن ١٢٠/٢٠.

(٤) يشير إلى حديث النبي صلى الله عليه وسلم: (أول ما خالق الله القلم فقال: اكتب! قال: رب وماذا أكتب؟ قال: اكتب مقادير كل شيء حتى تقوم الساعة) أخرجه أحمد ٣١٧/٥ (٢٢٧٥٧)، وابن أبي شيبة ٢٦٤/٧ (٣٥٩٢٢)، والترمذي (٣٣١٩) وصححه الألباني في صحيح وضعيف جامع الترمذي.

(٥) يشير إلى قوله تعالى: ﴿كِرَامًا كَٰتِبِينَ﴾ [الانفطار: ١١]، وحديث النبي صلى الله عليه وسلم: (إن أحدكم يجمع خلقه في بطن أمه أربعين يوما، ثم يكون علقة مثل ذلك، ثم يكون مضغة مثل ذلك، ثم يبعث الله ملكا يؤمر بأربع كلمات ويقال له: اكتب عمله، ورزقه، وأجله، وشقي أو سعيد..) أخرجه البخاري كتاب بدء الخلق باب ذكر الملائكة(٣٢٠٨) والفظ له، ومسلم في القدر باب كيفية خلق الآدمي في بطن أمه (٢٦٤٣).

(٦) الجامع لأحكام القرآن ١٢١/٢٠.

(٧) في ظلال القرآن ٣٩٣٩/٦ بتصرف.

وإذا قرنت بين الآية وبين الحديث المذكور كان الاستئناف جواباً عن قوله لجبريل (ما أنا بقارئ)
فالمعنى: لا عجب في أن تقرأ وإن لم تكن من قبل عالماً بالقراءة إذ العلم بالقراءة يحصل بوسائل أخرى مثل الإملاء والتلقين والإلهام"[1].

وفي هذا الخبر إبراز مصدر التعليم؛ إن مصدره هو الله؛ منه يستمد الإنسان كل ما عَلِم، وكل ما يَعْلَم، وكل ما يفتح له من أسرار العلم مستقبلا؛ سواء من أسرار الحياة، أومن أسرار نفسه، فهو من ذلك المصدر الواحد الذي هو أعلم بما خلق.

"وفي هذا الحادث العظيم تظهر مكانة ومنزلة العلم في الإسلام، فأول كلمة في النبوة تصل إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم هي الأمر بالقراءة، وما زال الإسلام يحث على العلم، ويأمر به، ويرفع درجة أهله، ويميزهم على غيرهم، قال تعالى: ﴿يَرْفَعِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنكُمْ وَٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ دَرَجَٰتٍ ۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴿١١﴾﴾ [المجادلة: ١١]، وقال سبحانه: ﴿قُلْ هَلْ يَسْتَوِى ٱلَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ۗ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿٩﴾﴾ [الزمر: ٩].

إن مصدر العلم النافع من الله عز وجل، فهو الذي علم بالقلم، وعلم الإنسان ما لم يعلم، ومتى حادت البشرية عن هذا المنهج، وانفصل علمها عن التقيد بمنهج الله تعالى رجع علمها وبالاً عليها وسببًا في إبادتها[2].

بهذا المقطع وضعت قاعدة التصور الإيماني العريضة، فكل أمر، وكل حركة، وكل عمل باسم الله يبدأ.. وباسم الله يسير.. وإلى الله يتجه ..وإليه يصير.

(١) التحرير والتنوير ٤٣٦/٣٠.

(٢) انظر: الوحي وتبليغ الرسالة، ص٣٤.

المحور الثاني: أثر الوحي على الدعوة

عندما نقف عند سبب نزول الآيات وملابساتها من خلال حديث أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها نجد فيها من الفوائد والعبر الشيء الكثير ومن أهمها :

أولاً : حال النبي صلى الله عليه وسلم قبل الوحي إليه :

١- أخلاق النبي صلى الله عليه وسلم قبل التوجيه :

عندما رجع رسول الله صلى الله عليه وسلم يرجف فؤاده، دخل على أم المؤمنين خديجة بنت خويلد رضى الله عنها فقال: (زملوني زملوني). فزملته حتى ذهب عنه الروع، ثم لما أخبر خديجة الخبر، قال: (لقد خشيت على نفسي)، فقالت خديجة: **كلا والله ما يخزيك الله أبداً ، إنك لتصل الرحم ، وتحمل الكل، وتكسب المعدوم ، وتقري الضيف ، وتعين على نوائب الحق**[(١)].

"كان موقف خديجة رضي الله عنها من خبر الوحي يدل على سعة إدراكها، حيث قارنت بين ما سمعت، وواقع النبي صلى الله عليه وسلم، فأدركت أن من جُبِل على مكارم الأخلاق لا يخزيه الله أبدًا، فقد وصفته بأنه (يصل الرحم)، وكون الإنسان يصل أقاربه دليل على استعداده النفسي لبذل الخير والإحسان إلى الناس، فإن أقارب الإنسان هم المرآة الأولى لكشف أخلاقه، فإن نجح في احتواء أقاربه، وكسبهم بما له عليهم من معروف كان طبيعياً بأن ينجح في كسب غيرهم من الناس"[(٢)].

"ولم تعرف الحياة في سنن الكون الاجتماعية أن الله تعالى جمَّل أحدًا من عباده بفطرة الأخلاق الكريمة، ثم أذاقه الخزي في حياته، ومحمد صلى الله عليه وسلم بلغ من المكارم ذروتها، فطرة فطره الله عليها، لا تُطاول ولا تُسامى"[(٣)].

فهذه هي صفات الداعية التي يجب أن تكون في الداعية ليبدأ دعوته، ويحق له أن يكون داعية بحق.

٢- كان يخلو صلى الله عليه وسلم بغار حراء فيتحنث فيه:

حبب إلى نفس النبي صلى الله عليه وسلم الخلوة قبل بعثته، ليتفرغ قلبه وعقله وروحه إلى ما سيلقى إليه من أعلام النبوة، فاتخذ من غار حراء متعبدًا. لينقطع عن مشاغل الحياة ومخالطة الخلق. واستجماعًا لقواه الفكرية، ومشاعره الروحية، وإحساساته النفسية، ومداركه العقلية. وتفرغًا لمناجاة مبدع الكون وخالق الوجود.

كانت هذه الخلوة التي حببت إلى نفس النبي صلى الله عليه وسلم لونًا من الإعداد الخاص، وتصفية النفس من علائق المادية البشرية إلى جانب تعهده الخاص بالتربية الإلهية والتأديب الرباني في جميع أحواله،

---

(١) تقدم تخريج القصة.

(٢) السيرة النبوية للصلابي ١/١٠٠.

(٣) محمد رسول الله لمحمد صادق عرجون ١/٢٣٢.

وكان تعبده صلى الله عليه وسلم قبل النبوة بالتفكر في بديع ملكوت السماوات، والنظر في آياته الكونية الدالة على بديع صنعه وعظيم قدرته، ومحكم تدبيره، وعظيم إبداعه[1].

وهذه الخلوة مهمة لكل مسلم سواء كان حاكمًا أو عالمًا، أو قائدًا، أو تاجرًا.. لتنقية الشوائب التي تعلق بالنفوس والقلوب، ونصحح واقعنا على ضوء الكتاب والسنة، ونحاسب أنفسنا قبل أن نحاسب[2].

وينبغي للدعاة والمربين أن يعطوا لأنفسهم فترة من الوقت للمراجعة الشاملة والتوبة، والتأمل في واقع الدعوة وما هي عليه من قوة أو ضعف واكتشاف عوامل الخلل، ومعرفة الواقع بتفاصيله، خيره وشره.

٣- الرؤيا الصالحة أول الوحي :

عن عائشة أم المؤمنين رضي الله عنها أنها قالت: "أول ما بدئ به رسول الله صلى الله عليه وسلم من الوحي الرؤيا الصالحة في النوم فكان لا يرى رؤيا إلا جاءت مثل فلق الصبح"[3].

وتسمى أحيانًا بالرؤيا الصادقة، والمراد بها هنا رؤى جميلة ينشرح لها الصدر وتزكو بها الروح [4]، ولعل الحكمة من ابتداء الله تعالى رسوله صلى الله عليه وسلم بالوحي بالمنام، أنه لو لم يبتدئه بالرؤيا، وأتاه الملك فجأة و لم يسبق له أن رأى ملكًا من قبل، فقد يصيبه شيء من الفزع، فلا يستطيع أن يتلقى منه شيئا، لذلك اقتضت حكمة الله تعالى أن يأتيه الوحي أولا في المنام ليتدرب عليه ويعتاده[5].

والرؤيا الصالحة من البشرى في الحياة الدنيا فقد ورد عن النبي صلى الله عليه وسلم قوله: (أيها الناس، إنه لم يبق من مبشرات النبوة إلا الرؤيا الصالحة يراها المسلم أو تُرى له)[6].

فكان صلى الله عليه وسلم قبل نزول جبريل عليه السلام عليه بالوحي في غار حراء يرى الرؤى الجميلة فيصحو منشرح الصدر، متفتح النفس لكل ما في الحياة من جمال [7] يراها في النوم فتجيء في اليقظة كاملة، واضحة؛ شبهتها السيدة عائشة رضي الله عنها بظهور ضوء الصبح[8].

وقد تحدث العلماء عن أنواع الوحي فذكروا منها:

١- **الرؤيا الصادقة:** وكانت مبدأ وحيه صلى الله عليه وسلم.

٢- **الإلهام:**وهو أن ينفث الملك في روعه - أي قلبه - من غير أن يراه كما قال عليه الصلاة

---

(١) محمد رسول الله لمحمد صادق عرجون١/٢٥٤ بتصرف.

(٢) السيرة النبوية للصلابي ١/ ٩٨.

(٣) أخرجه البخاري في المقدمة كيف كان بدء الوحي إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم(٣).

(٤) طريق النبوة والرسالة، حسين مؤنس ص ٢١.

(٥) منامات الرسول صلى الله عليه وسلم، عبد القادر الشيخ إبراهيم ص٥٧.

(٦) أخرجه ابن ماجه كتاب تعبير الرؤيا باب في الدعاء في الركوع والسجود (٣٨٩٩)، وصححه الألباني في صحيح وضعيف سنن أبي داود.

(٧) طريق النبوة والرسالة ص٢٢.

(٨) محمد رسول الله ١/٢٥٤.

والسلام: (إن روح القدس نفث في روعي، أنه لن تموت نفس حتى تستكمل رزقها، فاتقوا الله وأجملوا في الطلب)[1].

٣- **أن يأتيه مثل صلصلة الجرس:** أي مثل صوته في القوة، وهو أشده، كما في حديث عائشة رضي الله عنها: أن الحارث ﷺ سأل رسول الله صلى الله عليه وسلم كيف يأتيك الوحي؟ فقال صلى الله عليه وسلم: (أحيانًا يأتيني مثل صلصلة الجرس وهو أشد علي، فيفصم عني وقد وعيت ما قال، وأحيانًا يتمثل لي الملك رجلاً فيكلمني فأعي ما يقول)[2].

٤- **ما أوحاه الله تعالى إليه بلا وساطة ملك:** وثبوتها لنبينا صلى الله عليه وسلم في حديث فرض الصلاة.

٥- **أنه يرى الملك في صورته التي خلق عليها:** فيوحي إليه ما شاء الله تعالى أن يوحيه، كما في هذه السورة

٦- **أنه صلى الله عليه وسلم كان يتمثل له الملك رجلاً:** فيخاطبه حتى يعي عنه ما يقول له وفي هذه المرتبة كان يراه الصحابة أحيانًا. هذا ما قاله ابن القيم عن مراتب الوحي[3].

ثانياً: ما حدث وقت الوحي إليه :

الشدة التي تعرض لها النبي صلى الله عليه وسلم ووصف ظاهرة الوحي:

لقد قام جبريل عليه السلام بضغط النبي صلى الله عليه وسلم مراراً حتى أجهده وأتعبه، وبقي رسول الله صلى الله عليه وسلم يلقى من الوحي شدة وتعبًا وثقلاً، وكان في ذلك حكماً عظيمةً لعل منها: بيان أهمية هذا الدين وعظمته وشدة الاهتمام به، وبيان للأمة أن دينها الذي تتنعم به ما جاءها إلا بعد شدة وكرب.

لقد كان وقْع نزول الوحي شديدًا على رسول الله صلى الله عليه وسلم كما هو واضح من النص، بالرغم من أنه كان أشجع الناس وأقواهم قلبًا، كما دلت على ذلك الأحداث خلال ثلاث وعشرين سنة، وذلك لأن الأمر ليس مخاطبة بشر لبشر، ولكنه كان مخاطبة عظيم الملائكة وهو يحمل كلام الله تعالى، ليستقبله من اصطفاه الله جل وعلا لحمل هذا الكلام وإبلاغه لعامة البشر.

ولقد كان موقفًا رهيبًا ومسئولية عظمى، لا يقوى عليها إلا من اختاره الله تبارك وتعالى لحمل هذه الرسالة وتبليغها[4].

ومما يصور رهبة هذا الموقف ما جاء في هذه الرواية من قول رسول الله صلى الله عليه وسلم: (لقد

---

(١) أخرجه ابن أبي شيبة ٧٩/٧ (٣٤٣٣٢)، والبيهقي في شعب الإيمان ٢٩٩/٧(١٠٣٧٦)، وصححه الألباني في السلسلة الصحيحة(٢٨٦٦) .

(٢) أخرجه البخاري كتاب بدأ الوحي باب كيف كان بدا الوعي على رسول الله(٢).

(٣) انظر: زاد المعاد١/٧٨ مؤسسة الرسالة.

(٤) التاريخ الإسلامي مواقف وعبر للحميدي ١/٦٠.

خشيت على نفسي) وقول عائشة رضي الله عنها في هذا الحديث: (فرجع بها رسول الله صلى الله عليه وسلم يرجف فؤاده، فدخل على خديجة بنت خويلد رضي الله عنها قال: (زملوني زملوني) فزملوه حتى ذهب عنه الروع).

ومما يبين شدة نزول الوحي على رسول الله صلى الله عليه وسلم ما في حديث عائشة رضي الله عنها قالت: (ولقد رأيته ـ تعني رسول الله صلى الله عليه وسلم ـ ينزل عليه الوحي في اليوم الشديد البرد فيفصم عنه، وإن جبينه ليتفصد عرقًا)[1] وحديث عبادة بن الصامت رضي الله عنه قال: (كان نبي الله صلى الله عليه وسلم إذا نزل عليه الوحي كُرِبَ لذلك وتربَّد وجهه)[2].

ثالثاً: ما حصل بعد الوحي:

١- أثر المرأة الصالحة في خدمة الدعوة:

كان موقف خديجة رضي الله عنها يدل على قوة قلبها، حيث لم تفزع من سماع هذا الخبر، واستقبلت الأمر بهدوء وسكينة، ولا أدل على ذلك من ذهابها فور سماعها الخبر إلى ورقة بن نوفل، وعرضت الأمر عليه[3].

لقد قامت خديجة رضي الله عنها بدور مهم في حياة النبي صلى الله عليه وسلم لما لها من شخصية في مجتمع قومها، ولما جبلت عليه من الكمالات في الحالات النفسية التي تقوم على الأخلاق العالية: من الرحمة والحلم والحكمة والحزم وغير ذلك من مكارم الأخلاق، فقيام خديجة بذلك الدور الكبير إلهام من الله تعالى لجميع حملة الدعوة الإسلامية بما يشرع لهم أن يسلكوه في هذا المجال من التأسي برسول الله صلى الله عليه وسلم حتى يتحقق لهم بلوغ المقاصد العالية التي يسعون لتحقيقها[4].

إن أم المؤمنين خديجة رضي الله عنها مثال حسن، وقدوة رفيعة لزوجات الدعاة، فالداعية إلى الله ليس كباقي الرجال الذين هم بعيدون عن أعباء الدعوة، ومن الصعب أن يكون مثلهم في كل شيء، إنه صاحب همٍّ ورسالة، وإنه يحتاج إلى زوجة تدرك واجب الدعوة وأهميته، وتدرك تمامًا ما يقوم به الزوج وما يتحمله من أعباء، وما يعانيه من مشاقّ، فتقف إلى جانبه تيسر له مهمته وتعينه عليها، لا أن تقف عائقا وشوكة في طريقه[5].

ولا شك أن الزوجة الصالحة المؤهلة لحمل مثل هذه الرسالة لها دور عظيم في نجاح زوجها في مهمته في هذه الحياة، وبخاصة الأمور التي يتعامل بها الناس، فإذا وفق الداعية لزوجة صالحة ذات كفاءة فإن ذلك من أهم عوامل نجاحه مع الآخرين[6].

---

(١) أخرجه البخاري كتاب بدء الوحي رقم (٢)، ومسلم كتاب الفضائل باب قوله (فيفصم) رقم (٢٣٣٣).

(٢) أخرجه مسلم كتاب الفضائل باب عرق النبي صلى الله عليه وسلم في البرد وحين يأتيه الوحي رقم (٢٣٣٤).

(٣) انظر: التاريخ الإسلامي للحميدي ٦١/١.

(٤) المصدر السابق٦٩/١.

(٥) انظر: وقفات تربوية من السيرة النبوية، البلالي ص٤٠.

(٦) انظر: التاريخ الإسلامي للحميدي ٦٨/١.

٢- سنة تكذيب المرسلين:

لقد قال ورقة للنبي صلى الله عليه وسلم : (يا ليتني فيها جذعاً، ليتني أكون حيًّا إذ يخرجك قومك، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (أَوَ مُخرجيّ هم؟) قال: نعم، لم يأت رجل قط بمثل ما جئت به إلا عودي، وإن يدركني يومك أنصرك نصرًا مؤزرًا) [(١)].

فبين له سنةً من سنن الأمم مع من يدعوهم إلى الله عز وجل وهي التكذيب والإخراج، كما قال تعالى عن قوم لوط: ﴿وَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِۦٓ إِلَّآ أَن قَالُوٓاْ أَخْرِجُوهُم مِّن قَرْيَتِكُمْۖ إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ ﴿٨٢﴾﴾ [الأعراف٨٢].

و قال قوم شعيب: ﴿قَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُواْ مِن قَوْمِهِۦ لَنُخْرِجَنَّكَ يَٰشُعَيْبُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَكَ مِن قَرْيَتِنَآ أَوْ لَتَعُودُنَّ فِى مِلَّتِنَاۚ قَالَ أَوَلَوْ كُنَّا كَٰرِهِينَ ﴿٨٨﴾﴾ [الأعراف: ٨٨].

وقال تعالى عن الأنبياء جمعاً: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لِرُسُلِهِمْ لَنُخْرِجَنَّكُم مِّنْ أَرْضِنَآ أَوْ لَتَعُودُنَّ فِى مِلَّتِنَاۖ فَأَوْحَىٰٓ إِلَيْهِمْ رَبُّهُمْ لَنُهْلِكَنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٣﴾﴾ [إبراهيم ١٣].

٣- فتور الوحي:

تحدث علماء السيرة عن فترة الوحي، قال الحافظ ابن حجر: وفتور الوحي عبارة عن تأخيره مدة من الزمان، وكان ذلك لِيُذْهِب ما كان صلى الله عليه وسلم وجده من الروع، وليحصل له التشوق إلى العود[(٢)].

فعن جابر بن عبد الله الأنصاري رضي الله عنه قال وهو يحدث- أي بحديث النبي صلى الله عليه وسلم- عن فترة الوحي: (بينا أنا أمشي إذ سمعت صوتا من السماء فرفعت بصري، فإذا الملك الذي جاءني بحراء جالس على كرسي بين السماء والأرض، فرعبت منه، فرجعت فقلت: زملوني فأنزل الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمُدَّثِّرُ ﴿١﴾ قُمْ فَأَنذِرْ ﴿٢﴾ وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ ﴿٣﴾ وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ ﴿٤﴾ وَٱلرُّجْزَ فَٱهْجُرْ ﴿٥﴾﴾ [المدثر: ١-٥] فحمى الوحي وتتابع)[(٣)].

وقد سبق الكلام عن مدته وما نزل بسببه عند تفسير قوله تعالى: ﴿مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَىٰ﴾ [الضحى: ٣].

---

(١) تقدم تخريجه.

(٢) تقدم تخريجه.

(٣) أخرجه البخاري كتاب بدء الوحي رقم٤.

المطلب الثالث

صفة الطغيان عند الإنسان وعلاجها

قال تعالى: ﴿ كَلَّآ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَيَطْغَىٰٓ ﴿٦﴾ أَن رَّءَاهُ ٱسْتَغْنَىٰٓ ﴿٧﴾ إِنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ ٱلرُّجْعَىٰٓ ﴾

من مقتضيات الحقيقة التي بينها الله في بداية السورة – وهي حقيقة أن الله هو الرب الذي خلق، وهو الذي علم، وهو الذي أكرم- أن يشكر. ولكن الذي حدث كان غير هذا ، فوقع الانحراف عن الشكر إلى الطغيان الذي بينه الله في هذا المقطع من السورة .

أولاً: الصفة الذميمة: الطغيان عند الاستغناء:

قال تعالى:﴿ كَلَّآ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَيَطْغَىٰٓ ﴾ "والطغيان: مجاوزة الحد في العصيان"[(١)].

"وعلة هذا الخُلق ﴿ أَن رَّءَاهُ ٱسْتَغْنَىٰٓ ﴾ إنّ الاستغناء يُحدِّث صاحبه نَفْسُهُ بأنه غير محتاج إلى غيره، وأن غيره محتاج إليه، فيرى نفسه أَعْظَم من أهل الحاجة، ولا يزال ذلك التوهم يربو في نفسه حتى يصبو خُلُقاً، حيث لا وازع يزعه من دين أو تفكير صحيح، فيطغى على الناس لشعوره بأنه لا يخاف بَأْسَهم لأن له ما يدفع به الاعتداء من لَأْمةِ سِلاحٍ وخدمٍ وأعوانٍ وعفاةٍ؛ ومنتفعين بماله من شركاء وعمال وأُجَراء، فهو في عِزّةٍ عند نفسه. فقد بينت هذه الآية حَقيقةً نَفْسية عظيمة من الأخلاق وعلم النفس. ونَبّهت على الحذر من تغلغلها في النفس"[(٢)]، وقد رُوي هذا المعنى مرفوعًا إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم: (منهومان لا يشبعان: طالب علم، وطالب دنيا)[(٣)].

ولذلك نقول: "إن السبب الرئيسي لعدم إيمان الكثير من الناس بالله وعدم قيامهم بحقوق عبوديته هو عدم استشعارهم حاجتهم إليه، ففي ظنهم أنهم يمتلكون أسباب القوة مما يجعلهم في غنى عنه سبحانه، وعندما يستبدل حالهم من اليسر إلى العسر ومن السعة إلى الضيق، ومن الأمن إلى الخوف؛ فإنهم يتجهون بكليتهم إلى الله عز وجل بعد أن زالت عنهم عوارض القوة، وعاشوا في حقيقة فقرهم وضعفهم واستشعروا حاجتهم الماسة إليه سبحانه فتراهم يعودون إليه متضرعين منكسرين مخلصين له الدين..

قال تعالى: ﴿ هُوَ ٱلَّذِى يُسَيِّرُكُمْ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ حَتَّىٰٓ إِذَا كُنتُمْ فِى ٱلْفُلْكِ وَجَرَيْنَ بِهِم بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ وَفَرِحُوا۟ بِهَا جَآءَتْهَا

---

(١) الجامع لأحكام القرآن ١٢٣/٢٠.

(٢) التحرير والتنوير٤٤٥/٣٠بتصرف يسير.

(٣)رواه الحاكم في المستدرك ٩٢/١ من طريق قتادة، عن أنس به مرفوعا، ورواه الطبراني في المعجم الكبير٢٢٣/١٠ من طريق زيد بن وهب، عن ابن مسعود به مرفوعا، وفي إسناده ضعف.

رِيحٌ عَاصِفٌ وَجَآءَهُمُ ٱلْمَوْجُ مِن كُلِّ مَكَانٍ وَظَنُّوٓاْ أَنَّهُمْ أُحِيطَ بِهِمْ دَعَوُاْ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ لَئِنْ أَنجَيْتَنَا مِنْ هَٰذِهِۦ لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلشَّٰكِرِينَ ﴿٢٢﴾ ﴾ [يونس: ٢٢].

ولقد كان الرسل جميعاً يركزون في دعوتهم للناس على إشعارهم بحاجتهم إلى الله فيذكرونهم بحجم النعم التي أنعمها عليهم سبحانه ويخوفونهم من سوء مآلهم إن هم عصوه وكفروا به"[١].

ثانياً: العلاج بالتذكر بالرجوع إلى الله :

قال تعالى: ﴿ إِنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ ٱلرُّجْعَىٰٓ ﴾:"وهذه موعظة وتهديد على سبيل التعريض لمن يسمعه من الطغاة وتعليم للنبي صلى الله عليه وسلم وتثبيت له، أي لا يحزنك طغيان الطاغي فإن مرجعه إليّ، ومرجع الطاغي إلى العذاب، قال تعالى: ﴿ إِنَّ جَهَنَّمَ كَانَتْ مِرْصَادًا ﴿٢١﴾ لِّلطَّٰغِينَ مَـَٔابًا ﴿٢٢﴾ ﴾ [النبأ: ٢١ - ٢٢]، وهو موعظة للطاغي بأن غناه لا يدفع عنه الموت، والموت: رجوع إلى الله، كقوله: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْإِنسَٰنُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَىٰ رَبِّكَ كَدْحًا فَمُلَٰقِيهِ ﴿٦﴾ ﴾ [الانشقاق: ٦].

وفيه معنى آخر وهو أن استغناءه غير حقيقي لأنه مفتقر إلى الله في أهم أموره، ولا يدري ماذا يُصَيّرُه إليه ربه من العواقب، فلا يزده غنى زائف في هذه الحياة. فيكون معنى ﴿ ٱلرُّجْعَىٰٓ ﴾ مستعملاً في الاحتياج إلى المرجوع إليه.

وتأكيد الخبر بـ ﴿ إِنَّ ﴾ مُراعى فيه المعنى التعريضي؛ لأن معظم الطغاة ينسون هذه الحقيقة بحيث يتزلون مترلة من ينكرها"[٢].

"وهكذا تجتمع أطراف التصور الإيماني: .. الخلق والنشأة . والتكريم والتعليم . . ثم . . الرجعة والمآب لله وحده بلا شريك"[٣].

(١) الإيمان أولاً كيف نبدأ به ١٨.

(٢) التحرير والتنوير٣٠/٤٤٦.

(٣) في ظلال القرآن ٦/٣٩٤٢.

المطلب الرابع

صورة من طغيان الإنسان وعاقبتها

أولاً: طغيان من يحارب الهدى ويكذب به ويؤذي أهله:

قال تعالى: ﴿أَرَءَيْتَ ٱلَّذِى يَنْهَىٰ ﴿٩﴾ عَبْدًا إِذَا صَلَّىٰٓ ﴿١٠﴾ أَرَءَيْتَ إِن كَانَ عَلَى ٱلْهُدَىٰٓ ﴿١١﴾ أَوْ أَمَرَ بِٱلتَّقْوَىٰٓ ﴿١٢﴾ أَرَءَيْتَ إِن كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰٓ ﴿١٣﴾ ﴾

سبب نزول الآيات :

عن أبي هُرَيرة رضي الله عنه قال: قال أبو جهل: هل يعفِّر محمد وجهه بين أظهركم؟ قالوا: نعم. قال: فقال: واللات والعزى لئن رأيته يصلي كذلك لأطأن على رقبته ولأعفِّرن وجهه في التراب، فأتى رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو يُصَلي ليطأ على رقبته، قال: فما فَجأهم منه إلا وهو ينكص على عقبيه ويتقي بيديه، قال: فقيل له: ما لك؟ فقال: إن بيني وبينه خَنْدقا من نار وهَولا وأجنحة. قال: فقال رسول الله: (لو دنا مني لاختطفته الملائكة عضوًا عضوًا) . قال: وأنزل الله: ﴿ كَلَّآ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَيَطْغَىٰٓ ﴾ إلى آخر السورة[1].

وعن ابن عباس رضي الله عنهما : قال أبو جهل: لئن رأيت محمدًا يصلي عند الكعبة لأطأن على عُنُقه. فبَلغَ النبي صلى الله عليه وسلم، فقال: (لئن فعله لأخذته الملائكة)[2].

أسلوب الآيات:

"والتشنيع والتعجيب واضح في طريقة التعبير ، التي تتعذر مجاراتها في لغة الكتابة . ولا تؤدّى إلا في أسلوب الخطاب الحي، الذي يعبر بلمسات متقطعة في خِفةٍ وسُرعة!

﴿ أَرَءَيْتَ ﴾: أرأيت هذا الأمر المستنكر؟!! أرأيته يقع؟! ﴿أَرَءَيْتَ ٱلَّذِى يَنْهَىٰ ﴿٩﴾ عَبْدًا إِذَا صَلَّىٰٓ ﴾.

أرأيت حين تضم شناعة إلى شناعة؟!! وتضاف بشاعة إلى بشاعة؟! أرأيت إن كان هذا الذي يصلي ويتعرض له من ينهاه عن صلاته. ﴿إِن كَانَ عَلَى ٱلْهُدَىٰٓ ﴿١١﴾ أَوْ أَمَرَ بِٱلتَّقْوَىٰٓ ﴾؟ ثم ينهاه من ينهاه مع أنه ﴿عَلَى ٱلْهُدَىٰٓ ﴾؛ آمر بالتقوى!! أرأيت إن أضاف إلى الفعلة المستنكرة فعلة أخرى أشد نكراً؟ ﴿ أَرَءَيْتَ إِن كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰٓ ﴾"[3].

---

(١) أخرجه مسلم كتاب صفة القيامة والجنة والنار باب إن الإنسان ليطغى (٢٧٩٧).

(٢) أخرجه البخاري كتاب التفسير باب سوره اقرأ باسم ربك (٤٩٥٨).

(٣) في ظلال القرآن ٦/٣٩٤٢.

فالاستفهام هنا يفيد الإنكار والتعجب مع بيانه لحال طرفي القضية، فالناهي: مكذب ومتولي ، والمنهي عبدٌ مصلي متبع لطريق الهدى والنور، هادٍ غيره إليه، قال تعالى: ﴿وَإِنَّكَ لَتَهْدِيٓ إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسْتَقِيمٖ ﴿٥٢﴾ صِرَٰطِ ٱللَّهِ ٱلَّذِي لَهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِۗ أَلَآ إِلَى ٱللَّهِ تَصِيرُ ٱلْأُمُورُ ﴿٥٣﴾﴾ [الشورى: ٥٢ – ٥٣].

فليس بخيلاً ولا ضنيناً به بل هو باذل لمعروفه مع علمه به، فهو قد جمع في دعوته بين حسن القدوة وحسن الطلب مع حسن الهدى والعمل بخلاف الطرف الأول –الناهي– فقد جمع بين الكذب، وهو مخالفة الأمر للواقع عن قصد وغير قصد– بل هو إلى الأول أقرب– وبين التكذيب وهو الجحد والنكران للرب المنعم المتفضل، وبين التولي والإعراض. فهو غير مستمتع ولا متعقل لما عليه الطرف المنهي وهو رسول الله صلى الله عليه وسلم ﴿وَقَالُواْ لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِيٓ أَصْحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ ﴿١٠﴾﴾ [الملك:١٠].

ثانياً: جزاء هذا الطغيان:

بين الله تعالى في الآيات جزاء هذا الطغيان فقال: ﴿أَلَمْ يَعْلَم بِأَنَّ ٱللَّهَ يَرَىٰ ﴿١٤﴾ كَلَّا لَئِن لَّمْ يَنتَهِ لَنَسْفَعًۢا بِٱلنَّاصِيَةِ ﴿١٥﴾ نَاصِيَةٖ كَٰذِبَةٍ خَاطِئَةٖ ﴿١٦﴾ فَلْيَدْعُ نَادِيَهُۥ ﴿١٧﴾ سَنَدْعُ ٱلزَّبَانِيَةَ﴾. فتضمنت الآيات التهديد والتخويف بأمور:

١ – التهديد برؤية الله تعالى والتخويف بذلك.

٢ – الزجر والوعيد.

٣ – التهديد بعدم منفعة الأصحاب المساعدين في عداء.

٤ – التخويف بملائكة العذاب يوم القيامة.

وإليك بيانها:

أولاً: التهديد برؤية الله تعالى والتخويف بذلك:

قال تعالى: ﴿أَلَمْ يَعْلَم بِأَنَّ ٱللَّهَ يَرَىٰ﴾: فهو سبحانه يرى تكذيبه وتوليه، ويرى نهيه للعبد المؤمن إذا صلى؛ وهو على الهدى؛ آمراً بالتقوى. يرى **وللرؤية ما بعدها!** فهذا تذكير بالله تعالى وتخويف به.قال ابن كثير: "أما علم هذا الناهي لهذا المهتدي أن الله يراه ويسمع كلامه، وسيجازيه على فعله أتم الجزاء"[(١)].

وهذا التهديد يؤثر على النفس تأثير عظيم فهو "يثير الهمم الراكدة، ويسيل العيون الجامدة، ويبعث على الحياء والمراقبة"[(٢)]. فالتخويف برؤية الله تنبيه على المراقبة.

قال الغزالي: "فاعلم أن الله مطلع على ضميرك، ومشرف على ظاهرك وباطنك، ومحيط بجميع لحظاتك، وخطراتك، وخطواتك، وسائر سكناتك وحركاتك؛ وأنك في مخالطتك وخلواتك متردد بين يديه؛ فلا

(١) تفسير القرآن العظيم ٤٣٨/٨.
(٢) تفسير الثعالبي ٢٧٠/٤.

يسكن في الملك والملكوت ساكن، ولا يتحرك متحرك، إلا وجبار السموات والأرض مطلع عليه، ﴿ يَعْلَمُ خَآئِنَةَ ٱلْأَعْيُنِ وَمَا تُخْفِى ٱلصُّدُورُ ﴿١٩﴾ ﴾ [غافر: ١٩]، و﴿ يَعْلَمُ ٱلسِّرَّ وَأَخْفَى ﴿٧﴾ ﴾ [طه: ٧] فتأدب أيها المسكين ظاهراً وباطناً بين يديه سبحانه؛ واجتهد أن لا يراك حيث نهاك ولا يفقدك حيث أمرك، ولا تدع عنك التفكر في قرب الأجل، وحلول الموت القاطع للأمل، وخروج الأمر من الاختيار، وحصول الحسرة والندامة بطول الاغترار"[١].

والملاحظ أن الله تعالى هدَّد وذَكَّر وتوعد بالرؤية قبل الوعيد المفصل، وذلك لأن الرؤية تستلزم الجزاء، وهذا الذي يصد عن الصلاة وأعمال الخير لا يكون جزاءه إلا بالعذاب والنكال والخزي .

ثانياً: الزجر والوعيد:

قال تعالى: ﴿ كَلَّا لَئِن لَّمْ يَنتَهِ لَنَسْفَعًۢا بِٱلنَّاصِيَةِ ﴿١٥﴾ نَاصِيَةٍ كَـٰذِبَةٍ خَاطِئَةٍ ﴿١٦﴾ ﴾."أي: ﴿ لَئِن لَّمْ يَنتَهِ ﴾ أبو جهل عن أذاك يا محمد، ﴿ لَنَسْفَعًۢا ﴾ أي لنأخذن ﴿ بِٱلنَّاصِيَةِ ﴾ فلنذلنه، وقيل: لنأخذن بناصيته يوم القيامة وتطوى مع قدميه، ويطرح في النار، كما قال تعالى: ﴿ يُعْرَفُ ٱلْمُجْرِمُونَ بِسِيمَـٰهُمْ فَيُؤْخَذُ بِٱلنَّوَٰصِى وَٱلْأَقْدَامِ ﴿٤١﴾ ﴾ [الرحمن: ٤١]، وإن كانت في أبي جهل فهي عظة للناس، وتهديد لمن يمتنع أو يمنع غيره عن الطاعة .

والسفع: الجذب بشدة، أي لنجرن بناصيته إلى النار. وقيل: الضرب، أي لنلطمن وجهه.

والناصية: مقدم الرأس. وخص الناصية بالذكر: على عادة العرب وغيرهم فيمن أرادوا إذلاله وإهانته أخذوا بناصيته"[٢].

"والأخذ من الناصية أخذ من لا يترك له تمكن من الانفلات فهو كناية عن أخذه إلى العذاب ، وفيه إذلال لأنهم كانوا لا يقبضون على شعر رأس أحد إلا لضربه أو لجره"[٣]، كما ذكر الله ذلك عن موسى وهارون ﴿ وَأَخَذَ بِرَأْسِ أَخِيهِ يَجُرُّهُۥٓ إِلَيْهِ ۚ قَالَ ٱبْنَ أُمَّ إِنَّ ٱلْقَوْمَ ٱسْتَضْعَفُونِى وَكَادُوا۟ يَقْتُلُونَنِى فَلَا تُشْمِتْ بِىَ ٱلْأَعْدَآءَ وَلَا تَجْعَلْنِى مَعَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّـٰلِمِينَ ﴿١٥٠﴾ ﴾ [الأعراف: ١٥٠].

فهذه الصورة التي هي الجذب أو الضرب بشدة والسحب من مقدمة رأس الإنسان فيها من الذلة والمهانة لأولئك الذين يصدون عن سبيل الله؛ بل ويعادون أهل العلم والصلاح والدعوة إلى الله، فكان مصيرهم الذل والمهانة .

---

(١) بداية الهداية للغزالي ص٢.

(٢) الجامع لأحكام القرآن١٢٥/٢٠.

(٣) التحرير والتنوير٤٥٠/٣٠

ثم وصف الله تعالى الناصية بأنها: ﴿ نَاصِيَةٍ كَٰذِبَةٍ خَاطِئَةٍ ﴾: أي" كاذبة في مقالها، خاطئة في فعَالها"[١].
وفي الأبحاث العلمية الحديثة يقولون:" إن دراسة التشريح لمخ الإنسان والحيوان تدل على تشابه في وظيفة الناصية، فالناصية هي: مركز القيادة والتوجيه عند الإنسان وكذلك كل الحيوانات"[٢].

يقول الشيخ الزنداني تعليقاً على هذا الكلام: " لفت هذا القول انتباهي إلى قوله تعالى: ﴿ مَّا مِن دَآبَّةٍ إِلَّا هُوَ ءَاخِذُۢ بِنَاصِيَتِهَآ ۚ إِنَّ رَبِّى عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٥٦﴾ ﴾ [هود: ٥٦]، وتذكرت أيضاً بعض أحاديث النبي صلى الله عليه وسلم في الناصية كقوله: (اللهم إني عبدك ابن عبدك ابن أمتك ناصيتي بيدك) [٣]، وقوله: (أعوذ بك من شر كل شيء أنت آخذ بناصيته)[٤] وقوله: (الخيل معقود في نواصيها الخير إلى يوم القيامة)[٥].
فإذا جمعنا معاني هذه النصوص نستنتج أن الناصية هي مركز القيادة والتوجيه لسلوك الإنسان، وكذلك سلوك الحيوان"[٦]

قال الشيخ ابن عثيمين رحمه الله: "قال الله عز وجل: ﴿ كَلَّا لَئِن لَّمْ يَنتَهِ لَنَسْفَعًۢا بِٱلنَّاصِيَةِ ﴾ أي: ناصية هذا المجرم المعتدي ﴿ نَاصِيَةٍ كَٰذِبَةٍ خَاطِئَةٍ ﴾ لأن العادة أنه يمسك الإنسان بناصيته، ثم يؤخذ بجريمته، ولا يبعد أن الناصية هي محل الإقدام؛ لأنها هي مقدم الرأس، والرأس هو محل التفكير والتصور، فلا يبعد أن الله أراد هذا المعنى. وإن كان في ظني والله أعلم: أن الناس في ذلك العهد لا يعلمون بهذا الشيء، لكن لا مانع إذا شهد الحس والأمر الواقع لمعنىً صحيح يقاربه القرآن، أقول: لا مانع من أن نقول أنه دال عليه"[٧].

ثانياً:التهديد بعدم منفعة الأصحاب المساعدين في عداء الدعوة:

قال تعالى: ﴿ فَلْيَدْعُ نَادِيَهُۥ ﴾ "أي ﴿ فَلْيَدْعُ ﴾ أهل مجلسه وعشيرته، فليستنصر بهم"[٨].

فأعوان الظالمين يتخلون عنهم وقت الشدة:

---

(١) تفسير القرآن العظيم ٨/٤٣٨.
(٢) مؤتمر الإعجاز العلمي في القرآن والسنة في القاهرة عام ١٩٨٥، نقلاً عن كتاب بينات الرسول ومعجزاته ص٨٦.
(٣) أخرجه أحمد ١/٤٥٢ (٤٣١٨)، قال الهيثمي في الزوائد ١٠/١٣٦ "رجاله رجال الصحيح غير أبي سلمة الجهني وقد وثقه ابن حبان، وأخرجه الحاكم ١/٦٩٠ (١٨٧٧) وقال: صحيح على شرط مسلم، وصححه الألباني في الصحيحة(٢٥٢٨) .
(٤) أخرجه مسلم كتاب الذكر والدعاء باب ما يقول عند النوم وأخذ المضجع (٢٧١٣).
(٥) أخرجه البخاري كتاب المناقب باب ٢٨(٣٦٤٣)، ومسلم كتاب الإمارة باب الخيل معقود في نواصيها الخير إلى يوم القيامة (١٨٧١).
(٦) بينات الرسول ومعجزاته ص ٨٦– ٨٧.
(٧) لقاء الباب المفتوح عند تفسير قوله تعالى: ﴿ نَاصِيَةٍ كَٰذِبَةٍ خَاطِئَةٍ ﴾ اللقاء(١٥٨) فتوى رقم(١٦).
(٨) الجامع لأحكام القرآن٢٠/١٢٦.

ففي الدنيا: كما فعل إبليس يوم بدر، قال تعالى: ﴿ وَإِذْ زَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَـٰنُ أَعْمَـٰلَهُمْ وَقَالَ لَا غَالِبَ لَكُمُ ٱلْيَوْمَ مِنَ ٱلنَّاسِ وَإِنِّى جَارٌ لَّكُمْ ۖ فَلَمَّا تَرَآءَتِ ٱلْفِئَتَانِ نَكَصَ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ وَقَالَ إِنِّى بَرِىٓءٌ مِّنكُمْ إِنِّىٓ أَرَىٰ مَا لَا تَرَوْنَ إِنِّىٓ أَخَافُ ٱللَّهَ ۚ وَٱللَّهُ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴿٤٨﴾ ﴾ [الأنفال: ٤٨].

وكذلك المنافقين واليهود في الغزوات، كما قال تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ نَافَقُوا۟ يَقُولُونَ لِإِخْوَٰنِهِمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَـٰبِ لَئِنْ أُخْرِجْتُمْ لَنَخْرُجَنَّ مَعَكُمْ وَلَا نُطِيعُ فِيكُمْ أَحَدًا أَبَدًا وَإِن قُوتِلْتُمْ لَنَنصُرَنَّكُمْ وَٱللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَـٰذِبُونَ ﴿١١﴾ لَئِنْ أُخْرِجُوا۟ لَا يَخْرُجُونَ مَعَهُمْ وَلَئِن قُوتِلُوا۟ لَا يَنصُرُونَهُمْ وَلَئِن نَّصَرُوهُمْ لَيُوَلُّنَّ ٱلْأَدْبَـٰرَ ثُمَّ لَا يُنصَرُونَ ﴿١٢﴾ ﴾ [الحشر: ١١ - ١٢]. والأمثلة على ذلك كثيرة .

أما في الآخرة: فإبليس اللعين كذلك سيتخلى عن كل من أغواهم، قال تعالى: ﴿ وَقَالَ ٱلشَّيْطَـٰنُ لَمَّا قُضِىَ ٱلْأَمْرُ إِنَّ ٱللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ ٱلْحَقِّ وَوَعَدتُّكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ ۖ وَمَا كَانَ لِىَ عَلَيْكُم مِّن سُلْطَـٰنٍ إِلَّآ أَن دَعَوْتُكُمْ فَٱسْتَجَبْتُمْ لِى ۖ فَلَا تَلُومُونِى وَلُومُوٓا۟ أَنفُسَكُم ۖ مَّآ أَنَا۠ بِمُصْرِخِكُمْ وَمَآ أَنتُم بِمُصْرِخِىَّ ۖ إِنِّى كَفَرْتُ بِمَآ أَشْرَكْتُمُونِ مِن قَبْلُ ۗ إِنَّ ٱلظَّـٰلِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٢٢﴾ ﴾ [إبراهيم: ٢٢].

وكذلك أهل الغواية والباطل يتخلون عمّن أغووهم، قال تعالى: ﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَندَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ ٱللَّهِ ۖ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَشَدُّ حُبًّا لِّلَّهِ ۗ وَلَوْ يَرَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓا۟ إِذْ يَرَوْنَ ٱلْعَذَابَ أَنَّ ٱلْقُوَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا وَأَنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعَذَابِ ﴿١٦٥﴾ إِذْ تَبَرَّأَ ٱلَّذِينَ ٱتُّبِعُوا۟ مِنَ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوا۟ وَرَأَوُا۟ ٱلْعَذَابَ وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ ٱلْأَسْبَابُ ﴿١٦٦﴾ وَقَالَ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوا۟ لَوْ أَنَّ لَنَا كَرَّةً فَنَتَبَرَّأَ مِنْهُمْ كَمَا تَبَرَّءُوا۟ مِنَّا ۗ كَذَٰلِكَ يُرِيهِمُ ٱللَّهُ أَعْمَـٰلَهُمْ حَسَرَٰتٍ عَلَيْهِمْ ۖ وَمَا هُم بِخَـٰرِجِينَ مِنَ ٱلنَّارِ ﴿١٦٧﴾ ﴾ [البقرة: ١٦٥ – ١٦٧] والأمثلة على ذلك كثيرة .

ثالثاً: التخويف بملائكة العذاب يوم القيامة :

قال تعالى: ﴿ سَنَدْعُ ٱلزَّبَانِيَةَ ﴾ أي: الملائكة الغلاظ الشداد، وهو مأخوذ من الزبن، وهو: الدفع"[1]، سموا بها لأنهم يدفعون أهل النار إليها"[2].

عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يصلي عند المقام فمر به أبو جهل بن هشام فقال: يا محمد، ألم أنهك عن هذا –وَتَوعَّده–فأغلظ له رسول الله صلى الله عليه وسلم

(١) الجامع لأحكام القرآن٢٠/١٢٦.

(٢) معالم التنزيل٨/٤٨١.

وانتهره، فقال: يا محمد، بأي شيء تهددني؟ أما والله إني لأكثر هذا الوادي ناديًا! فأنزل الله: ﴿ فَلْيَدْعُ نَادِيَهُۥ ﴿١٧﴾ سَنَدْعُ ٱلزَّبَانِيَةَ ﴾ قال ابن عباس: لو دعا ناديه لأخذته ملائكة العذاب من ساعته[1].

ثالثاً: واجب الدعاة أمام هذا الطغيان :

قال تعالى: ﴿ كَلَّا لَا تُطِعْهُ وَٱسْجُدْ وَٱقْتَرِب ﴿١٩﴾ ﴾ ففي ضوء هذا المصير الرهيب..تختم السورة بتوجيه المؤمن إلى الإصرار والثبات على إيمانه وطاعته.. وذلك من خلال توجيهين:

١- **عدم طاعة الطغاة:** قوله: ﴿ كَلَّا لَا تُطِعْهُ ﴾ يعني: "يا محمد، لا تطعه فيما ينهاك عنه من المداومة على العبادة وكثرتها، وصلِّ حيث شئت ولا تباله؛ فإن الله حافظك وناصرك، وهو يعصمك من الناس"[2].

وعلى غرار هذا التوجيه يأتي التحذير الدائم من الله تعالى في كتابه العزيز من طاعة أعداء الله في مواضع كثيرة من القرآن، قال تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ ٱتَّقِ ٱللَّهَ وَلَا تُطِعِ ٱلْكَٰفِرِينَ وَٱلْمُنَٰفِقِينَ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴾ وقال تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن تُطِيعُواْ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يَرُدُّوكُمْ عَلَىٰٓ أَعْقَٰبِكُمْ فَتَنقَلِبُواْ خَٰسِرِينَ ﴾ [آل عمران ١٤٩].وقال تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن تُطِيعُواْ فَرِيقًا مِّنَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ يَرُدُّوكُم بَعْدَ إِيمَٰنِكُمْ كَٰفِرِينَ ﴿١٠٠﴾ ﴾ [آل عمران: ١٠٠] ، وقال تعالى: ﴿ وَلَا تُطِيعُوٓاْ أَمْرَ ٱلْمُسْرِفِينَ ﴿١٥١﴾ ٱلَّذِينَ يُفْسِدُونَ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا يُصْلِحُونَ ﴿١٥٢﴾ ﴾ [الشعراء: ١٥١ - ١٥٢]، وهذا السبب في تحذير الله لعباده من طاعة الكفار والمنافقين، فإنهم يبعدون الناس عن دين الله، ويوقعونهم في الظلال والخسران والكفر بالله تعالى.

٢- **التقرب لله تعالى بالطاعة :** ﴿ وَٱسْجُدْ وَٱقْتَرِب ﴾:

عن أبي هريرة رضي الله عنه : أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: (أقرب ما يكون العبد من ربه وهو ساجد، فأكثروا الدعاء)[3].

فالله تعالى حينما يأمر نبيه بعدم طاعة الكفار يأمره بطاعته لأنها هي المنجية له من كيد الكفار قال تعالى ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن تُطِيعُواْ فَرِيقًا مِّنَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ يَرُدُّوكُم بَعْدَ إِيمَٰنِكُمْ كَٰفِرِينَ ﴿١٠٠﴾ وَكَيْفَ تَكْفُرُونَ وَأَنتُمْ تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ ءَايَٰتُ ٱللَّهِ وَفِيكُمْ رَسُولُهُۥ ۗ وَمَن يَعْتَصِم بِٱللَّهِ فَقَدْ هُدِىَ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿١٠١﴾ ﴾ [آل عمران:

---

(١)أخرجه الإمام أحمد في المسند١/٣٢٩ (٣٠٤٥)، قال شعيب الأرناؤوط: إسناده صحيح، وصححه الألباني في الصحيحة (٢٧٥).

(٢) تفسير القرآن العظيم ٨/٤٣٩.

(٣) أخرجه مسلم كتاب الصلاة باب ما يقال في الركوع والسجود (٤٨٢)

١٠٠ – ١٠١]، وقال تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن تُطِيعُواْ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يَرُدُّوكُمۡ عَلَىٰٓ أَعۡقَٰبِكُمۡ فَتَنقَلِبُواْ خَٰسِرِينَ ﴿١٤٩﴾ بَلِ ٱللَّهُ مَوۡلَىٰكُمۡۖ وَهُوَ خَيۡرُ ٱلنَّٰصِرِينَ ﴿١٥٠﴾ ﴾ [آل عمران: ١٤٩ – ١٥٠]، وقال تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ ٱتَّقِ ٱللَّهَ وَلَا تُطِعِ ٱلۡكَٰفِرِينَ وَٱلۡمُنَٰفِقِينَۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿١﴾ وَٱتَّبِعۡ مَا يُوحَىٰٓ إِلَيۡكَ مِن رَّبِّكَۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِمَا تَعۡمَلُونَ خَبِيرًا ﴿٢﴾ وَتَوَكَّلۡ عَلَى ٱللَّهِۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَكِيلًا ﴿٣﴾ ﴾.

، قال الشيخ السعدي: "وهذا عامٌ لكل ناه عن الخير وهي عنه، وإن كانت نازلة في شأن أبي جهل حين نهى رسول الله صلى الله عليه وسلم عن الصلاة وعبث به وآذاه"[١].

وهذا التوجيه يعطينا بعداً تربوياً لا بد للدعاة أن ينتبهوا إليه، ألا وهو التضرع لله وبيان الذل له والتقرب إليه خصوصاً في أيام الأزمات، فالله تعالى يقول: ﴿ فَلَوۡلَآ إِذۡ جَآءَهُم بَأۡسُنَا تَضَرَّعُواْ ﴾ [الأنعام: ٤٣]، وقال تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا لَقِيتُمۡ فِئَةً فَٱثۡبُتُواْ وَٱذۡكُرُواْ ٱللَّهَ كَثِيرًا لَّعَلَّكُمۡ تُفۡلِحُونَ ﴿٤٥﴾ وَأَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَا تَنَٰزَعُواْ فَتَفۡشَلُواْ وَتَذۡهَبَ رِيحُكُمۡۖ وَٱصۡبِرُوٓاْۚ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿٤٦﴾ ﴾ [الأنفال: ٤٥ – ٤٦].

وقال تعالى: ﴿ ٱلَّذِينَ قَالَ لَهُمُ ٱلنَّاسُ إِنَّ ٱلنَّاسَ قَدۡ جَمَعُواْ لَكُمۡ فَٱخۡشَوۡهُمۡ فَزَادَهُمۡ إِيمَٰنًا وَقَالُواْ حَسۡبُنَا ٱللَّهُ وَنِعۡمَ ٱلۡوَكِيلُ ﴿١٧٣﴾ فَٱنقَلَبُواْ بِنِعۡمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَفَضۡلٍ لَّمۡ يَمۡسَسۡهُمۡ سُوٓءٌ وَٱتَّبَعُواْ رِضۡوَٰنَ ٱللَّهِۗ وَٱللَّهُ ذُو فَضۡلٍ عَظِيمٍ ﴿١٧٤﴾ ﴾ [آل عمران: ١٧٣ – ١٧٤].

---

(١) تيسير الكريم الرحمن ٩٣٠.

تفسير سورة القدر

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿ إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ فِى لَيْلَةِ ٱلْقَدْرِ ﴿١﴾ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا لَيْلَةُ ٱلْقَدْرِ ﴿٢﴾ لَيْلَةُ ٱلْقَدْرِ خَيْرٌ مِّنْ أَلْفِ شَهْرٍ ﴿٣﴾ تَنَزَّلُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَٱلرُّوحُ فِيهَا بِإِذْنِ رَبِّهِم مِّن كُلِّ أَمْرٍ ﴿٤﴾ سَلَٰمٌ هِىَ حَتَّىٰ مَطْلَعِ ٱلْفَجْرِ ﴿٥﴾ ﴾

المبحث الأول

مقدمات حول السورة

أولاً : تسميتها:

سميت هذه السورة في المصاحف وكتب التفسير وكتب السنة (سورة القدر) وهذه التسمية هي المشهورة والمتعارف عليها ، ولكن سماها بعض العلماء (سورة ليلة القدر)(١).

ثانياً: نزولها ومناسبتها:

عدها صاحب الإتقان من السور المختلف فيها وقال: والأكثر أنها مكية(٢).

قال الخطابي: "لما اجتمع أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم على القرآن، ووضعوا سورة القدر عقب العلق، استدلوا بذلك على أن المراد بهاء الكناية في قوله: ﴿ إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ فِى لَيْلَةِ ٱلْقَدْرِ ﴾ الإشارة إلى قوله : ﴿ ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلَّذِى خَلَقَ ﴾ [العلق: ١]، قال القاضي أبو بكر بن العربي وهذا بديع جداً"(٣).

أما عدد آياتها (٥) آية، وكلماتها: (٣٠) كلمة، وحروفها: (١١٢) حرفاً(٤).

وفي سبب نزولها :

عن مجاهد رحمه الله قال : إن النبي صلى الله عليه وسلم ذكر رجلاً من بني إسرائيل لبس السلاح في سبيل الله ألف شهر، فعجب المسلمون من ذلك، فنزلت : ﴿ إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ فِى لَيْلَةِ ٱلْقَدْرِ ﴿١﴾ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا لَيْلَةُ ٱلْقَدْرِ ﴿٢﴾ لَيْلَةُ ٱلْقَدْرِ خَيْرٌ مِّنْ أَلْفِ شَهْرٍ ﴾ قال: خير من التي لبس فيها السلاح ذلك الرجل(٥).

---

(١) هذه التسمية عند ابن كثير في إحدى النسخ انظر: هامش تفسير ابن كثير ٤٤١/٨ وكذا ذكرها في نهاية تفسير سورة القدر٤٥٣/٨، والجصاص في أحكام القرآن٣٧٣/٥، والتحرير والتنوير ٤٥٥/٣٠.

(٢) انظر:الاتقان١٣/١. وقيل مدنية في أحد قولي ابن عباس، وذكر الواقدي أنها أول سورة نزلت بالمدينة، قال ابن عاشور التحرير والتنوير٤٥٥/٣٠، "إن المتبادر أنها تتضمن الترغيب في إحياء ليلة القدر، وإنما كان ذلك بعد فرض رمضان بعد الهجرة "، انظر: الناسخ والمنسوخ لابن سلام ٢٨/١، وللمقرى٢٠١/١، وللنحاس١٥٣/٣، ولابن حزم ٦٦/١. والإتقان ٢٧/١، والمحرر الوجيز ٥١٨/١٥، والجامع لأحكام القرآن ١٢٩/٢٠.

(٣) أسرار الترتيب ٢٣/١.

(٤) التفسير القرآني للقرآن ٨١/٣.

(٥) ذكره الواحدي في أسباب النزول (٤٩٥) ، وابن كثير في التفسير ٤٤١/٨، والبيهقي في السنن الكبرى٣٠٦/٤ .

وعن مجاهد قال: "كان في بني إسرائيل رجل يقوم الليل حتى يصبح، ثم يجاهد العدو بالنهار حتى يمسي، ففعل ذلك ألف شهر، فأنزل الله هذه الآية: ﴿ لَيْلَةُ ٱلْقَدْرِ خَيْرٌ مِّنْ أَلْفِ شَهْرٍ ﴾ قيام تلك الليلة خير من عمل ذلك الرجل"[1].

ومناسبتها لما قبلها:

"ختمت سورة « العلق » بقوله تعالى : ﴿ كَلَّا لَا تُطِعْهُ وَٱسْجُدْ وَٱقْتَرِب ﴿١٩﴾ ﴾ وجاءت بعد ذلك سورة القدر ، وفيها تنويه بشأن هذا القرآن الذي أنزل على النبي ، والذي هداه ربه ، وملأ قلبه إيمانا ويقينا بعظمته وجلاله .. وبهذا الإيمان الوثيق يتجه النبي إلى ربه لا يخشى وعيدا ، ولا يرهب تهديدا "[2].

ثالثاً: موضوعها :

١- الحديث عن تلك الليلة المشهودة التي فضلها الله على غيرها بنزول الوحي من الله بالقرآن الكريم، الذي لم تشهد الأرض مثله في عظمته، وفي دلالته ، وفي آثاره في حياة البشرية جميعاً إلى قيام الساعة.

٢- بين الله فيها عدة أمور:

أ- التنويه بفضل القرآن وعظمته بإسناد إنزاله إلى الله تعالى.

ب- الرد على الذين أنكروا أن يكون القرآن منزلاً من الله تعالى.

ج- رفع شأن الوقت الذي أنزل فيه القرآن وشرفه بنزول الملائكة في ليلة إنزاله.

د- تفضيل الليلة التي توافق ليلة إنزاله من كل عام، وتحريض المسلمين على تحين ليلة القدر بالقيام وجميع أعمال البر.

رابعاً: المعنى الإجمالي للسورة:

يقول تعالى مبينًا لفضل القرآن وعلو قدره: ﴿ إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ فِى لَيْلَةِ ٱلْقَدْرِ ﴾ وذلك أن الله ابتدأ بإنزاله في رمضان في ليلة القدر، ورحم الله بها العباد رحمة عامة، لا يقدر العباد لها شكرًا.

ثم فخم شأنها، وعظم مقدارها فقال: ﴿ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا لَيْلَةُ ٱلْقَدْرِ ﴾ أي: فإن شأنها جليل، ومقدارها عظيم.

ثم فصل في هذا الفضل فقال: ﴿ لَيْلَةُ ٱلْقَدْرِ خَيْرٌ مِّنْ أَلْفِ شَهْرٍ ﴾ أي: تعادل في فضلها ألف شهر، فالعمل الذي يقع فيها، خير من العمل في ألف شهر خالية منها.

وذكر من فضلها : ﴿ تَنَزَّلُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَٱلرُّوحُ فِيهَا بِإِذْنِ رَبِّهِم ﴾ أي: يكثر نزولهم فيها .

ومن فضلها : ﴿ مِّن كُلِّ أَمْرٍ ﴿٤﴾ سَلَٰمٌ هِىَ ﴾ أي: سالمة من كل آفة وشر، وذلك لكثرة خيرها، ﴿ حَتَّىٰ مَطْلَعِ ٱلْفَجْرِ ﴾ أي: مبتدأها من غروب الشمس ومنتهاها طلوع الفجر[3].

---

(١) جامع البيان ٥٤٦/٢٤، تفسير القرآن العظيم ٤٤١/٨من رواية ابن جرير عن مجاهد مرسلاً .

(٢) التفسير القرآني للقرآن ٨١/٣.

(٣) تيسير الكريم الرحمن ٩٣١ مختصراً .

المبحث الثاني
وقفات حول السورة
المطلب الأول
أنزل الله القرآن في ليلة القدر

قال تعالى: ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ فِى لَيْلَةِ ٱلْقَدْرِ﴾:

هذه الآية اشتملت على عدة فوائد منها:

-"تنويه عظيم بالقرآن فافتتحت بحرف ﴿إِنَّآ﴾، وبالإخبار عنها بالجملة الفعلية وكلاهما من طرق التأكيد والتقوية، وهذا أسلوب بليغ للرد على الذي أنكروا أن يكون القرآن مترلاً من عند الله تعالى.

-وفي ضمير العظمة وإسناد الإنزال إليه تشريفٌ عظيمٌ للقرآن.

وفي الإتيان بضمير القرآن دون الاسم الظاهر: إيماء إلى أنه حاضر في أذهان المسلمين؛ لشدة إقبالهم عليه، فكون الضمير دون سبق معاد إيماء إلى شهرته بينهم.

- "والمقصود من تشريف الليلة التي كان ابتداء إنزال القرآن فيها؛ تشريف آخر للقرآن بتشريف زمان ظهوره، تنبيها على أنه تعالى اختار لابتداء إنزاله وقتا شريفاً مباركاً، لأن عِظَم قَدْرِ الفِعْل يقتضي أن يُخْتار لإيقاعه أفضل الأوقات والأمكنة، فاختيار أفضل الأوقات لابتداء إنزاله ينبئ عن علو قدره عند الله تعالى"(١).

- والآية صريحة في أن الآيات الأُول من القرآن نزلت ليلاً وهو الذي يقتضيه حديث بدء الوحي لقول عائشة رضي الله عنها فيه: (فكان يتحنث في غار حراء الليالي ذوات العدد)(٢) فكان تعبده ليلاً.

وعليه يكون قول عائشة رضي الله عنها (فرجع بها رسول الله يرجف فؤاده)(٣) معناه أنه خرج صلى الله عليه وسلم من غار حراء إثر الفجر بعد انقضاء تلقينه الآيات الخمس من سورة اقرأ، إذ يكون نزولها عليه في آخر تلك الليلة، وذلك أفضل أوقات الليل، كما قال تعالى : ﴿وَٱلْمُسْتَغْفِرِينَ بِٱلْأَسْحَارِ﴾ [آل عمران: ١٧]"(٤).

---

(١) التحرير والتنوير ٣٠/٤٥٨.

(٢) أخرجه البخاري كتاب بدأ الوحي باب كيف كان بد الوحي إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم(٣) ، ومسلم كتاب الإيمان باب بدأ الوحي إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم (١٦٠).

(٣) المرجع السابق في نفس الرواية .

(٤) التحرير والتنوير ٣٠/٤٥٦-٤٥٨ بتصرف واختصار.

ولذلك أنزل الله تعالى على رسوله صلى الله عليه وسلم بعد ذلك بقليل: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمُزَّمِّلُ ۝١ قُمِ ٱلَّيْلَ إِلَّا قَلِيلًا ۝٢ نِّصْفَهُۥٓ أَوِ ٱنقُصْ مِنْهُ قَلِيلًا ۝٣ أَوْ زِدْ عَلَيْهِ وَرَتِّلِ ٱلْقُرْءَانَ تَرْتِيلًا ۝٤ إِنَّا سَنُلْقِى عَلَيْكَ قَوْلًا ثَقِيلًا ۝٥ إِنَّ نَاشِئَةَ ٱلَّيْلِ هِىَ أَشَدُّ وَطْـًٔا وَأَقْوَمُ قِيلًا ۝٦﴾ [المزمل: ١ – ٦] .

-وتدل الآية على أن واجبنا تجاه القرآن:

١ -قراءة القرآن في الليل، وفي الثلث الأخير من الليل، في الوقت الذي اختار الله تعالى فيه نزول القرآن، والله تعالى يترل فيه إلى السماء الدنيا كما صح ذلك عن رسول الله صلى الله عليه وسلم حيث قال: (يترل ربنا تبارك وتعالى كل ليلة إلى السماء الدنيا حين يبقى ثلث الليل الآخر، يقول: من يدعوني فأستجيب له، من يسألني فأعطيه، من يستغفرني فأغفر له)[1]، وقد حث النبي صلى الله عليه وسلم على قيام ليلة القدر، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (من قام ليلة القدر إيماناً واحتساباً غُفِرَ له ما تقدم من ذنبه)[2].

٢ -تقدير القرآن واحترامه، وعدم قرائته والذهاب به إلا في الأماكن المحترمة والاستعداد لقراءته، وأن نملأ به بيوت الله – المساجد- بالتلاوة والتدارس فإنها أفضل وأطهر، بل وأحب مكان عند الله يقرأ فيه القرآن، قال تعالى: ﴿ فِى بُيُوتٍ أَذِنَ ٱللَّهُ أَن تُرْفَعَ وَيُذْكَرَ فِيهَا ٱسْمُهُۥ يُسَبِّحُ لَهُۥ فِيهَا بِٱلْغُدُوِّ وَٱلْءَاصَالِ ۝٣٦ ﴾ [النور: ٣٦]، وقال تعالى: ﴿ وَمَسَٰجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا ٱسْمُ ٱللَّهِ كَثِيرًا ﴾ [الحج: ٤٠].

٣ -كما أن هذه المعرفة للوقت والشرف توجب علينا أثراً في السلوك والاعتقاد تجاه هذا القرآن كما قال تعالى: ﴿ شَهْرُ رَمَضَانَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ فِيهِ ٱلْقُرْءَانُ هُدًى لِّلنَّاسِ وَبَيِّنَٰتٍ مِّنَ ٱلْهُدَىٰ وَٱلْفُرْقَانِ ﴾[البقرة: ١٨٥] .

---

(١) أخرجه البخاري كتاب التهجد باب الصلاة والدعاء آخر الليل(١١٤٥)، ومسلم كتاب الصلاة باب في الليل ساعة مستجاب فيها الدعاء (٧٥٨).

(٢) أخرجه البخاري كتاب الصوم باب من صام رمضان إيماناً واحتساباً ونية (١٩٠١)، كتاب الصلاة باب في الليل ساعة مستجاب فيها الدعاء (٧٥٩).

المطلب الثاني

لماذا سميت بليلة القدر

للقدر معانٍ كثيرة كلها تفيد التعظيم والإجلال والاحترام، ومنها :

١- ليلة الحُكْم: كما قال تعالى: ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ فِى لَيْلَةٍ مُّبَٰرَكَةٍ ۚ إِنَّا كُنَّا مُنذِرِينَ ۝٣ فِيهَا يُفْرَقُ كُلُّ أَمْرٍ حَكِيمٍ ۝٤﴾[الدخان: ٣ – ٤]. قال ابن جرير: "وهي ليلة الحُكْم التي يقضي الله فيها قضاء السنة؛ وهو مصدر من قولهم: قَدَرَ الله عليّ هذا الأمر، فهو يَقْدُر قَدْرا"[١].

٢- ليلة التقدير: سميت بذلك لأن الله تعالى يقدر فيها ما يشاء من أمره، إلى مثلها من السنة القابلة، من أمر الموت والأجل والرزق وغيره، قال عكرمة رحمه الله: يكتب حاج بيت الله تعالى في ليلة القدر بأسمائهم وأسماء أبائهم، فعن ابن عباس رضي الله عنهما قال: "يُكتب من أم الكتاب ما يكون في السنة من رزق ومطر وحياة وموت، حتى الحاج"[٢].

٣- القَدْر والمكانة والشرف: وإنما سميت بذلك:

- لعظمها وقدرها وشرفها، من قولهم: لفلان قدر، أي شرف ومنزلة.
- لأن من لم يكن له قدر ولا شأن يصير في هذه الليلة ذا قَدْر إذا أحياها.
- لأن للطاعات فيها قدراً عظيماً، وثواباً جزيلاً.
- لأنه أنزل فيها كتاباً ذا قدر، على رسول ذي قدر، على أمة ذات قدر.
- لأنه ينزل فيها ملائكة ذوو قدر وشأن.
- لأن الله تعالى ينزل فيها الخير والبركة والمغفرة.
- لأن الله تعالى قَدَّر فيها الرحمة على المؤمنين[٣].

٤- **القدر:** "أنه من الضيق أي: هي ليلة تضيق فيها الأرض عن الملائكة الذين ينزلون، ويشهد له قوله تعالى: ﴿وَمَن قُدِرَ عَلَيْهِ رِزْقُهُۥ﴾ [الطلاق: ٧]" [٤].

---

(١) جامع البيان٥٣١/٢٤.
(٢) تفسير ابن أبي حاتم ٢١٤/١٢، والدر المنثور٣٩٩/٧.
(٣) انظر هذه المعاني والتعليلات في الجامع لأحكام القرآن ١٣١/٢٠ بتصرف واختصار.
(٤) زاد المسير ١٨٢/٩.

المطلب الثالث

عظم أمر ليلة القدر

قال تعالى : ﴿ وَمَآ أَدۡرَىٰكَ مَا لَيۡلَةُ ٱلۡقَدۡرِ ﴾:

"تنويه بطريق الإبهام المراد به: أن إدراك كنهها ليس بالسهل، لما ينطوي عليه من الفضائل الجمَّة، وكلمة (ما أدراك ما كذا) كلمة تقال في تفخيم الشيء وتعظيمه، والمعنى: أي شيء يُعَرِّفُك ما هي ليلة القدر؟ أي يعسر على شيء أن يعرفك مقدارها"[1].

وفضيلة الزمان إنما تكون بكثرة ما يقع فيه من الفضائل، وفي تلك الليلة يُقْسَم الخير الكثير الذي لا يوجد مثله، ويقع فيها من الخير الكثير والرحمة العظيمة.

وفي هذه الليلة حدثت وتحدث أمور ذات شأن عظيم لعل من أعظمها:

١ - نزول القرآن في ليلة القدر:

قال تعالى: ﴿ إِنَّآ أَنزَلۡنَٰهُ فِي لَيۡلَةِ ٱلۡقَدۡرِ ﴾، قال ابن عباس رضي الله عنهما وغيره: "أنزل الله القرآن جملة واحدة من اللوح المحفوظ إلى بيت العِزّة من السماء الدنيا، ثم نزل مفصلا بحسب الوقائع في ثلاث وعشرين سنة على رسول الله صلى الله عليه وسلم"[2][3].

٢ - ليلة مباركة:

قال تعالى: ﴿ إِنَّآ أَنزَلۡنَٰهُ فِي لَيۡلَةٖ مُّبَٰرَكَةٍۚ إِنَّا كُنَّا مُنذِرِينَ ۝٣ فِيهَا يُفۡرَقُ كُلُّ أَمۡرٍ حَكِيمٍ ۝٤ أَمۡرٗا مِّنۡ عِندِنَآۚ إِنَّا كُنَّا مُرۡسِلِينَ ۝٥ ﴾ [الدخان: ٣ - ٦]. "والمباركة: الكثيرة الخير، لما ينتج الله فيها من الأمور التي تتعلق بها منافع العباد في دينهم ودنياهم، ولو لم يوجد فيها إلا إنزال القرآن وحده؛ لكفى به بركة "[4]، لأن القرآن مبارك قال الله تعالى: ﴿ كِتَٰبٌ أَنزَلۡنَٰهُ إِلَيۡكَ مُبَٰرَكٞ لِّيَدَّبَّرُوٓاْ ءَايَٰتِهِۦ وَلِيَتَذَكَّرَ أُوْلُواْ ٱلۡأَلۡبَٰبِ ۝٢٩ ﴾ [ص: ٢٩] ولذلك فالليلة التي نزل فيها تكون ليلة مباركة.

---

(١) التحرير والتنوير ٤٥٨/٣٠.

(٢) تفسير القرآن العظيم ٤٤١/٨، وهذا الأثر مشكل وفيه دراسة مستقلة في ثبوته وفي تأويله وإن كان عمدة المؤلفين في علوم القرآن. صححه ابن حجر في الفتح ٤/٩-٥

(٣) تحدثنا عن بعض المعاني المهمة في هذه الآية في الوقفة الأولى .

(٤) البحر المحيط ٢١/١٠.

ومن بركتها هذه الرحمة التي يترلها الله على عباده بمغفرة الذنوب لمن أحياها كما قال تعالى: ﴿ إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ فِى لَيْلَةٍ مُّبَٰرَكَةٍ ۚ إِنَّا كُنَّا مُنذِرِينَ ﴿٣﴾ فِيهَا يُفْرَقُ كُلُّ أَمْرٍ حَكِيمٍ ﴿٤﴾ أَمْرًا مِّنْ عِندِنَآ ۚ إِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ ﴿٥﴾ رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٦﴾ ﴾ [الدخان: ٣ – ٦].

وكما قال صلى الله عليه وسلم : (من قام ليلة القدر إيماناً واحتساباً غفر له ما تقدم من ذنبه)[١].

يقول السعدي: " كثيرة الخير والبركة، وهي ليلة القدر التي هي خير من ألف شهر، فأنزل أفضل الكلام بأفضل الليالي والأيام على أفضل الأنام، بلغة العرب الكرام، لينذر به قوما عَمَّتْهم الجهالة وغلبت عليهم الشقاوة فيستضيئوا بنوره ويقتبسوا من هداه ويسيروا وراءه فيحصل لهم الخير الدنيوي والخير الأخروي"[٢].

٣ –نزل فيها القرآن هداية للناس وبيان وفرقان:

قال تعالى: ﴿ شَهْرُ رَمَضَانَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ فِيهِ ٱلْقُرْءَانُ هُدًى لِّلنَّاسِ وَبَيِّنَٰتٍ مِّنَ ٱلْهُدَىٰ وَٱلْفُرْقَانِ ﴾ [البقرة: ١٨٥]. أي: "الصوم المفروض عليكم، هو: شهر رمضان، الشهر العظيم، الذي قد حصل لكم فيه من الله الفضل العظيم، وهو: القرآن الكريم؛ المشتمل على الهداية لمصالحكم الدينية والدنيوية، وتبيين الحق بأوضح بيان، والفرقان بين الحق والباطل، والهدى والضلال، وأهل السعادة وأهل الشقاوة"[٣].

٤ –ليلة القدر خير من ألف شهر:

قال تعالى: ﴿لَيْلَةُ ٱلْقَدْرِ خَيْرٌ مِّنْ أَلْفِ شَهْرٍ ﴾، فعن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: دخل رمضان فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (إن هذا الشهر قد حضركم، وفيه ليلة خير من ألف شهر، من حرمها فقد حرم الخير كله، ولا يحرم خيرها إلا كل محروم)[٤].

أما معنى الخيرية: فقال سفيان الثوري رحمه الله : بَلَغني عن مجاهد رحمه الله : ﴿لَيْلَةُ ٱلْقَدْرِ خَيْرٌ مِّنْ أَلْفِ شَهْرٍ ﴾ قال: عَمَلها، صيامها وقيامها خير من ألف شهر[٥]،والقول بأنها أفضل من عبادة ألف شهر ليس فيه ليلة القدر هو اختيارُ ابن جرير[٦]. قال ابن كثير: "وهو الصواب لا ما عداه"[٧].

---

(١) أخرجه البخاري كتاب الصوم باب من صام رمضان إيماناً واحتساباً ونية (١٩٠١)، ومسلم كتاب الصلاة باب الترغيب في قيام رمضان وهو التراويح (٧٦٠).

(٢) تيسير الكريم الرحمن ٧٧١.

(٣) تيسير الكريم الرحمن ٨٦.

(٤) أخرجه ابن ماجة كتاب الصيام باب فضل شهر رمضان (١٦٤٤)، قال الألباني: حسن صحيح (١٣٣٣)، وانظر صحيح الترغيب (٩٨٩ و ٩٩٠).

(٥) جامع البيان٢٤/٥٤٥، وتفسير القرآن العظيم ٨/٤٤١.

(٦) جامع البيان ٢٤/٤٥٧.

(٧) تفسير القرآن العظيم ٨/٤٤١.

قال السعدي: "وهذا مما تتحير فيه الألباب، وتندهش له العقول، حيث منَّ الله تبارك وتعالى على هذه الأمة الضعيفة القوة والقوى، بليلة يكون العمل فيها يقابل ويزيد على ألف شهر، عمرَ رجلٍ معمرٍ عمرًا طويلا نيفًا وثمانين سنة"(١).

قال الإمام مالك في موطأه من رواية ابن القاسم وغيره: سمعت من أثق به يقول: إن رسول الله صلى الله عليه وسلم أُرِيَ أعمار الأمم قبله، فكأنه تقاصر أعمار أمته ألا يبلغوا من العمل مثل ما بلغ غيرهم في طول العمر، فأعطاه الله تعالى ليلة القدر، وجعلها خيراً من ألف شهر(٢).

٥ – الملائكة تتنزل في هذه الليلة :

قال تعالى: ﴿ تَنَزَّلُ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ وَٱلرُّوحُ فِيهَا ﴾، أي: " يكثر تَنزلُ الملائكة في هذه الليلة لكثرة بركتها، والملائكة يتنزلون مع تنزل البركة والرحمة، كما يتنزلون عند تلاوة القرآن ويحيطون بحِلَق الذكر، ويضعون أجنحتهم لطالب العلم بصدق تعظيما له"(٣).

٦ – ليلة فُرِق فيها من كل أمر حكيم :

قال تعالى : ﴿ فِيهَا يُفْرَقُ كُلُّ أَمْرٍ حَكِيمٍ ﴾، وهذا المعنى كذلك مأخوذ من قوله تعالى : ﴿ تَنَزَّلُ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ وَٱلرُّوحُ فِيهَا بِإِذْنِ رَبِّهِم مِّن كُلِّ أَمْرٍ ﴾ وذلك إذا قلنا بالوقف عند رأس الآية .

٧ – هذه الليلة أذن الله تعالى لشريعته أن تحكم الأرض وأن تسود:

وذلك بعد ضلال وشرك استمر فترة طويلة: قال تعالى: ﴿ تَنَزَّلُ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ وَٱلرُّوحُ فِيهَا بِإِذْنِ رَبِّهِم ﴾ أي: "بأمر ربهم"(٤)، فلا يقوم أمر ولا تبدأ دعوة ولا ينفذ أمر إلا بعد إذن الله تعالى، والله تعالى يقول: ﴿ وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَـٰلَمِينَ ﴿٢٩﴾ ﴾ [التكوير: ٢٩]. فالملائكة وجبريل لم يتنزلوا على نبينا محمد إلا بإذن الله تعالى: ﴿ قُلْ مَن كَانَ عَدُوًّا لِّجِبْرِيلَ فَإِنَّهُۥ نَزَّلَهُۥ عَلَىٰ قَلْبِكَ بِإِذْنِ ٱللَّهِ ﴾ [البقرة: ٩٧].

وهذا الأمر واضح في قوله تعالى : ﴿ إِنَّآ أَنزَلْنَـٰهُ فِى لَيْلَةٍ مُّبَـٰرَكَةٍ ۚ إِنَّا كُنَّا مُنذِرِينَ ﴿٣﴾ فِيهَا يُفْرَقُ كُلُّ أَمْرٍ حَكِيمٍ ﴿٤﴾ أَمْرًا مِّنْ عِندِنَآ ۚ إِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ ﴿٥﴾ رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٦﴾ ﴾ .

فقوله تعالى: ﴿ أَمْرًا مِّنْ عِندِنَآ ﴾، إشارة إلى ابتداء أمر جديد من الله لإصلاح البشرية، وقوله: ﴿ إِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ ﴾ .إشارة إلى أن هذه الليلة بدأت فيها الرسالة المحمدية .

---

(١) تيسير الكريم الرحمن ٩٣١.

(٢) شعب الإيمان ٨/١٧٩ح ٣٥١٢، موطأ مالك ٢/٤٣٨ح٧٠٦ باب ما جاء في القدر .

(٣) تفسير القرآن العظيم ٨/٤٤٤.

(٤) تفسير القشيري ٨/٩٤.

و لم يقم نبينا محمد صلى الله عليه وسلم بالدعوة إلا بعد إذن الله له قال تعالى: ﴿ وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا لِيُطَاعَ بِإِذۡنِ ٱللَّهِۚ ﴾ [النساء: ٦٤]، وقال تعالى : ﴿الٓرۚ كِتَٰبٌ أَنزَلۡنَٰهُ إِلَيۡكَ لِتُخۡرِجَ ٱلنَّاسَ مِنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ بِإِذۡنِ رَبِّهِمۡ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡحَمِيدِ ①﴾ [إبراهيم: ١] بل كل الرسل لم يقوموا بالدعوة إلا بعد إذن الله تعالى ،قال تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لِرَسُولٍ أَن يَأۡتِيَ بِـَٔايَةٍ إِلَّا بِإِذۡنِ ٱللَّهِۗ ﴾ [الرعد: ٣٨].

وقد قام نبينا محمد صلى الله عليه وسلم بأمر ربه وإذنه حتى أتاه اليقين، ثم أكمل المسيرة لتطبيق ذلك الإذن وتعليم تلك الأوامر صحابة رسول الله صلى الله عليه وسلم، ثم من بعدهم إلى أن جاء هذا العصر ونحن نرى أن شريعة الله وتوحيد الله تعالى يسري بين الناس بقوة مصداقاً لحديث النبي صلى الله عليه وسلم: (لا تزال طائفة من أمتي ظاهرين على الحق لا يضرهم من خذلهم حتى يأتي أمر الله وهم كذلك)[1].

نعم. إن تلك الفئة موجودة في كل عصر تطبق إذن الله تعالى فتدعو لأن يكون الدين كله لله، كما قال تعالى: ﴿ هُوَ ٱلَّذِيٓ أَرۡسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلۡهُدَىٰ وَدِينِ ٱلۡحَقِّ لِيُظۡهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ وَلَوۡ كَرِهَ ٱلۡمُشۡرِكُونَ ٣٣﴾ [التوبة: ٣٣].

وهذا الإظهار والسيادة والنصر لا يكون إلا بإذن الله كما قال تعالى: ﴿كَم مِّن فِئَةٖ قَلِيلَةٍ غَلَبَتۡ فِئَةٗ كَثِيرَةَۢ بِإِذۡنِ ٱللَّهِۗ وَٱللَّهُ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴾ [البقرة: ٢٤٩]. وقال تعالى: ﴿ فَهَزَمُوهُم بِإِذۡنِ ٱللَّهِ ﴾ [البقرة: ٢٥١]. وقال تعالى: ﴿ ٱلۡـَٰٔنَ خَفَّفَ ٱللَّهُ عَنكُمۡ وَعَلِمَ أَنَّ فِيكُمۡ ضَعۡفٗاۚ فَإِن يَكُن مِّنكُم مِّاْئَةٞ صَابِرَةٞ يَغۡلِبُواْ مِاْئَتَيۡنِۚ وَإِن يَكُن مِّنكُمۡ أَلۡفٞ يَغۡلِبُوٓاْ أَلۡفَيۡنِ بِإِذۡنِ ٱللَّهِۗ ﴾ [الأنفال: ٦٦].

نسأل الله كما أذن لشريعته أن تحكم الأرض وأن تسود، بأن يتم هذا النعمة علينا، وأن يمكن لدينه في الأرض، وأن يفتح له قلوب الناس، وأن يستعملنا لذلك ولا يستبدلنا.

٨ – هذه الليلة سالمة من كل شر: ﴿مِّن كُلِّ أَمۡرٖ ٤ سَلَٰمٌ هِيَ ﴾

قال مجاهد: سلام هي من كل أمر. وفي قوله: ﴿ سَلَٰمٌ هِيَ ﴾ قال مجاهد : هي سالمة، لا يستطيع الشيطان أن يعمل فيها سوءًا أو يعمل فيها أذى، وقال ابن زيد: هي خير كلها، ليس فيها شر إلى مطلع الفجر[2].

وكلمة ﴿ سَلَٰمٌ ﴾ نكرة، والنكرة للعموم فأخبر الله تعالى عن هذه الليلة بأنها سلام بالنكرة للمبالغة في السلام الذي سيأتي على الناس والخير الذي سيعمهم في دنياهم وأخراهم .

---

(١) أخرجه مسلم كتاب الإمارة باب لا تزال طائفة من أمتي..(١٩٢٠).

(٢) تفسير القرآن العظيم ٨/٤٤٤.

٩ - تسلم الملائكة على أهل المساجد :

قال تعالى: ﴿ سَلَٰمٌ هِيَ حَتَّىٰ مَطۡلَعِ ٱلۡفَجۡرِ ﴾،فعن أبي إسحاق عن الشعبي قال: "تسليم الملائكة ليلة القدر على أهل المساجد حتى يطلع الفجر وهذا المعنى يستفاد منه"[١].

١٠ غفران ما تقدم من الذنوب :

عن أبي هريرة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: (من قام ليلة القدر إيمانا واحتسابا غفر له ما تَقَدَّم من ذنبه)[٢]، وهذه جائزة من الله تعالى لمن قام هذه الليلة حق القيام.

---

(١) تفسير القرآن العظيم ٤٤٤/٨ ، من رواية الشعبي ، وذكره البيهقي في فضائل الأوقات١١٩/١(١٠٩).

(٢) تقدم تخريجه.

المطلب الرابع

تعيين ليلة القدر

أولاً: ما ورد في تعيين ليلة القدر:

وقد ورد في تعيين هذه الليلة آثار كثيرة: بعضها يعين الليلة السابعة والعشرين من رمضان، وبعضها يعين الليلة الحادية والعشرين، وبعضها يعينها ليلة من الليالي العشر الأخيرة، وبعضها يطلقها في رمضان كله ومنهم من يقول أنها ثابتة لا تتنقل، والبعض يقول بتنقلها[(١)].

ولكن نحن إذا نظرنا في أحاديث النبي صلى الله عليه وسلم نجدها على النحو التالي :

- **يدلنا على وقتها من الشهر:** أنّ "من فضائل الشهر المبارك: أن فيه ليلة القدر، والدليل أن الله تعالى قال في القرآن العظيم: ﴿ إِنَّآ أَنزَلۡنَٰهُ فِي لَيۡلَةِ ٱلۡقَدۡرِ ﴾ [القدر١] وقال: ﴿ شَهۡرُ رَمَضَانَ ٱلَّذِيٓ أُنزِلَ فِيهِ ٱلۡقُرۡءَانُ ﴾ [البقرة ١٨٥] فإذا جمعت بين الدليلين صارت النتيجة: أن ليلة القدر في رمضان"[(٢)].

- **ثمّ يحثنا على الاهتمام بالعشر الأواخر من الشهر:** فعن عائشة رضي الله عنها، أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: (تَحَرَّوْا ليلة القدر في العشر الأواخر من رمضان)[(٣)].

- **ثم يدفعنا النبي صلى الله عليه وسلم إلى العناية بأوتار العشر:** فيقول عليه الصلاة والسلام: (تحروا ليلة القدر **في الوتر** من العشر الأواخر من رمضان)[(٤)].

- **وحين يخشى على بعض المسلمين الضعف يوصيهم بالعناية بالسبع البواقي:** فيقول صلى الله عليه وسلم: (التمسوها في العشر الأواخر فإن ضعف أحدكم أو عجز فلا يغلبن على السبع البواقي)[(٥)].

وعن عبد الله بن عُمر رضي الله عنهما : أن رجالاً من أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم أروا ليلة القدر في المنام في السبع الأواخر من رمضان، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (أرى رؤيا كم قد تواطأت في السبع الأواخر، فمن كان مُتحريها فَلْيَتَحرها في السبع الأواخر)[(٦)] .

---

(١) انظر الروايات في تفسير القرآن العظيم ٤٤٧/٨-٤٥١، وفتح الباري ٣٠٠-٣١٦ فقد جمعا جملة طيبةً من الأحاديث والآثار وأقوال العلماء في المسألة زادت على أربعين قولا.

(٢) اللقاء الشهري لابن عثيمين ٦١.

(٣) أخرجه البخاري كتاب فضل ليلة القدر باب تحري ليلة القدر في الوتر من العشر الأواخر (٢٠٢٠)، ومسلم كتاب الصيام باب فضل ليلة القدر والحث على طلبها وبيان محلها وأرجى أوقات طلبها (١١٦٩).

(٤) أخرجه البخاري كتاب فضل ليلة القدر باب تحري ليلة القدر في الوتر من العشر الأواخر (٢٠١٧)

(٥) أخرجه مسلم كتاب الصيام باب فضل ليلة القدر والحث على طلبها وبيان محلها وأرجى أوقات طلبها (١١٦٥).

(٦) أخرجه البخاري كتاب فضل ليلة القدر باب التماس ليلة القدر في السبع الأواخر(٢٠١٥)، ومسلم كتاب الصيام باب فضل ليلة القدر والحث على طلبها وبيان محلها وأرجى أوقات طلبها (١١٦٥).

– **ثم بين صلى الله عليه وسلم أن أوكد أوتار سبعها بالتحري ليلة سبع وعشرين:** فقال صلى الله عليه وسلم: (من كان متحريها فليتحرها ليلة سبع وعشرين. وقال:تحروها ليلة سبع وعشرين)[(١)].

وقد كان أبي بن كعب رضي الله عنه يحلف أنها ليلة السابع والعشرين فعنه قال : " والله الذي لا إله إلا هو، إنها لفي رمضان -يحلف ما يستثني-والله إني لأعلم أيّ ليلةٍ القدرُ، هي: التي أمرنا رسول الله صلى الله عليه وسلم بقيامها، هي ليلة سبع وعشرين. وأمارتها أن تطلع الشمس في صبيحة يومها بيضاء لا شعاع لها[(٢)] .

– **أنها في ليلة إحدى وعشرين:** وذلك في رواية أبي سعيد الخدري رضي الله عنه حيث قال : إن رسول الله صلى الله عليه وسلم اعتكف العشر الأول من رمضان ثم اعتكف العشر الأوسط في قبة تركية على سدتها حصير – قال – فأخذ الحصير بيده فنحاها في ناحية القبة ثم أطلع رأسه فكلم الناس فدنوا منه فقال: (إني اعتكفت العشر الأول ألتمس هذه الليلة ثم اعتكفت العشر الأوسطُ ثم أُتِيْتَ فقيل لي: إنها في العشر الأواخر. فمن أحب منكم أن يعتكف فليعتكف). فاعتكف الناس معه قال: (وإني أريتها ليلة وتر وأني أسجد صبيحتها في طين وماء)، فأصبح من ليلة إحدى وعشرين وقد قام إلى الصبح، فمطرت السماء فوكف المسجد[(٣)] فأبصرت الطين والماء، فخرج حين فرغ من صلاة الصبح وجبينه وروثة أنفه[(٤)] فيهما الطين والماء، وإذا هي ليلة إحدى وعشرين[(٥)].

– **أنها ليلة ثلاث وعشرين:** فعن عبد الله بن أنيس أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: (أُرِيت ليلة القدر ثم أنسيتها، وأراني صبحها أسجد في ماء وطين)، قال فمطرنا ليلة ثلاث وعشرين فصلى بنا رسول الله صلى الله عليه وسلم فانصرف وإن أثر الماء والطين على جبهته وأنفه[(٦)].

وعلى هذا: قال ابن حجر بعد عرضه لأقوال العلماء في المسألة والروايات والآثار: " وأَرْجَحُها كلها : أنها في وتر من العشر الأخير وأنها تنتقل، وأرجاها أوتار العشر"[(٧)].

---

(١) أخرجه أحمد ٢٧/٢ح(٤٨٠٨). قال الهيثمي في مجمع الزوائد: ورجاله رجال الصحيح، قال شعيب الأرنؤوط: إسناده صحيح على شرط الشيخين.

(٢) أخرجه مسلم كتاب صلاة المسافر باب الترغيب في الدعاء والذكر آخر الليل والإجابة فيه (٧٦٢).

(٣) وكف المسجد : أي قطر سقفه بالماء . انظر الفتح ٢٠٧/١.

(٤) ورثة أنفه : أي طرف الأنف ويقال لها الأرنبة . انظر شرح النووي على مسلم ٢٥٧/٣.

(٥) أخرجه البخاري كتاب فضل ليلة القدر باب تحري ليلة القدر في الوتر من العشر الأواخر (٢٠١٨)، ومسلم كتاب الصيام باب فضل ليلة القدر والحث على طلبها وبيان محلها وأرجى أوقات طلبها (١١٦٧)واللفظ له .

(٦) أخرجه مسلم كتاب الصيام باب فضل ليلة القدر والحث على طلبها وبيان محلها وأرجى أوقات طلبها (١١٦٨) .

(٧) فتح الباري ٣١٣/٤.

فليلة القدر مخفية وهي تتنقل بين أوتار العشر، ولها علامات تبينها، والواجب على من أراد إدراك ليلة القدر أن يتحراها في العشر الأواخر من رمضان وأن يستعد لها حق الاستعداد من بداية رمضان ويتأكد مع بداية العشر الأواخر، وأشد ما يكون رجاؤها في أوتارها.

ثانياً: الحكمة من إخفاء الله عين هذه الليلة:

عن عبادة بن الصامت رضي الله عنه قال: خرج رسول الله صلى الله عليه وسلم ليخبرنا بليلة القدر، فَتَلاحى رجلان من المسلمين، فقال: (خرجت لأخبركم بليلة القدر، فتلاحى فلان وفلان، فرفعت، وعسى أن يكون خيرًا لكم، فالتمسوها في التاسعة والسابعة والخامسة)[1].

فقوله: (وعسى أن يكون خيرًا لكم) يعني: "عدم تعيينها لكم، فإنها إذا كانت مبهمة اجتهد طُلابها في ابتغائها في جميع مَحَال رجائها، فكان أكثر للعبادة، بخلاف ما إذا علموا عينها فإن الهمم تتقاصر على قيامها فقط. وإنما اقتضت الحكمة إبهامها لتعم العبادة جميع الشهر في ابتغائها، ويكون الاجتهاد في العشر الأواخر أكثر"[2].

ولهذا كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يعتكف العشر الأواخر من رمضان، حتى توفاه الله عز وجل. ثم اعتكف أزواجهُ من بعده[3]. و في رواية عن ابن عمر رضي الله عنهما : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يعتكف العشر الأواخر من رمضان[4]. وقالت عائشة رضي الله عنها : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا دخل العشر: أحيا الليل، وأيقظ أهله، وشد المئزر[5]. وفي رواية لمسلم: (كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يجتهد في العشر ما لا يجتهد في غيره)[6] .

قال ابن عاشور: "وحكمة إخفاء تعيينها إرادة أن يكرر المسلمون حسناتهم في ليالٍ كثيرة توخياً لمصادفة ليلة القدر كما أخفيت ساعة الإجابة يوم الجمعة"[7].

---

(١) أخرجه البخاري كتاب فضل ليلة القدر باب رفع ليلة القدر لتلاحي الناس (٢٠٢٣).

(٢) تفسير القرآن العظيم ٤٥١/٨.

(٣) أخرجه البخاري كتاب الاعتكاف باب الاعتكاف في العشر الأواخر (٢٠٢٦)، ومسلم كتاب الاعتكاف باب الاعتكاف في العشر الأواخر من رمضان (١١٧٢).

(٤) أخرجه البخاري كتاب الاعتكاف باب الاعتكاف في العشر الأواخر (٢٠٢٥) ومسلم كتاب الاعتكاف باب الاعتكاف في العشر الأواخر من رمضان (١١٧١).

(٥) أخرجه البخاري كتاب فضل ليلة القدر باب العمل في العشر الأواخر من رمضان (٢٠٢٤) ومسلم كتاب الاعتكاف باب الاجتهاد في العشر الأواخر من شهر رمضان(١١٧٤).

(٦) أخرجه مسلم كتاب الاعتكاف باب الاجتهاد في العشر الأواخر من شهر رمضان (١١٧٥).

(٧) التحرير والتنوير ٤٦٢/٣٠.

قال ابن حجر: " قال العلماء: الحكمة في إخفاء ليلة القدر ليحصل الاجتهاد في التماسها، بخلاف ما لو عينت لها ليلة لاقتصر عليها، كما تقدم نحوه في ساعة الجمعة، وهذه الحكمة مُطَّرِدَة عند من يقول إنها في جميع من السنة وفي جميع رمضان أو في جميع العشر الأخير أو في أوتاره خاصة، إلا أن الأول ثم الثاني أليق به"[1].

ثالثاً: علامات ليلة القدر:

ورد في الأحاديث السابقة علامات لتلك الليلة وهذه من عاجل بشرى المؤمن في الدنيا، ولكن إذا لم تُرى تلك العلامات فلا يعني هذا أن ليلة القدر لم تحصل وإنما قد يرها قوم ولا يراها قوم كما ذكر ذلك ابن حجر"[2] ومن العلامات:

١ -قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (إن أمارة ليلة القدر أنها صافية بَلْجَة، كأن فيها قمرًا ساطعًا، ساكنة سجية، لا برد فيها ولا حر، ولا يحل لكوكب يُرمَى به فيها حتى تصبح، وأن أمارتها أن الشمس صبيحتها تخرج مستوية، ليس لها شعاع مثل القمر ليلة البدر، ولا يحل للشيطان أن يخرج معها يومئذ)[3]. وقال أبي : "وأمارتها أن تطلع الشمس في صبيحة يومها بيضاء لا شعاع لها"[4].

٢ -وعن ابن عباس أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال في ليلة القدر: (ليلة سمحة طلقة، لا حارة ولا باردة، وتصبح شمس صبيحتها ضعيفة حمراء)[5].

٣ -قوله صلى الله عليه وسلم: (وإني أريتها ليلة وتر وأني أسجد صبيحتها في طين وماء)[6].

---

(١) فتح الباري ٣١٣/٤.

(٢) فتح الباري ٣١٣/٤.

(٣) أخرجه أحمد ٣٢٤/٥ (٢٢٨١٧)، قال ابن كثير في التفسير ٤٤٤/٨: وإسناد هذا الحديث حسن، وفي المتن غرابة، وفي بعض ألفاظه نكارة. وقال شعيب الأرنؤوط: الشطر الأول من الحديث حسن وأما الشطر الثاني فمحتمل للتحسين لشواهده وإسناد هذا الحديث ضعيف، وقال الهيثمي في مجمع الزوائد١٧٥/٣رواه أحمد ورجاله ثقات.

(٤) تقدم تخريجه .

(٥) أخرجه الطيالسي ٣٤٩/١ (٢٦٨٠)، والبيهقي في شعب الإيمان ٣٣٤/٣ (٣٦٩٣)، قال الألباني صحيح انظر صحيح الجامع (٥٤٧٥).

(٦) تقدم تخريجه .

المطلب الخامس

ماذا يستحب في هذه الليلة

في هذه الليلة العظيمة المشهودة يجب أن نقوم بأمور كثيرة، فعلينا أن نتحرى هذه الليلة من أيام العشر الأواخر من رمضان، وأن نجتهد في جمع هذه الأيام لأننا لا نعلم متى هي؟ والذي سينتظرها ويجتهد من بداية العشر إلى نهايتها فحريٌ به إدراكها.

وأهم الأمور التي تُتَحرى بها ليلة القدر:

١ التوبة إلى الله تعالى من جميع الذنوب صغيرها وكبيرها .

٢ قيام ليلة القدر إيماناً بالله واحتساباً للأجر من الله: ففي الحديث المتقدم: (من قام ليلة القدر إيماناً واحتساباً غفر له ما تقدم من ذنبه)[1].

٣ الإكثار من فعل كل الطاعات التي يمكن القيام بها .

٤ العفو عن الناس وسلامة الصدر لهم لأن الله تعالى في هذه الليلة عفو كريم : فعن عبد الله بن بُريدة، أن عائشة قالت: يا رسول الله، إن وافقت ليلة القدر فما أدعو؟ قال: (قولي: اللهم إنك عفو تحب العفو، فاعف عني)[2].

٥ رد الحقوق لأهلها وطلب السماح والعفو منهم .

٦ قراءة القرآن والتعاهد على تطبيقه وحفظه حروفاً وحدوداً.

٧ أمر خاص بالدعاة وهو " أنه حين نتأمل في واقع الناس اليوم نرى خيراً كثيراً وحرصاً أكيداً من معظم الناس على إحياء هذه الليلة الشريفة والظفر ببركتها، لكن هذا الحرص سيزداد كثيراً حين ينبري العلماء الربانيون والدعاة المخلصون فيكونوا قدوة حسنة للناس في قيامها والاجتهاد في إحيائها بالعبادات، كما يزداد حسناً حينما يتم التخلص من بعض جوانب القصور، والتي تحول دون استثمار أمثل لهذا الموسم المبارك وتلك المنح العظيمة من المحسن الجواد عز وجل"[3].

فلنجعل من العشر الأواخر عموماً، ومن ليلة القدر خصوصاً نقطة انطلاق في هذه الأمور لأن الإنسان إذا تعود فعلها في العشر الأواخر مراتٍ عديدة تحرياً لليلة القدر فستصبح عنده سجيةً وستنغرس في

---

(١) تقدم تخريجه .

(٢) أخرجه أحمد ١٧١/٦ح(٢٥٤٢٣). قال: شعيب الأرنؤوط : إسناده صحيح رجاله ثقات رجال الشيخين .

(٣) هكذا كان النبي صلى الله عليه وسلم في رمضان ١٣٩.

نفسه طوال العام ليأتي العام القابل في نفس الوقت ليجدد العهد مع الله تعالى لمواصلة المسير لصلاح نفسه ومجتمعه، والأمة جميعاً والبشرية جمعاء.

"فالإسلام ليس شكليات ظاهرية . ولذ قال رسول الله صلى الله عليه وسلم في القيام في هذه الليلة أن يكون (إيماناً واحتساباً).. وذلك ليكون هذا القيام استجلابا للمعاني الكبيرة التي اشتملت عليها هذه الليلة (إيماناً)، وليكون تجرداً لله وخلوصاً (واحتساباً).. ومن ثم تنبض في القلب حقيقة معينة بهذا القيام . ترتبط بذلك المعنى الذي نزل به القرآن"(١) .

فلذلك كانت هذه الليلة ليلة التغيير كما قَدَّرها الله تعالى، تغييرٌ للنفوس وتجديد للإيمان وللحياة وللواقع بأسره، فأثرها ليس في يومها فقط ولكن كل يوم، بل كل عام، بل إلى قيام الساعة، فهي ليلة مباركة.

وقول الله تعالى: ﴿ سَلَٰمٌ هِيَ حَتَّىٰ مَطۡلَعِ ٱلۡفَجۡرِ ﴾ ممّا يعلمنا الله به أن النصر والتمكين لا يأتي إلا بعد شِدَّة الظلمة، والعباد إذا أتقنوا العبادة إلى وقت الفجر وباتوا قائمين لله ويعملون ويجاهدون أنفسهم على الصلاة والقيام وعبادة الله تعالى وصلّوا الفجر في جماعة، سيطلع عليهم الفجر وسيأتيهم السلام والخير.

---

(١) في ظلال القرآن ٦/٣٩٤٤.

تفسير سورة البينة

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿ لَمْ يَكُنِ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَالْمُشْرِكِينَ مُنفَكِّينَ حَتَّىٰ تَأْتِيَهُمُ الْبَيِّنَةُ (١) رَسُولٌ مِّنَ اللَّهِ يَتْلُو صُحُفًا مُّطَهَّرَةً (٢) فِيهَا كُتُبٌ قَيِّمَةٌ (٣) وَمَا تَفَرَّقَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ إِلَّا مِن بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمُ الْبَيِّنَةُ (٤) وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ حُنَفَاءَ وَيُقِيمُوا الصَّلَاةَ وَيُؤْتُوا الزَّكَاةَ ۚ وَذَٰلِكَ دِينُ الْقَيِّمَةِ (٥) إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَالْمُشْرِكِينَ فِي نَارِ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا ۚ أُولَٰئِكَ هُمْ شَرُّ الْبَرِيَّةِ (٦) إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُولَٰئِكَ هُمْ خَيْرُ الْبَرِيَّةِ (٧) جَزَاؤُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ جَنَّاتُ عَدْنٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا ۖ رَّضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ ۚ ذَٰلِكَ لِمَنْ خَشِيَ رَبَّهُ (٨) ﴾

المبحث الأول

مقدمات حول السورة

أولاً: تسميتها :

لها عدة أسماء :

١ -(لم يكن الذين كفروا): وردت هذه التسمية فيما رواه أنس بن مالك رضي الله عنه أن النبي صلى الله عليه وسلم قال لأبي بن كعب رضي الله عنه: (إن الله أمرني أن أقرأ عليك ﴿ لَمْ يَكُنِ الَّذِينَ كَفَرُوا ﴾ قال: وسماني لك؟ قال: نعم. فبكى)[1].

٢ -(لم يكن): وسميت هذه التسمية في معظم كتب التفسير[2] وكتب السنة[3].

٣ -(سورة القيمة): في بعض المصاحف وكذلك في بعض التفاسير[4].

٤ -(سورة البينة): في بعض المصاحف والتفاسير[5].

---

(١) أخرجه البخاري كتاب التفسير باب سورة لم يكن (٤٩٥٩)، ومسلم كتاب فضائل الصحابة رضي الله عنهم باب من فضائل أبي بن كعب وجماعة من الأنصار رضي الله تعالى عنهم(٧٩٩)، والترمذي كتاب الفضائل باب فضل أبي بن كعب رضي الله عنه (٣٧٩٢).

(٢) جامع البيان ٥٥١/٢٤، تيسير الكريم الرحمن ٩٣١، تفسير القرآن العظيم ٤٥٤/٨، المحرر الوجيز ٥٢٦/١٥، الجامع لأحكام القرآن ١٤٠/٢٠.

(٣) أخرجه البخاري كتاب التفسير باب: {كلا لئن لم ينته}، المستدرك ١٨٧/٩، ومستخرج أبي عوانة ٢٣٤/٨.

(٤) الحجة في القراءات السبع ٣٧٤/١، الإتقان ١٥٥/١.

(٥) ابن أبي حاتم ٤٣٧/١٢، والبغوي ٤٩٣/٨.

٥ -"(سورة أهل الكتاب): ذكره السيوطي عن مصحف أُبَيّ"[١].

٦ -وسميت سورة (البرية)[٢].

٧ -وسميت (سورة الانفكاك)[٣].

فهذه سبعة أسماء كل منها يركز على كلمة لها معنى في السورة ، والله تعالى أعلم .

ثانياً: نزولها ومناسبتها:

قال القرطبي: بأنها مدنية ونسب ذلك إلى الجمهور وابن عباس[٤].

وقد استدل ابن كثير على أنها مدنية بحديث أنس بن مالك رضي الله عنه أنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لأبي بن كعب: (إن الله أمرني أن أقرأ عليك: ﴿ لَمْ يَكُنِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ﴾) قال: وسماني لك؟ قال: (نعم) فبكى[٥]، قال السيوطي: "وقد جزم ابن كثير بأنها مدنية واستدل به"[٦][٧].

قال القرطبي: "وفيه من الفقه قراءة العالم على المتعلم لأنه إنما قرأ النبي صلى الله عليه وسلم على أبيّ ليعلم الناس التواضع لئلا يأنف أحد من التعلم والقراءة على من دونه في المنزلة"[٨].

أما عدد آياتها (٨) آية، وكلماتها: (٧٤) كلمة، وحروفها: (٣٩٩) حرفاً[٩].

مناسبتها لما قبلها:

تضمنت "سورة « القدر » تنويها بالليلة المباركة التي نزل فيها القرآن الكريم ، فنالت بشرف نزوله فيها هذا القدر العظيم الذي ارتفعت به على الليالى جميعا .. والتنويه بليلة القدر ــ يتضمن ــ تنويها بالقرآن الكريم ، وأن الاتصال به يكسب الشرف ويعلى القدر للأزمان والأمكنة والأشخاص.

وسورة « البيّنة » تحدّث عن هذا القرآن ، وعن رسول اللّه الحامل لهذا القرآن ، وموقف الكافرين من أهل الكتاب والمشركين ، من القرآن ، والرسول الداعي إلى اللّه بالقرآن .. ومن هنا كان الجمع بين السورتين قائما على هذا الترابط القوىّ ، الذي يجعل منهما وحدة واحدة."[١٠].

---

(١) الإتقان ١/١٥٥، وانظر نظم الدر ٩/٤٩٠.

(٢) إملاء ما من به الرحمن ٢/٢٩١ ، التبيان في إعراب القرآن ٢/٢٩١، الإتقان ١/١٥٥.

(٣) الناسخ والمنسوخ لابن سلام ١/٢٧، الإتقان ١/١٥٥.

(٤) الجامع لأحكام القرآن ٢٠/١٣٨. واختلف في أنها مكية أو مدنية. قال ابن عطية: الأشهر أنها مكية وهو قول جمهور المفسرين وهذا عكس ما قاله القرطبي، المحرر الوجيز ١٥/٥٢٦.

(٥) تقدم تخريجه .

(٦) الإتقان ١/٤٥ في تحرير السور المختلف فيها .

(٧) تفسير القرآن العظيم ٨/ ٤٥٤.

(٨) الجامع لأحكام القرآن ٢٠/١٣٩.

(٩) التفسير القرآني للقرآن ٣/٨٢.

(١٠) المصدر السابق، بتصرف.

ثالثاً:موضوعها:

تضمنت السورة:

١- توبيخ المشركين وأهل الكتاب على تكذيبهم بالقرآن والرسول صلى الله عليه وسلم.

٢- التعجب من تناقض حالهم إذ هم ينتظرون أن تأتيهم البينة فلما أتتهم البينة كفروا بها.

٣- تكذيبهم في ادعائهم أن الله أوجب عليهم التمسك بالأديان التي هم عليها.

٤- وعيدهم بعذاب الآخرة ،وكذلك التسجيل عليهم بأنهم شر البرية.

٥- الثناء على الذين آمنوا وعملوا الصالحات ووعدهم بالنعيم الأبدي ورضى الله عنهم وإعطائه إياهم ما يرضيهم[١].

ولذا فإن "السورة تعرض أربع حقائق كما يلي:

الحقيقة الأولى: هي أن بعثة الرسول صلى الله عليه وسلم كانت ضرورية لتحويل الذين كفروا من أهل الكتاب ومن المشركين عما كانوا قد انتهوا إليه من الضلال والاختلاف، وما كانوا ليتحولوا عنه بغير هذه البعثة .

الحقيقة الثانية: أن أهل الكتاب لم يختلفوا في دينهم عن جهالة ولا عن غموض فيه، إنما اختلفوا من بعد ما جاءهم العلم وجاءتهم البينة .

الحقيقة الثالثة: أن الدين في أصله واحد، وقواعده سهلة واضحة، لا تدعو إلى التفرق والاختلاف في ذاتها وطبيعتها السهلة الميسرة .

والحقيقة الرابعة: أن الذين كفروا بعد ما جاءتهم البينة هم شر البرية، وأن الذين آمنوا وعملوا الصالحات هم خير البرية . ومن ثم يختلف جزاء هؤلاء عن هؤلاء اختلافاً بيناً"[٢] .

رابعاً: المعنى الإجمالي للسورة:

يقول الله تعالى:﴿ لَمْ يَكُنِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ ﴾ أي: اليهود والنصارى ﴿ وَٱلْمُشْرِكِينَ ﴾ تاركين كفرهم حتى تأتيهم العلامة التي وُعِدوا بها في الكتب السابقة، وهي ﴿رَسُولٌ مِّنَ ٱللَّهِ ﴾ أي: محمد صلى الله عليه وسلم، ﴿يَتْلُواْ﴾ قرآنًا في صحف مطهرة، وفي تلك الصحف﴿ فِيهَا كُتُبٌ قَيِّمَةٌ ﴾ أي: أخبار صادقة وأوامر عادلة، تهدي إلى الحق وإلى صراط مستقيم.

(١) التحرير والتنوير ٤٦٨/٣٠.

(٢) في ظلال القرآن٣٩٤٧/٦-٣٩٤٨ باختصار.

ثم بين تعالى أنه ما اختلف الذين أوتوا الكتاب من اليهود والنصارى في كون محمد صلى الله عليه وسلم رسولا حقًا؛ لما يجدونه من نعته في كتابهم، إلا مِن بعد ما تبينوا أنه النبي الذي وُعِدوا به في التوراة والإنجيل، فكانوا مجتمعين على صحة نبوته، فلما بُعِث جحدوها وتفرَّقوا.

﴿ وَمَآ أُمِرُوٓاْ ﴾ في سائر الشرائع ﴿إِلَّا لِيَعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مُخۡلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ ﴾ وحده قاصدين بعبادتهم وجهه، ﴿ حُنَفَآءَ ﴾ مائلين عن الشرك إلى الإيمان، ﴿ وَيُقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤۡتُواْ ٱلزَّكَوٰةَۚ وَذَٰلِكَ دِينُ ٱلۡقَيِّمَةِ ﴾ أي: الاستقامة، وهو الإسلام.

ثم يقول تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ﴾ من اليهود والنصارى ﴿ وَٱلۡمُشۡرِكِينَ ﴾ عقابهم ﴿نَارِ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَآۚ أُوْلَٰٓئِكَ هُمۡ شَرُّ ٱلۡبَرِيَّةِ ﴾ أي: أشد الخليقة شرا.

و﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أُوْلَٰٓئِكَ هُمۡ خَيۡرُ ٱلۡبَرِيَّةِ ٧ جَزَآؤُهُمۡ عِندَ رَبِّهِمۡ ﴾ يوم القيامة ﴿ جَنَّٰتُ عَدۡنٍ ﴾ أي: إقامة واستقرار في منتهى الحسن، ﴿ تَجۡرِي مِن ﴾ تحت قصورها ﴿ٱلۡأَنۡهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدٗاۖ رَّضِيَ ٱللَّهُ عَنۡهُمۡ ﴾ فقبل أعمالهم الصالحة، ﴿وَرَضُواْ عَنۡهُ ﴾ بما أعدَّ لهم من أنواع الكرامات، ﴿ ذَٰلِكَ ﴾ الجزاء الحسن ﴿ لِمَنۡ خَشِيَ رَبَّهُۥ ﴾ أي: خاف الله واجتنب معاصيه[1].

(١) انظر: التفسير الميسر ص٥٩٨- ٥٩٩.

المبحث الثاني

وقفات مع السورة

المطلب الأول

إصرار الكفار مع احتياجهم إلى رسالة جديدة

قال تعالى: ﴿ لَمْ يَكُنِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَـٰبِ وَٱلْمُشْرِكِينَ مُنفَكِّينَ حَتَّىٰ تَأْتِيَهُمُ ٱلْبَيِّنَةُ ﴿١﴾ ﴾.

أي:" لم يكن الذين كفروا من اليهود والنصارى والمشركين من عبدة الأوثان والنيران"[١].

﴿ مُنفَكِّينَ ﴾ "أي: منفصلين متفرقين" [٢] "عن كفرهم وضلالهم الذي هم عليه، أي: لا يزالون في غيهم وضلالهم، لا يزيدهم مرور السنين إلا كفراً ﴿ حَتَّىٰ تَأْتِيَهُمُ ٱلْبَيِّنَةُ ﴾ الواضحة والبرهان الساطع"[٣].

"فقد كانت الأرض في حاجة ماسة إلى رسالة جديدة؛ إذ كان الفساد قد عَمّ أرجاءها كلها بحيث لا يرتجى لها صلاح إلا برسالة جديدة، وكان الكفر قد تطرق إلى عقائد أهلها جميعاً، سواء أهل الكتاب الذين عرفوا الديانات السماوية من قبل ثم حرفوها، أو المشركين في الجزيرة العربية وفي خارجها سواء"[٤].

وهذا المعنى قرره الحبيب المصطفى صلى الله عليه وسلم في قوله: (ألا إن ربي أمرني أن أعلمكم ما جهلتم مما علمني يومي هذا،.. وإني خلقت عبادي حنفاء كلهم وإنهم أتتهم الشياطين فاحتالتهم عن دينهم وحرمت عليهم ما أحللت لهم وأمرتهم أن يشركوا بي ما لم أنزل به سلطاناً. وإن الله نظر إلى أهل الأرض فمقتهم[٥] عربهم وعجمهم إلا بقايا من أهل الكتاب..)[٦].

"ثم إن كلمة ﴿ حَتَّىٰ ﴾ لانتهاء الغاية، فهذه الآية تقتضي أنهم صاروا منفكين عن كفرهم عند إتيان الرسول صلى الله عليه وسلم، وهذا يقتضي أن كفرهم قد ازداد عند مجيء الرسول صلى الله عليه وسلم"[٧] .

---

(١) تفسير القرآن العظيم ٤٥٦/٨.

(٢) المحرر الوجيز٥٢٧/١٥.

(٣) تيسير الكريم الرحمن ٩٣١.

(٤) في ظلال القرآن ٣٩٤٨/٦.

(٥) المقت: أشد البغض.

(٦) أخرجه مسلم كتاب الجنة وصفة نعيمها وأهلها باب الصفات التي يعرف بها في الدنيا أهل الجنة وأهل النار(٢٨٦٥)

(٧) التحرير والتنوير ٤٦٩/٣٠.

وهذه "الآيات وردت مورد إقامة الحجة؛ على الذين لم يؤمنوا من أهل الكتاب، وعلى المشركين بأنهم متنصلون من الحق متعللون للإصرار على الكفر عناداً، كأنه قيل: كنتم تقولون لا نترك ما نحن عليه حتى تأتينا البينة!! وهذا تعريض بالتوبيخ بأسلوب الإخبار المستعمل في إنشاء التعجب أو الشكاية من صلف المخبر عنه، وهو استعمال عزيز بديع"(١).

وحاصل المعنى: أنكم كنتم تقولون لا نترك ما نحن عليه من الدين حتى تأتينا البينة، أي العلامة التي وعدنا بها.

وقد حكى الله عن اليهود أنهم قالوا مثل ذلك: ﴿ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ عَهِدَ إِلَيۡنَآ أَلَّا نُؤۡمِنَ لِرَسُولٍ حَتَّىٰ يَأۡتِيَنَا بِقُرۡبَانٖ تَأۡكُلُهُ ٱلنَّارُۗ ﴾ [آل عمران: ١٨٣]. وقال عنهم : ﴿ وَلَمَّا جَآءَهُمۡ كِتَٰبٞ مِّنۡ عِندِ ٱللَّهِ مُصَدِّقٞ لِّمَا مَعَهُمۡ وَكَانُواْ مِن قَبۡلُ يَسۡتَفۡتِحُونَ عَلَى ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فَلَمَّا جَآءَهُم مَّا عَرَفُواْ كَفَرُواْ بِهِۦۚ ﴾ [البقرة: ٨٩].

وعن النصارى بقوله تعالى حكاية عن عيسى عليه السلام: ﴿ وَإِذۡ قَالَ عِيسَى ٱبۡنُ مَرۡيَمَ يَٰبَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ إِنِّي رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيۡكُم مُّصَدِّقٗا لِّمَا بَيۡنَ يَدَيَّ مِنَ ٱلتَّوۡرَىٰةِ وَمُبَشِّرَۢا بِرَسُولٖ يَأۡتِي مِنۢ بَعۡدِي ٱسۡمُهُۥٓ أَحۡمَدُۖ فَلَمَّا جَآءَهُم بِٱلۡبَيِّنَٰتِ قَالُواْ هَٰذَا سِحۡرٞ مُّبِينٞ ٦ ﴾ [الصف:٦].

وقال عن الفريقين: ﴿ وَدَّ كَثِيرٞ مِّنۡ أَهۡلِ ٱلۡكِتَٰبِ لَوۡ يَرُدُّونَكُم مِّنۢ بَعۡدِ إِيمَٰنِكُمۡ كُفَّارًا حَسَدٗا مِّنۡ عِندِ أَنفُسِهِم مِّنۢ بَعۡدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ ٱلۡحَقُّۖ ﴾ [البقرة: ١٠٩].

وحكى ذلك عن المشركين بقوله تعالى: ﴿ فَلَمَّا جَآءَهُمُ ٱلۡحَقُّ مِنۡ عِندِنَا قَالُواْ لَوۡلَآ أُوتِيَ مِثۡلَ مَآ أُوتِيَ مُوسَىٰٓۚ أَوَلَمۡ يَكۡفُرُواْ بِمَآ أُوتِيَ مُوسَىٰ مِن قَبۡلُۖ قَالُواْ سِحۡرَانِ تَظَٰهَرَا وَقَالُوٓاْ إِنَّا بِكُلّٖ كَٰفِرُونَ ٤٨ ﴾ [القصص: ٤٨]، وقولهم: ﴿ بَلۡ قَالُوٓاْ أَضۡغَٰثُ أَحۡلَٰمِۭ بَلِ ٱفۡتَرَىٰهُ بَلۡ هُوَ شَاعِرٞ فَلۡيَأۡتِنَا بِـَٔايَةٖ كَمَآ أُرۡسِلَ ٱلۡأَوَّلُونَ ٥ ﴾ [الأنبياء: ٥].

"و لم يختلف أهل الكتابين في أنهم أُخِذَ عليهم العهد بانتظار نبي ينصر الدين الحق وجُعِلَت علاماته دلائل تظهر من دعوته"(٢).

"وكلمة ﴿ ٱلۡبَيِّنَةُ ﴾. تعبر عن المعنى الوارد في كلامهم، ولذلك نرى مادتها متكررة في آيات كثيرة من القرآن في هذا الغرض كما في قوله: ﴿ وَقَالُواْ لَوۡلَا يَأۡتِينَا بِـَٔايَةٖ مِّن رَّبِّهِۦٓۚ أَوَلَمۡ تَأۡتِهِم بَيِّنَةُ مَا فِي ٱلصُّحُفِ ٱلۡأُولَىٰ ١٣٣ ﴾ [طه: ١٣٣] وقوله: ﴿ فَلَمَّا جَآءَهُم بِٱلۡبَيِّنَٰتِ قَالُواْ هَٰذَا سِحۡرٞ مُّبِينٞ ﴾ وقوله: ﴿ مِّنۢ بَعۡدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ

(١) التحرير والتنوير ٤٧١/٣٠.
(٢) التحرير والتنوير ٤٧٣/٣٠.

ﭐلۡحَقُّ ﴾ وقال عن القرآن: ﴿ شَهۡرُ رَمَضَانَ ٱلَّذِيٓ أُنزِلَ فِيهِ ٱلۡقُرۡءَانُ هُدٗى لِّلنَّاسِ وَبَيِّنَٰتٖ مِّنَ ٱلۡهُدَىٰ وَٱلۡفُرۡقَانِۚ ﴾ [البقرة: ١٨٥][1].

"و ﴿ مِنۡ ﴾.في قوله ﴿ مِنۡ أَهۡلِ ٱلۡكِتَٰبِ وَٱلۡمُشۡرِكِينَ ﴾. بيانية بيان للذين كفروا، وإنما قدم أهل الكتاب على المشركين هنا مع أن كفر المشركين أشد من كفر أهل الكتاب؛ لأن لأهل الكتاب السبق في هذا المقام، فهم الذين بثوا بين المشركين شبهة انطباق البينة الموصوفة بينهم، فأيدوا المشركين في إنكار نبوة محمد صلى الله عليه و سلم بما هو أتقن من ترهات المشركين – إذ كان المشركون أميين لا يعلمون شيئا من أحوال الرسل والشرائع– فلما صدمتهم الدعوة المحمدية فزعوا إلى اليهود ليتلقوا منهم ما يردون به تلك الدعوة، وخاصة بعدما هاجر النبي صلى الله عليه و سلم إلى المدينة"[2].

(١) التحرير والتنوير ٤٧٤/٣٠.
(٢) التحرير والتنوير ٤٧٥/٣٠.

المطلب الثاني

صفات البينة

قال تعالى: ﴿ رَسُولٌ مِّنَ ٱللَّهِ يَتْلُواْ صُحُفًا مُّطَهَّرَةً ۝٢ فِيهَا كُتُبٌ قَيِّمَةٌ ۝٣ ﴾ .

فسر الله تعالى البينة بقوله :

١ -﴿ رَسُولٌ مِّنَ ٱللَّهِ ﴾ أي:" أرسله الله، يدعو الناس إلى الحق.

٢ -﴿ يَتْلُواْ صُحُفًا مُّطَهَّرَةً ﴾ وأنزل على الرسول زيادة في البينة كتابًا يتلوه؛ ليعلم الناس، ويزكيهم، ويخرجهم من الظلمات إلى النور.

صفة هذا الكتاب أنه ﴿ صُحُفًا مُّطَهَّرَةً ﴾ أي: محفوظة عن قربان الشياطين، لا يمسها إلا المطهرون، لأنها في أعلى ما يكون من الكلام"[(١)].

"وما كانوا لينفكوا المشركون وأهل الكتاب لتحولوا عن هذا الكفر الذي صاروا إليه إلا بهذه البينة المتمثلة في الرسالة الجديدة، وعلى يد رسولٍ يكون هو بينة واضحة فارقة فاصلة"[(٢)].

"الظاهر أن الرسول الموعود به في كتبهم يوصف بأنه يتلو صحفاً مطهرة، **والتلاوة:** إعادة الكلام دون زيادة عليه ولا نقص منه، سواء كان كلاما مكتوبا، أو محفوظا عن ظهر قلب. ففعل ﴿ يَتْلُواْ ﴾ مؤذنٌ بأنه يقرأ عليهم كلاماً لا تُبدَّلُ ألفاظه، وهو الوحي المنزل عليه صلى الله عليه وسلم.

والصحف: الكتب[(٣)]، وهي جمع صحيفة، وهي الورقة أو اللوح أو ما أشبه ذلك مما يكتب به"[(٤)].

"والوحي المنزل على الرسول سُمِّيَ كتاباً في قوله تعالى: ﴿ أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَرَحْمَةً وَذِكْرَىٰ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴾ [العنكبوت: ٥١]وقوله: ﴿ وَمَا كُنتَ تَتْلُواْ مِن قَبْلِهِۦ مِن كِتَٰبٍ وَلَا تَخُطُّهُۥ بِيَمِينِكَ ۖ إِذًا لَّٱرْتَابَ ٱلْمُبْطِلُونَ ۝٤٨ ﴾ [العنكبوت: ٤٨].

ووصفت الصحف بـــ ﴿ مُّطَهَّرَةً ﴾؛ وهو وصف مشتق من الطهارة، أي كون معانيه لا لبس فيها ولا تشتمل على ما فيه تضليل. وهذا تعريض ببعض ما في أيدي أهل الكتاب من التحريف والأوهام"[(٥)].

---

(١) تيسير الكريم الرحمن ٩٣١ بتصرف .

(٢) في ظلال القرآن ٣٩٤٨/٦ بتصرف .

(٣) معالم التنزيل ٤٩٣/٨.

(٤) تفسير جزء النبأ للعثيمين ٢٧٧.

(٥) التحرير والتنوير٤٧٦/٣٠ بتصرف.

٣ -﴿ فِيهَا كُتُبٌ قَيِّمَةٌ ﴾ "ثم زاد البينة أكثر بأن وصف ما في الصحف التي أنزلت على الرسول صلى الله عليه وسلم بأنها أخبار صادقة، وأوامر عادلة تهدي إلى الحق وإلى صراط مستقيم، فإذا جاءتهم هذه البينة، فحينئذ يتبين طالب الحق ممن ليس له مقصد في طلبه، ﴿ لِّيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَنۢ بَيِّنَةٍ وَيَحْيَىٰ مَنْ حَيَّ عَنۢ بَيِّنَةٍ ﴾[الأنفال: ٤٢]"[١].

"**والقيمة:** المستقيمة أي شديدة القيام الذي هو هنا الكمال والصواب، وهذا من تشبيه المعقول بالمحسوس، لاستعداده للعمل النافع، وضده العوج قال تعالى: ﴿ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ عَلَىٰ عَبْدِهِ ٱلْكِتَٰبَ وَلَمْ يَجْعَل لَّهُۥ عِوَجَا ۜ ﴿١﴾ ﴾ [الكهف: ١] أي: لم يجعل فيه نقص الباطل والخطأ"[٢].

"والكتاب يطلق على الموضوع- كما يقال كتاب الطهارة وكتاب الصلاة، وكتاب القدر، وكتاب القيامة، وهذه الصحف المطهرة وهي هذا القرآن ﴿ فِيهَا كُتُبٌ قَيِّمَةٌ ﴾ أي موضوعات وحقائق قيمة"[٣].

كما قال تعالى: ﴿ إِنَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَهْدِى لِلَّتِى هِىَ أَقْوَمُ ﴾ [الإسراء: ٩] وبلا شك فكل ما تضمنه القرآن فهو حقائق يقينية .

فالقرآن أنزله الله هادياً وطريقاً و لم ينزله ألغازاً[٤] وترانيم[٥]، ولذا قال شيخ الإسلام رحمه الله:" لا يجوز أن يكون الله أنزل كلاما لا معنى له، ولا يجوز أن يكون الرسول صلى الله عليه وسلم وجميع الأمة لا يعلمون معناه كما يقول ذلك من يقوله من المتأخرين!! وهذا القول يجب القطع بأنه خطأ. فإن الدلائل الكثيرة من الكتاب والسنة وأقوال السلف على أن جميع القرآن مما يمكن علمه وفهمه وتدبره وهذا مما يجب القطع به"[٦].

---

(١) تيسير الكريم الرحمن ٩٣٢ بتصرف .
(٢) التحرير والتنوير٣٠/٤٧٧.
(٣) في ظلال القرآن٦/٣٩٤٨.
(٤) الألغاز: ألغز الكلام أي عمي مراده وأضمره على خلاف ما أظهره. انظر: اللسانه/٤٠٥، والقاموس المحيط ص٦٧٤.
(٥) الترانيم: من الترنم وهو التطريب والتغني وتحسين الصوت. انظر اللسان١٢/٢٥٦.
(٦) مجموع الفتاوى١٧/٣٩٠ مختصرا.

المطلب الثالث

تفرق أهل الكتاب مع وجود البينة عندهم

قال تعالى: ﴿ وَمَا تَفَرَّقَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ إِلَّا مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَتْهُمُ ٱلْبَيِّنَةُ ﴾

ثم بين الله تعالى سنة الذين كفروا " أنه لم يؤمن أهل الكتاب لهذا الرسول وينقادوا له، فليس ذلك ببدع من ضلالهم وعنادهم، فإنهم ما تفرقوا واختلفوا وصاروا أحزابًا ﴿ إِلَّا مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَتْهُمُ ٱلْبَيِّنَةُ ﴾ التي توجب لأهلها الاجتماع والاتفاق. ولكنهم لرداءتهم ونذالتهم، لم يزدهم الهدى إلا ضلالا ولا البصيرة إلا عمى"[1].

"فيقرر الله تعالى أن أهل الكتاب خاصة لم يتفرقوا ويختلفوا في دينهم عن جهل أو عن غموض في الدين أو تعقيد، إنما تفرقوا واختلفوا ﴿ مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلْعِلْمُ ﴾ [آل عمران: ١٩]، و﴿ مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَتْهُمُ ٱلْبَيِّنَةُ ﴾ من دينهم على أيدي رسلهم"[2] .

والمراد بالتفرق: "تفرق أهل الكتب المنزلة على الأمم قبلنا، بعد ما أقام الله عليهم الحجج والبينات تفرقوا واختلفوا في الذي أراده الله من كتبهم، واختلفوا اختلافًا كثيرًا، كما جاء في الحديث المروي من طرق: **(والذي نفس محمد بيده لتفترقن أمتي على ثلاث وسبعين فرقة فواحدة في الجنة، واثنتان وسبعون في النار)**[3]"[4].

قال ابن جرير: "وما تفرّق اليهود والنصارى في أمر محمد صلى الله عليه وسلم، فكذّبوا به، إلا من بعد ما جاءتهم البينة، يعني: من بعد ما جاءت هؤلاء اليهود والنصارى البينة ، يعني: أن بيان أمر محمد أنه رسول بإرسال الله إياه إلى خلقه، يقول: فلما بعثه الله تفرّقوا فيه، فكذّب به بعضهم، وآمن بعضهم، وقد كانوا قبل أن يُبعث غير مفترقين فيه أنه نبيّ"[5].

---

(١) تيسير الكريم الرحمن ٩٣٢ بتصرف .

(٢) في ظلال القرآن٦/٣٩٥٠.

(٣) أخرجه ابن ماجة كتاب الفتن، باب افتراق الأمم (٣٩٩٢)، وأبو داود كتاب السنة باب شرح السنة (٤٥٩٦)، والترمذي كتاب الإيمان باب ما جاء في افتراق هذه الأمة (٢٦٤١)، وابن أبي عاصم في كتاب السنة (٦٣)، وصححه الألباني في صحيح سنن ابن ماجه، ٢/٣٦٤. وصححه الألباني في صحيح وضعيف سنن ابن ماجة، وقد ورد هذا الحديث عن أبي هريرة، وأنس، وسعد بن أبي وقاص، ومعاوية، وعمرو بن عوف المزني، وعوف بن مالك، وأبي أمامة، وجابر بن عبدالله –رضي الله عنهم– قال شيخ الإسلام ابن تيمية في مجموع الفتاوى ٣/٣٤٥: "الحديث الصحيح المشهور" وانظر: تخريج أحاديث الكشاف للزيلعي ١/٤٤٧-٤٥٠.

(٤) تفسير القرآن العظيم ٨/٤٥٧.

(٥) جامع البيان ٢٤/٥٤٠.

"تفرق بني إسرائيل بين مكذب لعيسى عليه السلام ومؤمن به، وما آمن به إلا نفر قليل من يهود، وجعل التفرق كناية عن إنكار البينة لأن تفرقهم كان احتلافاً في تصديق بينة عيسى عليه السلام كقوله: ﴿ كَانَ ٱلنَّاسُ أُمَّةً وَٰحِدَةً فَبَعَثَ ٱللَّهُ ٱلنَّبِيِّـۧنَ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ وَأَنزَلَ مَعَهُمُ ٱلْكِتَـٰبَ بِٱلْحَقِّ لِيَحْكُمَ بَيْنَ ٱلنَّاسِ فِيمَا ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ ۚ وَمَا ٱخْتَلَفَ فِيهِ إِلَّا ٱلَّذِينَ أُوتُوهُ مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَتْهُمُ ٱلْبَيِّنَـٰتُ بَغْيًۢا بَيْنَهُمْ ۖ فَهَدَى ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لِمَا ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ مِنَ ٱلْحَقِّ بِإِذْنِهِۦ ۗ وَٱللَّهُ يَهْدِى مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٢١٣﴾ ﴾ [البقرة: ٢١٣]"(١).

"ويجوز أن يكون المراد بهذه البينة الثانية- التي تفرقوا عليها- هي مجيء عيسى عليه الصلاة والسلام فإن الله أرسله كما وعدهم أنبياؤهم أمثال إلياس واليسع وأشعياء عليهم الصلاة والسلام"(٢).

ولا شك أن ذلك كله واقع فهم لو لم يتفرقوا فيما جاءهم به أنبيائهم موسى وعيسى وغيرهم عليهم السلام لم بتفرقوا بَعْدُ فيما جاءهم به محمد صلى الله عليه وسلم؛ فإن الإيمان بالأنبياء يستلزم ذلك، وترك الإيمان ببعضهم أو ببعض ما جاءوا به يستلزم التفرق أيضاً كما قال تعالى: ﴿ ءَامَنَ ٱلرَّسُولُ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِ مِن رَّبِّهِۦ وَٱلْمُؤْمِنُونَ ۚ كُلٌّ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَمَلَـٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّن رُّسُلِهِۦ ۚ وَقَالُوا۟ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا ۖ غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ ٱلْمَصِيرُ ﴿٢٨٥﴾ ﴾ [البقرة: ٢٨٥]. وعابهم على ذلك فقال: ﴿ أَفَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ ٱلْكِتَـٰبِ وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ ۚ فَمَا جَزَآءُ مَن يَفْعَلُ ذَٰلِكَ مِنكُمْ إِلَّا خِزْىٌ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَيَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ يُرَدُّونَ إِلَىٰٓ أَشَدِّ ٱلْعَذَابِ ۗ وَمَا ٱللَّهُ بِغَـٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٨٥﴾ ﴾ [البقرة: ٨٥].

(١) التحرير والتنوير٣٠/٤٧٨.
(٢) التحرير والتنوير٣٠/٤٧٨.

المطلب الرابع

من صفة البينة جمعها أصول الشرائع

قال تعالى: ﴿ وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مُخۡلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ حُنَفَآءَ وَيُقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤۡتُواْ ٱلزَّكَوٰةَۚ وَذَٰلِكَ دِينُ ٱلۡقَيِّمَةِ ﴾.

فيبين الله تعالى أن الكتب كلها جاءت بأصل واحد، ودين واحد فما أمروا في سائر الشرائع إلا:

١- ﴿ لِيَعۡبُدُواْ ٱللَّهَ ﴾: والعبودية هي: "اسم جامع لكل ما يحبه الله ويرضاه من الأقوال والأعمال الباطنة والظاهرة"(١).

"واللام في ﴿ لِيَعۡبُدُواْ ﴾ بمعنى: **أن**، كقوله: ﴿ يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُبَيِّنَ لَكُمۡ ﴾ [النساء: ٢٦] أي أن يبين"(٢)، "العرب تجعل اللام في موضع أن في الأمر كثيراً"(٣) وعلى هذا فالام هنا تفيد الأمر.

"والجملة حالية، أي: والحال أنهم ما كلفوا في كتابهم بما كلفوا به لشيء من الأشياء إلا لأجل عبادة الله تعالى"(٤)، ولذلك جاء بصيغة المضارع تنبياً على أن حالتهم يجب أن تكون في عبادة مستمرة من غير توقف، وفي كل شؤونهم كما قال تعالى: ﴿ قُلۡ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحۡيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ١٦٢ ﴾ [الأنعام: ١٦٢].

وعلى هذا فالعبادة داخلة في كل أعمال الإنسان الظاهرة والباطنة فأركان الإسلام تمثل العبادة الظاهرة، وأركان الإيمان تمثل العبادة الباطنة والذي يجمع بينهما وبين شعب الإيمان يصل إلى درجة الإحسان التي هي: (أن تعبد الله كأنك تراه فإن لم تكن تراه فإنه يراك) (٥) فالتوكل والخوف والذل والرجاء وغيرها من العبادات القلبية داخلة في الإحسان الذي لا يتم إلا إذا تمَّ الإسلام والإيمان.

والعبودية هي التي يطلق عليها العلماء توحيد الألوهية فهي مستلزمة لتوحيد الربوبية.

"والعبادة ما وجبت لكونها مفضية إلى ثواب الجنة، أو إلى البعد عن عقاب النار، بل لأجل أنك عبْدٌ وهو ربٌّ، فلو لم يحصل في الدين ثواب ولا عقاب البتة، ثم أمرك بالعبادة. وجبت لمحض العبودية.

وفيها أيضاً إشارة إلى أنه من عبد الله للثواب والعقاب؛ فالمعبود في الحقيقة هو الثواب والعقاب.

---

(١) العبودية ٣.

(٢) الجامع لأحكام القرآن ٢٠/١٤٤.

(٣) معاني القرآن للفراء ٣/٢٨٢.

(٤) روح المعاني٣٠/٢٦١.

(٥) أخرجه البخاري كتاب الإيمان باب سؤال جبريل النبي صلى الله عليه وسلم عن الإيمان والإسلام والإحسان وعلم الساعة(٥٠). ومسلم في كتاب الإيمان باب بيان الإيمان والإسلام والإحسان (٩ و ١٠).

ولا بد في كون الفعل عبادة من شيئين: غاية التعظيم، وأن يكون مأموراً به"[1].

٢-﴿ مُخۡلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ ﴾: "قاصدين بجميع عباداتهم الظاهرة والباطنة وجه الله، وطلب الزلفى لديه"[2].

قال صلى الله عليه وسلم: (إنما الأعمال بالنيات وإنما لكل امرئ ما نوى ..)[3].

فلا شك أن أثر الإخلاص عظيم، وخطر الرياء جسيم في حياة العابدين والناس أجمعين، قال سفيان الثوري: "ما عالجت شيئاً أشد علي من نيتي"[4]، ذلك أن آفات الإخلاص كثيرة والشهوات والمطامع لا تنقطع، فكم ممن خرج إلى ربه مخلصاً ولكن تحولت النية وتقلبت به الأهواء.

٣-﴿ حُنَفَآءَ ﴾: أي: "معرضين مائلين عن سائر الأديان المخالفة لدين التوحيد"[5]، "والحنيف في كلام العرب: المستقيم المخلص ولا استقامة أكثر من الإسلام، وعن مجاهد: متبعين"[6] "وقال أبو قلابة: الحنيف الذي يؤمن بالرسل كلهم من أولهم إلى آخرهم"[7].

وقيل: "الحنف هو إقبال القدم وميلها إلى أختها، فالحنف الميل عن الشيء بالإقبال على آخر. فالدين الحنيف هو: الإقبال على الله وحده، والإعراض عما سواه. وهو الإخلاص الذي ترجمته كلمة الحق والكلمة الطيبة لا إله إلا الله "[8].

٤-﴿ وَيُقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ ﴾: أمر الله تعالى بإقامة الصلاة بكل ما تشمله من أركان وواجبات، **وإقامتها** : أداؤها في وقتها، في جماعة المسجد، والسعي إليها بأدب، وتسوية الصفوف، والخشوع.

"إقامتها: بحدودها وفروضها وأوقاتها"[9].

وللصلاة قيمتها وقدرها في الإسلام:

- فالصلاة هي أحد أركان الإسلام العملية. قال رسول الله ﷺ: (بني الإسلام على خمس: شهادة أن لا إله إلا الله، وأن محمداً رسول الله، وإقام الصلاة، وإيتاء الزكاة، وحج البيت، وصوم رمضان)[10].

---

(١) تفسير الرازي ٣٢/٤٤-٥٤.

(٢) تيسير الكريم الرحمن٩٣١.

(٣) أخرجه البخاري كتاب بدء الوحي باب كيف كان بدء وحي النبي صلى الله عليه وسلم (١) .

(٤) تذكرة السامع والمتكلم ٦٨.

(٥) تيسير الكريم الرحمن ٩٣١.

(٦) در التعارض بين العقل والنقل ٤/٢٨٢.

(٧) تفسير القرآن العظيم ١/٤٤٨.

(٨) مجموع الفتاوى ٩/٣١٩.

(٩) تفسير القرآن العظيم ٦/ ٣٣٨.

(١٠) أخرجه البخاري كتب الإيمان باب قول النبي ﷺ: (بني الإسلام على خمس)(٨) . ومسلم كتاب الإيمان باب أركان الإسلام ودعائمه العظام (١٦) .

- وهي من السمات التي تتسم بها هذه الأمة من حيث الاهتمام، وقد جعلها الشارع مدار قبول باقي الأعمال الأخرى، وهي كما قال رسول الله ﷺ: (أول ما يحاسب به العبد يوم القيامة من عمله صلاته، فإن صلحت فقد أفلح وأنجح، وإن فسدت فقد خاب وخسر)[1].

- ومن أهميتها أمر الله بالمحافظة عليها في الحضر والسفر، والأمن والخوف، والصحة والمرض، وفي كل حال. قال تعالى: ﴿ حَـٰفِظُواْ عَلَى ٱلصَّلَوَٰتِ وَٱلصَّلَوٰةِ ٱلْوُسْطَىٰ وَقُومُواْ لِلَّهِ قَـٰنِتِينَ ﴿٢٣٨﴾ فَإِنْ خِفْتُمْ فَرِجَالاً أَوْ رُكْبَانًا ۖ فَإِذَآ أَمِنتُمْ فَٱذْكُرُواْ ٱللَّهَ كَمَا عَلَّمَكُم مَّا لَمْ تَكُونُواْ تَعْلَمُونَ ﴿٢٣٩﴾ ﴾[البقرة ٢٣٩].

- وعلى هذا فالصلاة أعظم سبب في تقويم حياة الناس وسلوكهم ومعاشهم، وتقويم ما يقعون فيه من انحراف كما قال تعالى:﴿ وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ ۖ إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ تَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ ﴾ [العنكبوت ٤٥].

- وبالصلاة يمحو الله الخطايا: عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: (أرأيتم لو أن نهراً بباب أحدكم يغتسل منه كل يوم خمس مرات، هل يبقى من درنه شيء. قالوا: لا يبقى من درنه شيء. قال: فذلك مثل الصلوات الخمس يمحو الله بهن الخطايا)[2].

- والصلاة دليل على صدق الإيمان. قال تعالى: ﴿ قَدْ أَفْلَحَ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴿١﴾ ٱلَّذِينَ هُمْ فِى صَلَاتِهِمْ خَـٰشِعُونَ ﴿٢﴾ ﴾ [المؤمنون ١-٢].

- وفي الصلاة إعانة على مقاومة الجزع والهلع عند مس الضر، والمنع عند الخير، والتغلب على جوانب الضعف الإنساني. قال تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلْإِنسَـٰنَ خُلِقَ هَلُوعًا ﴿١٩﴾ إِذَا مَسَّهُ ٱلشَّرُّ جَزُوعًا ﴿٢٠﴾ وَإِذَا مَسَّهُ ٱلْخَيْرُ مَنُوعًا ﴿٢١﴾ إِلَّا ٱلْمُصَلِّينَ ﴿٢٢﴾ ٱلَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ دَآئِمُونَ ﴿٢٣﴾ ﴾[المعارج ١٩-٢٣].

- وترك الصلاة من الأمور العظيمة في مخالفة أمر الله، قال تعالى عن الكفار واعترافهم يوم القيامة: ﴿ مَا سَلَكَكُمْ فِى سَقَرَ ﴿٤٢﴾ قَالُواْ لَمْ نَكُ مِنَ ٱلْمُصَلِّينَ ﴿٤٣﴾ ﴾[المدثر ٤٢]، وقال ﷺ: (العهد الذي بيننا وبينهم الصلاة فمن تركها فقد كفر)[3].

---

(١) أخرجه أبو داود كتاب الصلاة باب قول النبي ﷺ (كل صلاة لا يتمها صاحبها تتم من تطوعه) (٨٦٤) ، وابن ماجة كتاب إقامة الصلاة باب أول ما يحاسب عليه العبد يوم القيامة (١٤٢٥) وصححه الألباني في صحيح الجامع (٢٠٢٠).

(٢) أخرجه البخاري كتاب مواقيت الصلاة باب الصلوات الخمس كفارة (٥٢٨) ، ومسلم كتاب المساجد باب المشي إلى الصلاة تمحا به الخطايا وترفع به الدرجات (٦٦٧) .

(٣) أخرجه الترمذي كتاب الإيمان باب ترك الصلاة (٢٦٢٣) وقال الإمام الترمذي حديث حسن صحيح .وصححه الألباني في صحيح سنن الترمذي (٢١١٣) ، وصحيح سنن ابن ماجة (١٠٧٩).

- والصلاة من العبادات المشتركة بين كل الشرائع فقد قال عن إبراهيم عليه السلام: ﴿ رَبِّ ٱجْعَلْنِي مُقِيمَ ٱلصَّلَوٰةِ وَمِن ذُرِّيَّتِي ﴾ [إبراهيم: ٤٠] وقال عن عيسى عليه السلام: ﴿ وَجَعَلَنِي مُبَارَكًا أَيْنَ مَا كُنتُ وَأَوْصَٰنِي بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱلزَّكَوٰةِ مَا دُمْتُ حَيًّا ﴿٣١﴾ ﴾ [مريم: ٣١] وقال عن إسماعيل عليه السلام: ﴿ وَكَانَ يَأْمُرُ أَهْلَهُۥ بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱلزَّكَوٰةِ وَكَانَ عِندَ رَبِّهِۦ مَرْضِيًّا ﴿٥٥﴾ ﴾ [مريم: ٥٥] وقال عن زكريا عليه السلام: ﴿ فَنَادَتْهُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَهُوَ قَآئِمٌ يُصَلِّي فِي ٱلْمِحْرَابِ أَنَّ ٱللَّهَ يُبَشِّرُكَ بِيَحْيَىٰ مُصَدِّقًۢا بِكَلِمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَسَيِّدًا وَحَصُورًا وَنَبِيًّا مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٣٩﴾ ﴾ [آل عمران: ٣٩].

٥-﴿ وَيُؤْتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ ﴾:

"**وهي لغة**: النماء والزيادة، يقال: زكا الزرع إذا نما وزاد.

وشرعاً: التعبد لله تعالى بإخراج جزء واجب شرعاً في مال معين لطائفة أوجهة مخصوصة"(١).

"فسميت زكاة لما يكون فيها من رجاء البركة، وتزكية النفس وتنميتها بالخيرات"(٢).

"وخص الصلاة والزكاة بالذكر مع أنهما داخلان في قوله : ﴿ لِيَعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ ﴾ لفضلهما وشرفهما، وكونهما العبادتين اللتين من قام بهما قام بجميع شرائع الدين"(٣).

وكذلك لأن في الصلاة القيام بحق الله تعالى، وفي الزكاة قيام بحق المخلوقين، وكثيراً ما يربط الله بين هذين الواجبين في القرآن .

ومعنى "إيتاء الزكاة أي أداء حق المال طاعة لله وقربى عن رضى نفس ورغبة. فالزكاة عبادة مالية. وهذه هي ميزة المنهج الإسلامي الذي يحقق أهدافا شتى بالفريضة الواحدة فالزكاة تعني اسمها ومدلولها؛ إنها قبل كل شيء: طهارة ونماء، إنها زكاة للضمير؛ بكونها عبادة لله، وبالشعور الطيب المصاحب لها تجاه الإخوة الفقراء. بما أنها عبادة لله يرجو عليها فاعلها حسن الجزاء في الآخرة، كما يرجو منها نماء المال في الحياة الدنيا بالبركة- وبالنظام الاقتصادي المبارك- ثم بالشعور الطيب في نفوس الفقراء الآخذين أنفسهم ؛ إذ يشعرون أنها فضل الله عليهم إذ قررها لهم في أموال الأغنياء، ولا يشعرون معها بالحقد والتشفي من إخوانهم الأغنياء. مع تذكر أن الأغنياء في الإسلام لا يكسبون إلا من حلال، ولا يجورون على حق أحد وهم يجمعون نصيبهم من المال"(٤).

---

(١) الشرح الممتع ٦/١٢-١٣.

(٢) فقه السنة١/٤٥٩.

(٣) تيسير الكريم الرحمن ٩٣٢ .

(٤) في ظلال القرآن ٢/٣٩٣ بتصرف.

ثم وصف الله تعالى هذه الأوامر وهذه الأصول بأنها: ﴿ وَذَٰلِكَ دِينُ ٱلْقَيِّمَةِ ﴾: أي التوحيد والإخلاص في الدين، مع القيام – حق القيام- بحق الله، وحق خلقه؛ ابتداء من النفس وشمولاً لجميع الخلق، قياماً بالعدل والإحسان، مع تعلق القلب بالله، وإخلاص العمل له في كل ذلك .

فـــ﴿ دِينُ ٱلْقَيِّمَةِ ﴾ أي: "الدين المستقيم الموصل إلى جنات النعيم، وما سواه فطرق موصلة إلى الجحيم"[1] أعاذنا الله منها.

(١) تيسير الكريم الرحمن ٩٣٢ .

المطلب الخامس

جزاء أهل الإيمان وجزاء أهل الكفر

قال تعالى : ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ وَٱلْمُشْرِكِينَ فِي نَارِ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَآۚ أُوْلَٰٓئِكَ هُمْ شَرُّ ٱلْبَرِيَّةِ ﴿٦﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أُوْلَٰٓئِكَ هُمْ خَيْرُ ٱلْبَرِيَّةِ ﴿٧﴾ جَزَآؤُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ جَنَّٰتُ عَدْنٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًاۖ رَّضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُواْ عَنْهُۚ ذَٰلِكَ لِمَنْ خَشِيَ رَبَّهُۥ ﴿٨﴾ ﴾

"إن محمداً صلى الله عليه وسلم هو خاتم الرسل عليهم الصلاة والسلام كما قال تعالى: ﴿ مَّا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَآ أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ وَلَٰكِن رَّسُولَ ٱللَّهِ وَخَاتَمَ ٱلنَّبِيِّـۧنَۗ وَكَانَ ٱللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا ﴿٤٠﴾ ﴾ [الأحزاب: ٤٠] ؛ وإن الإسلام الذي جاء به هو الرسالة الأخيرة كما قال تعالى: ﴿ وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَمُهَيْمِنًا ﴾ [المائدة: ٤٨].

وقد كانت الرسل تتوالى كلما فسدت الأرض لترد الناس إلى الصلاح. وكانت هناك فرصة بعد فرصة ومهلة بعد مهلة، لمن ينحرفون عن الطريق، فأما وقد شاء الله أن يختم الرسالات إلى الأرض بهذه الرسالة الأخيرة الجامعة الشاملة الكاملة، فقد تحددت الفرصة الأخيرة، فإما إيمان فنجاة، وإما كفر فهلاك. ذلك أن الكفر حينئذ دلالة على الشر الذي لا حد له ، وأن الإيمان دلالة على الخير البالغ أمده"(١).

أولاً: جزاء الكفار من أهل الكتاب والمشركين :

قال تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ وَٱلْمُشْرِكِينَ فِي نَارِ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَآۚ أُوْلَٰٓئِكَ هُمْ شَرُّ ٱلْبَرِيَّةِ ﴿٦﴾ ﴾

"يخبر تعالى عن مآل الفجار، من كفرة أهل الكتاب، والمشركين المخالفين لكتب الله المنزلة وأنبياء الله المرسلة: أنهم يوم القيامة: ﴿ فِي نَارِ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَآۚ ﴾ أي: ماكثين، لا يحولون عنها ولا يزولون ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ هُمْ شَرُّ ٱلْبَرِيَّةِ ﴿٦﴾ ﴾ أي: شر الخليقة التي برأها الله وذرأها"(٢).

"حكم قاطع لا جدال فيه ولا محال، مهما يكن من صلاح بعض أعمالهم وآدابهم ونظمهم ما دامت تقوم على غير إيمان، بهذه الرسالة الأخيرة، وبهذا الرسول الأخير، لا نستريب في هذا الحكم لأي مظهر من مظاهر الصلاح، المقطوعة الاتصال بمنهج الله الثابت القويم"(٣).

---

(١) في ظلال القرآن ٣٩٥٢/٦.

(٢) تفسير القرآن العظيم ٤٥٧/٨.

(٣) في ظلال القرآن٣٩٥٢/٦ بتصرف.

ثانياً: جزاء المؤمنين بالنبي صلى الله عليه وسلم وبما جاء به :

قال تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أُوْلَٰٓئِكَ هُمۡ خَيۡرُ ٱلۡبَرِيَّةِ ۝٧ جَزَآؤُهُمۡ عِندَ رَبِّهِمۡ جَنَّٰتُ عَدۡنٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدٗاۖ رَّضِيَ ٱللَّهُ عَنۡهُمۡ وَرَضُواْ عَنۡهُۚ ﴾

"إنه حكمٌ قاطعٌ لا جدال فيه ولا محال. ولكن شرطه واضح لا غموض فيه ولا احتيال. إنه الإيمان. لا مجرد مولدٍ في أرض تَدَّعِي الإسلام، أو في بيت يقول: إنه من المسلمين. ولا بمجرد كلمات يتشدق بها الإنسان! وليس هو الكلام الذي لا يتعدى الشفاه! إنه الإيمان الذي ينشئ آثاره في واقع الحياة: ﴿ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ ﴾. والصالحات هي: كل ما أمر الله بفعله؛ من عبادةٍ وخُلُقٍ وعَمَلٍ وتعاملٍ.فهي إقامة شريعة الله في الأرض، والحكم بين الناس بما شرع الله. فمن كانوا كذلك فهم خير البرية"[1].

﴿ رَّضِيَ ٱللَّهُ عَنۡهُمۡ ﴾ بما قاموا به من مراضيه، ﴿ وَرَضُواْ عَنۡهُۚ ﴾، بما أعد لهم من أنواع الكرامات وجزيل المثوبات"[2] في الدنيا والآخرة، قال تعالى: ﴿ وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمۡ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَيَسۡتَخۡلِفَنَّهُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ كَمَا ٱسۡتَخۡلَفَ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمۡ دِينَهُمُ ٱلَّذِي ٱرۡتَضَىٰ لَهُمۡ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّنۢ بَعۡدِ خَوۡفِهِمۡ أَمۡنٗاۚ يَعۡبُدُونَنِي لَا يُشۡرِكُونَ بِي شَيۡـٔٗاۚ وَمَن كَفَرَ بَعۡدَ ذَٰلِكَ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡفَٰسِقُونَ ۝٥٥ ﴾ [النور: ٥٥]."إن هذا الرضا من الله وهو أعلى وأندى من كل نعيم.

وهذا الرضا في نفوسهم عن ربهم؛ الرضا عن قدره فيهم، والرضا عن إنعامه عليهم، والرضا بهذه الصلة بينه وبينهم.

الرضا الذي يغمر النفس بالهدوء والطمأنينة والفرح الخالص العميق.إنه تعبير يلقي ظلاله بذاته.. ﴿ رَّضِيَ ٱللَّهُ عَنۡهُمۡ وَرَضُواْ عَنۡهُۚ ﴾ حيث يعجز أي تعبير آخر عن إلقاء مثل هذه الظلال!"[3].

"قيل: ذلك الرضا في الدنيا؛ ورضاه عنهم هو ما أظهره عليهم من أمارات رحمته وغفرانه ، ورضاهم عنه: هو رضاهم بجميع ما قَسَم لهم من جميع الأرزاق والأقدار.

قال بعض الصالحين: رضى العباد عن الله: رضاهم بما يرد من أحكامه. ورضاه عنهم: أن يوفقهم للرضا عنه.

وقال أبو بكر بن طاهر: الرضا عن الله خروج الكراهية عن القلب حتى لا يكون إلا فرح وسرور. وقال السري: إذا كنت لا ترضى عن الله فكيف تطلب منه الرضا عنك؟.

---

(١) في ظلال القرآن ٣٩٥٣/٦ بتصرف.

(٢) تيسير الكريم الرحمن ٩٣٢ .

(٣) في ظلال القرآن ٣٩٥٣/٦.

وقيل: ذلك الرضا في الآخرة؛ فرضاهم عنه: رضاهم بما منّ به عليهم من النعم. ورضاهم عنه هو: ما روي أن الله تعالى يقول لأهل الجنة: (يا أهل الجنة. يقولون: لبيك ربنا وسعديك. فيقول هل رضيتم فيقولون: وما لنا لا نرضى!! وقد أعطيتنا ما لم تعط أحداً من خلقك. فيقول: أنا أعطيكم أفضل من ذلك. قالوا: يا رب!! وأي شيء أفضل من ذلك؟! فيقول: أُحِلُّ عليكم رضواني فلا أسخط عليكم بعده أبدا)[1]"[2].

والآية عامة فتشمل كل الرضا العاجل في الدنيا والآجل في الآخرة.

---

(١) أخرجه البخاري كتاب الرقاق باب صفة الجنة والنار (٦٥٤٩)، ومسلم في كتاب الجنة وصفة نعيمها باب إحلال الرضوان على أهل الجنة (٢٨٢٩).

(٢) المحرر الوجيز ١٥/٥٣١-٥٣٢ بتصرف يسير .

الوقفة السادسة

سبب حصول الخير للمؤمنين

قال تعالى: ﴿ذَٰلِكَ لِمَنۡ خَشِيَ رَبَّهُۥ﴾ "يعني: أن السبب الذي أنالهم ذلك الجزاء هو خشيتهم الله، فإنهم لما خشوا الله توقعوا غضبه إذا لم يصغوا إلى ما يقول لهم، فأقبلوا على النظر في دلائل صدق الرسول فاهتدوا وآمنوا.

وأما الذين آثروا حظوظ الدنيا فأعرضوا عن دعوة رسول من عند الله و لم يتوقعوا غضب مرسله فبقوا في ضلالهم" [1]. "﴿ذَٰلِكَ﴾ الجزاء الحسن ﴿لِمَنۡ خَشِيَ رَبَّهُۥ﴾ أي: لمن خاف الله، فأحجم عن معاصيه، وقام بواجباته" [2].

"وذلك هو التوكيد الأخير. التوكيد على أن هذا كله متوقف على صلة القلب بالله، ونوع هذه الصلة، والشعور بخشيته؛ خشيةً تدفع إلى كل صلاح، وتنهى عن كل انحراف. الشعور الذي يزيح الحواجز، ويرفع الأستار، ويوقف القلب عارياً أمام الواحد القهار. فيخلص العبادة ويخلص العمل من شوائب الرياء والشرك في كل صورة من صوره. فالذي يخشى ربه حقاً: لا يملك أن يُخطر في قلبه ظلاً لغيره من خلقه. وهو يعلم أن الله يرد كل عمل ينظر فيه العبد إلى غيره معه؛ فهو أغنى الشركاء عن الشرك. فإما عمل خالص له، وإلا لم يقبله" [3].

"وخص الله بالذكر أهل الخشية لأنها: رأس كل بركة، الناهية عن المعاصي، الآمرة بالمعروف" [4].

"والخشية أخص من الخوف، فإن الخشية للعلماء بالله تعالى، قال تعالى: ﴿إِنَّمَا يَخۡشَى ٱللَّهَ مِنۡ عِبَادِهِ ٱلۡعُلَمَٰٓؤُاْ﴾ [فاطر: ٢٨] خوفاً مقروناً بمعرفة.

وقال النبي صلى الله عليه وسلم: (إني أتقاكم لله، وأشدكم له خشية) [5]، فالخشية للعلماء العارفين، وعلى قدر العلم والمعرفة يكون الخوف والخشية، فصاحب الخوف يلتجئ إلى الهرب، وصاحب الخشية يلتجئ إلى الاعتصام بالعلم" [6].

---

(١) التحرير والتنوير ٣٠/٤٨٦-٤٨٧.

(٢) تيسير الكريم الرحمن ٩٣٢ .

(٣) في ظلال القرآن ٦/٣٩٥٣ بتصرف.

(٤) المحرر الوجيز ١٥/٥٣٢.

(٥) أخرجه البخاري كتاب النكاح باب الترغيب في النكاح(٥٠٦٣)، ومسلم كتاب النكاح باب استحباب النكاح لمن تاقت نفسه إليه (١٤٠١).

(٦) أعمال القلوب للمنجد ٣٧باختصار.

إن الخشية الحقة والخوف المحمود هو: الحامل على العمل، الذي لا يزال يدفع بصاحبه إلى الطاعة، وينفره عن المعصية.

الخشية الحقَّة هي التي تربي القلب حتى لا يفرق بين معصية وأخرى، فلا ينظر إلى صغر المعصية، ولكن ينظر إلى عظمة من عصى.

وقد حصر الله المنتفعين بالذكرى فقال تعالى: ﴿ طه ﴿١﴾ مَآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْقُرْءَانَ لِتَشْقَىٰٓ ﴿٢﴾ إِلَّا تَذْكِرَةً لِّمَن يَخْشَىٰ ﴿٣﴾ ﴾ [طه: ١ ـــ ٣]. وقال سبحانه: ﴿ سَيَذَّكَّرُ مَن يَخْشَىٰ ﴾ [الأعلى: ١٠].

أهل الخشية هم السعداء في الدنيا، الفائزون في الآخرة، قال تعالى: ﴿ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَيَخْشَ ٱللَّهَ وَيَتَّقْهِ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَآئِزُونَ ﴿٥٢﴾ ﴾[النور: ٥٢]، وقال: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أُوْلَٰٓئِكَ هُمْ خَيْرُ ٱلْبَرِيَّةِ ﴿٧﴾ جَزَآؤُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ جَنَّٰتُ عَدْنٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا رَّضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُواْ عَنْهُ ذَٰلِكَ لِمَنْ خَشِيَ رَبَّهُۥ ﴿٨﴾ ﴾، وقال: ﴿ وَأُزْلِفَتِ ٱلْجَنَّةُ لِلْمُتَّقِينَ غَيْرَ بَعِيدٍ ﴿٣١﴾ هَٰذَا مَا تُوعَدُونَ لِكُلِّ أَوَّابٍ حَفِيظٍ ﴿٣٢﴾ مَّنْ خَشِيَ ٱلرَّحْمَٰنَ بِٱلْغَيْبِ وَجَآءَ بِقَلْبٍ مُّنِيبٍ ﴿٣٣﴾ ٱدْخُلُوهَا بِسَلَٰمٍ ذَٰلِكَ يَوْمُ ٱلْخُلُودِ ﴿٣٤﴾ لَهُم مَّا يَشَآءُونَ فِيهَا وَلَدَيْنَا مَزِيدٌ ﴿٣٥﴾ ﴾[ق: ٣١-٣٥].

واليوم عاثت الدنيا بأهلها فأضحى المخلوق يخشى المخلوق دون الخالق!! يرجو المربوب دون الرب سبحانه!! فعجبًا لمن يخشى الناس، ويخاف الناس، ويهاب عيون الناس، وألسنة الناس، وعقاب الناس!! فأعماله للخلق، وسؤاله للخلق، يُعْطِي ليرضي فلانًا، ويمنع ليحظى بقرب فلانٍ. يحب للدنيا، ويبغض للدنيا!! خاب وخسر، ما قام في قلبه الوجل من ربه، ولا عرف الله حق المعرفة ﴿ وَمَا قَدَرُواْ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦ وَٱلْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَٱلسَّمَٰوَٰتُ مَطْوِيَّٰتُۢ بِيَمِينِهِۦ سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٦٧﴾ ﴾ [الزمر: ٦٧].

اللهم إنا نسألك خشيتك في الغيب والشهادة، اللهم إنا نسألك من خشيتك ما تحول به بيننا وبين معصيتك.

تفسير سورة الزلزلة

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿إِذَا زُلْزِلَتِ الْأَرْضُ زِلْزَالَهَا (١) وَأَخْرَجَتِ الْأَرْضُ أَثْقَالَهَا (٢) وَقَالَ الْإِنسَانُ مَا لَهَا (٣) يَوْمَئِذٍ تُحَدِّثُ أَخْبَارَهَا (٤) بِأَنَّ رَبَّكَ أَوْحَىٰ لَهَا (٥) يَوْمَئِذٍ يَصْدُرُ النَّاسُ أَشْتَاتًا لِّيُرَوْا أَعْمَالَهُمْ (٦) فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ (٧) وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ (٨)﴾

المبحث الأول

مقدمات حول السورة

أولاً: نزولها ومناسبتها:

السورة مدنية كما في رواية عن ابن عباس، وقيل أنها مكية[١].

قال السيوطي في الإتقان: "ويستدل لكونها مدنية بما أخرجه ابن أبي حاتم عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال: لما نزلت ﴿فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ﴾ الآية. قلت: يا رسول الله، إني لراء عملي؟ قال: (نعم). قلت: تلك الكبار الكبار؟! قال: (نعم). قلت: الصغار الصغار؟! قال: (نعم). قلت: واثُكلَ أُمي. قال: (أبشر يا أبا سعيد؛ فإن الحسنة بعشر أمثالها -يعني إلى سبعمائة ضعف- ويضاعف الله لمن يشاء، والسيئة بمثلها أو يغفر الله، ولن ينجو أحد منكم بعمله). قلت: ولا أنت يا رسول الله؟ قال: (ولا أنا إلا أن يتغمدني الله منه برحمة)[٢] وأبو سعيد لم يكن إلا بالمدينة، ولم يبلغ إلا بعد أُحُد"[٣].

أما عدد آياتها (٨) آية، وكلماتها: (٣٥) كلمة، وحروفها: (١٢٩) حرفاً[٤].

مناسبتها لما قبلها:

"ختمت سورة « البينة » قبل هذه السورة بما يلقى الكافرون ، من عذاب ، خالدين في النار ، وبما يلقى المؤمنون ، من نعيم ، خالدين فيه خلودا مؤبدا في الجنة ..

وجاءت سورة الزلزلة محدثة بهذا اليوم الذي يجزى فيه كل من الكافرين والمؤمنين هذا الجزاء الذي يستحقه كل فريق منهم ، فكان عرض هذا اليوم مناسباً"[١].

---

(١) انظر: الناسخ والمنسوخ للنحاس ١٥٣/٣، والدر المنثور ٥٧٩/١٥، ورجح أنها مدنية الحافظ ابن كثير في تفسيره ٤٥٩/٨، وابن سلام في الناسخ والمنسوخ ٢٩/١، وابن حزم في الناسخ والمنسوخ ٦٦/١ وعليه جمهور المفسرين.

(٢) ذكره ابن كثير في التفسير ٤٦٣/٨-٤٦٤، والسيوطي في الدر المنثور ٥٨٧/١٥، ولآخره شاهد في الصحيح من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٣) الإتقان في علوم القرآن ٣٦/١.

(٤) التفسير القرآني للقرآن ٨٣/٣.

ثانياً: موضوعها :

هذه السورة هزة عنيفة للقلوب الغافلة، وصيحة قوية مزلزلة للأرض ومن عليها؛ تتحدث عن الزلزال العنيف الذي يكون بين يدي الساعة، حيث يندك كل صرح شامخ، وينهار كل جبل راسخ، ويحصل من الأمور الغريبة ما يندهش له الإنسان، كإخراج الأرض ما فيها من موتى، وإلقاءها ما في بطنها من كنوز ثمينة من ذهب وفضة، وشهادتها على كل إنسان بما عمل على ظهرها، كما تتحدث عن انصراف الخلائق من أرض المحشر إلى الجنة أو إلى النار، ومحاسبة الله لهم على كل صغيرة وكبيرة[٢] .

ثالثاً: فضلها :

عن عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما قال: أتى رجل إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال: أقرئني يا رسول الله. قال له: (اقرأ ثلاثا من ذات آلر). فقال له الرجل: كبر سني واشتد قلبي، وغَلُظ لساني . قال: (فاقرأ من ذات حم)، فقال مثل مقالته الأولى. فقال: (اقرأ ثلاثا من المسبحات)، فقال مثل مقالته. فقال الرجل: ولكن أقرئني -يا رسول الله-سورة جامعة. فأقرأه: ﴿إِذَا زُلْزِلَتِ ٱلْأَرْضُ زِلْزَالَهَا ﴾ حتى إذا فرغ منها قال الرجلُ: والذي بعثك بالحق، لا أزيد عليها أبدًا، ثم أدبر الرجل، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (أفلح الرويجل! أفلح الرويجل!)[٣].

رابعاً: المعنى الإجمالي للسورة:

يخبر الله تعالى عن مشهد من مشاهد يوم القيامة فيقول تعالى: ﴿ إِذَا زُلْزِلَتِ ﴾ أي: إذا رُجَّت ﴿ٱلْأَرْضُ ﴾ رجًّا شديدًا، ﴿وَأَخْرَجَتِ ﴾ ما في بطنها من موتى وكنوز، وتساءل الإنسان فزعًا: ما الذي حدث لها؟

﴿ يَوْمَئِذٍ ﴾ أي: يوم القيامة تخبر الأرض بما عُمل عليها من خير أو شر، وبأن الله سبحانه وتعالى أمرها بأن تخبر بما عُمل عليها.

﴿ يَوْمَئِذٍ يَصْدُرُ ﴾ أي: يرجع الناس عن موقف الحساب﴿ أَشْتَاتًا ﴾ أي: أصنافًا متفرقين؛ ليريهم الله ما عملوا من السيئات والحسنات، ويجازيهم عليها.

﴿ فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ﴾ أي: وزن نملة صغيرة خيرًا، ير ثوابه في الآخرة، ﴿ وَمَن يَعْمَلْ ﴾ وزن نملة صغيرة شرًا، ير عقابه في الآخرة[٤].

---

(١) التفسير القرآني للقرآن ٨٣/٣ بتصرف.

(٢) انظر إيجاز البيان في سور القرآن ٣٠٨ باختصار .

(٣) أخرجه أحمد في المسند ١٦٩/٢ (٦٥٧٥)، وأبو داود في سننه أبواب قراءة القرآن وتحزيبه وترتيله باب تحزيب القرآن (١٣٩٩)، والبيهقي في شعب الإيمان ٤٩٦/٢ (٢٥١٢)، والحاكم في المستدرك ١٩١/٩ (٣٩٢٣)، وقال الحاكم صحيح الإسناد و لم يخرجاه. قال شعيب الأرنؤوط: إسناده حسن.

(٤) انظر التفسير الميسر (٥٩٩).

المبحث الثاني

وقفات مع السورة حول مشهد وأهوال يوم القيامة[1]

المطلب الأول

زلزال يوم القيامة

قال الله تعالى : ﴿إِذَا زُلْزِلَتِ ٱلْأَرْضُ زِلْزَالَهَا ۝١ وَأَخْرَجَتِ ٱلْأَرْضُ أَثْقَالَهَا ﴾ **وقال تعالى:** ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُوا۟ رَبَّكُمْ ۚ إِنَّ زَلْزَلَةَ ٱلسَّاعَةِ شَىْءٌ عَظِيمٌ ۝١ يَوْمَ تَرَوْنَهَا تَذْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّآ أَرْضَعَتْ وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمْلٍ حَمْلَهَا وَتَرَى ٱلنَّاسَ سُكَٰرَىٰ وَمَا هُم بِسُكَٰرَىٰ وَلَٰكِنَّ عَذَابَ ٱللَّهِ شَدِيدٌ ۝٢ ﴾ [الحج: ١ – ٢].

إنه يوم القيامة حيث ترتجف الأرض الثابتة ارتجافاً، وتزلزل زلزالا، وتنفض ما في جوفها نفضاً، وتخرج ما يثقلها من أجساد ومعادن وغيرها مما حملته طويلاً، وكأنها تتخفف من هذه الأثقال، التي حملتها طويلاً!!، وهو مشهد يهز المستمعين لهذه السورة كل شيء ثابت؛ ويخيل إليهم أنهم يترنحون ويتأرجحون، والأرض من تحتهم تهتز وتمور! مشهد يخلع القلوب من كل ما تتشبث به من هذه الأرض، وتحسبه ثابتاً باقياً.

إن الإنسان قد يشهد الزلازل والبراكين من قبل أو سمع بها، وكان يصاب منها بالهلع والذعر، ويحسّ الهلاك والدمار، ولكنه حين يرى زلزال يوم القيامة لا يجد أن هناك شبهاً بينه وبين ما كان يقع من الزلازل والبراكين في الحياة الدنيا إلا الاسم فقط، فهذا أمر جديد لا عهد للإنسان به، أمر لا يعرف له سراً، ولا يذكر له نظيراً، أمر هائل يقع للمرة الأولى!

إنّ زلازل الدنيا تذكرنا بزلزال الآخرة، ولكن شتان بين زلزال الدنيا وزلزال الآخرة:

زلزال الدنيا: أرض ترتجف، ومبان تسقط، يموت من يموت، ويحيا من بقي له من عمره بقية.

أما زلزال الآخرة: ففيه تذهل المراضع، وتضع الحوامل، وتشيب الولدان، ويكون الناس كالسكارى، من هول الموقف ومن الذعر.

زلزال الدنيا: يذهل الناس فيه من شدة الفاجعة في قطعة محدودة ثم ينتهي الأمر.

(١) هذا الموضوع منتقى من عدة كتب من كتب التفاسير دمجت بعضها ببعض محاولاً الخروج بنظرة عامة وصغتها بأسلوبي و لم أعزو كل مقطع لأن الكلام متداخل جداً، وعمدتها تفسير السعدي وابن كثير والقرطبي فمعظم المعاني منها، وظلال القرآن٦/٣٩٥٤-٣٩٥٦ كان مساعداً في الصياغة.

أما زلزال الآخرة : فالأرض كلها تبدل، والسموات، والجبال الشامخة تنسف نسفاً، والبحار تفجر، وتنشق السماء وتكشط، وتغيرات عجيبة: ﴿ يَوْمَ تُبَدَّلُ ٱلْأَرْضُ غَيْرَ ٱلْأَرْضِ وَٱلسَّمَـٰوَٰتُ ۖ وَبَرَزُوا۟ لِلَّهِ ٱلْوَٰحِدِ ٱلْقَهَّارِ ﴿٤٨﴾ ﴾ [إبراهيم ٤٨]. ﴿ وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْجِبَالِ فَقُلْ يَنسِفُهَا رَبِّى نَسْفًا ﴿١٠٥﴾ فَيَذَرُهَا قَاعًا صَفْصَفًا ﴿١٠٦﴾ لَّا تَرَىٰ فِيهَا عِوَجًا وَلَآ أَمْتًا ﴿١٠٧﴾ ﴾ [طه١٠٥ـ١٠٧].

لقد سمعنا في زلزال الدنيا اليسير عمنْ ذَهِل من هول الفاجعة عن زوجه وأولاده، بل خرج من بيته وقد نسي ما يستر به جسده، فقد شغل بما هو أعظم.

وفي يوم القيامة: عن عائشة رضي الله عنها أن رسول الله ﷺ قال: (يحشر الناس يوم القيامة حفاة عراة غرلاً) قلت: يا رسول الله النساء والرجال جميعاً ينظر بعضهم إلى بعض؟!! قال ﷺ :(يا عائشة الأمر أشد من أن ينظر بعضهم إلى بعض)[1].

---

(١) أخرجه البخاري كتاب الرقاق باب كيف الحشر (٦٥٢٧). ومسلم كتاب الجنة باب فناء الدنيا وبيان الحشر (٢٨٥٩).

المطلب الثاني

حال الناس في ذلك الهول

﴿ وَقَالَ ٱلْإِنسَٰنُ مَا لَهَا ﴾ يزيد هول المشهد وضوحاً بتصوير الإنسان ورسم انفعالاته وهو يشهد هذا الهول العظيم ويقول: ﴿ مَا لَهَا ﴾؟!وهو سؤال المشدوه المبهوت المفجوء، الذي يرى ما لم يعهد، ويواجه ما لا يدرك ، ويشهد ما لا يملك الصبر أمامه والسكوت حياله؛ وكل ما حوله يمور موراً شديداً!

إنه يوم عظيم حُقَّ للإنسان أن يسأل فيه هذا السؤال، لأنه يرى الأرض تتغير من حوله، بل الكون كله يتغير، قال تعالى :﴿ يَوْمَ تُبَدَّلُ ٱلْأَرْضُ غَيْرَ ٱلْأَرْضِ وَٱلسَّمَٰوَٰتُ ۖ وَبَرَزُوا۟ لِلَّهِ ٱلْوَٰحِدِ ٱلْقَهَّارِ ﴿٤٨﴾ ﴾، وقال تعالى: ﴿ يَوْمَ تَرْجُفُ ٱلْأَرْضُ وَٱلْجِبَالُ وَكَانَتِ ٱلْجِبَالُ كَثِيبًا مَّهِيلًا ﴿١٤﴾ ﴾ [المزمل: ١٤]،وقال تعالى: ﴿ يَوْمَ يَفِرُّ ٱلْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ ﴿٣٤﴾ وَأُمِّهِۦ وَأَبِيهِ ﴿٣٥﴾ وَصَٰحِبَتِهِۦ وَبَنِيهِ ﴿٣٦﴾ لِكُلِّ ٱمْرِئٍ مِّنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ ﴿٣٧﴾ ﴾ [عبس: ٣٤–٣٧] وقال تعالى: ﴿ يَوْمَ تَرَوْنَهَا تَذْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّآ أَرْضَعَتْ وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمْلٍ حَمْلَهَا وَتَرَى ٱلنَّاسَ سُكَٰرَىٰ وَمَا هُم بِسُكَٰرَىٰ وَلَٰكِنَّ عَذَابَ ٱللَّهِ شَدِيدٌ ﴿٢﴾ ﴾ [الحج: ١ – ٢].وقال تعالى: ﴿ يَوْمَ تَكُونُ ٱلسَّمَآءُ كَٱلْمُهْلِ ﴿٨﴾ وَتَكُونُ ٱلْجِبَالُ كَٱلْعِهْنِ ﴿٩﴾ وَلَا يَسْـَٔلُ حَمِيمٌ حَمِيمًا ﴿١٠﴾ يُبَصَّرُونَهُمْ ۚ يَوَدُّ ٱلْمُجْرِمُ لَوْ يَفْتَدِى مِنْ عَذَابِ يَوْمِئِذٍۭ بِبَنِيهِ ﴿١١﴾ وَصَٰحِبَتِهِۦ وَأَخِيهِ ﴿١٢﴾ وَفَصِيلَتِهِ ٱلَّتِى تُـْٔوِيهِ ﴿١٣﴾ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا ثُمَّ يُنجِيهِ ﴿١٤﴾ ﴾ [المعارج: ٨ – ١٤]: وقال تعالى: ﴿ يَوْمَ يَكُونُ ٱلنَّاسُ كَٱلْفَرَاشِ ٱلْمَبْثُوثِ ﴿٤﴾ وَتَكُونُ ٱلْجِبَالُ كَٱلْعِهْنِ ٱلْمَنفُوشِ ﴿٥﴾ ﴾ [القارعة: ٤–٥]، وقال تعالى: ﴿ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا يَوْمُ ٱلدِّينِ ﴿١٧﴾ ثُمَّ مَآ أَدْرَىٰكَ مَا يَوْمُ ٱلدِّينِ ﴿١٨﴾ يَوْمَ لَا تَمْلِكُ نَفْسٌ لِّنَفْسٍ شَيْـًٔا ۖ وَٱلْأَمْرُ يَوْمَئِذٍ لِّلَّهِ ﴿١٩﴾ ﴾ [الانفطار: ١٧–١٩]، وقال تعالى: ﴿ يَوْمَ يَتَذَكَّرُ ٱلْإِنسَٰنُ مَا سَعَىٰ ﴿٣٥﴾ وَبُرِّزَتِ ٱلْجَحِيمُ لِمَن يَرَىٰ ﴿٣٦﴾ ﴾ [النازعات: ٣٥–٣٦]، وقال تعالى: ﴿ يَوْمَ تَرْجُفُ ٱلرَّاجِفَةُ ﴿٦﴾ تَتْبَعُهَا ٱلرَّادِفَةُ ﴿٧﴾ قُلُوبٌ يَوْمَئِذٍ وَاجِفَةٌ ﴿٨﴾ أَبْصَٰرُهَا خَٰشِعَةٌ ﴿٩﴾ يَقُولُونَ أَءِنَّا لَمَرْدُودُونَ فِى ٱلْحَافِرَةِ ﴿١٠﴾ أَءِذَا كُنَّا عِظَٰمًا نَّخِرَةً ﴿١١﴾ قَالُوا۟ تِلْكَ إِذًا كَرَّةٌ خَاسِرَةٌ ﴿١٢﴾ فَإِنَّمَا هِىَ زَجْرَةٌ وَٰحِدَةٌ ﴿١٣﴾ ﴾ [النازعات: ٦–١٣]، وقال تعالى: ﴿ يَوْمَ يَقُومُ ٱلرُّوحُ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ صَفًّا ۖ لَّا يَتَكَلَّمُونَ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ ٱلرَّحْمَٰنُ وَقَالَ صَوَابًا ﴿٣٨﴾ ذَٰلِكَ ٱلْيَوْمُ ٱلْحَقُّ ۖ فَمَن شَآءَ ٱتَّخَذَ إِلَىٰ رَبِّهِۦ مَـَٔابًا ﴿٣٩﴾ إِنَّآ أَنذَرْنَٰكُمْ عَذَابًا قَرِيبًا يَوْمَ يَنظُرُ ٱلْمَرْءُ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ وَيَقُولُ ٱلْكَافِرُ يَٰلَيْتَنِى كُنتُ تُرَٰبًۢا ﴿٤٠﴾ ﴾ [النبأ: ٣٨–٤٠]، وقال تعالى: ﴿ يَوْمَ يُنفَخُ فِى ٱلصُّورِ فَتَأْتُونَ أَفْوَاجًا ﴿١٨﴾ وَفُتِحَتِ ٱلسَّمَآءُ فَكَانَتْ أَبْوَٰبًا ﴿١٩﴾ وَسُيِّرَتِ ٱلْجِبَالُ فَكَانَتْ سَرَابًا ﴿٢٠﴾ ﴾ [النبأ: ١٨–٢٠]، وقال تعالى: ﴿ يَسْـَٔلُ أَيَّانَ يَوْمُ ٱلْقِيَٰمَةِ ﴿٦﴾ فَإِذَا بَرِقَ ٱلْبَصَرُ ﴿٧﴾ وَخَسَفَ ٱلْقَمَرُ ﴿٨﴾ وَجُمِعَ ٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ ﴿٩﴾ يَقُولُ ٱلْإِنسَٰنُ يَوْمَئِذٍ أَيْنَ ٱلْمَفَرُّ ﴿١٠﴾ كَلَّا لَا وَزَرَ ﴿١١﴾ إِلَىٰ رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ ٱلْمُسْتَقَرُّ ﴿١٢﴾ ﴾ [القيامة: ٦–١٢]، هذه فقط نماذج مما يحدث يوم القيامة ممّا يجعل الإنسان يسأل﴿ مَا لَهَا ﴾؟!

المطلب الثالث

الأرض تشهد بأمر الله

﴿ يَوۡمَئِذٖ تُحَدِّثُ أَخۡبَارَهَا ٤ بِأَنَّ رَبَّكَ أَوۡحَىٰ لَهَا ﴾ نعم. يوم يقع هذا الزلزال، ويُشدَه أمامه الإنسان ﴿ تُحَدِّثُ أَخۡبَارَهَا ﴾ أي: تشهد على العاملين بما عملوا على ظهرها من خير وشر، فإن الأرض من جملة الشهود الذين يشهدون على العباد بأعمالهم، وهذا ليس من تلقاء نفسها وإنما هو أمر من الله لها ﴿ بِأَنَّ رَبَّكَ أَوۡحَىٰ لَهَا ﴾ أمرها تزلزل زلزالها؛ وأن تخرج أثقالها، وأن تخبر بما عمل عليها فأطاعت أمر ربها.

عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قرأ رسول الله صلى الله عليه وسلم هذه الآية: ﴿ تُحَدِّثُ أَخۡبَارَهَا ﴾ قال: (أتدرون ما أخبارها؟). قالوا: الله ورسوله أعلم. قال: (فإن أخبارها أن تشهد على كل عبد وأمة بما عَمِل على ظهرها، أن تقول: عمل كذا وكذا، يوم كذا وكذا، فهذه أخبارها)(1).

وفي الجواب ﴿ بِأَنَّ رَبَّكَ أَوۡحَىٰ لَهَا ﴾ تبكيت لمن لم يستجب لأمر الله عز وجل في الدنيا حيث يشهد عبودية الكائنات كلها لله عين اليقين يوم القيامة، وقد كان أُمر بالعبودية فأبى ونكص على عقبيه، وأنكر بل وتجبر وتعاظم حتى ادعى الألوهية والربوبية – والعياذ بالله تعالى– ولكن في هذا اليوم لا ينفع الندم ولا الرجوع .

---

(1) أخرجه أحمد ٢/٣٧٤ (٨٨٥٤)، والترمذي كتاب تفسير القرآن باب سورة إذا زلزلت (٢٤٢٩) وقال: حسن غريب، والنسائي في الكبرى كتاب التفسير باب سورة الزلزلة (١١٦٩٣)، والحاكم ٢/٢٨١ (٣٠١٢) وقال: صحيح على شرط الشيخين، قال شعيب الأرنؤوط: إسناده ضعيف، وضعفه الألباني في صحيح وضعيف سنن الترمذي.

المطلب الرابع

مشهد القيام للحساب

وفي لمحة يصف الله تعالى لنا من أهوال ذلك اليوم مشهد القيام للحساب فقال تعالى : ﴿ يَوْمَئِذٍ يَصْدُرُ ٱلنَّاسُ أَشْتَاتًا ﴾ أي يرجعون عن مواقف الحساب أنواعاً وأصنافاً ما بين شقي وسعي، مأمور به إلى الجنة ومأمور به إلى النار، منبعثين من أرجاء الأرض ﴿ خُشَّعًا أَبْصَٰرُهُمْ يَخْرُجُونَ مِنَ ٱلْأَجْدَاثِ كَأَنَّهُمْ جَرَادٌ مُّنتَشِرٌ ﴿٧﴾ ﴾ [القمر: ٧].وهو مشهد لا عهد للإنسان به من قبل. مشهد الخلائق في أجيالها جميعاً تنبعث من هنا ومن هناك كما قال تعالى : ﴿ يَوْمَ تَشَقَّقُ ٱلْأَرْضُ عَنْهُمْ سِرَاعًا ۚ ذَٰلِكَ حَشْرٌ عَلَيْنَا يَسِيرٌ ﴿٤٤﴾ ﴾ [ق: ٤٤] وقال تعالى: ﴿ يَوْمَ يُنفَخُ فِى ٱلصُّورِ فَتَأْتُونَ أَفْوَاجًا ﴾ [النبأ: ١٨]، وقال تعالى: ﴿ يَوْمَ يَكُونُ ٱلنَّاسُ كَٱلْفَرَاشِ ٱلْمَبْثُوثِ ﴾ [القارعة: ٤].

نعم. إنه مشهد لا تُعبر عن صفته لغة البشر بأبلغ من لفظ الباري هذا، إنه مشهد هائل مروّع ، مفزع، مرعب، مذهل[1]. مع ملاحظة أن ذلك الصدور متعدد، منهم يخرجون من قبورهم أشتاتاً، ثم يصولون ويجولون في أرض المحشر أشتاتاً، ثم يصدرون عن موقف الفصل أشتاتاً. والله المستعان على هون ذلك الموقف العظيم.

---

(١) سيكون الحديث عن خروج الناس من قبورهم وحشرهم إلى أرض المحشر في تفسير سورة العاديات عند قوله تعالى: ﴿ أَفَلَا يَعْلَمُ إِذَا بُعْثِرَ مَا فِى ٱلْقُبُورِ ﴿٩﴾ ﴾ ويكفي هنا عرض المشهد والهول العظيم .

المطلب الخامس

لا تحقرن شيئاً

ولكن لماذا يخرجون؟ ولماذا يهربون؟ وإلى من يلوذون؟ إنهم: ﴿لِّيُرَوۡاْ أَعۡمَـٰلَهُمۡ ﴾.. وهذه أشد وأدهى .. إنهم ذاهبون إلى حيث تعرض عليهم أعمالهم، ليواجهوها ويواجهوا جزاءها. ومواجهة الإنسان لعمله قد تكون أحياناً أقسى من كل جزاء. وإن من عمله ما يهرب من مواجهته بينه وبين نفسه، ويشيح بوجهه عنه لبشاعته حين يتمثل له في نوبة من نوبات الندم ولذع الضمير. فكيف به وهو يواجه بعمله على رؤوس الأشهاد، في حضرة الجليل العظيم الجبار المتكبر سبحانه ولنيل الجائزة على ذلك العمل؟!.

ثم يبين الله تعالى بعد ذلك مباشرة كيفية مجازاة الناس وعدل الله سبحانه فيهم، فيقول عز شأنه:

﴿فَمَن يَعۡمَلۡ مِثۡقَالَ ذَرَّةٍ خَيۡرًا يَرَهُۥ ۝٧ وَمَن يَعۡمَلۡ مِثۡقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُۥ ۝٨ ﴾

عندئذ لا يحقر الإنسان شيئاً من عمله، خيراً كان أو شراً، ولا يقول: هذه صغيرة لا حساب لها ولا وزن، إنما يرتعش وجدانه أمام كل عمل من أعماله، إرتعاشة ذلك الميزان الدقيق الذي ترجح به الذرة أو تشيل.

﴿ذَرَّةٍ ﴾ المفسرون يقولون : إنها البعوضة . ويقولون : إنها الهباءة التي تُرى في ضوء الشمس، فقد كان ذلك أصغر ما يتصورون من لفظ الذرة.

فنحن الآن نعلم أن الذرة شيء محدد يحمل هذا الاسم أيضاً، وأنه أصغر بكثير من تلك الهباءة التي ترى في ضوء الشمس، فالهباءة ترى بالعين المجردة . أما الذرة فلا ترى أبداً حتى بأعظم المجاهر في المعامل، إنما هي رؤيا في ضمير العلماء! لم يسبق لواحد منهم أن رآها بعينه ولا بمجهره، وكل ما رآه هو آثارها!فهذه أو ما يشبهها من ثقل ، من خير أو شر ، تحضر ويراها صاحبها ويجد جزاءها!..

لأن التعبير بالذرة هنا ليس مقصوداً لذاته بل للدلالة على أن ما يحتقره الناس ويستصغرونه لا يضيع عند الله جزاؤه إن خيراً فخير وإن شراً فعدل، ولفظ الآية يبقى على ما يعرفه الأميون من معهود خطابهم، وسبحان من أنزله بلسان عربي مبين.

إنه ميزان لم يوجد له نظير أو شبيه بعد في الأرض، إلا في القلب المؤمن. القلب الذي يرتعش لمثقال ذرة من خير أو شر.. وفي الأرض اليوم قلوبٌ لا تتحرك للجبلل من الذنوب والمعاصي والجرائر، ولا تتأثر وهي تسحق رواسي من الخير ، إنها قلوب مسحوقة تحت أثقالها تلك في يوم الحساب!!

عن عَدي رضي الله عنه مرفوعا: (اتقوا النار ولو بشِقِّ تمرة، فإن لم يجد فبكلمة طيبة)[1].

وفي الصحيح: (لا تَحْقِرَنَّ من المعروف شيئا ولو أن تلقى أخاك ووجهك إليه منبسط)[2].

وفي الصحيح أيضا:(يا نساء المؤمنات، لا تحقرن جارة لجارتها ولو فِرْسَنَ شاة[3])[4].

قال مالك: وبلغني "أن مسكينا استطعم عائشةَ أمَّ المؤمنين رضي الله عنها وبين يديها عِنَب ، فقالتْ لإنسان: خذْ حَبَّة فأعْطه إياها ، فجعل ينظرُ إليها، ويَعْجَبُ ، فقالتْ عائشةُ: أتعجَبُ؟ كم ترى في هذه الحَبَّةِ من مثقال ذَرَّة!!"[5].

وعن عوف بن الحارث رضي الله عنه : أن عائشة رضي الله عنها أخبرته: أن النبي صلى الله عليه وسلم كان يقول: (يا عائشة، إياك ومحقرات الذنوب، فإن لها من الله طالبا)[6].

وعن أنس رضي الله عنه قال: كان أبو بكر رضي الله عنه يأكل مع النبي صلى الله عليه وسلم فنزلت هذه الآية: ﴿ فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُۥ ﴿٧﴾ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُۥ ﴿٨﴾ ﴾ فرفع أبو بكر يده وقال: يا رسول الله، إني أُجزى بما عملتُ من مثقال ذرة من شر؟ فقال: (يا أبا بكر، ما رأيت في الدنيا مما تكره فبمثاقيل ذر الشر، ويدخر الله لك مثاقيل ذَر الخير حتى تُوفَاه يوم القيامة)[7].

وعن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: (إياكم ومحقرات الذنوب، فإنهن يجتمعن على الرجل حتى يهلكنه)، وإن رسول الله صلى الله عليه وسلم ضرب لهن مثلاً كمثل قوم نزلوا أرض فلاة، فحضر صَنيع القوم، فجعل الرجل ينطلق فيجيء بالعود، والرجل يجيء بالعود، حتى جمعوا سوادا، وأجَّجوا نارًا، وأنضجوا ما قذفوا فيها[8].

---

(١) أخرجه البخاري كتاب الزكاة باب الصدقة قبل الرد (١٤١٣). ومسلم كتاب الزكاة باب الحث على الصدقة ولو بشق تمرة أو كلمة طيبة وأنها حجاب من النار(١٠١٦).

(٢) أخرجه مسلم كتاب البر والصلة باب استحباب طلاقة الوجه عند اللقاء(٢٦٢٦).

(٣) فِرْسَنَ شاة : حافر الشاة .

(٤) أخرجه البخاري كتاب الهبة باب فضل الهبة (٢٥٦٦) ومسلم كتاب الزكاة باب الحث على الصدقة ولو بالقليل(١٠٣٠).

(٥) في الموطأ ١٤٥٢/٥ (٣٦٥٦)، وجامع الأصول لابن الأثير (٤٦٥٣).

(٦) أخرجه أحمد في المسند ١٥١/٦ (٢٥٢١٨) وابن أبي شيبة٨٠/٧ (٣٤٣٣٧) والبيهقي في شعب الإيمان٥/٤٥٤(٧٢٦١) ، وصححه الألباني في الترغيب والترهيب(٢٤٧٢)، قال شعيب الأرنؤوط : إسناده حسن.

(٧) جامع البيان ٥٦٦/٢٤، والطبراني في المعجم الأوسط (٣٤١٨)، والبيهقي في الشعب ١٥١/٧ (٩٨٠٨)، "مجمع البحرين" من طريق أبي الخطاب، به، وقال: "لم يروه عن أيوب إلا سماك، ولا عنه إلا الهيثم. تفرد به زيادة". وذكره ابن كثير في تفسيره ٤٦٣/٨. قال محقق ابن كثير: الهيثم بن الربيع ضعيف.

(٨) أخرجه أحمد في المسند ٤٠٢/١ (٣٨١٨)، والبيهقي في الشعب ٤٥٦/٥ (٤٢٦٧)، وقال الألباني: صحيح لغيره ،انظر صحيح الترغيب والترهيب(٢٤٧٠)، قال شعيب الأرنؤوط : حسن لغيره

تفسير سورة العاديات

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿وَالْعَادِيَاتِ ضَبْحًا (١) فَالْمُورِيَاتِ قَدْحًا (٢) فَالْمُغِيرَاتِ صُبْحًا (٣) فَأَثَرْنَ بِهِ نَقْعًا (٤) فَوَسَطْنَ بِهِ جَمْعًا (٥) إِنَّ الْإِنْسَانَ لِرَبِّهِ لَكَنُودٌ (٦) وَإِنَّهُ عَلَى ذَلِكَ لَشَهِيدٌ (٧) وَإِنَّهُ لِحُبِّ الْخَيْرِ لَشَدِيدٌ (٨) أَفَلَا يَعْلَمُ إِذَا بُعْثِرَ مَا فِي الْقُبُورِ (٩) وَحُصِّلَ مَا فِي الصُّدُورِ (١٠) إِنَّ رَبَّهُمْ بِهِمْ يَوْمَئِذٍ لَخَبِيرٌ (١١)﴾

المبحث الأول

مقدمات حول السورة

أولاً : نزولها ومناسبتها :

قال السيوطي في الإتقان: "فيها قولان ويستدل على كونها مدنية ما أخرجه الحاكم عن ابن عباس رضي الله عنهما: قال: بعث صلى الله عليه وسلم خيلاً سرية إلى بني كنانة وأمر عليها المنذر بن عمرو الأنصاري رضي الله عنه فأسهبت -أي أمعنت في سهب وهي الأرض الواسعة- شهراً وتأخر خيرهم، فأرجف المنافقون؛ وقالوا : قُتلوا جميعاً. فأخبر الله عنهم بقوله ﴿وَالْعَادِيَاتِ ضَبْحًا﴾ الآيات. إعلاماً بأن خيلهم قد فعلت جميع ما في تلك الآيات[1]"[2].

وجمهور المفسرين على أنها مكية[3]. وهو الصحيح إن شاء الله تعالى.

أما عدد آياتها (١١) آية، وكلماتها: (٤٠) كلمة، وحروفها: (١٦٠) حرفاً[4].

مناسبتها لما قبلها:

" الزلزلة التي تزلزلها الأرض يوم البعث ، وإخراج الأرض أثقالها وما في جوفها من الموتى ، وصدور الناس أشتاتا من القبور إلى موقف الحشر ، والمواجهة هناك بين الكافرين والمؤمنين ــ كل هذا تمثله صورة واقعة في الحياة ، نجدها حين تقوم حالة حرب بين الناس ، فتنزلزل الأرض تحت أقدام الجيوش

---

(١) أخرجه البزار في مسنده (٢٢٩١)، وذكره الواحدي في أسباب النزول ص(٣٠٥)، والهيثمي في مجمع الزوائد ٥١/٧ (١١٥١٥) وقال: رواه البزار وفيه حفص بن جميع وهو ضعيف، قال ابن كثير٤٦٧/٨: روى أبو بكر البزاز هنا حديثا غريباً جداً وساق الحديث قريبا مما للواحدي، وذكره ابن عطية في المحرر الوجيز ٥٤٤/١٥. وذكره ابن حجر في الفتح وقال في إسناده ضعف ٧٢٧/٨، وذكره ابن أبي حاتم في العلل ٦٢/٢، وذكره القرطبي تفسيره ١٥٥/١٥. قال ابن عاشور: وأقول غرابة الحديث لا تناكد قبوله وهو مروي عن ثقات إلا أن في سنده حفص بن جميع وهو ضعيف . فالراجح أن السورة مدنية٤٩٧/٣٠.

(٢) الإتقان في علوم القرآن ٣٦/١.

(٣) انظر: المحرر الوجيز ٥٤٣/١٥، ومعالم التنزيل ٥٠٥/٨، والجامع لأحكام القرآن ١٥٣/٢٠، وتفسير القرآن العظيم ٤٦٥/٨، والدر المنثور ٥٩٧/١٥.

(٤) التفسير القرآني للقرآن ٨٤/٣.

الزاحفة نحو ساحة القتال ، بما يركبون من خيل ، وما يحملون من عدد القتال ، وهم يصدرون من بيوتهم في سرعة الرياح العاصفة إلى لقاء العدو ، لا يمسكهم شيء عن الانطلاق حتى يبلغوا ساحة الحرب ..

قوم إذا الشرّ أبدى ناجذيه لهم طاروا إليه زرافات ووحدانا

هكذا يوم الحرب .. إنه من يوم القيامة قريب في أهواله ، وشدائده ، وما يلقى الناس منه ، من هول وشدة.

ففي ميدان الحرب ، حساب وجزاء ، وربح وخسران ، وهول وفزع ، يشمل المحاربين جميعا.

فالحرب ، وميدانها في الدنيا ، هي أقرب شيء يمثّل به المحشر ، والحساب ، والجزاء في الآخرة .. ولهذا جاءت سورة العاديات مناسبة لسورة الزلزلة"[١].

ثانياً : موضوعها :

بدأت السورة بالقسم بخيل الغزاة وحالتها في الحرب إظهاراً لشرفها وفضلها عند الله، ثم ذم خصال تفضي بأصحابها إلى الخسران في الآخرة، وهي خصال غالبة على المشركين والمنافقين، ويُراد تحذير المسلمين منها، ووعظ الناس بأن وراءهم حساباً على أعمالهم بعد الموت ليتذكره المؤمن فيتعظ به، ويهدد به الجاحد، وأنه لا ينفع في الآخرة مال ولا جاه وإنما ينفع العمل الصالح[٢].

ثالثاً: المعنى الإجمالي للسورة:

﴿ وَٱلْعَٰدِيَٰتِ ضَبْحًا ﴾ أقسم الله تعالى في هذه السورة بالخيل الجاريات في سبيله نحو العدوِّ، حين يظهر صوتها من سرعة عَدْوِها. ﴿ فَٱلْمُورِيَٰتِ قَدْحًا ﴾ أي: فالخيل اللاتي تنقدح النار من صلابة حوافرها؛ من شدَّة عَدْوها. ﴿ فَٱلْمُغِيرَٰتِ صُبْحًا ﴾ فالمغيرات على الأعداء عند الصبح، ﴿ فَأَثَرْنَ بِهِۦ نَقْعًا ﴾ فهيَّجْنَ بهذا العَدْو غبارًا. ﴿ فَوَسَطْنَ بِهِۦ جَمْعًا ﴾ فتوسَّطن بركبانهن جموع الأعداء.

﴿ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لِرَبِّهِۦ لَكَنُودٌ ﴿٦﴾ وَإِنَّهُۥ عَلَىٰ ذَٰلِكَ لَشَهِيدٌ ﴿٧﴾ وَإِنَّهُۥ لِحُبِّ ٱلْخَيْرِ لَشَدِيدٌ ﴿٨﴾ ﴾ أي: إن الإنسان لِنعم ربه لَجحود، وإنه بجحوده ذلك لمقر. وإنه لحب المال لشديد.

﴿ أَفَلَا يَعْلَمُ إِذَا بُعْثِرَ مَا فِى ٱلْقُبُورِ ﴾ أي: أفلا يعلم الإنسان ما ينتظره إذا أخرج الله الأموات من القبور للحساب والجزاء؟ ﴿ وَحُصِّلَ مَا فِى ٱلصُّدُورِ ﴾ أي: واستُخرج ما استتر في الصدور من خير أو شر ﴿ إِنَّ رَبَّهُم بِهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّخَبِيرٌۢ ﴾ أي: إن ربهم بهم وبأعمالهم يومئذ لخبير، لا يخفى عليه شيء من ذلك[٣].

---

(١) التفسير القرآني للقرآن ٨٤/٣.

(٢) انظر: التحرير والتنوير ٤٩٨/٣٠، إيجاز البيان في سور القرآن ٣٠٩.

(٣) انظر التفسير الميسر ص٥٩٩- ٥٦٠.

المبحث الثاني
وقفات مع السورة
المطلب الأول
وقفات مع المقسم به

﴿وَٱلْعَٰدِيَٰتِ ضَبْحًا ۝١ فَٱلْمُورِيَٰتِ قَدْحًا ۝٢ فَٱلْمُغِيرَٰتِ صُبْحًا ۝٣ فَأَثَرْنَ بِهِۦ نَقْعًا ۝٤ فَوَسَطْنَ بِهِۦ جَمْعًا ۝٥﴾

أولاً : المقسم به :

يقسم الله سبحانه بخيل المعركة، ويصف حركاتها بتدرج منذ أن تبدأ عدوها وجريها ضابحة بأصواتها المعروفة حين تجري، قارعة للصخر بحوافرها حتى توري الشرر منها، مغيرة في الصباح الباكر لمفاجأة العدو، مثيرة للنقع والغبار؛ غبار المعركة على غير انتظار، وهي تتوسط صفوف الأعداء على غرة فتوقع بينهم الفوضى والاضطراب!

فقوله: ﴿وَٱلْعَٰدِيَٰتِ ضَبْحًا﴾أي: "الخيل إذا جرت في سبيله فعَدَت وضبحت، والضبح: هو الصوت الذي يُسَمْع من الفرس حين تعدو"(١).

ومن المفسرين من قال أن المقصود الإبل وليس الخيل، قال ابن عطية: "والظاهر في الآية أن القسم بالخيل أو الإبل أو بهما"(٢)، وقال القرطبي: "جمهور العلماء والمفسرون وأهل اللغة على أنها الخيل"(٣).

فالله تعالى يقسم بالخيل لما فيه من آيات باهرات، ونِعَم ظاهرات، والخيل هو الحصان المعروف وله شأن عظيم في ذلك الزمان لأنه يستخدم كثيراً في الحروب والقتال(٤) ولا زال يستعمل في الشُرَط إلى زماننا.

قوله : ﴿فَٱلْمُورِيَٰتِ قَدْحًا﴾ أي: "اصطكاك نعلها للصخر فتقدح منه النار، ﴿فَٱلْمُغِيرَٰتِ صُبْحًا﴾ يعني الإغارة وقت الصباح"(٥)"وهو أحسن ما يكون في الإغارة على العدو أن يكون في الصباح، لأنه يكون في غفلة ونوم، حتى لو استيقظ من الغارة فسوف يكون على كسل وإعياء"(٦).

فعن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: أن النبي صلى الله عليه وسلم (كان إذا غزا بنا قوما لم يكن يغزو بنا حتى يصبح وينظر فإن سمع أذانا كف عنهم وإن لم يسمع أذانا أغار عليهم)(٧).

---

(١) تفسير القرآن العظيم ٨/٤٦٥.
(٢) المحرر الوجيز ١٥/٥٤٥ .
(٣) الجامع لأحكام القرآن ٢٠/١٥٣
(٤) انظر: تفسير السور القصار للهميلي ١٦.
(٥) تفسير القرآن العظيم ٨/٤٦٥.
(٦) تفسير جزء النبأ لابن عثيمين ٢٩٢.
(٧) أخرجه البخاري كتاب الأذان باب ما يحقن الأذان من الدماء (٦١٠).

﴿ فَأَثَرْنَ بِهِۦ نَقْعًا ﴾ هو الغبار في مكان معترك الخيول، ﴿ فَوَسَطْنَ بِهِۦ جَمْعًا ﴾ أي توسطن ذلك المكان كلهن جموعاً من الأعداء[1]. وهذا من فرائد الخيل فإنها تُقْدِم في القتال ولو بلغ الدم إلى ركبها[2] بخلاف غيرها من الحيوانات فإنها تهاب الدم.

ثانياً: المراد من هذا القسم:

هذا القسم ضرب به المثل بالخيل في طاعتها لربها المالك لها المنعم عليها، وخوضها غمار المهالك استجابة لطلبه، بينما الإنسان يعرض عن ربه خالقه من العدم والمنعم عليه بكامل النعم ويترك أمره، بل ويجحده!! ومع ذلك يتمنى من ربه المزيد من الخير مع إعراضه وجحوده!!.

ثالثاً: فائدة ذكر وصف العاديات:

"إن أريد بـــ ﴿ وَٱلْعَٰدِيَٰتِ ﴾ رواحل الحجيج: لكي يصدق المشركون بوقوع المقسم عليه، لأن القسم بشعائر الحج لا يكون إلا باراً، حيث هم لا يصدقون بأن القرآن كلام الله؛ ويزعمون قول النبي صلى الله عليه وسلم.

وإن أريد بـ ﴿ وَٱلْعَٰدِيَٰتِ ﴾وما عطف عليها خيل الغزاة: فالقسم بها لأجل التهويل والترويع، لإشعار المشركين بأن غارة تترقبهم؛ وهي غزوة بدر. مع تسكين نفس النبي صلى الله عليه و سلم من التردد في مصير السرية التي بعث بها مع المنذر بن عمرو رضي الله عنه -إذا صح خبرها- فيكون القسم بخصوص هذه الخيل إدماجا للاطمئنان"[3].

رابعاً: الخيل في الإسلام:

قال الله تعالى: ﴿ وَأَعِدُّواْ لَهُم مَّا ٱسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ ٱلْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِۦ عَدُوَّ ٱللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ ﴾ [الأنفال: ٦٠]. وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (الخيل معقود في نواصيها الخير إلى يوم القيامة) [4]. وقال عليه الصلاة والسلام: (البركة في نواصي الخيل)[5].

---

(١) تفسير القرآن العظيم ٤٦٥/٨.

(٢) أخرج أبو يعلى عن ابن مسعود قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (تجيء رايات سود من قبل المشرق، تخوض الخيل الدم إلى ثنتها، يظهرون العدل، ويطلبون العدل فلا يعطونه، فيظهرون فيطلب منهم العدل فلا يعطونه). نقله عن ابن كثير في البداية والنهاية ٢٧٩/٩ وقال: وهذا إسناد حسن. وفي حديث الفتن عند نعيم بن حماد (١٣٧٩) (حتى تخوض الخيل في الدم إلى ثننها).

(٣) التحرير والتنوير ٥٠٢/٣٠.

(٤) أخرجه البخاري كتاب الجهاد باب الخيل معقود في نواصيها الخير إلى يوم القيامة (٢٨٥٠)، ومسلم كتاب الإمارة باب فضيلة الخيل وأن الخير معقود بنواصيها (١٨٧٢).

(٥) أخرجه البخاري كتاب الجهاد باب الخيل معقود في نواصيها الخير إلى يوم القيامة(٢٨٥١).

وقال صلى الله عليه وسلم: (من احتبس فرساً في سبيل الله إيماناً بالله وتصديقاً بوعده فإن شِبعَه وريّه وروثه وبوله في ميزانه يوم القيامة) [1]. وفي رواية: قالوا: بم ذاك يا رسول الله؟ قال: (الأجر والمغنم)[2] "قال الطيبي: يحتمل أن يكون الخير الذي فسر بالأجر والمغنم استعارة لظهوره وملازمته.

وخص الناصية: لرفعة قدرها وإشارة إلى أن الفضل في الإقدام بها على العدو، دون المؤخرة لما فيه من الإشارة إلى الأدبار.

وقال الخطابي: وفيه إشارة إلى أن المال الذي يكتسب باتخاذ الخيل من خير وجوه الأموال وأطيبها والعرب تسمي المال خيراً، وقال ابن عبدالبر: فيه إشارة إلى تفضيل الخيل على غيرها من الدواب، لأنه لم يأت عنه صلى الله عليه وسلم في شيء غيرها مثل هذا القول، فعن أنس بن مالك: لم يكن شيء أحب إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم من الخيل"[3] .

"والخيل المراد بها ما يتخذ للغزو: بأن يقاتل عليه، أو يرتبط لأجل ذلك، لقوله صلى الله عليه وسلم: (الخيل لثلاثة: لرجل أجر، ولرجل ستر، وعلى رجل وزر، فأما الذي له أجر: فرجل ربطها في سبيل الله، فأطال في مرج أو روضة[4]، فما أصابت في طيلها[5] ذلك من المرج أو الروضة كانت له حسنات، ولو أنها قطعت طيلها فاستنت شرفا أو شرفين كانت أرواثها وآثارها حسنات له، ولو أنها مرت بنهر فشربت منه ولم يرد أن يسقيها كان ذلك حسنات له. ورجل ربطها فخراً ورئاء ونواء[6] لأهل الإسلام فهي وزر على ذلك)[7].

"واعترض بعضهم بأن المباح لم يذكر في الحديث لأن القسم الثاني الذي يتخيل فيه ذلك جاء مقيدا بقوله (ولم ينس حق الله فيها) فيلتحق بالمندوب قال: والسر فيه: أنه صلى الله عليه وسلم غالباً إنما يعتني بذكر ما فيه حض أو منع، وأما المباح الصرف فيسكت عنه، لما عرف أن سكوته عنه عفو. ويمكن أن يقال: القسم الثاني هو في الأصل المباح إلا أنه ربما ارتقى إلى الندب بالقصد بخلاف القسم الأول فإنه من ابتدائه مطلوب"[8].

---

(١) أخرجه البخاري كتاب الجهاد باب من احتبس فرساً في سبيل الله(٢٨٥١).

(٢) أخرجه مسلم كتاب الإمارة باب فضيلة الخيل وأن الخير معقود بنواصيها (١٨٧٣).

(٣) فتح الباري ٦/٧٣.

(٤) المرج موضع الكلأ وأكثر ما يطلق على الموضع المطمئن والروضة أكثر ما يطلق في الموضع المرتفع .

(٥) طيلها: هو الحبل الذي تربط به ويطول لها لترعى.

(٦) نواء: ناوأت العدو مناوأة ونواء وأصله من ناء إذا نهض ويستعمل في المعاداة.

(٧) أخرجه البخاري كتاب الجهاد باب الخيل لثلاث (٢٨٦٠).

(٨) فتح الباري ٦/٧٥.

المطلب الثاني

وقفات مع المقسم عليه

﴿ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لِرَبِّهِۦ لَكَنُودٌ ﴿٦﴾ وَإِنَّهُۥ عَلَىٰ ذَٰلِكَ لَشَهِيدٌ ﴿٧﴾ وَإِنَّهُۥ لِحُبِّ ٱلْخَيْرِ لَشَدِيدٌ ﴿٨﴾ ﴾

المحور الأول

الصفات الإنسانية في السورة

إن من خصائص المنهج الرباني تطهير النفس البشرية مما تحمله من صفات سيئة وتحويلها إلى صفات حميدة أو التقليل من آثار تلك الصفات السيئة ، وقد تحدث القرآن الكريم كثيراً عن ذلك وأشار إلى الطريق الذي يمكن به تطهير النفس والرقي بها[1].

وفي هذه السورة صفتان من صفات النفس الإنسانية أقسم الله تعالى عليها، وهاتان الصفتان لا تستقيمان إلا بالإيمان والمراقبة لله ومعرفة حقيقة هذه الدنيا حق المعرفة، والصفتان هما :

الصفة الأولى: ﴿ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لِرَبِّهِۦ لَكَنُودٌ ﴿٦﴾ وَإِنَّهُۥ عَلَىٰ ذَٰلِكَ لَشَهِيدٌ ﴿٧﴾ ﴾ :

﴿ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لِرَبِّهِۦ لَكَنُودٌ ﴾ **الكنود** هو الجحود الكفور لنعم ربه، العاصي بِلُغَةِ كِنْدَة، الذي يَعُدُّ المصائب وينسى النعم[2]، والذي تنسيه سيئة واحدة حسنات كثيرة، ويعامل الله على عقد عوض[3]،قال تعالى: ﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَعْبُدُ ٱللَّهَ عَلَىٰ حَرْفٍ ۖ فَإِنْ أَصَابَهُۥ خَيْرٌ ٱطْمَأَنَّ بِهِۦ ۖ وَإِنْ أَصَابَتْهُ فِتْنَةٌ ٱنقَلَبَ عَلَىٰ وَجْهِهِۦ خَسِرَ ٱلدُّنْيَا وَٱلْآخِرَةَ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْخُسْرَانُ ٱلْمُبِينُ ﴿١١﴾ ﴾ [الحج: ١١] وقال: ﴿ فَأَمَّا ٱلْإِنسَٰنُ إِذَا مَا ٱبْتَلَىٰهُ رَبُّهُۥ فَأَكْرَمَهُۥ وَنَعَّمَهُۥ فَيَقُولُ رَبِّىٓ أَكْرَمَنِ ﴿١٥﴾ وَأَمَّآ إِذَا مَا ٱبْتَلَىٰهُ فَقَدَرَ عَلَيْهِ رِزْقَهُۥ فَيَقُولُ رَبِّىٓ أَهَٰنَنِ ﴿١٦﴾ ﴾ [الفجر: ١٥ – ١٦].

"والتعريف في ﴿ ٱلْإِنسَٰنَ ﴾ للجنس ، يفيد الاستغراق غالباً، أي أن في طبع الإنسان الكُنُود لربه، أي: كفرانَ نعمته. وهذا عارض يعرض لكل إنسان على تفاوتٍ فيه ولا يسلم منه إلا الأنبياء عليهم الصلاة والسلام وكُمَّل أهل الصلاح؛ لأنه عارض ينشأ عن إيثار المرء نفسه، وهو أمرٌ في الجبلة لا تدفعه إلا المراقبة النفسية وتذكّرُ حق غيره"[4]، وذلك يتحصل بالإيمان باليوم الآخر كما في هذه السورة وغيرها.

---

(١) تفسير قصار السور للهميلي ١٦.

(٢) تفسير القرآن العظيم ٨/٤٦٧.

(٣) المحرر الوجيز١٥/٤٥٩.

(٤) التحرير والتنوير٣٠/٥٠٣.

"والإنسان يحس بذلك من نفسه في خطراته، ويتوانى أو يغفل عن مقاومته لأنه يشتغل بإرضاء داعية نفسه وبذلك قد يذهل أو ينسَى حق الله، والأنفس متفاوتة في تمكن هذا الخُلق منها، والعزائم متفاوتة في استطاعة مغالبته"[1].

أما قوله: ﴿ وَإِنَّهُۥ عَلَىٰ ذَٰلِكَ لَشَهِيدٌ ﴿٧﴾ ﴾

فيحتمل أن يكون الضمير يعود على الله، أي: "إن الله على ذلك من أمره لشاهد"[2].

ويحتمل أن يكون عائد على الإنسان، أي: "وإن الإنسان على كونه كنوداً لشهيد، أي: بلسان حاله، أي ظاهر ذلك عليه في أقواله وأفعاله"[3].

وعلى هذا الأخير يتمثل كنوده وجحوده في مظاهر شتى تبدو منه أفعالاً وأقوالاً، فتقوم عليه مقام الشاهد الذي يقرر هذه الحقيقة. وكأنه يشهد على نفسه بها. أو لعله يشهد على نفسه يوم القيامة بالكنود والجحود.

ولا تنافي بين المعنيين فلا شك أن الله شاهد على جحوده ذلك، كما أن الإنسان يشهد على نفسه بذلك في الدنيا وفي الآخرة، وأشد من ذلك شهود أعضائه عليه قال تعالى: ﴿ يَوْمَ تَشْهَدُ عَلَيْهِمْ أَلْسِنَتُهُمْ وَأَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُم بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٢٤﴾ ﴾ [النور: ٢٤]، وكذلك الأرض ﴿ يَوْمَئِذٍ تُحَدِّثُ أَخْبَارَهَا ﴿٤﴾ بِأَنَّ رَبَّكَ أَوْحَىٰ لَهَا ﴿٥﴾ ﴾ [الزلزلة: ٤ – ٥]، والملائكة وغيرهم من مخلوقات الله، والله المستعان.

الصفة الثانية: ﴿ وَإِنَّهُۥ لِحُبِّ ٱلْخَيْرِ لَشَدِيدٌ ﴾ :

أي أن الإنسان شديد الحب للخير وفيه معانٍ:

١ –"لشديد المحبة للمال.

٢ –إنه لحريص بخيل، من محبة المال"[4].

٣ –الخير الدنيوي من مال وصحة وجاه عند الملوك ونحوه، لأن الكفار والجهال لا يعرفون غير ذلك[5].

"فهو شديد الحب لنفسه، ومن ثم يحب الخير. وهذه فطرته وهذا طبعه، ما لم يخالط الإيمان قلبه؛ فيغير من تصوراته وقيمه وموازينه واهتماماته، ويحيل كنوده وجحوده اعترافاً بفضل الله وشكراناً،كما يبدل

---

(١) المصدر السابق بتصرف.

(٢) جامع البيان ٢٤/٥٨٩.

(٣) تفسير القرآن العظيم ٨/٤٦٧.

(٤) المصدر السابق.

(٥) المحرر الوجيز ١٥/٥٥٠ .

أثرته وشحه إيثاراً ورحمة، ويريه القيم الحقيقية التي تستحق الحرص والتنافس والكد والكدح، وهي قيم أعلى من المال والسلطة والمتاع الحيواني بأعراض الحياة الدنيا..

إن الإنسان بغير إيمان حقير صغير. حقير المطامع، صغير الاهتمامات، ومهما كبرت أطماعه واشتدت طموحه وتعالت أهدافه فإنه يظل مرتكساً في حمأة الأرض، مقيداً بحدود العمر، سجيناً في سجن الذات، لا يطلقه ولا يرفعه إلا الاتصال بعالم أكبر من الأرض، وأبعد من الحياة الدنيا، وأعظم من الذات؛ إنه عالم الإيمان بالله تعالى، إيمان تتصل فيه الدنيا بالآخرة"[1] فيجمع بين التفكر بالمشاهدة والإيمان بالغيب، إيمان بالجزاء والحساب والدين، ثم إيمان بعدل الله ورحمته وحكمته في خلقه.

(١) في ظلال القرآن٦/٣٩٥٨ بتصرف .

المحور الثاني

تقويم وعلاج تلك الصفات

قال تعالى: ﴿ أَفَلَا يَعْلَمُ إِذَا بُعْثِرَ مَا فِي ٱلْقُبُورِ ۝٩ وَحُصِّلَ مَا فِي ٱلصُّدُورِ ۝١٠ إِنَّ رَبَّهُم بِهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّخَبِيرٌ ۝١١ ﴾

بعد أن عرض الله تعالى لنا مشهد الخيل الغازية، وما في هذا المشهد من قوة عن طريق القسم به، ثم بين بعض الصفات الإنسانية التي فيها هلاك الإنسان إن لم يقومها ويعدلها من نفسه، بين الله تعالى حقارة الدنيا ومصيرها وما يحدث بعدها، مزهداً فيها، ومرغباً في الآخرة، ومنبهاً على ما هو كائن بعد هذه الحال، وما يستقبله الإنسان من الأهوال: فتأتي هذه اللفتة الأخيرة في السورة لعلاج الكنود والجحود والأثرة والشح، لتحطيم قيد النفس وإطلاقها منه، وذلك بأمور:

الأمر الأول: التخويف بعرض مشهد البعث والحشر:

قال تعالى: ﴿ أَفَلَا يَعْلَمُ إِذَا بُعْثِرَ مَا فِي ٱلْقُبُورِ ﴾. فهذه الصورة تنسي حب الخير الفاني، وتؤسس لحب الخير الباقي في الدارين، وتوقظ من غفلة البطر.

"معنى: ﴿ بُعْثِرَ ﴾: انقلبَ باطنها ظاهِرَها. والبعثرة: الانقلاب، يقال: بعثر المتاع إذا قلب بعضه على بعض. فبعثرة القبور: حالة من حالات الانقلاب الأرضي والخسف خصت بالذكر من بين حالات الأرض لما فيها من الهول باستحضار حالة الأرض وقد ألقت على ظاهرها ما كان في باطن المقابر من جثث كاملة ورفات"(١) وهذا جزء من الصورة المشار إليها في السور السابقة- الزلزلة- كما في قوله تعالى: ﴿ وَأَخْرَجَتِ ٱلْأَرْضُ أَثْقَالَهَا ۝٢ ﴾ [الزلزلة: ٢] وقال تعالى: ﴿ يَوْمَ تَشَقَّقُ ٱلْأَرْضُ عَنْهُمْ سِرَاعًا ۚ ذَٰلِكَ حَشْرٌ عَلَيْنَا يَسِيرٌ ۝٤٤ ﴾ [ق: ٤٤].

فالله سبحانه وتعالى إذا شاء إعادة العباد وإحياءهم أمر إسرافيل فنفخ في الصور فتعود الأرواح إلى الأجساد ويقوم الناس لرب العالمين قال تعالى: ﴿ وَنُفِخَ فِي ٱلصُّورِ فَصَعِقَ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِي ٱلْأَرْضِ إِلَّا مَن شَآءَ ٱللَّهُ ۖ ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَىٰ فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنظُرُونَ ۝٦٨ ﴾ [الزمر: ٦٨].

وقال تعالى : ﴿ وَنُفِخَ فِي ٱلصُّورِ فَإِذَا هُم مِّنَ ٱلْأَجْدَاثِ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يَنسِلُونَ ۝٥١ قَالُوا۟ يَٰوَيْلَنَا مَنۢ بَعَثَنَا مِن مَّرْقَدِنَا ۜ ۗ هَٰذَا مَا وَعَدَ ٱلرَّحْمَٰنُ وَصَدَقَ ٱلْمُرْسَلُونَ ۝٥٢ إِن كَانَتْ إِلَّا صَيْحَةً وَٰحِدَةً فَإِذَا هُمْ جَمِيعٌ لَّدَيْنَا مُحْضَرُونَ ۝٥٣ ﴾ [يس: ٥١ – ٥٣].

---

(١) التحرير والتنوير ٣٠/١٧٢.

وأول من يبعث وتنشق عنه الأرض يوم القيامة هو نبينا محمد صلى الله عليه وسلم، فعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه: (أنا سيد ولد آدم يوم القيامة، وأول من ينشق عنه القبر..) الحديث [1].

والخلق كلهم سيحشرون إلى الله يوم القيامة [2] كما قال تعالى: ﴿ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لِّمَنْ خَافَ عَذَابَ ٱلْآخِرَةِۚ ذَٰلِكَ يَوْمٌ مَّجْمُوعٌ لَّهُ ٱلنَّاسُ وَذَٰلِكَ يَوْمٌ مَّشْهُودٌ ﴿١٠٣﴾ ﴾ [هود: ١٠٣]. وقال تعالى: ﴿ وَحَشَرْنَٰهُمْ فَلَمْ نُغَادِرْ مِنْهُمْ أَحَدًا ﴿٤٧﴾ ﴾ [الكهف: ٤٧].

ويحشر العباد في هذا اليوم حفاة عراة غرلاً – أي ليسو مختونين- فعن ابن عباس رضي الله عنهما أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: (إنكم محشورون حفاة عراة غرلاً) ثم قرأ: ﴿كَمَا بَدَأْنَآ أَوَّلَ خَلْقٍ نُّعِيدُهُۥۚ وَعْدًا عَلَيْنَآۚ إِنَّا كُنَّا فَٰعِلِينَ ﴿١٠٤﴾ ﴾ [الأنبياء: ١٠٤][3]. وعن عائشة أم المؤمنين رضي الله عنها قالت: سمعت رسول الله صلى الله عليه و سلم يقول: (يحشر الناس يوم القيامة حفاة عراة غرلا) قلت: يا رسول الله النساء والرجال جميعاً ينظر بعضهم إلى بعض؟!! قال صلى الله عليه و سلم: (يا عائشة الأمر أشد من أن ينظر بعضهم إلى بعض)[4].

ويبعث كل عبد على ما مات عليه، فعن ابن عباس رضى الله عنهما قال بينما رجل واقف بعرفة إذ وقع عن راحلته فوقصته -أو قال فأوقصته- فقال النبي صلى الله عليه وسلم: (اغسلوه بماء وسدر، وكفنوه في ثوبين، ولا تحنطوه ولا تخمروا رأسه، **فإنه يبعث يوم القيامة ملبيا**)[5]. ومن هنا استحب تلقين الميت لا إله إلا الله لكي يموت على التوحيد ثم يبعث يوم القيامة وهو ينطق بها[6].

الأمر الثاني: الوعيد بإظهار ما كان في صدورهم:

قال تعالى: ﴿ وَحُصِّلَ مَا فِي ٱلصُّدُورِ ﴾ أي: "ظهر وبان ما فيها، وما استتر في الصدور من كمائن الخير والشر؛ فصار السر علانية، والباطن ظاهراً، وبان على وجوه الخلق نتيجة أعمالهم"[7].

---

(١) أخرجه مسلم كتاب الفضائل باب فضل نسب النبي صلى الله عليه وسلم (٢٢٧٨).

(٢) بين شيخ الإسلام أنه حتى البهائم جميعها يحشرها الله عز وجل كما قال تعالى: ﴿ وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِي ٱلْأَرْضِ وَلَا طَٰٓئِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلَّآ أُمَمٌ أَمْثَالُكُمۚ مَّا فَرَّطْنَا فِي ٱلْكِتَٰبِ مِن شَيْءٍۚ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يُحْشَرُونَ ﴿٣٨﴾ ﴾ [الأنعام: ٣٨]انظر مجموع الفتاوى ٤/٢٤٨.

(٣) أخرجه البخاري كتاب أحاديث الأنبياء باب قوله تعالى: ﴿ وَٱتَّخَذَ ٱللَّهُ إِبْرَٰهِيمَ خَلِيلًا ﴾ [النساء: ١٢٥](٣٣٤٩)، ومسلم باب فناء الدنيا وبيان الحشر يوم القيامة (٢٨٦٠)

(٤) أخرجه مسلم باب فناء الدنيا وبيان الحشر يوم القيامة (٢٨٥٩) .

(٥) أخرجه البخاري كتاب الجنائز باب الكفن في ثوبين (١٢٦٥)، ومسلم باب ما يفعل بالمحرم إذا مات (١٢٠٦).

(٦) القيامة الكبرى للأشقر ٢٥١.

(٧) تيسير الكريم الرحمن ٩٣٣.

قال الألوسي: "أي: جُمع ما في القلوب من العزائم المصممة وأُظْهِر كإظهار اللب من القشر، وجمعه، أو ميز خيره من شره. فقد استعمل: حُصِّلَ الشيء بمعنى: ميزه من غيره. وأصل التحصيل: إخراج اللب من القشر، كإخراج الذهب من حجر المعدن، والبُرِّ من التبن. وتخصيص ما في القلوب: لأنه الأصل لأعمال الجوارح ولذا كانت الأعمال بالنيات، وكان أول الفكر آخر العمل، فجميع ما عمل تابع له، فيدل على الجميع صريحاً وكناية"[1].

قال الرازي: "اعلم أن الصدر يجيء والمراد منه القلب: ..كما في قوله: ﴿ يَعْلَمُ خَآئِنَةَ ٱلْأَعْيُنِ وَمَا تُخْفِى ٱلصُّدُورُ ﴿١٩﴾ ﴾ [غافر : ١٩]"[2] فالقلب يحتوي الكثير من العبادات كالحب والبغض، والإيمان والنفاق، والرضا والسخط، والإخلاص والرياء، حتى ولو ظهر على الجوارح خلاف ما في القلب، فإن هذا يظهر يوم القيامة.

يقول الشيخ ابن عثيمين: " ﴿ وَحُصِّلَ مَا فِى ٱلصُّدُورِ ﴾ أي: ما في القلوب من النيات، وأعمال القلب: كالتوكل، والرغبة، والرهبة، والخوف، والرجاء وما أشبه ذلك. وهنا جعل الله عز وجل **العمدة ما في الصدور** كما قال تعالى: ﴿يَوْمَ تُبْلَى ٱلسَّرَآئِرُ ﴿٩﴾ فَمَا لَهُۥ مِن قُوَّةٍ وَلَا نَاصِرٍ ﴿١٠﴾ ﴾ [الطارق: ٩-١٠]. لأنه في الدنيا يعامل الناس معاملة الظاهر؛ حتى المنافق يعامل كما يعامل المسلم حقًّا، لكن في الآخرة: العمل على ما في القلب. ولهذا يجب علينا أن نعتني بقلوبنا قبل كل شيء - قبل الأعمال؛ لأن القلب هو الذي عليه المدار، وهو الذي سيكون الجزاء عليه يوم القيامة"[3].

والذي يوضح هذا ما ورد عن النبي صلى الله عليه وسلم: (أول الناس يقضى لهم يوم القيامة ثلاثة: رجل استشهد؛ فأُتِي به فعرفه نعِمه فعرفها؛ قال فما عملت فيها؟ قال: قاتلت فيك حتى استشهدت قال: كذبت!! ولكنك قاتلت ليقال فلان جريء، فقد قيل. ثم أمر به فسحب على وجهه حتى ألقي في النار، ورجل تعلم العلم وعلمه وقرأ القرآن؛ فأتي به فعرفه نعمه فعرفها، قال: فما عملت فيها؟ قال: تعلمت العلم وعلمته، وقرأت فيك القرآن. قال: كذبت!! ولكنك تعلمت العلم ليقال عالم، وقرأت القرآن ليقال قارئ، فقد قيل. ثم أمر به فسحب على وجهه حتى ألقي في النار. ورجل وسع الله عليه وأعطاه من أصناف المال كله؛ فأتي به فعرفه نعمه فعرفها، فقال: ما عملت فيها؟ قال: ما تركت من سبيل تحب أن ينفق فيها إلا أنفقت فيها لك، قال: كذبت!! ولكن ليقال إنه جواد فقد قيل. ثم أمر به فسحب على وجهه فألقي في النار)[4].

---

(١) روح المعاني ٢٣/١٠٠.

(٢) تفسير الرازي ٣٩٧/١٠.

(٣) تفسير جزء لنبأ لابن عثيمين ص٢٩٤.

(٤) أخرجه النسائي في سننه كتاب الجهاد باب من قاتل لتكون كلمة الله هي العليا (٣١٣٧)، والترمذي (٢٣٨٢)، وأحمد ٣٢١/٢

فهذه الأمور التي كشفها الله تعالى وأظهرها يوم القيامة لم تكن معلومة عند الناس في الدنيا، ولكن الله تعالى يعلمها ويكشفها يوم القيامة.

يقول الشيخ ابن عثيمين عند تقسيم الشرك الخفي والجلي: " والخفي: ما كان في القلب، مثل: الرياء، لأنه لا يبين ،إذ لا يعلم ما في القلوب إلا الله، ويسمى أيضاً: (شرك السرائر) وهذا هو الذي بينه الله بقوله: ﴿يَوْمَ تُبْلَى ٱلسَّرَآئِرُ﴾ [الطارق: ٩] **لأن الحساب يوم القيامة على السرائر،** قال تعالى: ﴿أَفَلَا يَعْلَمُ إِذَا بُعْثِرَ مَا فِى ٱلْقُبُورِ ﴿٩﴾ وَحُصِّلَ مَا فِى ٱلصُّدُورِ ﴿١٠﴾ إِنَّ رَبَّهُم بِهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّخَبِيرٌ ﴿١١﴾﴾، وفي الحديث الصحيح فيمن كان يأمر بالمعروف ولا يفعله وينهى عن المنكر ويفعله : أنه (يلقى في النار حتى تندلق أقتاب بطنه، فيدور عليها كما يدور الحمار برحاه، فيجتمع عليه أهل النار فيسألونه، فيخبرهم أنه كان يأمر بالمعروف ولا يفعله، وينهى عن المنكر ويفعله)[١]"[٢].

"**ومناسبة الآيتين** بعضهما لبعض أن بعثرة ما في القبور إخراج للأجساد من بواطن الأرض. وتحصيل ما في الصدور إخراج لما في الصدور. مما تكنه الصدور. فالبعثرة بعثرة ما في القبور عما تكنه الأرض، وهنا عما يكنه الصدر، والتناسب بينهما ظاهر"[٣].

تنبيه:

وليس المقصود من الآية أن الناس يحاسبون على الخواطر والهواجس وما يدور في الذهن والنفس من إرادة المعصية لقول النبي صلى الله عليه وسلم: (إن الله تجاوز عن أمتي ما حدثت بها أنفسها ما لم تتكلم أو تعمل)[٤]، فإذا تكلمت أو عملت حصل لها الوعيد.

ومن فضل الله على العباد أن كتب لهم أجر العمل الصالح إذا همت به النفس و لم تعمله ف عن ابن عباس رضي الله عنهما عن النبي صلى الله عليه وسلم فيما يروى عن ربه عز وجل قال: (إن الله كتب الحسنات والسيئات، ثم بين ذلك فمن هم بحسنة فلم يعملها كتبها الله له عنده حسنة كاملة، فإن هو هم بها فعملها كتبها الله له عنده عشر حسنات إلى سبعمائة ضعف إلى أضعاف كثيرة، ومن هم بسيئة فلم يعملها كتبها الله له عنده حسنة كاملة، فإن هو هم بها فعملها كتبها الله له سيئة واحدة)[٥].

(٨٢٦٠)، ومسلم كتاب الإجارة باب من قاتل للرياء والسمعة (١٩٠٥)، وصححه الألباني، صحيح سنن النسائي (٣١٣٧).

(١) أخرجه البخاري كتاب بدء الخلق باب صفة النار(٣٢٦٧)، ومسلم كتاب الزهد باب عقوبة من يأمر بمعروف ولا يفعله (٢٩٨٩).

(٢) مجموع فتاوى ورسائل ابن عثيمين ٩٤/١٠ عند شرح كتاب التوحيد.

(٣) تفسير جزء النبأ لابن عثيمين ٢٩٤.

(٤) أخرجه البخاري كتاب الطلاق باب الطلاق في الإغلاق والكره والسكران والمجنون .. (٥٢٦٩).

(٥) أخرجه البخاري كتاب الرقائق باب من همّ بحسنة أو سيئة (٦٤٩١)، ومسلم باب إذا هم العبد بحسنة كتبت وإذا هم بسيئة لم تكتب (٢٠٦).

الأمر الثالث: بيان الجزاء والحساب بالإشارة إلى علم الله تعالى وخبرته بهم:

قال تعالى: ﴿ إِنَّ رَبَّهُم بِهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّخَبِيرٌ ﴾ أي: "إن ربهم بأعمالهم، وما أسروا في صدورهم وأضمروه فيه، وما أعلنوه بجوارحهم منها، عليم لا يخفى عليه منها شيء، وهو مجازيهم على جميع ذلك يومئذ" [1].

"فالمرجع إلى ربهم. وإنه لخبير بهم ﴿ يَوْمَئِذٍ ﴾ وبأحوالهم وأسرارهم.. والله خبير بهم في كل وقت وفي كل حال، ولكن لهذه الخبرة ﴿ يَوْمَئِذٍ ﴾ هي التي تثير الآية انتباههم لها في هذا المقام .. إنها خبرة وراءها عاقبة. خبرة وراءها حساب وجزاء"[2].

وهنا أمور يجدر التنبيه إليها:

أولاً: معنى ﴿لَّخَبِيرٌ﴾ وعلاقته بـــ﴿ لَشَهِيدٌ ﴾:

الخبير: "يرجع إلى العلم بالأمور الخفية التي هي في غاية اللطف والصغر، وفي غاية الخفاء" [3]، "فهو العليم بسرائر عباده وضمائر قلوبهم"[4].

فعندما بين الله تعالى أنه يوم القيامة يُظْهِر ما في القلوب مما كان مستوراً عن أعين الناس في قوله: ﴿ وَحُصِّلَ مَا فِي الصُّدُورِ ﴾، بين الله تعالى أنه خبير بهذا المستور فقال: ﴿ إِنَّ رَبَّهُم بِهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّخَبِيرٌ ﴾

أما الشهيد فهو: "المطلع على جميع الأشياء، الذي أحاط علمه بالظواهر والبواطن، والخفيات والجليات، والمستقبلات، وسمع جميع الأصوات خفيها والجليات، وأبصر جميع الموجودات دقيقها وجليلها، وصغيرها وكبيرها، وأحاطه علمه بجميع الموجودات"[5].

"فإذا اعتبر العلم مطلقاً فهو العليم، وإذا أضيف إلى الغيب والأمور الباطنة فهو الخبير، وإذا أضيف إلى الأمور الظاهرة فهو الشهيد"[6].

ولذلك عندما ذكر الله تعالى: جحود الإنسان في قوله: ﴿ إِنَّ الْإِنسَانَ لِرَبِّهِ لَكَنُودٌ ﴾ وهذا الجحود أمر يظهر عليه في كلامه وتصرفاته وحاله قال: ﴿ وَإِنَّهُ عَلَىٰ ذَٰلِكَ لَشَهِيدٌ ﴿٧﴾ ﴾.

(١) جامع البيان ٢٤/٥٩١.
(٢) في ظلال القرآن ٦/٣٩٥٩ بتصرف.
(٣) فتح الرحيم الملك العلام ٣٤.
(٤) المنهج الأسمى في شرح أسماء الله الحسنى ١/٤٤١.
(٥) فتح الرحيم الملك العلام ٢٩.
(٦) المنهج الأسمى في شرح أسماء الله الحسنى ١/٤٤١

ثانياً: اسم الله الخبير وأثره التربوي في تزكية النفوس المؤمنة:

"الله تعالى العليم بكل شيء، الذي لا يخفى عليه شيء في الأرض ولا في السماء، ولا يعزب عن علمه شيء، أحاط علمه بالواجبات والمستحيلات والجائزات، وبالماضيات والحاضرات والمستقبلات قال تعالى: ﴿وَعِندَهُۥ مَفَاتِحُ ٱلْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَآ إِلَّا هُوَ ۚ وَيَعْلَمُ مَا فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ ۚ وَمَا تَسْقُطُ مِن وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٍ فِى ظُلُمَٰتِ ٱلْأَرْضِ وَلَا رَطْبٍ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ مُّبِينٍ ﴿٥٩﴾﴾ [الأنعام: ٥٩].

فهو سبحانه ﴿يَعْلَمُ ٱلسِّرَّ وَأَخْفَى﴾ [طه: ٧]. ويعلم ما أكنته الصدور وما توسوس به النفوس، وما فوق السماوات العلى، وما تحت الثرى، الخبير الذي أدرك علمه السرائر، واطلع على مكنون الضمائر، وعلم خفيات البذور، ولطائف الأمور، ودقائق الذرات في ظلمات الدجور.

وكثيراً ما يأتي ذكر العليم والخبير في سياق الأعمال وجزائها؛ ليوقظ القلوب، وينبهها على: إكمالها وإحسانها وإتقانها وإخلاصها، وليرغبهم ويرهبهم"(١).

"فالله تعالى خبير عليم بأعمال عباده وأقولهم، وما يجول في صدورهم من خير أو شر قال تعالى: ﴿وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ بِذُنُوبِ عِبَادِهِۦ خَبِيرًۢا بَصِيرًا ﴿١٧﴾﴾ [الإسراء: ١٧]. وقال تعالى: ﴿أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلْخَبِيرُ ﴿١٤﴾﴾ [الملك: ١٤]. ولذلك أمرنا سبحانه وتعالى: أن نتقيه ونعمل بما يحب، وأن نبتعد عن كل ما يسخطه ويغضبه؛ فقال تعالى محرضاً على التقوى والإحسان: ﴿وَإِن تُحْسِنُوا۟ وَتَتَّقُوا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا ﴿١٢٨﴾﴾ [النساء: ١٢٨]"(٢) فهذا حث على التقوى التي في القلب، والإحسان الذي هو أعلى مراتب الدين، الذي يصل فيه القلب إلى درجة عالية جداً من الإيمان، والذي يعلم وصول العبد إلى درجة التقوى والإحسان هو الله تعالى.

---

(١) فتح الرحيم الملك العلام ٣٣-٣٤ بتصرف يسير.

(٢) المنهج الأسمى في شرح أسماء الله الحسنى ١/٢٧٠-٢٧١.

المطلب الثالث

وقفات إيمانية مع السورة

في هذه السورة ذكر الله تعالى فيها أموراً غيبية، وعرض الله هذه الأمور بأسوب وعظي عظيم، فما أثر الإيمان بالغيب والآخرة على السلوك الإنساني؟ وما دور ذلك الأسلوب الوعظي التربوي في القرآن في تزكية النفوس وبناء الأمم؟

أولاً: أثر الإيمان بالغيب عموماً وبالآخرة خصوصاً في تهذيب النفس المسلمة:

قال الله تعالى عن صفات المتقين: ﴿ الٓمٓ ﴿١﴾ ذَٰلِكَ ٱلۡكِتَٰبُ لَا رَيۡبَۛ فِيهِۛ هُدٗى لِّلۡمُتَّقِينَ ﴿٢﴾ ٱلَّذِينَ يُؤۡمِنُونَ بِٱلۡغَيۡبِ وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَمِمَّا رَزَقۡنَٰهُمۡ يُنفِقُونَ ﴿٣﴾ وَٱلَّذِينَ يُؤۡمِنُونَ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيۡكَ وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبۡلِكَ وَبِٱلۡأٓخِرَةِ هُمۡ يُوقِنُونَ ﴿٤﴾ أُوْلَٰٓئِكَ عَلَىٰ هُدٗى مِّن رَّبِّهِمۡۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُفۡلِحُونَ ﴿٥﴾ ﴾[البقرة: ١ – ٥].

نعم ﴿ ٱلَّذِينَ يُؤۡمِنُونَ بِٱلۡغَيۡبِ ﴾ "إن الإيمان بالغيب لهو من الصفات التي كرم الله بها بني آدم فلم يشأ لهم أن تكون حياتهم محصورة في دائرة ما تدركه حواسهم فحسب، بل شاء لهم – فضلاً منه ومنة وكرماً– أن تكون حياتهم أوسع من ذلك وأرحب، وأن تكون في أرواحهم القدرة على الإيمان بما لا تدركه الحواس وإن كانت تستطيع أن تدرك آثاره.

ومن عجب أن يأتي من يريد أن يطمس هذا الإيمان في روح الإنسان فيعيب عليه أن يؤمن بالغيب ويقول: هذه خرافة وتخلف ورجعية. وإن الإنسان يجب أن يؤمن بالعلم لا بالغيبيات!!.

إن وضع هذه الصفة في مقدمة صفات المتقين تنبيه على أنهم لن يتقوا إذا لم يكونوا يؤمنون بالغيب وبالوحي وبالثواب والعقاب.

إن قاعدة حياة المؤمن الرئيسية هي إيمانه بالغيب، الذي يتم عن طريقه إيمانه بالله وباليوم الآخر والملائكة والكتاب والنبيين والقدر خيره وشره، ومن ثم يتقرر عن طريق إيمانه خط سلوكه كله في الحياة الدنيا.

ثم يقول تعالى: ﴿ وَبِٱلۡأٓخِرَةِ هُمۡ يُوقِنُونَ ﴾ ومن المعلوم أن الإيمان بالآخرة داخل ضمن الإيمان بالغيب، ولكن السياق يبرزه ليعطيه أهمية خاصة .. فالإيمان بالآخرة هو الذي يعين على الاستقامة في الدنيا ويحثها على العطاء والبذل"[1].

ومن هنا يعلم أن الإيمان بالغيب واليوم الآخر يحقق أموراً:

---

(١) دراسات قرآنية ٢٧٩-٢٨١ باختصار وتصرف.

١- **يحقق الإيمان بالدين كله:** وذلك "لأن الإيمان بالغيب: اعتقاد ما تخبر به الرسل عن وجود الله والعالم العلوي. فإذا آمن به المرء تهيأ لسماع دعوة الرسل، وللنظر فيما يبلغون عن الله تعالى، فسهل عليهم إدراك الأدلة"[1].

٢- **يحقق الارتفاع عن مرتبة الحيوانية التي لا تؤمن إلا بما تشاهده**[2].

٣- **يحقق التقوى:** قال الله تبارك وتعالى: ﴿ الٓمٓ ۝١ ذَٰلِكَ ٱلۡكِتَٰبُ لَا رَيۡبَۛ فِيهِۛ هُدٗى لِّلۡمُتَّقِينَ ۝٢ ٱلَّذِينَ يُؤۡمِنُونَ بِٱلۡغَيۡبِ وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَمِمَّا رَزَقۡنَٰهُمۡ يُنفِقُونَ ۝٣ وَٱلَّذِينَ يُؤۡمِنُونَ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيۡكَ وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبۡلِكَ وَبِٱلۡأٓخِرَةِ هُمۡ يُوقِنُونَ ۝٤ أُوْلَٰٓئِكَ عَلَىٰ هُدٗى مِّن رَّبِّهِمۡۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُفۡلِحُونَ ۝٥ ﴾ [البقرة ١-٥].

٤- **الإيمان بالغيب يحقق الهداية والفلاح والفوز:** قال تعالى عن عباده المؤمنين بالغيب: ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ عَلَىٰ هُدٗى مِّن رَّبِّهِمۡۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُفۡلِحُونَ ﴾.

وقال تعالى: ﴿ الٓمٓ ۝١ تِلۡكَ ءَايَٰتُ ٱلۡكِتَٰبِ ٱلۡحَكِيمِ ۝٢ هُدٗى وَرَحۡمَةٗ لِّلۡمُحۡسِنِينَ ۝٣ ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤۡتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَهُم بِٱلۡأٓخِرَةِ هُمۡ يُوقِنُونَ ۝٤ أُوْلَٰٓئِكَ عَلَىٰ هُدٗى مِّن رَّبِّهِمۡۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُفۡلِحُونَ ۝٥ ﴾ [لقمان: ١-٥].

ثانياً: الوعظ أسلوب تربوي مهم في تهذيب النفس المسلمة:

الموعظة: كلام مصحوب بزجر. وقيل: النصح والتذكير بالعواقب. وقيل: الأمر والنهي المقرون بالترغيب والترهيب[3].

وقد أمر الله تعالى نبيه صلى الله عليه وسلم بالعظة، فقال تعالى : ﴿ فَأَعۡرِضۡ عَنۡهُمۡ وَعِظۡهُمۡ وَقُل لَّهُمۡ فِيٓ أَنفُسِهِمۡ قَوۡلَۢا بَلِيغٗا ۝٦٣ ﴾ [النساء: ٦٣]. وقال تعالى: ﴿ ٱدۡعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلۡحِكۡمَةِ وَٱلۡمَوۡعِظَةِ ٱلۡحَسَنَةِۖ ﴾ [النحل: ١٢٥].

فإذا كان عند بعض المدعوين شيء من الجفاء والإعراض والصدود، مع معرفته بالحق وعلمه به ، فهذا يدعى بالموعظة الحسنة.

---

(١) التحرير والتنوير ١/٢٣٠بتصرف .

(٢) في ظلال القرآن ١/٣٣ بتصرف .

(٣) لسان العرب ١٥/٣٤٥.

وهذا مسلك الأنبياء، يقول تعالى عن نبيه هود عليه الصلاة والسلام وقومه يردون عليه موعظته: ﴿ قَالُوٓاْ سَوَآءٌ عَلَيۡنَآ أَوَعَظۡتَ أَمۡ لَمۡ تَكُن مِّنَ ٱلۡوَٰعِظِينَ ١٣٦ ﴾ [الشعراء: ١٣٦].

والقرآن أغلبه عظة؛ ففيه: الترغيب والترهيب، وذكر الجنة والنار، وقصص الأولين وما حصل عليهم من المثلات، والتوعد للظالمين بأن لهم أمثالها.

وأساليب الوعظ كثيرة، ومن أفضلها وأعمقها أثراً: الوعظ بالتذكير بالآخرة، والجنة والنار، والقيامة، والبعث والنشور، والقبر. وكذلك التذكير بنعم الله تعالى.

فالواجب على المربين:

أ- أن يلتزموا ذلك المنهج القرآني النبوي في تذكير الناس بالله تعالى، وتهذيب نفوسهم.

ب- وأن يجمعوا بين الخطاب العلمي والخطاب الوعظي، ولا يجعلوا الخطاب العلمي معلومات جافة من غير وعظ وتذكير.

ج- وأن تصطبغ دروس العلم وحلقات التربية بما يزيد الإيمان، ويرقق القلوب، ويزيد طلبة العلم -الذين هم دعاة المستقبل- بل والناس جميعاً؛ قرباً من الله تعالى.

تفسير سورة القارعة

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿ الْقَارِعَةُ (١) مَا الْقَارِعَةُ (٢) وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْقَارِعَةُ (٣) يَوْمَ يَكُونُ النَّاسُ كَالْفَرَاشِ الْمَبْثُوثِ (٤) وَتَكُونُ الْجِبَالُ كَالْعِهْنِ الْمَنْفُوشِ (٥) فَأَمَّا مَنْ ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ (٦) فَهُوَ فِي عِيشَةٍ رَاضِيَةٍ (٧) وَأَمَّا مَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ (٨) فَأُمُّهُ هَاوِيَةٌ (٩) وَمَا أَدْرَاكَ مَا هِيَهْ (١٠) نَارٌ حَامِيَةٌ (١١) ﴾

المبحث الأول

مقدمات حول السورة

أولاً: اسمها :

اتفقت المصاحف وكتب التفسير والسنة على تسميتها بسورة (القارعة) [١]، وسميت بذلك لأنها تقرع القلوب والأسماع بهولها[٢].

ثانياً: نزولها ومناسبتها :

اتفق المفسرون على أنها مكية[٣].

أما عدد آياتها (١١) آية، وكلماتها: (٣٦) كلمة، وحروفها: (١٥٠) حرفاً[٤].

مناسبتها لما قبلها:

"ختمت سورة «العاديات» بقوله تعالى: ﴿ أَفَلَا يَعْلَمُ إِذَا بُعْثِرَ مَا فِي الْقُبُورِ (٩) وَحُصِّلَ مَا فِي الصُّدُورِ (١٠) إِنَّ رَبَّهُمْ بِهِمْ يَوْمَئِذٍ لَخَبِيرٌ (١١) ﴾. وفيها دعوة إلى الناس أن يحاسبوا أنفسهم في الدنيا ، قبل يوم الحساب والجزاء في الآخرة .. وجاءت سورة القارعة تقرع الناس بهذا اليوم ، يوم الجزاء ، وتدعوهم إلى الحساب والجزاء ، بعد أن أخذوا الفرصة الممكّنة لهم من حساب أنفسهم ، وإعدادها لهذا اليوم .."[٥].

---

(١) التحرير والتنوير٣٠/٥٠٩

(٢) إيجاز البيان في سور القرآن ٣١٠.

(٣) المحرر الوجيز ١٥/٥٥٢، ولم يذكرها السيوطي في السور المدنية ولا السور المختلف فيها، انظر الإتقان١/٢٨-٣٧.

(٤) التفسير القرآني للقرآن ٣/٨٥.

(٥) المصدر السابق.

ثالثاً: موضوعها :

"إثبات وقوع البعث وما يسبق ذلك من الأهوال والشدائد، وما يكون فيها من أحداث عظام: كخروج الناس من قبورهم، وانتشارهم كالفراش المتطاير على غير نظام من شدة حيرتهم وفزعهم، وكذلك نسف الجبال وتطايرها حتى تكون كالصوف المتطاير في الهواء، وإثبات الجزاء على الأعمال، وأن أهل الأعمال الصالحة المعتبرة عند الله في نعيم، وأهل الأعمال السيئة التي لا وزن لها عند الله في قعر الجحيم"(١).

رابعاً: المعنى الإجمالي للسورة:

يقول الله تعالى عن يوم القيامة: ﴿ ٱلْقَارِعَةُ ﴾ وهو صف الساعة التي تقرع قلوب الناس بأهوالها.

﴿ مَا ٱلْقَارِعَةُ ﴾ أيُّ شيء هذه القارعة؟﴿ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا ٱلْقَارِعَةُ ﴾ وأيُّ شيء أعلمك بها؟

﴿ يَوْمَ يَكُونُ ٱلنَّاسُ كَٱلْفَرَاشِ ٱلْمَبْثُوثِ ﴾ أي: في ذلك اليوم يكون الناس في كثرتهم وتفرقهم وحركتهم كالفراش المنتشر، وهو الذي يتساقط في النار.

﴿ وَتَكُونُ ٱلْجِبَالُ كَٱلْعِهْنِ ٱلْمَنفُوشِ ﴾ وتكون الجبال كالصوف متعدد الألوان الذي يُنْفَش باليد، فيصير هباء ويزول.

﴿ فَأَمَّا مَن ثَقُلَتْ مَوَٰزِينُهُۥ ۝٦ فَهُوَ فِى عِيشَةٍ رَّاضِيَةٍ ﴾ فأما من رجحت موازين حسناته، فهو في حياة مرضية في الجنة.﴿ وَأَمَّا مَنْ خَفَّتْ مَوَٰزِينُهُۥ ۝٨ فَأُمُّهُۥ هَاوِيَةٌ ﴾ وأما من خفت موازين حسناته، ورجحت موازين سيئاته، فمأواه جهنم.

﴿ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا هِيَهْ ﴾ وما أدراك -أيها الرسول- ما هذه الهاوية؟ إنها ﴿ نَارٌ حَامِيَةٌۢ ﴾أي: قد حَمِيت من الوقود عليها..

(١) التحرير والتنوير٣٠/٥١٠-٥١١ باختصار.

المبحث الثاني
وقفات حول السورة
المطلب الأول
وصف يوم القيامة

المحور الأول: يوم القيامة هو يوم القارعة :

﴿ٱلْقَارِعَةُ ۝١ مَا ٱلْقَارِعَةُ ۝٢ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا ٱلْقَارِعَةُ﴾

قوله تعالى : ﴿ٱلْقَارِعَةُ﴾ أي: "الساعة التي يقرع قلوب الناس هولها وعظيم ما يترل بهم من البلاء عنها وذلك صبيحة لا ليل بعدها" [1]، فالقارعة من أسماء يوم القيامة؛ كالحاقة، والطامة، والصاخة، والغاشية .. وغير ذلك.

"والقارعة: وصف؛ من القرع وهو: ضرب الجسم بآخر بشدة لها صوت. وأطلقت ﴿ٱلْقَارِعَةُ﴾ على الحدث العظيم وإن لم يكن من الأصوات كقوله تعالى: ﴿وَلَا يَزَالُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ تُصِيبُهُم بِمَا صَنَعُوا۟ قَارِعَةٌ أَوْ تَحُلُّ قَرِيبًا مِّن دَارِهِمْ حَتَّىٰ يَأْتِىَ وَعْدُ ٱللَّهِ﴾ [الرعد: ٣١].

والتقدير: القارعة قريبة أو أتت القارعة.وقوله تعالى: ﴿مَا ٱلْقَارِعَةُ﴾ : استئنافا للتهويل، و﴿مَا﴾ استفهامية، والاستفهام مستعمل في التهويل؛ لأن هول الشيء يستلزم تساؤل الناس عنه"[2].

ثم يزيد الله تعالى في تهويل النفوس معظمًا أمرها ومهولا لشأنها: ﴿وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا ٱلْقَارِعَةُ﴾ أي: "وما أشعرك يا محمد أي شيء القارعة"[3]، فهي أكبر من أن يحيط بها الإدراك وأن يلم بها التصور!

وهذا التركيب نظير قوله تعالى: ﴿ٱلْحَآقَّةُ ۝١ مَا ٱلْحَآقَّةُ ۝٢ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا ٱلْحَآقَّةُ ۝٣﴾ [الحاقة: ١-٣]، وفائدته جذب الانتباه وشد النفس للتطلع للجواب والاهتمام به مع قيام عظمته وهوله في النفس حتى كأنه بين يديها الآن.

---

(١) جامع البيان ٥٩٢/٢٤.
(٢) التحرير والتنوير٥١٠/٣٠ مختصراً .
(٣) جامع البيان ٥٩٣/٢٤.

المحور الثاني: من أهوال يوم القيامة :

ثم فسر ذلك اليوم بأن وصف بعض أهواله، فابتدأها بوصفين:

الوصف الأول: ﴿ يَوْمَ يَكُونُ ٱلنَّاسُ كَٱلْفَرَاشِ ٱلْمَبْثُوثِ ﴾

الفراش هو: طير دقيق يتساقط في النار ويقصدها، ولا يزال يقتحم على المصباح ونحوه حتى يحترق[1].

﴿ ٱلْمَبْثُوثِ ﴾: أي: المتفرق[2].

فيكون معنى الآية أن الناس "في انتشارهم وتفرقهم، وذهابهم ومجيئهم؛ من حيرتهم مما هم فيه، كأنهم فراش مبثوث"[3] قال تعالى: ﴿ خُشَّعًا أَبْصَـٰرُهُمْ يَخْرُجُونَ مِنَ ٱلْأَجْدَاثِ كَأَنَّهُمْ جَرَادٌ مُّنتَشِرٌ ﴿٧﴾ ﴾ [القمر: ٧].

"والناس أول قيامهم من القبور كالفراش المبثوث، لأنهم يجيئون ويذهبون، على غير نظام، ثم يدعون فيتجهون إلى ناحية المحشر، فهم حينئذ كالجراد المنتشر، لأن الجراد إنما تَوَجُّهُه إلى ناحية مقصودة"[4].

وجملة ﴿ يَوْمَ يَكُونُ ٱلنَّاسُ ﴾ إجابة عن السؤالين في قوله: ﴿ مَا ٱلْقَارِعَةُ ﴾ وقوله: ﴿ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا ٱلْقَارِعَةُ ﴾.

والملاحظ أن الله تعالى أجابهم عن القارعة بقوله ﴿ يَوْمَ ﴾، ووصف ذلك اليوم بأهواله، و لم يذكر متى ذلك اليوم!! وهذا زيادة للهويل . كأن الله تعالى يقول لنا: لا تنشغلوا بوقته، ولكن انشغلوا بما سيحصل فيه لكم، إن خيراً فخيرٌ، وإن شراً فشرٌ، فاعملوا قبل أن يحل بكم ذلك اليوم.يدل على ذلك قوله تعالى: ﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلسَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَىٰهَا ﴿٤٢﴾ فِيمَ أَنتَ مِن ذِكْرَىٰهَآ ﴿٤٣﴾ إِلَىٰ رَبِّكَ مُنتَهَىٰهَآ ﴿٤٤﴾ إِنَّمَآ أَنتَ مُنذِرُ مَن يَخْشَىٰهَا ﴿٤٥﴾ كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَهَا لَمْ يَلْبَثُوٓا۟ إِلَّا عَشِيَّةً أَوْ ضُحَىٰهَا ﴿٤٦﴾ ﴾[النازعات: ٤٢ – ٤٦].

الوصف الثاني: ﴿ وَتَكُونُ ٱلْجِبَالُ كَٱلْعِهْنِ ٱلْمَنفُوشِ ﴾ يعني: "قد صارت كأنها الصوف المنفوش، الذي قد شَرَع في الذهاب والتمزق"[5]. فالعهن هو : الصوف[6] .

أما وصف العهن بأنه منفوش، أي: المفرق بعض أجزائه عن بعض؛ ليغزل أو تحشى به الحشايا[7].

---

(١) المحررالوجيز١٥/٥٥٣.

(٢) جامع البيان ٢٤/٥٩٣.

(٣) تفسير القرآن العظيم ٨/٤٦٨.

(٤)المحررالوجيز١٥/٥٥٣.

(٥) تفسير القرآن العظيم ٨/٤٦٨.

(٦)جامع البيان ٢٤/٥٩٤.

(٧) التحرير والتنوير٣٠/٥١٢.

"وقد قرنت الجبال وما سيكون من حالها بينها وبين الناس؛ تنبيهاً على تأثير تلك القارعة في الجبال، حتى صارت كالصوف المندوف، فكيف يكون حال البشر في ذلك اليوم العصيب!؟"[1].

وخصت الجبال في ذلك لأنها أقوى وأرسى الأشياء التي يعايشها الإنسان على ظهر الأرض، ولذا قال تعالى في الآية الأخرى: ﴿ وَبُسَّتِ ٱلْجِبَالُ بَسًّا ۝٥ فَكَانَتْ هَبَآءً مُّنۢبَثًّا ۝٦ ﴾ [الواقعة: ٥- ٦]. وقال: ﴿ وَتَرَى ٱلْجِبَالَ تَحْسَبُهَا جَامِدَةً وَهِىَ تَمُرُّ مَرَّ ٱلسَّحَابِ ۚ صُنْعَ ٱللَّهِ ٱلَّذِىٓ أَتْقَنَ كُلَّ شَىْءٍ ۚ إِنَّهُۥ خَبِيرٌۢ بِمَا تَفْعَلُونَ ۝٨٨ ﴾ [النمل: ٨٨]. وقال: ﴿ وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْجِبَالِ فَقُلْ يَنسِفُهَا رَبِّى نَسْفًا ۝١٠٥ فَيَذَرُهَا قَاعًا صَفْصَفًا ۝١٠٦ لَّا تَرَىٰ فِيهَا عِوَجًا وَلَآ أَمْتًا ۝١٠٧ ﴾ [طه: ١٠٥-١٠٧].

"فهذا المشهد للقيامة تطير له القلوب شعاع اً، وترتجف منه الأوصال ارتجافاً، ويحس السامع كأن كل شيء يتشبث به في الأرض قد طار حوله هباءً" [2]، فلا نافع لها، ولا مدرك له، ولا منقذ، إلا الله سبحانه، حتى أقوى قَوِى الأرض جميعاً من جبال الأرض الرواسي التي تُثَبِّتُ الأرض كما قال تعالى: ﴿ وَٱلْجِبَالَ أَوْتَادًا ﴾ [النبأ: ٧] وقال: ﴿ وَٱلْجِبَالَ أَرْسَىٰهَا ﴾ [النازعات: ٣٢]، هذه الجبال تصبح لا تملك من أمرها شيئاً حتى أنها تطير في الهواء .

**لمسة بيانية:

قال في سورة القارعة: ﴿ وَتَكُونُ ٱلْجِبَالُ كَٱلْعِهْنِ ٱلْمَنفُوشِ ﴾، وقال في سورة المعارج: ﴿ وَتَكُونُ ٱلْجِبَالُ كَٱلْعِهْنِ ﴾ [المعارج: ٩]. فزاد كلمة ﴿ ٱلْمَنفُوشِ ﴾ في سورة القارعة فما سبب ذاك؟

والجواب والله أعلم : "أنه لما ذكر القارعة في أول السورة ، والقارعة من (القَرْعِ) ، وهو الضرب بالعصا، ناسب ذلك ذكر النفش؛ لأن من طرائق نفش الصوف أن يُقرعَ بالمقرعة. كما ناسب ذلك من ناحية أخرى وهي أن الجبال تهشم بالمقراع – وهو من القَرْع – وهو فأس عظيم تحطم به الحجارة ، فناسب ذلك ذكر النفش أيضاً.

فلفظ القارعة أنسب شيء لهذا التعبير. كما ناسب ذكر القارعة ذكر الفراش المبثوث في قوله : ﴿ يَوْمَ يَكُونُ ٱلنَّاسُ كَٱلْفَرَاشِ ٱلْمَبْثُوثِ ﴾ أيضاً ؛ لأنك إذا قرعت طار الفراش وانتشر. و لم يحسن ذكر (الفراش) وحده كما لم يحسن ذكر (العهن) وحده"[3].

---

(١) إيجاز البيان في سور القرآن٠ ٣١.

(٢) في ظلال القرآن ٦/٣٩٦١.

(٣) لمسات بيانية ١١٠.

المطلب الثاني

أقسام الناس يوم القارعة وجزائهم

في قوله تعالى: ﴿ يَوْمَ يَكُونُ ٱلنَّاسُ ﴾ جمع الله تعالى بين كل الخلق؛ أهل الصلاح وأهل الفساد، أهل السعادة وأهل الشقاء. ولكن أهل الصلاح في هذا اليوم لهم مميزات تميزهم عن غيرهم من جهة الجزاء، بل ومن جهة هول الموقف والإحساس به؛ فأهل الصلاح والسعادة لا يقاسون ما سيقاسيه أهل الشقاء في هذا اليوم فلهم: ظل عرش الرحمن، وحوض النبي صلى الله عليه وسلم، تيسير الحساب. إلى غير ذلك من حسن الجزاء الذي يخفف عنهم فزع ذلك اليوم وشدته.

فهذه الآيات تُفَصِّل بين الناس في الجزاء، وتبين أن الناس في هذا اليوم سيكونون على قسمين:

قال تعالى ﴿ فَأَمَّا مَن ثَقُلَتْ مَوَٰزِينُهُۥ ۝٦ فَهُوَ فِي عِيشَةٍ رَّاضِيَةٍ ۝٧ وَأَمَّا مَنْ خَفَّتْ مَوَٰزِينُهُۥ ۝٨ فَأُمُّهُۥ هَاوِيَةٌ ﴾

وهذا مثل قوله تعالى: ﴿ وَٱلْوَزْنُ يَوْمَئِذٍ ٱلْحَقُّ ۚ فَمَن ثَقُلَتْ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ۝٨ وَمَنْ خَفَّتْ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُو۟لَـٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓا۟ أَنفُسَهُم بِمَا كَانُوا۟ بِـَٔايَـٰتِنَا يَظْلِمُونَ ۝٩ ﴾[الأعراف: ٨ – ٩] وقوله : ﴿ فَمَن ثَقُلَتْ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ۝١٠٢ وَمَنْ خَفَّتْ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُو۟لَـٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ فِي جَهَنَّمَ خَـٰلِدُونَ ۝١٠٣ ﴾ [المؤمنون: ١٠٢– ١٠٣] . فهما قسمان لا ثالث لهما:

القسم الأول: من ثقلت موازينه:

قال تعالى:﴿ فَأَمَّا مَن ثَقُلَتْ مَوَٰزِينُهُۥ ۝٦ فَهُوَ فِي عِيشَةٍ رَّاضِيَةٍ ﴾ هنا عدة وقفات:

أولاً: معنى الموازين:

قال ابن عطية: "قال جمهور العلماء والفقهاء والمحدثين: ميزان القيامة بعمود وكفتين، ليبين الله تعالى أمر العباد بما عهدوه وتيقنوه، وجمعت الموازين للإنسان لما كانت له موزونات كثيرة متغايرة"(١).

قال الشيخ ابن عثيمين: " قال بعض أهل العلم: إنه واحد وإنما جمع باعتبار الموزون، لأنه يوزن فيه الحسنات والسيئات، وتوزن فيه حسنات فلان وفلان، وتوزن فيه حسنات هذه الأمة والأمة الأخرى، فهو مجموع باعتبار الموزون لا باعتبار الميزان، وإلا فالميزان واحد.

وقال بعض أهل العلم: إنها موازين متعددة، لكل أمة ميزان، ولكل عمل ميزان فلهذا جمعت.

والأظهر ــ والله أعلم ــ أنه ميزان واحد، لكنه جمع باعتبار الموزون على حسب الأعمال، أو على حسب الأمم، أو على حسب الأفراد"(١).

---

(١) المحرر الوجيز ١٥/٥٥٥.

ثانياً:ما الذي يوزن في الميزان:

للعلماء في ذلك أقوال:

١- الأعمال نفسها توزن وأنها تجسم :

يقول الشيخ ابن عثيمين: "الأعمال تقلب أعياناً فيكون لها جسم يوضع في الكفة فيرجح أو يخف، وقد ضرب العلماء لذلك مثلاً بما صح به الحديث عن النبي صلى الله عليه وسلم: (يؤتى بالموت كهيئة كبش أملح فينادى مناد: يا أهل الجنة. فيشرئبون وينظرون فيقول هل تعرفون هذا فيقولون نعم هذا الموت ، وكلهم قد رآه ، ثم ينادى يا أهل النار ، فيشرئبون وينظرون، فيقول: هل تعرفون هذا؟ فيقولون: نعم. هذا الموت. وكلهم قد رآه. فيذبح، ثم يقول: يا أهل الجنة؛ خلود فلا موت. ويا أهل النار؛ خلود فلا موت)[٢]. ونحن نعلم جميعاً أن الموت صفة ولكن الله -تعالى -يجعله عيناً قائماً بنفسه وهكذا الأعمال تجعل أعياناً فتوزن والله أعلم"[٣].

وقد دلت نصوص كثيرة أن الأعمال تأتي في يوم القيامة في صورة الله أعلم بها، كما قال صلى الله عليه وسلم: (اقرؤوا القرآن فإنه يأتي يوم القيامة شفيعا لأصحابه، اقرؤوا الزهراوين البقرة وسورة آل عمران فإنهما تأتيان يوم القيامة كأنهما غمامتان، أو كأنهما غيايتان، أو كأنهما فرقان من طير صواف؛ تحاجَّان عن أصحابهما)[٤]. والشواهد في هذا كثيرة.

٢- الذي يوزن هو العامل نفسه:

فقد دلت النصوص على أن العباد يوزنون يوم القيامة، فيثقلون في الميزان ويخفون بمقدار إيمانهم، فعن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: (إنه ليأتي الرجل العظيم السمين يوم القيامة لا يزن عند الله جناح بعوضة. وقال اقرءوا ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمۡ وَلِقَآئِهِۦ فَحَبِطَتۡ أَعۡمَٰلُهُمۡ فَلَا نُقِيمُ لَهُمۡ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ وَزۡنٗا ﴿١٠٥﴾ ﴾ [الكهف: ١٠٥])[٥].

---

(١) تفسير جزء النبأ لابن عثيمين ٢٩٩.

(٢) أخرجه البخاري كتاب التفسير باب قوله تعالى: ﴿ وَأَنذِرۡهُمۡ يَوۡمَ ٱلۡحَسۡرَةِ ﴾ (٤٧٣٠)، ومسلم كتاب الجنة باب النار يدخلها الجبارون والجنة يدخلها الضعفاء ٢٨٤٩.

(٣) مجموع فتاوى ابن عثيمين اليوم الآخر ٣١/٢.

(٤) أخرجه مسلم كتاب الصلاة باب فضل قراءة القرآن وسورة البقرة٨٠٤.

(٥) أخرجه البخاري كتاب التفسير باب ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمۡ وَلِقَآئِهِۦ ﴾ (٤٧٢٩). ومسلم أول كتاب صفة القيامة والجنة والنار (٢٧٨٥).

وورد عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه، أنه كان يجتني سواكا من الأراك وكان دقيق الساقين فجعلت الريح تكفؤه فضحك القوم منه فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (مم تضحكون) قالوا: يا نبي الله من دقة ساقيه!! فقال: (والذي نفسي بيده لهما أثقل في الميزان من أحد)(١).

٣- الذي يوزن إنما هو صحائف الأعمال:

كما ورد في حديث البطاقة، فقد ورد في السنة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: (إن الله سيخلص رجلاً من أمتي على رؤوس الخلائق يوم القيامة فينشر عليه تسعة وتسعين سجلاً كل سجل مثل مد البصر، ثم يقول: أتنكر من هذا شيئا؟ أظلمك كتبتي الحافظون؟ فيقول: لا يا رب فيقول: أفلك عذر؟ فيقول: لا يا رب فيقول: بلى إن لك عندنا حسنة، فإنه لا ظلم عليك اليوم. فتخرج بطاقة فيها: **أشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أن محمداً عبده ورسوله.** فيقول: احضر وزنك فيقول: يا رب ما هذه البطاقة مع هذه السجلات!! فقال: إنك لا تظلم. قال: فتوضع السجلات في كفة والبطاقة في كفة فطاشت السجلات وثقلت البطاقة فلا يثقل مع اسم الله شيء)(٢).

والراجح: قال الشيخ حافظ حكمي: "العامل وعمله وصحيفة عمله كل ذلك يوزن لأن الأحاديث التي في بيان القرآن قد وردت بكل من ذلك ولا منافاة بينهما. ويدل لذلك ما روي عن عبدالله بن عمرو في قصة صاحب البطاقة بلفظ: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (توضع الموازين يوم القيامة فيؤتى بالرجل فيوضع في كفة ويوضع ما أحصى عليه فيمايل به الميزان، قال: فيبعث به إلى النار. قال: فإذا أدبر إذا صائح من عند الرحمن عز وجل يقول: لا تعجلوا فإنه قد بقي له فيؤتى ببطاقة فيها لا اله إلا الله فتوضع مع الرجل في كفة حتى يميل به الميزان)(٣).

فهذا الحديث يدل على أن العبد يوضع: هو وحسناته وصحيفتها في كفة، وسيئاته مع صحيفتها في الكفة الأخرى. وهذا غاية الجمع بين ما تفرق ذكره في سائر أحاديث الوزن ولله الحمد والمنة والله أعلم"(٤).

---

(١) أخرجه أحمد في المسند١/٤٢٠ (٣٩٩١)، وابن حبان ٥٤٦/١٥ (٧٠٦٩) قال شعيب الأرنؤوط : إسناده حسن.

(٢) أخرجه الترمذي كتاب الإيمان باب ما جاء فيمن يموت ويشهد أن لا إله إلا الله (٢٦٣٩)، وابن ماجة كتاب الزهد باب ما يرجى من رحمة الله يوم القيامة (٤٣٠٠)، وأحمد في المسند ٢١٣/٢ (٦٩٩٤) والحاكم٥٢٩/١ وصححه، وصححه الألباني في الصحيحة (١٣٥).

(٣) أخرجه أحمد ٢٢١/٢ (٧٠٦٦)، قال شعيب الأرنؤوط: هذا إسناد حسن. وقال الهيثمي في مجمع الزوائد ٢٥/١٠ (١٦٨٠٥). رواه أحمد وفيه ابن لهيعة وحديثه حسن، وبقية رجاله رجال الصحيح.

(٤) معارج القبول٢٧٢/٢، وانظر للإستزاده حول هذه المسألة كتاب القيامة الكبرى للأشقر ٢٥١-٢٥٥.

ثالثاً: الذي يثقل الميزان:

أعظم شيء يثقل ميزان العبد يوم القيامة توحيد الله تعالى، وحديث البطاقة أعظم دليل في ذلك، وحديث (فإن الله قد حرم على النار من قال لا إله إلا الله. يبتغى بذلك وجه الله)[1]، وكل طاعة لله تعالى هي رفعة لميزانه يوم القيامة، وهناك أعمالٌ بَيَّنَ رسول الله صلى الله عليه وسلم أنها تثقل الميزان، ومنها:

١ - حسن الخلق: عن أبي الدرداء رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (ما من شيء في الميزان أثقل من حسن الخلق)[2].

٢ - التسبيح: وقد وردت صيغته في قول رسول الله صلى الله عليه وسلم: (كلمتان خفيفتان على اللسان، ثقيلتان في الميزان، حبيبتان إلى الرحمن: سبحان الله العظيم سبحان الله وبحمده)[3].

٣ - الذكر والاحتساب: وفيه قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (بخ بخ!! وأشار بيده بخمس، ما أثقلهن في الميزان سبحان الله، والحمد لله، ولا إله إلا الله، والله أكبر، والولد الصالح يتوفى للمرء المسلم فيحتسبه)[4].

٤ - الطهارة والحمد: عن أبي مالك الأشعري رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (الطهور شطر الإيمان، والحمد لله تملأ الميزان، وسبحان الله، والحمد لله تملآن–أو تملأ– ما بين السماوات والأرض..)[5].

٥ - تجهيز وإعداد فرس للجهاد: قال صلى الله عليه وسلم: (من احتبس فرساً في سبيل الله؛ إيماناً بالله وتصديقاً بوعده، فإن شِبعَه وريّه وروثه وبوله في ميزانه يوم القيامة)[6].

---

(١) أخرجه البخاري كتاب الصلاة باب المساجد في البيوت(٤٢٥) ومسلم كتاب المساجد باب الرخصة في التخلف عن الجماعة بعذر (٢٦٣).

(٢) أخرجه أبو داود كتاب الأدب باب حسن الخلق (٤٨٩٩)، وجامع الترمذي كتاب البر والصلة باب ما جاء في حسن الخلق (٢٠٠٢)، وصححه الألباني في الصحيحة ٨٧٦.

(٣) أخرجه البخاري كتاب التوحيد باب قوله تعالى ﴿ وَنَضَعُ ٱلْمَوَٰزِينَ ﴾ (٦٠٤٣)، ومسلم كتاب الذكر والدعاء باب فضل التهليل والتسبيح والدعاء (٢٦٩٤)

(٤) أخرجه ابن حبان ١١٤/٣ (٨٣٣) قال شعيب الأرنؤوط : إسناده صحيح، وأحمد في المسند ٦١٨/٢٩ (١٨٠٧٦) و٤٣٠/٢٤ (١٥٦٦٢) و١٨٨/٣٨ (٢٣١٠٠) وصححه شعيب الأرؤونوط، والبيهقي في شعب الإيمان ١٣٦/٧ (٩٧٥٥).

(٥) أخرجه مسلم كتاب الطهارة باب فضل الوضوء (٢٢٣).

(٦) أخرجه البخاري كتاب الجهاد باب من احتبس فرساً في سبيل الله (٢٨٥١).

رابعاً: معنى عيشة راضية:

العيشة الراضية هي: الجنة[(١)] ووصف العيشة بأنها راضية "وصف يدعها مجملة بلا تفصيل، توقع في الحس ظلال الرضى وهو أروح النعيم"[(٢)].

فالعيشة الراضية وصفت جمع كل النعم التي في الجنة، وأعظمها رضى الله الرحمن الرحيم ، ففي الحديث قال النبي صلى الله عليه وسلم: (إن الله يقول لأهل الجنة: يا أهل الجنة. فيقولون: لبيك وسعديك والخير في يديك. فيقول: هل رضيتم؟ فيقولون: وما لنا لا نرضى يا رب وقد أعطيتنا ما لم تعط أحداً من خلقك؟! فيقول: ألا أعطيكم أفضل من ذلك؟ فيقولون يا رب وأي شيء أفضل من ذلك؟! فيقول: أُحِلُّ عليكم رضواني فلا أسخط عليكم بعده أبدا)[(٣)].

وكذلك العيشة الراضية في قوله سبحانه وتعالى: ﴿ لِّلَّذِينَ أَحْسَنُواْ ٱلْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ ﴾ [يونس: ٢٦]. فقوله: ﴿وَزِيَادَةٌ﴾ "هي تضعيف ثواب الأعمال، بالحسنة عشر أمثالها إلى سبعمائة ضعف، ويشمل ما يعطيهم الله في الجنان من القُصُور والحُور، والرضا عنهم، وما أخفاه لهم من قرة أعين، وأفضل من ذلك وأعلاه: النظرُ إلى وجهه الكريم، فإنه زيادة أعظم من جميع ما أعطوه، لا يستحقونها بعملهم، بل بفضله ورحمته"[(٤)].

فعن صهيب رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: (إذا دخل أهل الجنة الجنة– قال– يقول الله تبارك وتعالى: تريدون شيئا أزيدكم؟ فيقولون ألم تبيض وجوهنا؟! ألم تدخلنا الجنة وتنجنا من النار؟! – قال – فيكشف الحجاب؛ فما أعطوا شيئا أحب إليهم من النظر إلى ربهم عز وجل)[(٥)].

القسم الثاني: من خفت موازينه:

قال تعالى: ﴿ وَأَمَّا مَنْ خَفَّتْ مَوَٰزِينُهُۥ ﴿٨﴾ فَأُمُّهُۥ هَاوِيَةٌ ﴿٩﴾ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا هِيَهْ ﴿١٠﴾ نَارٌ حَامِيَةٌۢ ﴿١١﴾ ﴾

أولاً: معنى خفة الموازين:

أي: رجحت سيئاته على حسناته[(١)]، عن ابن مسعود رضي الله عنه قال: "يحاسب الناس يوم القيامة، فمن كانت حسناته أكثر من سيئاته بواحدة دخل الجنة، ومن كانت سيئاته أكثر من حسناته بواحدة

(١) جامع البيان ٣٠/٥٩٥.
(٢) في ظلال القرآن ٦/٣٩٦١.
(٣) أخرجه البخاري كتاب الرقاق باب صفة الجنة والنار (٦١٨٣) ، ومسلم كتاب الجنة وصفة نعيمها باب إحلال الرضوان على أهل الجنة (٢٨٢٩).
(٤) تفسير القرآن العظيم ٤/٢٦٢.
(٥) أخرجه مسلم كتاب الإيمان باب إثبات رؤية المؤمنين في الآخرة ربهم سبحانه وتعالى (١٨٠).

دخل النار. ثم قرأ قول الله: ﴿فَمَن ثَقُلَتْ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿٨﴾ وَمَنْ خَفَّتْ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓاْ أَنفُسَهُم بِمَا كَانُواْ بِـَٔايَٰتِنَا يَظْلِمُونَ ﴿٩﴾﴾[الأعراف: ٨-٩]. ثم قال: إن الميزان يخفّ بمثقال حبة ويرجح. قال: فمن استوت حسناته وسيئاته كان من أصحاب الأعراف.."[٢].

ثانياً: المقصود بـــ ﴿فَأُمُّهُۥ هَاوِيَةٌ﴾:

معناه: فهو ساقط هاو بأم رأسه في نار جهنم، وعَبَّر عنه بأمه يعني دماغه. أو: ﴿فَأُمُّهُۥ﴾ التي يرجع إليها، ويصير في المعاد إليها.

﴿هَاوِيَةٌ﴾: اسم من أسماء النار[٣]، قال ابن زيد: "الهاوية: النار، هي أمه ومأواه التي يرجع إليها ويأوي إليها وقرأ: ﴿وَمَأْوَىٰهُمُ ٱلنَّارُ﴾ [آل عمران: ١٥١]"[٤].

قال الطبري: "وإنما جعلت النار أمه لأنها صارت مأواه، كما تؤوي المرأة ابنها، فجعلها إذ لم يكن له مأوى غيرها له بمترلة الأم له"[٥].

وهذا "تمثيل لحال من خفت موازينه يومئذ بحال الهالك في الدنيا، لأن الناس يكنون عن حال المرء بحال أمه في الخير والشر- لشدة محبتها ابنها- فهي أشد سرورا بسروره، وأشد حزنا بما يحزنه"[٦].

ثالثاً: وصف الهاوية بأنها نار حامية :

قال تعالى مفسرا للهاوية: ﴿وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا هِيَهْ ﴿١٠﴾ نَارٌ حَامِيَةٌۢ ﴿١١﴾﴾ فالهاوية هي النار .

فقوله تعالى: ﴿وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا هِيَهْ﴾ سؤال هويل لإخراج الأمر عن حدود التصور وحيز الإدراك! وفائدته جذب الانتباه وشد النفس للتطلع للجواب والاهتمام به، مع قيام عظمته وهوله في النفس حتى كأنه بين يديها الآن.ثم يجيء الجواب كنبرة الختام :﴿نَارٌ حَامِيَةٌۢ ﴿١١﴾﴾.

"هذه هي أم الذي خفت موازينه! أمه التي يفيء إليها ويأوي! والأم عندها الأمن والراحة. فماذا هو واجد عند أمه هذه الهاوية.. النار..الحامية!! إنها مفاجأة تعبيرية تمثل الحقيقة القاسية!"[٧].

فوصف النار بأنها: ﴿نَارٌ حَامِيَةٌۢ﴾ أي: حارة شديدة الحر، قوية اللهيب والسعير[٨].

---

(١) تفسير القرآن العظيم ٨/٤٦٨.

(٢) جامع البيان ١٨/٤٥١.

(٣) تفسير القرآن العظيم ٨/٤٦٨.

(٤) جامع البيان ٢٤/٥٩٦.

(٥) المصدر السابق.

(٦) التحرير والتنوير ٣٠/٥١٤ بتصرف يسير .

(٧) في ظلال القرآن ٦/٣٩٦١.

(٨) الجامع لأحكام القرآن ٢٠/١٦٧.

عن أبي هريرة رضي الله عنه : أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: (ناركم جزء من سبعين جزء من نار جهنم). قيل: يا رسول الله، إن كانت لكافية. فقال: (إنها فُضِّلَت عليها بتسعة وستين جُزءًا كلهن مثل حرّها)[1].

وفي رواية (إن ناركم هذه جزء من سبعين جزءًا من نار جهنم، وضربت بالبحر مرتين، ولولا ذلك ما جعل الله فيها منفعة لأحد)[2].وفي رواية: (هذه النار جزء من مائة جزء من جهنم) [3].

وفي رواية: (أتدرون ما مثل ناركم هذه من نار جهنم؟ لهي أشد سوادًا من دخان ناركم هذه بسبعين ضعفًا)[4].

وعن أبي هريرة وأبي سعيد رضي الله عنهما أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: (إن أهون أهل النار عذابا من له نعلان وشراكان من نار يغلى منهما دماغه كما يغلى المرجل ما يرى أن أحدا أشد منه عذابا وإنه لأهونهم عذابا)[5].

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: (اشتكت النار إلى ربها فقالت: يا رب، أكل بعضي بعضًا، فأذن لها بنَفَسين: نفس في الشتاء، ونفس في الصيف، فأشد ما تجدون في الشتاء من بردها، وأشد ما تجدون في الصيف من حرها)[6]. وعنه رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (إذا اشتد الحر فأبردوا عن الصلاة، فإن شدة الحر من فَيح جَهَنم)[7].

﴿ نَارٌ حَامِيَةٌ ﴾:وحماها هنا مطلق فيشمل:

١- **لظاها**: وقد وصف الله به النار كلها فقال: ﴿كَلَّآ إِنَّهَا لَظَىٰ ﴿١٥﴾ نَزَّاعَةً لِّلشَّوَىٰ ﴿١٦﴾﴾ [المعارج: ١٥ - ١٦].

٢- **دخانها**: وقد وصف الله به النار فقال: ﴿ٱنطَلِقُوٓاْ إِلَىٰ ظِلٍّ ذِى ثَلَٰثِ شُعَبٍ ﴿٣٠﴾ لَّا ظَلِيلٍ وَلَا يُغْنِى مِنَ ٱللَّهَبِ ﴿٣١﴾﴾ [المرسلات: ٣٠ - ٣١].

---

(١) أخرجه البخاري كتاب بدء الخلق باب صفة النار وأنها مخلوقة(٣٢٦٥)، ومسلم كتاب الجنة باب في شدة حر النار جهنم وبعد قعرها وما تأخذه من المعذبين(٢٨٤٣).

(٢) أخرجه أحمد في المسند ٢٤٤/٢ (٧٣٢٣) وابن حبان (٢٦٠٨) والحميدي في المسند (١١٢٩) قال شعيب الأرنؤوط : إسناده صحيح وصححه الألباني في صحيح الترغيب والترهيب (٣٦٦٦).

(٣) أخرجه أحمد في المسند ٣٧٩/٢ح(٨٩١٠) وصححه الألباني في صحيح الجامع (٧٠٠٦) وقال الأرنؤوط إسناده قوي.

(٤) أخرجه الطبراني في الأوسط /١٥٥ وفي الكبير ١٢٣/١٩ (٢٨٢) قال الهيثمي ٣٣٣/١٠: رجاله رجال الصحيح.

(٥) أخرجه البخاري كتاب الرقاق باب صفة الجنة والنار (٦١٩٣) و (٦١٩٤)، ومسلم كتاب الإيمان باب أهون أهل النار عذاباً كتاب الرقاق باب صفة الجنة والنار(٢١٣) واللفظ له.

(٦) أخرجه البخاري كتاب بدء الخلق باب صفة النار وأنها مخلوقة (٣٢٦٠)، ومسلم كتاب المساجد باب استحباب الإبراد بالظهر في شدة الحر.. (٦١٧).

(٧) أخرجه البخاري كتاب مواقيت الصلاة باب الإبراد بالظهر في شدة الحر (٥٣٣) ومسلم كتاب المساجد باب استحباب الإبراد بالظهر في شدة الحر (٦١٥).

٣- **لهيبها:** وقد وصف الله به النار كما في قصة أبي لهب فقال: ﴿ سَيَصْلَىٰ نَارًا ذَاتَ لَهَبٍ ﴾ [المسد: ٣].

٤- **طعامها وشرابها:** وقد وصف الله به النار فقال: ﴿ إِنَّ شَجَرَتَ الزَّقُّومِ (٤٣) طَعَامُ الْأَثِيمِ (٤٤) كَالْمُهْلِ يَغْلِي فِي الْبُطُونِ (٤٥) كَغَلْيِ الْحَمِيمِ (٤٦) ﴾ [الدخان: ٤٣ - ٤٦].

٥- **عذابها:** وقد وصف الله به النار فقال: ﴿ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِنَا سَوْفَ نُصْلِيهِمْ نَارًا كُلَّمَا نَضِجَتْ جُلُودُهُم بَدَّلْنَاهُمْ جُلُودًا غَيْرَهَا لِيَذُوقُوا الْعَذَابَ ﴾ [النساء: ٥٦].

٦- **وقودها وزبانيتها:** قال تعالى: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قُوا أَنفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ عَلَيْهَا مَلَائِكَةٌ غِلَاظٌ شِدَادٌ لَّا يَعْصُونَ اللَّهَ مَا أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ (٦) ﴾ [التحريم: ٦].

٧- **استمرار ذلك الحميم:** قال تعالى: ﴿ وَالَّذِينَ كَفَرُوا لَهُمْ نَارُ جَهَنَّمَ لَا يُقْضَىٰ عَلَيْهِمْ فَيَمُوتُوا وَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُم مِّنْ عَذَابِهَا كَذَٰلِكَ نَجْزِي كُلَّ كَفُورٍ (٣٦) ﴾ [فاطر: ٣٦].

فهذه بعض أوصاف ذلك الحميم الذي سيلاقيه أولئك الذين خفت موازينهم نسال الله السلامة والعافية.

لمسة بيانية :

"ناسب ذكر العهن المنفوش قوله: ﴿ نَارٌ حَامِيَةٌ ﴾ لأن النار الحامية هي التي تذيب الجبال، وتجعلها كالعهن المنفوش، وذلك من شدة الحرارة: في حين ذكر صفة النار في المعارج بقوله: ﴿ كَلَّا إِنَّهَا لَظَىٰ (١٥) نَزَّاعَةً لِّلشَّوَىٰ (١٦) ﴾ [المعارج: ١٥-١٦]، والشوى هو: جلد الإنسان، والحرارة التي تستدعي نزع جلد الإنسان أقل من التي تذيب الجبال، وتجعلها ﴿ كَالْعِهْنِ الْمَنفُوشِ ﴾، فناسب زيادة ﴿ الْمَنفُوشِ ﴾ في القارعة من كل ناحية.

كما أن ذكر النار الحامية مناسب للقارعة من ناحية أخرى ، ذلك أن ﴿ الْقَارِعَةُ ﴾ - وهي من لفظ القارعة - هي القداحة التي تقدح بها النار.

فناسب ذكر القارعة؛ ذكر الصوف المنفوش، وذكر النار الحامية، فناسب آخر السورة أولها.

وبهذا نرى أن ذكر القارعة حسَّنَ ذكر ﴿ الْمَبْثُوثِ ﴾ مع الفراش، وذكر ﴿ الْمَنفُوشِ ﴾ مع الصوف، وذكر النار الحامية في آخر السورة"(١).

و﴿ نَارٌ حَامِيَةٌ ﴾ خبر لمبتدأ محذوف تقديره هي نار حامية، والمجيء بالجملة الاسمية: ليفيد الدلالة على الثبوت واللزوم.

---

(١) لمسات بيانية ١١٢.

تفسير سورة التكاثر

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿ أَلْهَىٰكُمُ ٱلتَّكَاثُرُ ﴿١﴾ حَتَّىٰ زُرْتُمُ ٱلْمَقَابِرَ ﴿٢﴾ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴿٣﴾ ثُمَّ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴿٤﴾ كَلَّا لَوْ تَعْلَمُونَ عِلْمَ ٱلْيَقِينِ ﴿٥﴾ لَتَرَوُنَّ ٱلْجَحِيمَ ﴿٦﴾ ثُمَّ لَتَرَوُنَّهَا عَيْنَ ٱلْيَقِينِ ﴿٧﴾ ثُمَّ لَتُسْـَٔلُنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ ٱلنَّعِيمِ ﴿٨﴾ ﴾ .

المبحث الأول

مقدمات حول السورة

أولاً: تسميتها :

كان أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم يسمونها (المغيرة)[1]، وذكر ابن حجر أن الصحابة يسمونها (المقبرة)[2].

وسميت في معظم المصاحف ومعظم التفاسير وعند الترمذي في جامعه(سورة التكاثر)[3]، وسميت في بعض المصاحف والتفاسير وترجم لها البخاري في كتاب التفسير من صحيحه (سورة ألهاكم)[4].

ثانياً: نزولها ومناسبتها :

١- وهي مكية عند الجمهور، وقيل: إنها مدنية[5]. قال ابن عطية: هي مكية لا أعلم فيها خلافاً[6].

٢- قال مقاتل والكلبي: نزلت في حيين من قريش: بني عبدمناف بن قصي، وبني سهم بن عمرو، كان بينهم تفاخر، فتعادَّ السادة والأشراف أيهم أكثر عددًا؟ فقال بنو عبدمناف: نحن أكثر سيدًا وأعز عزيزًا وأعظم نفرًا وأكثر عددًا. وقال بنو سهم مثل ذلك. فكثرهم بنو عبدمناف. ثم قالوا: نعدّ موتانا. حتى زاروا القبور فعدوهم، فقالوا: هذا قبر فلان!! وهذا قبر فلان فكثرهم بنو سهم بثلاثة أبيات لأنهم كانوا في الجاهلية أكثر عددًا. فأنزل الله هذه الآية[7].

---

(١) تفسير ابن أبي حاتم١٠/٣٤٥٩ برقم (١٩٤٥٢).

(٢) فتح الباري ٨/٦٠٠.

(٣) جامع الترمذي كتاب التفسير باب سورة التكاثر .

(٤) أخرجه البخاري كتاب التفسير باب تفسير سورة (ألهاكم)، وانظر: التحرير والتنوير٣٠/٥١٧.

(٥) الجامع لأحكام القرآن ٢٠/١٦٨، التحرير والتنوير٣٠/٥١٧.

(٦) المحرر الوجيز ١٥/٥٥٦.

(٧) أخرجه الواحدي في أسباب النزول (٥٣٧)، وذكره البغوي ٨/٥١٥.

قال ابن عاشور: " والذي يظهر من معاني السورة وغلظة وعيدها أنها مكية وأن المخاطب بها فريق من المشركين لأن ما ذكر فيها لا يليق بالمسلمين في ذلك الوقت"[١].

وقال السيوطي في الإتقان: "سورة ألهاكم الأشهر أنها مكية، ويدل لكونها مدنية **وهو المختار** أنها نزلت في قبيلتين من قبائل الأنصار تفاخروا وتكاثروا، فقالت إحداهما: فيكم مثلُ فلان بن فلان، وفلان؟ وقال الآخرون مثل ذلك، تفاخروا بالأحياء، ثم قالوا: انطلقوا بنا إلى القبور. فجعلت إحدى الطائفتين تقول: فيكم مثل فلان؟ يشيرون إلى القبر –ومثل فلان؟ وفعل الآخرون مثل ذلك، فأنزل الله: ﴿أَلْهَىٰكُمُ ٱلتَّكَاثُرُ ۝١ حَتَّىٰ زُرْتُمُ ٱلْمَقَابِرَ ﴾ لقد كان لكم فيما رأيتم عبرة وشغل[٢].

وعن قتادة أنها نزلت في اليهود[٣]، وعن أبي بن كعب رضي الله عنه قال: "كنا نرى هذا من القرآن يعني لو كان لابن آدم واد من ذهب حتى نزلت ﴿أَلْهَىٰكُمُ ٱلتَّكَاثُرُ ﴾"[٤].

وعن علي رضي الله عنه قال: "ما زلنا نشك في عذاب القبر حتى نزلت﴿أَلْهَىٰكُمُ ٱلتَّكَاثُرُ ﴾"[٥] وعذاب القبر لم يذكر إلا بالمدينة كما في الصحيح في قصة اليهودية[٦]"أ.هـ[٧].

أما عدد آياتها: (٨) آيات، وكلماتها: (٢٨) كلمة، وحروفها: (١٢٠) حرفاً[٨].

مناسبتها لما قبلها:

"الحديث في هذه السورة، متصل بما قبلها من الحديث عن القيامة، وعما يذهل الناس عنها، ويشغلهم عن الإعداد لها .. وهو المال والتكاثر منه"[٩].

---

(١) التحرير والتنوير٣٠/٥١٨.

(٢) تفسير ابن أبي حاتم ١٠/٣٤٥٩برقم ١٩٤٥٣. تفسير القرآن العظيم٨/٤٣٧.

(٣) قال قتادة: نزلت في اليهود، قالوا: نحن أكثر من بني فلان، وبنو فلان أكثر من بني فلان، ألهاهم ذلك حتى ماتوا ضلالاً، أخرجه الواحدي في أسباب النزول ١٦١. وهذا إن صح فلا يعارض أنها نزلت بمكة لأن مرادهم بالنزول هنا وأشمله الحكم.

(٤) أخرجه البخاري كتاب الرقاق باب ما يتقى من فتنة المال (٦٤٤٠).

(٥) أخرجه الترمذي كتاب تفسير القرآن باب ومن سورة﴿أَلْهَىٰكُمُ ٱلتَّكَاثُرُ﴾(٣٣٥)، وضعفه الألباني في صحيح وضعيف الترمذي.

(٦) الحديث الذي يشير إليه السيوطي هو ما ورد عن عائشة رضي الله عنها: أن يهودية دخلت عليها، فذكرت عذاب القبر، فقالت: لها أعاذك الله من عذاب القبر. فسألت عائشة رسول الله صلى الله عليه وسلم عن عذاب القبر فقال: (نعم عذاب القبر). قالت عائشة رضي الله عنها: فما رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم بعد صلى صلاة إلا تعوذ من عذاب القبر. أخرجه البخاري في صحيحه كتاب الجنائز باب ما جاء في عذاب القبر(١٣٧٢)، ومسلم كتاب المساجد باب استحباب التعوذ من عذاب القبر (٥٨٦) مطولاً وبلفظ مختلف.

(٧) الاتقان١/٣٦-٣٧.

(٨) التفسير القرآني للقرآن ٣/٨٦.

(٩) المصدر السابق.

ثالثاً: موضوعها:

هذه السورة نذير، يصيح بقوم غافلين مخمورين سادرين، أشرفوا على الهاوية وعيونهم مغمضة، وحسهم مسحور، وذلك لانشغال الناس بالدنيا وشهواتها عن طاعة الله تعالى، وتكالبهم على جمع حطام الحياة حتى يبغتهم الموت ويقطع عليهم متعتهم وينقلهم من القصور إلى القبور.

نذير يحثهم على التدبير فيما ينجيهم من الجحيم، وأنهم مبعوثون ومسئولون عن إهمال شكر المنعم العظيم.

سورة تشغل القلب بهمّ الآخرة عن سفاسف الحياة الدنيا وصغائر اهتماماتها التي يهش لها الفارغون! وتنشئ فيه محاسبة نفسه على الصغير والزهيد.

فهي توضح خطر الغفلة، وتبين أهمية التفكر والتذكر للآخرة، وخصوصاً أول طريق لها وهو القبر.

مع التأكيد على تعدد نعم الله على الإنسان، ومحاسبة النفس على القيام بشكرها[1].

رابعاً: المعنى الإجمالي للسورة:

قوله تعالى: ﴿ أَلْهَىٰكُمُ ٱلتَّكَاثُرُ ﴾: أي: "شغلكم حب الدنيا ونعيمها وزهرتها عن طلب الآخرة وابتغائها، قال الحسن البصري: ﴿ أَلْهَىٰكُمُ ٱلتَّكَاثُرُ ﴾: في الأموال والأولاد. وقال قتادة: "كانوا يقولون نحن أكثر من بني فلان، ونحن أعَدُّ من بني فلان، وهم كل يوم يتساقطون إلى آخرهم!! والله ما زالوا كذلك حتى صاروا من أهل القبور كلهم"[2]، قال تعالى: ﴿ وَقَالُوا۟ نَحْنُ أَكْثَرُ أَمْوَٰلًا وَأَوْلَٰدًا وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ ﴿٣٥﴾ ﴾ [سبأ: ٣٥]

قال ابن سعدي: " ولم يذكر المتكاثر به، ليشمل ذلك كل ما يتكاثر به المتكاثرون، ويفتخر به المفتخرون؛ من التكاثر في الأموال، والأولاد، والأنصار، والجنود، والخدم، والجاه، وغير ذلك مما يقصد منه مكاثرة كل واحد للآخر، ولم يقصد به وجه لله تعالى"[3].

قوله تعالى: ﴿ حَتَّىٰ زُرْتُمُ ٱلْمَقَابِرَ ﴾ قال ابن كثير: " الصحيح أن المراد بقوله: ﴿ حَتَّىٰ زُرْتُمُ ٱلْمَقَابِرَ ﴾ أي: صرتم إليها ودفنتم فيها"[4]، فقد جاء في الصحيح: أن رسول الله صلى الله عليه وسلم دخل على رجل

(١) في ظلال القرآن ٦/٢٩٦٢-٣٩٦٣ باختصار وتصرف .

(٢) تفسير القرآن العظيم ٨/٤٧٢.

(٣) تيسير الكريم الرحمن ٩٣٣.

(٤) تفسير القرآن العظيم ٨/٤٧٣.

من الأعراب يعوده، فقال: (لا بأس طهور إن شاء الله). فقال: قلت: طَهُور؟! بل هي حمى تفور، على شيخ كبير، تُزيره القبور! قال: (فَنَعَم إذًا)[1].

"ودلت الآية على أن البرزخ دارٌ مقصودٌ منها النفوذ إلى الدار الآخرة. وأن الله سماهم زائرين، ولم يسمهم مقيمين، لِدل ذلك على البعث والجزاء على الأعمال في دار باقية غير فانية"[2].

وعن ميمون بن مهران رحمه الله قال: كنت جالسا عند عمر بن عبد العزيز رحمه الله فقرأ: ﴿ أَلْهَىٰكُمُ ٱلتَّكَاثُرُ ۝١ حَتَّىٰ زُرْتُمُ ٱلْمَقَابِرَ ﴾ فلبث هنيهة فقال: يا ميمون، ما أرى المقابر إلا زيارة، وما للزائر بدٌ من أن يرجع إلى منزله[3].

قوله تعالى: ﴿ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ ۝٣ ثُمَّ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴾ أي: "ما هكذا ينبغي أن تفعلوا، أن يُلْهِيَكُم التكاثر.

وقوله:﴿ سَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴾ أي: سوف تعلمون إذا زرتم المقابر، أيها الذين ألهاهم التكاثر، غبّ فعلكم، واشتغالكم بالتكاثر في الدنيا عن طاعة الله ربكم.

وقوله: ﴿ ثُمَّ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴾ أي: ثم ما هكذا ينبغي أن تفعلوا أن يلهيكم التكاثر بالأموال، وكثرة العدد، سوف تعلمون إذا زرتم المقابر، ما تلقون إذا أنتم زرتموها، من مكروه اشتغالكم عن طاعة ربكم بالتكاثر. وكرّر قوله:﴿ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴾ مرتين، لأن العرب إذا أرادت التغليظ في التخويف والتهديد كرّروا الكلمة مرتين"[4].

وقال الفراء "وتكراره على وجه التأكيد والتغليظ"[5].

وقال الصابوني: "وهذا التكرار في الزجر والوعيد لبيان خطأ الناس في اشتغالهم بالفانية عن الباقية، ونسيانهم لما أمامهم من المخاطر والأهوال، التي لا يجوزها ولا ينجوا منها إلا من قدم صالح الأعمال"[6].

وقوله: ﴿ كَلَّا لَوْ تَعْلَمُونَ عِلْمَ ٱلْيَقِينِ ﴾ أي: لو علمتم حق العلم، لما ألهاكم التكاثر عن طلب الدار الآخرة، حتى صرتم إلى المقابر[7].

---

(١) أخرجه البخاري كتاب المرضى باب ما يقال للمريض وما يجيب(٥٦٦٢)

(٢) تيسير الكريم الرحمن ٩٣٣.

(٣) تفسير ابن أبي حاتم ٣٤٥٩/١٠برقم(١٩٤٥٥)، تفسير القرآن العظيم ٤٧٤/٨.

(٤) جامع البيان ٦٠١/٢٤.

(٥) الجامع لأحكام القرآن ١٧٠/٢٠.

(٦) إيجاز البيان في سور القرآن ٣١١.

(٧) تفسير القرآن العظيم ٤٧٤/٨.

ثم قال: ﴿ لَتَرَوُنَّ ٱلْجَحِيمَ ۝٦ ثُمَّ لَتَرَوُنَّهَا عَيْنَ ٱلْيَقِينِ ﴾ أي : لترون أيها المشركون جهنم يوم القيامة ، ثم لترونها عياناً لا تغيبون عنها[١].

والفرق بين الرؤيتين:

سئل شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله عن قوله تعالى حق اليقين وعين اليقين وعلم اليقين فما معنى كل مقام منها وأي مقام أعلى؟

فأجاب: "للناس في هذه الأسماء مقالات معروفة :منها أن يقال علم اليقين ما علمه بالسماع والخبر والقياس والنظر، وعين اليقين ما شاهده وعاينه بالبصر وحق اليقين ما باشره ووجده وذاقه وعرفه.

فالأولى مثل من أخبر أن هناك عسلا وصدق المخبر أو رأى آثار العسل فإستدل على وجوده، والثاني مثل من رأى العسل وشاهده وعاينه وهذا أعلى.والثالث مثل من ذاق العسل ووجد طعمه وحلاوته ومعلوم أن هذا أعلى مما قبله"[٢].

قوله تعالى: ﴿ ثُمَّ لَتُسْـَٔلُنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ ٱلنَّعِيمِ ۝٨ ﴾أي: "ثم لتسألن يومئذ عن شكر ما أنعم الله به عليكم، من الصحة والأمن والرزق وغير ذلك. ما إذا قابلتم به نعمه من شكره وعبادته"[٣].

النعيم: "الذي تنعمتم به في دار الدنيا، هل قمتم بشكره، وأديتم حق الله فيه، ولم تستعينوا به، على معاصيه، فينعمكم نعيمًا أعلى منه وأفضل. أم اغتررتم به، ولم تقوموا بشكره؟ بل ربما استعنتم به على معاصي الله فيعاقبكم على ذلك، قال تعالى: ﴿ وَيَوْمَ يُعْرَضُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ عَلَى ٱلنَّارِ أَذْهَبْتُمْ طَيِّبَٰتِكُمْ فِى حَيَاتِكُمُ ٱلدُّنْيَا وَٱسْتَمْتَعْتُم بِهَا فَٱلْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ ٱلْهُونِ بِمَا كُنتُمْ تَسْتَكْبِرُونَ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَبِمَا كُنتُمْ تَفْسُقُونَ ۝٢٠ ﴾ [الأحقاف:٢٠]"[٤].

---

(١) جامع البيان ٦٠٠٢/٢٤.

(٢) مجموع فتاوى شيخ الإسلام ٦٤٥/١٠-٦٤٦.

(٣) تفسير القرآن العظيم ٤٧٤/٨.

(٤) تيسير الكريم الرحمن ٩٣٤.

المبحث الثاني

وقفات مع السورة

المطلب الأول

التحذير من الغفلة والانهماك في الدنيا

عن عبد الله بن الشخير رضي الله عنه قال: انتهيت إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو يقول: (﴿أَلْهَىٰكُمُ ٱلتَّكَاثُرُ﴾ يقول ابن آدم: مالي مالي. وهل لك من مالك إلا ما أكلت فأفنيت، أو لبست فأبليت، أو تصدقت فأمضيت؟!)[1]. وفي زيادة لمسلم: (وما سوى ذلك فذاهب وتاركه للناس)[2].

وعن أنس رضي الله عنه : أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: (يهرم ابن آدم وتبقى منه اثنتان: طول الحياة وحب المال)[3].

رأى الأحنف ابن قيس في يد رجل درهما فقال: لمن هذا الدرهم؟ فقال الرجل: لي. فقال: إنما هو لك إذا أنفقته في أجر أو ابتغاء شكر. ثم أنشد الأحنف متمثلا قول الشاعر:

أنتَ للمال إذا أمسكتَه ... فإذا أنفقتَه فالمالُ لَكْ[4].

وهذا يدلُّ على أن الغفلة والتكاثر بكل أنواعه وأشكاله؛ داء عضال لا يعالجه إلا الإيمان بالله وتذكره في كل حين، وعند كل نعمة. التذكر الذي يجلب الطمع في نعيمه وجزاءه الأوفى يوم القيامة.

أما التكاثر فيجلب الطمع في الدنيا والغفلة عن الدار الآخرة، والإنسان لن يكون معه في قبره إلا عمله كما قال صلى الله عليه وسلم: (يتبع الميت ثلاثة، فيرجع اثنان ويبقى معه واحد، يتبعه أهله وماله وعمله، فيرجع أهله وماله، ويبقى عمله)[5].

فلن ينفع الإنسان عند زيارته للمقابر يتنظر يوم القيامة – في قبره– إلا عمله الصالح الذي ينور له قبره.

أما الأولاد والمال فسيتخلون عنه في القبر ويوم القيامة، قال تعالى: ﴿وَقَالُواْ نَحْنُ أَكْثَرُ أَمْوَٰلًا وَأَوْلَٰدًا وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ ﴿٣٥﴾ قُلْ إِنَّ رَبِّي يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقْدِرُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٦﴾ وَمَآ أَمْوَٰلُكُمْ وَلَآ

---

(١) أخرجه مسلم كتاب الزهد والرقائق باب(٣) برقم (٢٩٥٨) .

(٢) أخرجه مسلم كتاب الزهد والرقائق باب(٤) برقم (٢٩٥٩).

(٣) أخرجه البخاري كتاب الرقاق باب من بلغ ستين سنة فقد أعذر الله إليه في العمر (٦٤٢١) ومسلم كتاب الزكاة باب كراهية الحرص على الدنيا (١٠٤٧).

(٤) تاريخ دمشق ٣٤٣/٢٤.

(٥) أخرجه البخاري كتاب الرقاق باب سكرات الموت(٦٥١٤)، ومسلم كتاب الزهد والرقائق باب(٥) برقم (٢٩٦٠).

أَوۡلَٰدُكُم بِٱلَّتِي تُقَرِّبُكُمۡ عِندَنَا زُلۡفَىٰٓ إِلَّا مَنۡ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحٗا فَأُوْلَٰٓئِكَ لَهُمۡ جَزَآءُ ٱلضِّعۡفِ بِمَا عَمِلُواْ وَهُمۡ فِي ٱلۡغُرُفَٰتِ ءَامِنُونَ ﴿٣٧﴾ ﴾ [سبأ: ٣٥ – ٣٧].

والنبي صلى الله عليه وسلم يحذر من الغفلة عن الآخرة، والاستكثار من المال والدنيا على حساب الآخرة وأنها سبب للبغضاء والهلاك في الدنيا والآخرة، فقال صلى الله عليه وسلم: (.. فوالله ما الفقر أخشى عليكم. ولكنى أخشى عليكم أن تبسط الدنيا عليكم، كما بسطت على من كان قبلكم، فتنافسوها كما تنافسوها، وتهلككم كما أهلكتهم)[1].

(١) أخرجه البخاري كتاب الرقاق باب ما يحذر من زهرة الدنيا والتنافس فيها(٦٥١٤)، ومسلم كتاب الزهد والرقائق باب(٦) برقم (٢٩٦١).

المطلب الثاني
تذكر الآخرة وأول دار فيها

المحور الأول: أهمية زيارة المقابر:

قال النبي صلى الله عليه وسلم: (كنت نهيتكم عن زيارة القبور، فزوروا القبور فإنها تزهد في الدنيا وتذكر الآخرة)[١]، وفي رواية: (فإنها تذكر الموت)[٢]، وفي رواية: (فإن فيها عبرة)[٣] وفي رواية: (فإنها ترق القلب، وتدمع العين، وتذكر الآخرة، ولا تقولوا هجرا)[٤].

قال القرطبي: "زيارة المقابر من أعظم الدواء للقلب القاسي، لأنها تذكر الموت والآخرة، وذلك يحمل على: قصر الأمل والزهد في الدنيا وترك الرغبة فيها. فينبغي لمن أراد علاج قلبه وانقياده بسلاسل القهر إلى طاعة ربه:

أولاً: أن يكثر من ذكر هادم اللذات ومفرق الجماعات ومُوتِمْ البنين والبنات.

وثانياً: أن يواظب على مشاهدة المحتضرين.

وثالثاً: زيارة قبور أموات المسلمين.

فإن انتفع بالإكثار من ذكر الموت فذاك، وإن استحكمت فيه دواعي الذنب فإن مشاهدة المحتضرين وزيارة قبور أموات المسلمين تبلغ في دفع ذلك ما لا يبلغه الأول، لأنه معاينة ومشاهدة فلذلك كان أبلغ من الأول"[٥]. فالأول من علم اليقين، والثاني من عين اليقين.

وهناك أمر آخر يبرز أهمية زيارة القبور وهو ما ينتفع به الميت من السلام عليه، والدعاء والاستغفار له، -وهو خاص بالمسلم- فقد صح عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه كان يقول إذا مر أو دخل مقبرة: (السلام عليكم أهل الديار من المؤمنين والمسلمين، وإن شاء الله بكم لاحقون، أسأل الله لنا ولكم العافية)[٦]. وقد اتفقت المذاهب الأربعة على مشروعيتها، بل نقل النووي عن الطيبي الإجماع على استحباب زيارتها.

---

(١) جامع الترمذي كتاب الجنائز باب ما جاء في الرخصة في زيارة القبور (١٠٥٤) وصححه الألباني في صحيح وضعيف الترمذي. مسند أحمد ٣٥٥/٥ ح(٢٣٠٥٥)قال شعيب الأرنؤوط: حديث صحيح وهذا إسناد قوي رجاله ثقات رجال الشيخين غير عطاء الخراساني وهو ابن مسلم فقد أخرج له مسلم متابعة .

(٢) أخرجه مسلم كتاب الجنائز باب استئذان النبي ربه في زيارة قبر أمه (٩٧٧).

(٣) مسند أحمد ٣٨/٣ (١١٣٤٧)، وأخرجه: الحاكم ٥٣٠/١ (١٣٨٦)، قال الهيثمي عن رواية أحمد (٥٨/٣) رجاله رجال الصحيح ، قال شعيب الأرنؤوط: صحيح وهذا إسناد حسن.

(٤) أخرجه أحمد ٢٣٧/٣ (١٣٥١٢) قال شعيب الأرنؤوط: صحيح بطرقه وشواهده، وقال الألباني في صحيح الترغيب والترهيب حسن صحيح (٣٥٤٣).

(٥) الجامع لأحكام القرآن ١٧٠/٢٠-١٧١.

(٦) أخرجه مسلم كتاب الجنائز باب ما يقال عند دخول القبور والدعاء لأهلها (٩٧٥).

المحور الثاني: حكم زيارة القبور للنساء:

عن أبي هريرة رضي الله عنه: أن رسول الله صلى الله عليه وسلم (لعن زوارات القبور)[1].

قال الترمذي: "وقد رأى بعض أهل العلم أن هذا كان قبل أن يرخص النبي صلى الله عليه وسلم في زيارة القبور، فلما رخص دخل في الرخصة الرجال والنساء. وقال بعضهم: إنما كره زيارة القبور للنساء لقلة صبرهن وكثرة جزعهن"[2].

قال القرطبي: "زيارة القبور للرجال متفق عليه عند العلماء، مختلف فيه للنساء: أما الشواب فحرام عليهن الخروج، وأما القواعد فمباح لهن ذلك وجائز لجميعهن ذلك إذا انفردن بالخروج عن الرجال، ولا يختلف في هذا إن شاء الله. وعلى هذا المعنى يكون قوله: (زوروا القبور) عاماً. وأما موضع أو وقت يخشى فيه الفتنة من اجتماع الرجال والنساء فلا يحل ولا يجوز. فبينا الرجل يخرج ليعتبر فيقع بصره على امرأة فيفتتن؛ وبالعكس فيرجع كل واحد من الرجال والنساء مأزورا غير مأجور. والله أعلم"[3].

وفي الحديث ما يدل على **تحريم زيارة النساء للقبور**، وأنها من كبائر الذنوب، والعلماء اختلفوا في ذلك على ثلاثة أقوال:

القول الأول: تحريم زيارة النساء للقبور، بل إنها من كبائر الذنوب، لهذا الحديث.

القول الثاني: كراهة زيارة النساء للقبور كراهة لا تصل إلى التحريم، وهذا هو المشهور من مذهب أحمد عن أصحابه، لحديث أم عطية: (نهينا عن اتباع الجنائز، و لم يعزم علينا)[4].

القول الثالث: أنها تجوز زيارة النساء للقبور، لحديث المرأة: التي مر النبي صلى الله عليه وسلم بها وهي تبكي عند قبر، فقال لها: (اتقي الله واصبري). فقالت: إليك عني، فإنك لم تصب بمثل مصيبتي. فانصرف الرسول صلى الله عليه وسلم عنها، فقيل لها: هذا رسول الله صلى الله عليه وسلم. فجاءت إليه تعتذر، فيم يقبل عذرها، وقال: (إنما الصبر عند الصدمة الأولى)[5]، فالنبي صلى الله عليه وسلم شاهدها عند القبر و لم ينهها عن الزيارة، وإنما أمرها أن تتقي الله وتصبر.

ولما ثبت من حديث عائشة الطويل، وفيه: أن النبي صلى الله عليه وسلم خرج إلى أهل البقيع في الليل، واستغفر لها ودعا لهم، وأن جبريل أتاه في الليل وأمره، فخرج صلى الله عليه وسلم مختفياً عن عائشة،

---

(١) الترمذي كتاب الجنائز باب ما جاء في كراهية زيارة القبور للنساء(١٠٥٦)، وابن ماجة كتاب الجنائز باب ما جاء في النهي عن زيارة النساء للقبور(١٥٧٤)، وحسنة الألباني في صحيح ابن ماجة (١٢٧٩).

(٢) جامع الترمذي في كتاب الجنائز باب ما جاء في كراهية زيارة القبور للنساء عند حديث (١٠٥٦) .

(٣) الجامع لأحكام القرآن ٢٠/١٧٠-١٧١.

(٤) البخاري: كتاب الجنائز باب اتباع النساء للجنائز(١٢١٩)، ومسلم: كتاب الجنائز باب نهي النساء عن اتباع الجنائز(٩٣٨).

(٥) أخرجه البخاري كتاب الجنائز باب زيارة القبور(١٢٨٣). ومسلم كتاب الجنائز باب في الصبر على المعصية عند الصدمة الأولى (٩٢٦).

وزار ودعا ورجع، ثم أخبرها الخبر، فقالت: ما أقول لهم يا رسول الله؟ قال: (قولي: السلام عليكم يا أهل الديار من المؤمنين والمسلمين...)[1] الخ.

قالوا: فعلمها النبي – صلى الله عليه وسلم – دعاء زيارة القبور، وتعليمه هذا دليل على الجواز.

ورأيت قولاً رابعا: أن زيارة النساء للقبور سنة كالرجال، لقوله صلى الله عليه وسلم: (كنت نهيتكم عن زيارة القبور، فزوروها، فإنها تذكركم الآخرة)[2]، وهذا عام للرجال والنساء.

ولأن عائشة رضي الله عنها زارت قبر أخيها، فقال لها عبدالله بن أبي مليكة، أليس النبي صلى الله عليه وسلم قد نهى عن زيارة القبور؟ قالت: إنه أمر بها بعد ذلك[3]. وهذا دليل على أنه منسوخ.

والصحيح القول الأول، ويجاب عن أدلة الأقوال الأخرى: بأن الصريح منها غير صحيح، والصحيح غير صريح، وقد أجاب عنها أهل العلم بالتفصيل[4].

قال الشيخ محمد الشنقيطي: "والناظر في القولين وأدلتهما يرى أن من قال بالتحريم له وجهٌ بالترجيح من جهة الأصول، والقائل بالجواز له وجهٌ وقوة من جهة الأدلة. أما الذين قالوا بالتحريم؛ فإن القاعدة في الأصول: إذا تعارض حاظر ومبيح، يقدم الحاظر على المبيح. ولذلك يقوى قول من قال بالتحريم على قول من قال بالجواز من جهة وجود هذا الأصل؛ لأنه لو قلنا للمرأة الآن: لا تزوري المقابر. فإنه في هذه الحالة يفوتها فضل الزيارة الذي يمكن أن تعوضه بالدعاء والاستغفار للميت والترحم عليه؛ لكننا لو قلنا لها: زوري المقابر. فإننا لا نأمن أن تكون قد أصابت المحظور، أو على الأقل شيئاً مكروهاً؛ ولذلك يكون تغليب باب الحظر من هذا الوجه أقوى وأولى.

ثم إذا نظرنا إلى واقع الناس وحالهم اليوم، وعدم انضباط كثير من النساء بالحدود والضوابط الشرعية؛ فإنه يقوي قول من قال بالحظر. واتفق العلماء على أنه لا تجوز زيارة المقابر إذا كانت المرأة ضعيفة أو لا تتمالك نفسها أو غلب على الظن أنها تفعل المحظور عند القبر، وإذا كانت شابةً فاتنة وذهبت إلى القبر فتنت غيرها أو فتنت نفسها أو جمعت بين الفتنتين فلا تجوز بالإجماع، فليست هذه مسألة خلافية، إنما الخلاف يكون في امرأة عاقلة حكيمة الغالب على الظن أنها تضبط نفسها، وتريد أن تتعظ؛ فهذا هو الذي يجيزه جمهور العلماء لها من الزيارة، لأن النبي صلى الله عليه وسلم لما مر على المرأة وهي تبكي عند القبر لم يقل لها: لعن الله زائرات القبور، ولم يحظر عليها ذلك، قالوا: فقد أقرها عليه الصلاة والسلام؛ لكن الناظر في حال الناس اليوم قد يجد أغلب النساء –إلا من رحم الله- أنهن لا يطقن

(١) أخرجه مسلم كتاب الجنائز باب ما يقال عند دخول القبور والدعاء لأهلها (٩٧٤).

(٢) سبق تخريجه.

(٣) أخرجه الحاكم ٥٣٢/١ (١٣٩٢)، والبيهقي في السنن ٧٨/٤ (٦٩٩٩)، وصححه الألباني في إرواء الغليل٢٣٤/٣.

(٤) انظر: كلام شيخ الإسلام ابن تيمية في مجموع الفتاوى ٣٤٣/٢٤. وابن عثيمين في القول المفيد شرح كتاب التوحيد . وكلام الإمام ابن جبرين في شرح عمدة الأحكام. وغيرها من كتب أهل العلم.

الزيارة، مع أنه بإمكانهن أن يعوضن هذا الأمر المشتبه فيه إلى أمرٍ لا شبهة فيه بالدعاء والاستغفار للموتى"[1].

تنبيه: "ولا شك أن المرأة إذا مرت بالمقبرة غير قاصدة للزيارة فسلمت على أهل القبور فإن ذلك جائز، ولا يدخل في النهي، وعلى هذا فيحمل حديث عائشة رضي الله عنها المذكور على من مرت بالمقبرة، ويبقى النهي محكماً لا معارض له"[2].

و لا يجوز لهن الإكثار من زيارة القبور والتردد عليها- حتى عند من أجازه- لأن ذلك قد يفضي بهن إلى مخالفة الشريعة، من مثل الصياح والتبرج واتخاذ القبور مجالس للنزهة، وتضييع الوقت في الكلام الفارغ، كما هو مشاهد اليوم في بعض البلاد الإسلامية[3].

---

(١) مذكرة شرح الزاد – مواد صوتية مفرغة.

(٢) مجموع فتاوى ورسائل ابن عثيمين١٧/٣٢٦.

(٣) هذا الكلام منقول عن الشيخ الألباني من كتاب أحكام الجنائزص٧٨-٨١ باختصار وتصرف .

المحور الثالث: آداب زيارة القبور

ينبغي لمن عزم على الزيارة أن يتأدب بآدابها :

١ - يحضر قلبه في إتيانها ولا يكون حظه منها التطواف على الأجداث فقط، بل يقصد بزيارته وجه الله تعالى وإصلاح فساد قلبه أو نفع الميت بالدعاء.

٢ - ذكر دعاء دخول المقابر، وقد تقدم .

٣ - أن لا يقول عند المقابر ما يغضب الرب سبحانه وتعالى، كدعاء المقبور أو طلب الشفاعة منه والاستغاثة به من دون الله تعالى، أو تزكيته والقطع له بالجنة، ونحو ذلك.

٤ - لا يستقبل القبور حين الدعاء لها، بل الكعبة، لأن الدعاء صلاة.

٥ - ويتجنب المشي على المقابر والجلوس عليها، ولا يمشي بين قبور المسلمين في نعليه. فعن عقبة بن عامر رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (لأن أمشي على جمرة أو سيف، أو أخصف نعلي برجلي؛ أحب إلي من أن أمشي على قبر مسلم، وما أبالي أوسط القبور قضيت حاجتي أو وسط السوق)[١].

وقد ذكرها القرطبي وأتبعها بقوله : "ثم يعتبر بمن صار تحت التراب وانقطع عن الأهل والأحباب، بعد أن قاد الجيوش والعساكر، ونافس الأصحاب والعشائر، وجمع الأموال والذخائر؛ فجاءه الموت في وقت لم يحتسبه، وهول لم يرتقبه". فليتأمل الزائر حال من مضى من إخوانه ودرج من أقرانه، الذي بلغوا الآمال، وجمعوا الأموال، كيف انقطعت آمالهم، ولم تغن عنهم أموالهم!! ومحا التراب محاسن وجوههم، وافترقت في القبور أجزاؤهم، وترمل من بعدهم نساؤهم، وشمل ذل اليتيم أولادهم، واقتسم غيرهم أموالهم. وليتذكر ترددهم في المآرب، وحرصهم على نيل المطالب، وانخداعهم لمواتاة الأسباب وركونهم إلى الصحة والشباب.

وليعلم أن ميله إلى اللهو واللعب كميلهم، وغفلته عما بين يديه من الموت الفظيع والهلاك السريع كغفلتهم، وأنه لا بد صائر إلى مصيرهم. وليحضر بقلبه ذكر من كان مترددا في أغراضه، وكيف تهدمت رجلاه؛ وكان يتلذذ بالنظر إلى ما حوله، وقد سالت عيناه!! ويصول ببلاغه نطقه، وقد أكل الدود لسانه!! ويضحك لمواتاة دهره، وقد أبلى التراب أسنانه!! وليتحقق أن حاله كحاله ومآله كمآله، وعند هذا التذكر والاعتبار، تزول عنه جميع الأغيار الدنيوية ويقبل على الأعمال الأخروية، فيزهد في دنياه، ويقبل على طاعة مولاه، ويلين قلبه، وتخشع جوارحه"[٢].

---

(١) أخرجه ابن ماجه كتاب الجنائز باب ما جاء في النهي عن المشي على القبور والجلوس عليها(١٥٦٧) وصححه الألباني في صحيح ابن ماجة (١٢٧٣).

(٢) الجامع لأحكام القرآن ١٧١/٢٠-١٧٠.

المطلب الثالث

تعدد نعم الله على الإنسان

أولاً: من المسؤول يوم القيامة :

قال تعالى: ﴿ ثُمَّ لَتُسْـَٔلُنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ ٱلنَّعِيمِ ﴿٨﴾ ﴾:

قال الماوردي: "وهذا السؤال يعم الكافر والمؤمن، إلا أن سؤال المؤمن تبشير بأن يجمع له بين نعيم الدنيا ونعيم الآخرة، وسؤال الكافر تقريع أن قابل نعم الدنيا بالكفر والمعصية. ويحتمل أن يكون ذلك تذكيراً بما أوتوه، ليكون جزاء على ما قدموه"[1].

"وقال قوم : هذا السؤال عن كل نعمة إنما يكون في حق الكفار"[2].

"والجمع بين الأخبار: أن الكل يُسألون، ولكن سؤال الكفار توبيخ لأنه قد ترك الشكر، وسؤال المؤمن سؤال تشريف لأنه شكر، وهذا النعيم في كل نعمة"[3].

ثانياً: تَذكر النبي صلى الله عليه وسلم نعم الله تعالى:

عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: بينما أبو بكر وعمر رضي الله عنهما جالسان، إذ جاءهما النبي صلى الله عليه وسلم فقال: (ما أجلسكما هاهنا؟) قالا: والذي بعثك بالحق ما أخرجنا من بيوتنا إلا الجوع. قال: (والذي بعثني بالحق ما أخرجني غيره). فانطلقوا حتى أتوا بيت رجل من الأنصار، فاستقبلتهم المرأة، فقال لها النبي صلى الله عليه وسلم: (أين فلان؟) فقالت: ذهب يستعذب لنا ماء. فجاء صاحبهم يحمل قربته فقال: مرحبا، ما زار العباد شيء أفضل من شيء زارني اليوم. فعلق قربته بكرب نخلة وانطلق فجاءهم بعذق، فقال النبي صلى الله عليه وسلم: (ألا كنت اجتنيت)؟ فقال: أحببت أن تكونوا الذين تختارون على أعينكم. ثم أخذ الشفرة، فقال النبي صلى الله عليه وسلم: (إياك والحلوب؟) فذبح لهم يومئذ، فأكلوا. فقال النبي صلى الله عليه وسلم: (لتسألن عن هذا يوم القيامة. أخرجكم من بيوتكم الجوع، فلم ترجعوا حتى أصبتم هذا، فهذا من النعيم)[4] فرضي الله عنهم جميعاً وأرضاهم.

ثالثاً: النعيم الذي نُسأل عنه يوم القيامة :

"قال مجاهد: عن كل لذة من لذات الدنيا -قال ابن كثير-: قول مجاهد هذا أشمل هذه الأقوال"[5].

---

(١) النكت والعيون ٦/٣٣٢.

(٢) الجامع لأحكام القرآن ٢٠/١٧٧.

(٣) تفسير جزء النبأ ابن عثيمين ٣٠٥-٣٠٦ مختصراً .

(٤) أخرجه مسلم كتاب الأشربة باب جواز استتباع غيره إلى دار من يثق برضاه بذلك...(٢٠٣٨).

(٥) تفسير القرآن العظيم ٨/٤٧٨.

قال أبو جعفر الطبري: "والصواب: أن يقال: إن الله أخبر أنه سائل هؤلاء القوم عن النعيم، و لم يخصص في خبره أنه سائلهم عن نوع من النعيم دون نوع، بل عمّ بالخبر في ذلك عن الجميع، فهو سائلهم كما قال عن جميع النعيم، لا عن بعض دون بعض"[1].

ونسوق بعض أقوال العلماء تذكيرا بنعم الله تعالى التي سنسأل عنها :

١ –**ملاذ المأكول والمشروب:** عن جابر بن عبد الله رضي الله عنهما قال: أكل رسول الله صلى الله عليه وسلم وأبو بكر وعمر رطباً، وشربوا ماء، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (هذا من النعيم الذي تسألون عنه)[2]. وقال الحسن البصري: نعيم الغداء والعشاء، وقال أبو قِلابة: من النعيم أكل العسل والسمن بالخبز النقي[3].

٢ – **الصحة والأمن:** عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال النبي صلى الله عليه وسلم: (إن أول ما يسأل عنه –يعني يوم القيامة– العبد من النعيم أن يقال له: ألم أُصِحّ لك جسمك، وأُرْوِكَ من الماء البارد؟)[4].

روى علي بن أبي طلحة رحمه الله عن ابن عباس رضي الله عنهما﴿ ثُمَّ لَتُسْـَٔلُنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ ٱلنَّعِيمِ ﴾ قال: النعيم: صحة الأبدان والأسماع والأبصار، يسأل الله العباد فيم استعملوها؟ وهو أعلم بذلك منهم، وهو قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلسَّمْعَ وَٱلْبَصَرَ وَٱلْفُؤَادَ كُلُّ أُوْلَٰٓئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْـُٔولًا ﴿٣٦﴾ ﴾ [الإسراء: ٣٦] [5].

وعن ابن مسعود رضي الله عنه، عن النبي صلى الله عليه وسلم في قوله: ﴿ ثُمَّ لَتُسْـَٔلُنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ ٱلنَّعِيمِ ﴾ قال: (الأمن والصحة)[6].

٣ –**طيب النفس:** قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (لا بأس بالغنى لمن اتقى الله، والصحة لمن اتقى الله خير من الغنى، وطيب النفس من النعيم)[7].

---

(١) جامع البيان ٦١١/٢٤.

(٢) أخرجه أحمد ٣٣٨/٣ (١٤٦٧٨). قال شعيب الأرنؤوط: إسناده صحيح على شرط مسلم.

(٣) انظر هذه الأقوال في تفسير القرآن العظيم ٤٧٨/٨.

(٤) أخرجه الترمذي كتاب تفسير القرآن باب سورة ألهاكم التكاثر برقم (٣٣٥٨)، وصحيح ابن حبان (٧٣٢٠) وصححه الألباني في صحيح الترمذي(٢٦٧٤).

(٥) جامع البيان ٦٠٢/٣٠ ، وأخرجه عبدالله بن أحمد بن حنبل في زوائد الزهد (١٥٧)، وعزاه السيوطي في الدر المنثور إلى عبد بن حميد وابن المنذر ٣٨٨/٦.

(٦) أخرجه أحمد في الزهد ٣٩٠/١ ، وابن أبي حاتم في تفسيره ٣٤٦٠/١٠(١٩٤٦١). والثعلبي بسنده ٢٧٩/١٠ وزاد السيوطي نسبته لابن مردوية في الدر المنثور ٦١٢/٨ (٢٩٣١٨)، وروي موقوفاً أخرجه الطبري ٥٨٢/٢٤، وهناد في الزهد ٣٦٤/٢ (٦٩٤)، والبيهقي قي شعب الإيمان (٤٦١٥).

(٧) أخرجه أحمد ٣٧٢/٥ (٢٣٢٠٦)، وابن ماجة كتاب التجارات باب الحث على المكاسب (٢١٤١)، قال شعيب الأرنؤوط: إسناده حسن، وصححه الألباني في صحيح ابن ماجة (١٧٤١) .

٤ –**الوقت** : عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم:(نعمتان مغبون فيهما كثير من الناس: الصحة والفراغ)[١].

قال ابن كثير: "ومعنى هذا: أنهم مقصرون في شكر هاتين النعمتين، لا يقومون بواجبهما، ومن لا يقوم بحق ما وجب عليه، فهو مغبون"[٢].

٥ –**العمر والمال والعلم:** فعن معاذ بن جبل رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (لا تزول قدما عبد يوم القيامة حتى يسأل عن أربع خصال: عن عمره فيما أفناه؟ وعن ماله من أين اكتسبه؟ وفيم أنفقه؟ وعن علمه ماذا عمل فيه؟)[٣].

٦ –**نعمة إرسال النبي صلى الله عليه وسلم:** قال محمد بن كعب رحمه الله: النعيم هو ما أنعم الله علينا بمحمد صلى الله عليه وسلم وفي التنزيل: ﴿لَقَدْ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ يَتْلُواْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَإِن كَانُواْ مِن قَبْلُ لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿١٦٤﴾﴾[آل عمران : ١٦٤][٤].

٧ –**نعمة الاصطفاء لنكون من أمة محمد صلى الله عليه وسلم و تخفيف الشرائع وتيسير القرآن:**

قال الله تعالى: ﴿وَجَٰهِدُواْ فِى ٱللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِۦ ۚ هُوَ ٱجْتَبَىٰكُمْ وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِى ٱلدِّينِ مِنْ حَرَجٍ ۚ مِّلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَٰهِيمَ ۚ هُوَ سَمَّىٰكُمُ ٱلْمُسْلِمِينَ مِن قَبْلُ وَفِى هَٰذَا لِيَكُونَ ٱلرَّسُولُ شَهِيدًا عَلَيْكُمْ وَتَكُونُواْ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ ۚ فَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ وَٱعْتَصِمُواْ بِٱللَّهِ هُوَ مَوْلَىٰكُمْ ۖ فَنِعْمَ ٱلْمَوْلَىٰ وَنِعْمَ ٱلنَّصِيرُ ﴿٧٨﴾﴾[الحج: ٧٨] ، وقال تعالى : ﴿وَلَقَدْ يَسَّرْنَا ٱلْقُرْءَانَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ﴿١٧﴾﴾[القمر: ١٧].

فهذه الأمور من نعم الله تعالى، ونعم الله تعالى لا تعد ولا تحصى؛ ولذلك قال تعالى: ﴿وَءَاتَىٰكُم مِّن كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ ۚ وَإِن تَعُدُّواْ نِعْمَتَ ٱللَّهِ لَا تُحْصُوهَآ ۗ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ ﴿٣٤﴾﴾ [إبراهيم: ٣٤] وقال تعالى: ﴿وَإِن تَعُدُّواْ نِعْمَةَ ٱللَّهِ لَا تُحْصُوهَآ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٨﴾﴾ [النحل: ١٨].

---

(١) أخرجه البخاري كتاب الرقاق باب ما جاء في الصحة والفراغ وأن لا عيش إلا عيش الآخرة(٦٤١٢) .

(٢) تفسير القرآن العظيم ٤٧٨/٨.

(٣) الجامع لأحكام القرآن ١٧٨/٢٠.

(٤) جامع الترمذي كتاب صفة القيامة والرقائق والورع(٢٤١٧)، وصححه الألباني في السلسلة الصحيحة (٩٤٦).

المطلب الرابع

كيف نقوم بواجب نعم الله علينا

لا سبيل إلى القيام بواجب نعم الله تعالى إلا بشكرها، ولا شك أن شكر الله تعالى على نعمه العظيمة التي لا تحصى ولا تعد واجب على العباد، وتتضح تلك الأهمية في:

- أن الأمر به والحث عليه أمر ظاهر في نصوص القرآن الكريم فمن ذلك: قوله تعالى: ﴿وَاشْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ ﴿١١٤﴾﴾ [النحل ١١٤] . وقال تعالى: ﴿وَلِيُتِمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٦﴾﴾ [المائدة ٦]

- وأخبر أن الشاكر لله هو العابد له سبحانه فقال: ﴿وَاشْكُرُوا لِلَّهِ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ ﴿١٧٢﴾﴾ [البقرة ١٧٢]

- وبين سبحانه جزاء الشاكرين وعقاب الكافرين، فقال تعالى : ﴿وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ ۖ وَلَئِن كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ ﴿٧﴾﴾ [إبراهيم ٧].

- وقال تعالى منبهاً أن الله لا يعذب عباده إذا شكروه: ﴿مَّا يَفْعَلُ اللَّهُ بِعَذَابِكُمْ إِن شَكَرْتُمْ وَآمَنتُمْ ۚ وَكَانَ اللَّهُ شَاكِرًا عَلِيمًا ﴿١٤٧﴾﴾ [النساء ١٤٧].

- وقد قَسَّمَ الله تعالى الناس إلى كفور وشكور، وبين مصير هؤلاء وهؤلاء، فقال: ﴿إِن تَكْفُرُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنكُمْ ۖ وَلَا يَرْضَىٰ لِعِبَادِهِ الْكُفْرَ ۖ وَإِن تَشْكُرُوا يَرْضَهُ لَكُمْ﴾ [الزمر ٧]

- وقد مدح الله الشاكرين وجعل جزاءهم إليه قال تعالى: ﴿وَسَيَجْزِي اللَّهُ الشَّاكِرِينَ ﴿١٤٤﴾﴾ [آل عمران ١٤٤]، ﴿وَسَنَجْزِي الشَّاكِرِينَ ﴿١٤٥﴾﴾ [آل عمران ١٤٥]، ﴿أَلَيْسَ اللَّهُ بِأَعْلَمَ بِالشَّاكِرِينَ ﴿٥٣﴾﴾ [الأنعام ٥٣].

- وبَيّنَ الله تعالى أن المستفيدين من آياته هم أهل الشكر قال تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ نُصَرِّفُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَشْكُرُونَ ﴿٥٨﴾﴾ [الأعراف ٥٨].﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ﴾ [إبراهيم: ٥].

- وذم وتوعد المتخلفين عن وعدهم له بالشكر فقال تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي يُسَيِّرُكُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ ۖ حَتَّىٰ إِذَا كُنتُمْ فِي الْفُلْكِ وَجَرَيْنَ بِهِم بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ وَفَرِحُوا بِهَا جَاءَتْهَا رِيحٌ عَاصِفٌ وَجَاءَهُمُ الْمَوْجُ مِن كُلِّ مَكَانٍ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ أُحِيطَ بِهِمْ ۙ دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ لَئِنْ أَنجَيْتَنَا مِنْ هَٰذِهِ لَنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ ﴿٢٢﴾ فَلَمَّا أَنجَاهُمْ إِذَا هُمْ يَبْغُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ ۗ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّمَا بَغْيُكُمْ عَلَىٰ أَنفُسِكُم ۖ مَّتَاعَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ۖ ثُمَّ إِلَيْنَا مَرْجِعُكُمْ فَنُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٢٣﴾﴾ [يونس ٢٢-٢٣].

- وكان ﷺ يقوم الليل حتى تتورم قدماه، فيقال له: أتصنع هذا وقد غفر الله لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر؟ فيقول رسول الله ﷺ: (أفلا أكون عبدا شكورا)[1].

- و"أخبر الله سبحانه أن عدو الله إبليس جعل غايته أن يسعى في قطع الناس عن الشكر، وذلك لما عرف عظم قدر مقام الشكر، وأنه من أجل المقامات وأعلاها وذلك في قوله تعالى: ﴿ قَالَ فَبِمَآ أَغْوَيْتَنِي لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَٰطَكَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ﴿١٦﴾ ثُمَّ لَءَاتِيَنَّهُم مِّنۢ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَٰنِهِمْ وَعَن شَمَآئِلِهِمْ ۖ وَلَا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَٰكِرِينَ ﴿١٧﴾ ﴾[الأعراف ١٦-١٧]"[2]. "أي: لا تجد أكثرهم عابدين، ولا تجد أكثرهم متبعين لما أنزل الله.

فليس الشكر كلمة تقال باللسان، كما أن الإيمان بالله ليس كلمة تقال، فهي كلمة تحتاج إلى عمل، كما أن الإيمان يحتاج إلى عمل؛ ومن هنا نفهم خطورة التهديد الشيطاني لبني آدم"[3]، ولذلك فإن الذين يشكرون الله تعالى قليل، قال تعالى: ﴿ ٱعْمَلُوٓا۟ ءَالَ دَاوُۥدَ شُكْرًا ۚ وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِىَ ٱلشَّكُورُ ﴿١٣﴾ ﴾[سبأ ١٣].

حقيقة الشكر؟

"الاعتراف بإنعام المنعم على وجه الخضوع له والذل والمحبة" [4]،وقيل:"ألاَّ ترى معه شريكا في نِعَمِهِ، وقيل: هو الإقرار بالعجز عن الشكر"[5].

قال ابن القيم"وبهذا يتبين أن الشكر مبني على خمس قواعد:

الأولى: خضوع الشاكر للمشكور.

الثانية: حبه له.

الثالثة: اعترافه بنعمته.

الرابعة: ثنائه عليه بها.

الخامسة: أن لا يستعملها فيما يكره"[6].

وَمَحَلُّ الشكرِ: "يكون بالقلب خضوعاً واستكانةً ومحبةً، وباللسان ثناءً واعترافاً، وبالجوارح طاعة وانقياداً"[7].

ثمار الشكر:

---

(١) أخرجه البخاري كتاب التهجد باب قيام النبي ﷺ الليل حتى تتورم قدماه (١١٣٠)، ومسلم كتاب الجنة والنار باب إكثار الأعمال والاجتهاد في العبادة (٢٨١٩).

(٢) فقه الأدعية والأذكار ٢٧٢/١.

(٣) دراسات قرآنية ١٩٨ بتصرف.

(٤) فقه الأدعية والأذكار ٢٧٥/١ .

(٥) تفسير النسفي ١٣٠/٤ .

(٦) مدارج السالكين ٢٤٤/٢ مختصراً .

(٧) مدارج السالكين ٢٤٦/٢.

إن الشكر عبادة لا نهاية لها، وثمارها يانعة في العاجل والآجل، علمية وعملية ولعل أهم تلك الثمار نوجزه في ثلاث نقاط:

١ - أن الله يعطي الشاكر المزيد ويبارك له، ويقيه من العذاب الشديد كما قال تعالى : ﴿ وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ ۖ وَلَئِن كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ ﴿٧﴾ ﴾ [إبراهيم ٧].
وقال: ﴿ وَسَنَجْزِي الشَّاكِرِينَ ﴿١٤٥﴾ ﴾ [آل عمران ١٤٥].

٢ - بالشكر يتحقق رضا الله تعالى، وتؤمن عقوبته بذلك، قال تعالى: ﴿ وَإِن تَشْكُرُوا يَرْضَهُ لَكُمْ ﴾ [الزمر ٧]، وقال تعالى عن قوم سبأ حينما أعرضوا عن شكر الله: ﴿ لَقَدْ كَانَ لِسَبَإٍ فِي مَسْكَنِهِمْ آيَةٌ ۖ جَنَّتَانِ عَن يَمِينٍ وَشِمَالٍ ۖ كُلُوا مِن رِّزْقِ رَبِّكُمْ وَاشْكُرُوا لَهُ ۚ بَلْدَةٌ طَيِّبَةٌ وَرَبٌّ غَفُورٌ ﴿١٥﴾ فَأَعْرَضُوا فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ سَيْلَ الْعَرِمِ وَبَدَّلْنَاهُم بِجَنَّتَيْهِمْ جَنَّتَيْنِ ذَوَاتَيْ أُكُلٍ خَمْطٍ وَأَثْلٍ وَشَيْءٍ مِّن سِدْرٍ قَلِيلٍ ﴿١٦﴾ ذَٰلِكَ جَزَيْنَاهُم بِمَا كَفَرُوا ۖ وَهَلْ نُجَازِي إِلَّا الْكَفُورَ ﴿١٧﴾ ﴾ [سبأ ١٥-١٧].

٣ - ومن ثمار الشكر: السرور والطمأنينة والرضا: قال النبي ﷺ: (عجباً لأمر المؤمن، إن أمره كله خير، وليس ذاك لأحد إلا للمؤمن: **إن أصابته سراء شكر** فكان خيرا له، وإن أصابته ضراء صبر فكان خيرا له)(١).

---

(١) أخرجه مسلم كتاب الزهد والرقائق باب المؤمن أمره كله خير (٢٩٩٩).

تفسير سورة العصر

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿ وَالْعَصْرِ (١) إِنَّ الْإِنسَانَ لَفِي خُسْرٍ (٢) إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ (٣) ﴾

المبحث الأول

مقدمات حول السورة

أولاً : تسميتها :

" سميت في كثير من المصاحف وفي معظم كتب التفسير بسورة (العصر)، وسميت في بعض التفاسير وفي صحيح البخاري[1](سورة والعصر) بإثبات الواو على حكاية أول كلمة فيها"[2].

ثانياً : نزولها ومناسبتها:

هي مكية في قول جمهور المفسرين[3]، وهي أول ثلاث سورٍ – مع الكوثر والنصر– هنَّ أقصر السور في عدد آياتهن .

أما عدد آياتها (٣) آيات، وكلماتها: (١٤) كلمة، وحروفها: (٦٨) حرفاً[4].

مناسبتها لما قبلها:

"الإنسان الذي ألهاه التكاثر بالأموال، والتفاخر بالجاه والسلطان، دون أن يتزود للآخرة بزاد الإيمان والتقوى، هو هذا الإنسان الخاسر .. وأي خسران أكثر من أنه اشترى الدنيا بالآخرة؟ وهذا ما جاءت سورة العصر لتقرره "[5].

ثالثاً : موضوعها :

"هذه السورة القصيرة ذات الآيات الثلاث تمثل منهجاً كاملاً للحياة البشرية كما أرادها الله تعالى . وتبرز معالم الإيمان بحقيقته الكبيرة الشاملة في أوضح وأدق صورة. إنها تضع التوجيه الإسلامي كله في

---

(١) أخرجه البخاري كتاب التفسير باب تفسير سورة والعصر .

(٢) التحرير والتنوير ٥٢٧/٣٠ بتصرف .

(٣) ورد ذلك عن ابن عباس ، انظر الدر المنثور ٣٩٠/٦.

(٤) التفسير القرآني للقرآن ٨٧/٣.

(٥) المصدر السابق.

كلمات قصار، وتصف الأمة المسلمة في آية واحدة هي الآية الثالثة من السورة، وهذا هو الإعجاز الذي لا يقدر عليه إلا الله.

والحقيقة الضخمة التي تقررها هذه السورة بمجموعها هي: أنه على امتداد الزمان في جميع الأعصار، وامتداد الإنسان في جميع الأدهار، ليس هنالك إلا منهج واحد رابح، وطريق واحد ناج، هو ذلك المنهج الذي ترسم السورة حدوده، وتصف معالمه، وكل ما وراء ذلك ضياع وخسارة. إنه الإيمان، والعمل الصالح، والتواصي بالحق، والتواصي بالصبر"(١).

رابعاً : فضلها وأهميتها:

يبرز فضل وأهمية سورة العصر في أمرين :

الأمر الأول: كان أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم يتخذونها شعاراً لهم في ملتقاهم:

فعن عبدالله بن حصن رضي الله عنه قال: "كان الرجلان من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا التقيا، لم يتفرقا إلا على أن يقرأ أحدهما على الآخر سورة العصر، ثم يسلم أحدهما على الآخر"(٢).

قال ابن كثير: "وهذا الصنيع من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم يدل على عظم شأن هذه السورة، وما تحمله من وصايا عظيمة يتعاهدون عليها، من الإيمان والعمل الصالح والتواصي بالحق والصبر"(٣).

الأمر الثاني: شمولها لجميع أسس الحياة :

قال الشافعي: "لو لم يترل غير هذه السورة لكفت الناس، وقال غيره: لأنها شملت جميع علوم القرآن"(٤)، وقال وفي رواية: "لو تدبر الناس هذه السورة، لوسعتهم"(٥)، وفي رواية: "لو فكر الناس كلهم في هذه السورة لكفتهم"(٦). وفي رواية: "لو ما أنزل الله حجة على خلقه إلا هذه السورة لكفتهم"(٧).وفي رواية (الناس في غفلة عن هذه السورة: والعصر....)(٨).

وذلك "لعظم شأنها مع غاية اختصارها، لو فكر الناس فيها لكفتهم؛ لجمعها للخير بحذافيره، فإنها دلت

---

(١) في ظلال القرآن ٣٩٦٤/٦ بتصرف واختصار.

(٢) المعجم الأوسط (٥٠٩٧)، والبيهقي في الشعب٥٠١/٦ (٩٠٥٧)، وقال الهيثمي في مجمع الزائد ١٢٢/١١ (١٧٧٢٣)، رجاله رجال الصحيحين وصححه الألباني في السلسلة الصحيحة (٢٦٤٨).

(٣) تفسير القرآن العظيم ٤٧٩/٨.

(٤) روح المعاني ٢٢٧/٣٠.

(٥) تفسير القرآن العظيم ٢٠٣/١ و ٤٧٩/٨.

(٦) مجموع فتاوى شيخ الإسلام١٥٢/٢٨، وإغاثة اللهفان ٢٥/١، ومسألة السماع ص ٤٠٤، مفتاح دار السعادة ٥٨/١.

(٧) ثلاثة الأصول ص ١٨٥، وحاشية الثلاثة الأصول ص٧.

(٨) تهذيب الأسماء للنووي ص٦٣، ورياض الصالحين ص٢٢٠.

على العلم والعمل ، والدعوة إلى الحق والصبر على الأذى فيه، فتضمنت جميع مراتب الكمال الإنساني .
فهي حقيقة بأن يقال فيها ما قاله هذا الإمام الجليل"[1].
قال ابن القيم رحمه الله تعالى: " وبيان كلام الشافعي هو: أن المراتب أربعة وباستكمالها يحصل للشخص **غاية كماله:**

إحداها: معرفة الحق.

الثانية: عمله به.

الثالثة: تعليمه من لا يحسنه.

الرابعة: صبره على تعلمه والعمل به وتعليمه.

فهذه السورة على اختصارها هي من أجمع سور القرآن للخير بحذافيره والحمد لله الذي جعل كتابه كافياً عن كل ما سواه شافيا من كل داء هادياً إلى كل خير"[2].

قال الشيخ محمد بن عبدالوهاب رحمه الله: "اعلم رحمك الله، أنه يجب علينا تعلم أربع مسائل:

الأولى: العلم، وهو: معرفة الله، ومعرفة نبيه، ومعرفة دين الإسلام بالأدلة.

الثانية: العمل به.

الثالثة: الدعوة إليه.

الرابعة: الصبر على الأذى فيه.

والدليل قوله تعالى: بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ ﴿وَٱلْعَصْرِ ﴿١﴾ إِنَّ ٱلْإِنسَـٰنَ لَفِى خُسْرٍ ﴿٢﴾ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلْحَقِّ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلصَّبْرِ ﴿٣﴾﴾"[3].

خامساً: المعنى الإجمالي للسورة:

أقسم الله بالدهر على أن بني آدم لفي هلكة ونقصان. إلا الذين آمنوا بالله وعملوا عملا صالحًا، وأوصى بعضهم بعضًا بالاستمساك بالحق، والعمل بطاعة الله، والصبر على ذلك[4].

(١) حاشية الثلاثة أصول ص٧.
(٢) مفتاح دار السعادة ١/٥٨- ٥٩.
(٣) هذا نص كلام الإمام رحمه الله، وانظر: حاشية الثلاثة أصول ص٧.
(٤) التفسير الميسر ص٦٠١.

المبحث الثاني

وقفات مع المقسم به والمقسم عليه

المطلب الأول

وقفات مع المقسم به

المقسم به: ﴿ وَٱلۡعَصۡرِ ﴾

افتتح الله تعالى هذه السورة بالقسم بمخلوق من مخلوقاته وهو العصر، وفائدة هذا القسم: تأكيد الخبر كما هو شأن أقسام القرآن، والمقسم به من المظاهر الدالة على عظيم قدرته وسعة علمه"(1).

فما معنى العصر هنا ؟

"أيا ما كان المراد من معنى العصر هنا فإن القسم به باعتبار أنه زمن يُذَكِّرُ بعظيم قدرة الله تعالى في خلق العالم وأحواله وبأمور عظيمة مباركة وعلى هذا فأشهر إطلاق لفظ العصر:

١ – أنه علم لوقت ما بين آخر وقت الظهر وبين اصفرار الشمس:

فذلك وقت يُؤْذِن بقرب انتهاء النهار، ويُذَكِّر بخلقة الشمس والأرض ونظام حركة الأرض والشمس وهي الحركة التي يتكون منها الليل والنهار كل يوم. وهو من هذا الوجه كالقسم بالضحى وبالليل والنهار وبالفجر.

وخصّ لأن ذلك الوقت يتهيأ الناس فيه للانقطاع عن أعمالهم في النهار، كالقيام على حقولهم وجناتهم وتجاراتهم في أسواقهم، فيُذَكِّر بحكمة نظام المجتمع الإنساني وما ألهم الله في غريزته من دَأب عن عمل ونظام لابتدائه وانقطاعه.

وفيه يتحفز الناس للإقبال على بيوتهم لمبيتهم والتأنس بأهليهم وأولادهم، وهو من النعيم، وفيه إيماء إلى التذكير بمثل الحياة حين تدنو آجال الناس بعد مضي أطوار الشباب والاكتهال والهرم.

٢ – ويطلق العصر على الصلاة الموقوتة بوقت العصر:

وهي صلاة معظمة. قيل: هي المراد بالوسطى في قوله تعالى: ﴿ حَٰفِظُواْ عَلَى ٱلصَّلَوَٰتِ وَٱلصَّلَوٰةِ ٱلۡوُسۡطَىٰ وَقُومُواْ لِلَّهِ قَٰنِتِينَ ﴿٢٣٨﴾ ﴾[البقرة: ٢٣٨].

وقد ورد أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : (من فاتته صلاة العصر فكأنما وتر أهله وماله)(2). "لأن التكليف في أدائها أشق لتهافت الناس في تجاراتهم وتحاسبهم آخر النهار واشتغالهم بمعايشهم"(3).

---

(١) التحرير والتنوير٣٠/٥٢٨.

(٢) أخرجه البخاري كتاب مواقيت الصلاة باب إثم من فاتته صلاة العصر(٥٥٢)، ومسلم كتاب المساجد ومواضع الصلاة باب التغليظ في تفويت العصر (٦٢٦).

(٣) البحر المحيط ٨/٥٠٧.

٣ – ويطلق العصر على مدة معلومة لوجود جيل من الناس أو ملك أو نبي أو دين:
ويعين بالإضافة فيقال: عصر إبراهيم وعصر الجاهلية..فيجوز أن يكون مراد هذا الإطلاق هنا ويكون المعني به عصر النبي صلى الله عليه وسلم(١).

"فهو تعالى أقسم بزمانه صلى الله عليه وسلم في هذه الآية، وبمكانه في قوله تعالى: ﴿ وَأَنتَ حِلٌّ بِهَٰذَا ٱلْبَلَدِ ﴾ [البلد:٢]، وبعمره في قوله: ﴿ لَعَمْرُكَ إِنَّهُمْ لَفِى سَكْرَتِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴾ [الحجر: ٧٢]"(٢).

٤ – "ويجوز أن يراد عصر الإسلام كله وهو خاتمة عصور الأديان لهذا العالم:
ومناسبة القسم بالعصر لغرض السورة ظاهرة، فإنها بينت حال الناس في عصر الإسلام: بين من كفر به، ومن آمن واستوفى حظه من الأعمال التي جاء بها الإسلام، ويعرف منه حال من أسلموا وكان في أعمالهم تقصير متفاوت. أما أحوال الأمم التي كانت قبل الإسلام فكانت مختلفة بحسب مجيء الرسل إلى بعض الأمم، وبقاء بعض الأمم بدون شرائع؛ متمسكة بغير دين الإسلام من الشرك، أو بدين جاء الإسلام بنسخه مثل اليهودية والنصرانية.

٥ – ويجوز أن يفسر العصر في هذه الآية بالزمان كله"(٣).
قال ابن جرير: " الصواب أن يقال: إن ربنا أقسم بالعصر، وهو: اسم للدهر، وهو: العشيّ والليل والنهار، ولم يخصص مما شمله هذا الاسم معنى دون معنى، فكلّ ما لزِمه هذا الاسم فداخل فيما أقسم به"(٤).

قال ابن كثير: "العصر هو الزمان الذي يقع فيه حركات بني آدم من خير أو شر"(٥).

"فالعصر هو: الزمان. وهذا هو الأصح، أقسم الله به لما يقع فيه من اختلاف الأحوال، وتقلبات الأمور، ومداولة الأيام بين الناس وغير ذلك مما هو مشاهد في الحاضر ومتحدث عنه في الغائب"(٦).

"فلو ضيعت ألف سنة ثم تبت في اللمحة الأخيرة من العمر بقيت في الجنة أبد الآبدين، فعلمت حينئذ أن أشرف الأشياء حياتك في اللمحة الأخيرة، فكأن الدهر والزمان من جملة أصول النعم، فلذلك أقسم به ونبه على أن الليل والنهار فرصة يضيعها المكلف، وإليه الإشارة بقوله تعالى: ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ خِلْفَةً لِّمَنْ أَرَادَ أَن يَذَّكَّرَ أَوْ أَرَادَ شُكُورًا ﴿٦٢﴾ ﴾ [الفرقان: ٦٢]"(٧).

---

(١) التحرير والتنوير مختصراً ٣٠/٥٢٨-٥٣٠.
(٢) التفسير الكبير ٣٢/٨٦ .
(٣) التحرير والتنوير مختصراً ٣٠/٥٢٨-٥٣٠.
(٤) جامع البيان٢٤/٦١٢.
(٥) تفسير القرآن العظيم ٨/٤٨٠.
(٦) تفسير جزء عم لابن عثيمين ٣٠٧.
(٧) التفسير الكبير ٣٢/٨٤ .

المطلب الثاني

وقفات مع المقسم عليه

المقسم عليه :﴿ إِنَّ ٱلْإِنسَـٰنَ لَفِى خُسْرٍ ﴾

﴿ ٱلْإِنسَـٰنَ ﴾: "الإنسان هنا عام، لأن المراد به الجنس، وعلامة الإنسان الذي يراد به العموم أن يحل محل (أل) كلمة (كل)، فهنا لو قيل : كل إنسان في خسر لكان هذا هو معنى الآية"[(١)].

﴿ لَفِى خُسْرٍ ﴾: الخسران: "مصدر، وهو ضد الربح في التجارة، وهو هنا لسوء العاقبة لمن يظن لنفسه عاقبة حسنة"[(٢)]، وعلى هذا فالخسران المقصود في الآية هو: " ذهاب رأس مال الإنسان في هلاك نفسه وعمره بالمعاصي، وهما أكبر رأس ماله"[(٣)].

والظرفية في قوله: ﴿ لَفِى خُسْرٍ ﴾ "لبيان ملازمة الخسر بإحاطة الظروف بالمظروف فكانت أبلغ من أن يقال إن الإنسان لخاسر"[(٤)].

قال شيخ الإسلام: "إن الله أخبر أن جميع الناس خاسرون إلا من كان في نفسه مؤمناً صالحاً ومع غيره موصياً بالحق موصيا بالصبر"[(٥)].

"والخسارة مراتب متعددة متفاوتة:

١ -قد يكون خسارًا مطلقًا، كحال من خسر الدنيا والآخرة، وفاته النعيم، واستحق الجحيم.

٢ -وقد يكون خاسرًا من بعض الوجوه دون بعض"[(٦)]، فإن كان محسناً ندم أن لا يكون ازداد من الخير والإحسان . قال القرطبي: "إن الإنسان إذا عمر في الدنيا وهرم، لفي نقص وضعف وتراجع، إلا المؤمنين، فإنهم تكتب لهم أجورهم التي كانوا يعملونها في حال شبابهم"[(٧)].

---

(١) تفسير جزء النبأ لابن عثيمين ٣٠٧-٣٠٨.

(٢) التحرير والتنوير ٥٣١/٣٠ باختصار.

(٣) معالم التتريل ٥٢٢/٨.

(٤) التحرير والتنوير ٥٣١/٣٠ باختصار.

(٥) الاستقامة ٢٦٠/٢.

(٦) تيسير الكريم الرحمن ٩٣٤.

(٧) الجامع لأحكام القرآن١٨٠/٢٠.

المبحث الثالث

صفات الناجين من الخسران

بعد أن أقسم الله تعالى بالعصر على أن كل فرد من أفراد الناس في خسارة، استثنى الله تعالى بعض الناس الذين لهم صفات معينة تقيهم من هذا الخسران، وهذه الصفات كما يأتي :

المطلب الأول

الإيمان بالله تعالى

قال تعالى:﴿ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ﴾ : وسنتعرض لهذه الصفة من عدة محاور :

المحور الأول: الإيمان وحقيقته :

لغة: مأخوذ من الأمن وهو طمأنينة النفس، وهو التصديق. قال أخوة يوسف لأبيهم: ﴿ وَمَآ أَنتَ بِمُؤۡمِنٖ لَّنَا وَلَوۡ كُنَّا صَٰدِقِينَ ﴿١٧﴾ ﴾ [يوسف ١٧]. أي وما أنت بمصدق لنا.

إلاَّ أن الإيمان هو التصديق الذي معه أَمْنٌ[١] أي: طمأنينة. وقيل الإيمان هو: الثقة وإظهار الخضوع[٢].

واصطلاحاً: قول باللسان واعتقاد بالجنان وعمل بالأركان يزيد بالطاعة وينقص بالعصيان[٣].

ويشمل الإيمان بالأركان المذكورة في حديث جبريل عليه السلام المشهور، عندما سأل النبي صلى الله عليه وسلم عن الإيمان فقال صلى الله عليه وسلم: (أن تؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر وبالقدر خيره وشره. قال: صدقت .....)[٤].

ويشمل الإيمان كذلك سائر شعب الإيمان، كما قال النبي صلى الله عليه وسلم: (الإيمان بضع وسبعون شعبة، أعلاها قول : لا إله إلا الله، وأدناها إماطة الأذى عن الطريق ، والحياء شعبة من الإيمان)[٥].

فالإيمان وصفٌ يشمل أعمالاً ظاهرة وباطنه، وهو درجة أعلى من الإسلام ، فتدخل أعمال الإسلام فيه. مع التنبيه إلى أنه: " لا يكون الإيمان بدون العلم- بما أمر الله به من الإيمان- ، فهو فرع عنه لا يتم إلا به"[٦]، وعند انتفاء العلم بكيفية العبادات التي تزيد وتقرب إلى الله يحصل الخلل في الإيمان، بل قد يصل الأمر إلى الخروج من الإسلام كمن يعبد أو يصلي لقبر زعماً أو اعتقادا منه أنه يعبد الله تعالى بعبادته صاحب ذلك القبر.

---

(١) المفردات في غريب القرآن ٢١ مادة (أمن).

(٢) القاموس المحيط ١٥١٨.

(٣) كتاب الإيمان لشيخ الإسلام ص٢٤٩.

(٤) أخرجه مسلم كتاب الإيمان باب بيان الإسلام والإيمان والإحسان(٨) . وللفائدة راجع شرح ابن رجب له في جامع العلوم والحكم الحديث الثاني ، وشرح النووي على صحيح مسلم ، وشرح الأربعين النووية للشيخ ابن عثيمين.

(٥) أخرجه مسلم كتاب الإيمان باب شعب الإيمان (٣٥).

(٦) تيسير الكريم الرحمن٩٣٤.

المحور الثاني: مراتب الإيمان:

وعلى هذا فإن الإيمان بالله مراتب يرتقي فيها العبد:

"**المرتبة الأولى:** الإيمان المانع من الخلود في النار ويسمى: [أصل الإيمان أو مطلق الإيمان].

وحقيقته: التزام العبودية لله تعالى وحده، وإفراده بالطاعة والانقياد وإن أخل بالواجبات وقارف السيئات مادام مجتنباً للمكفرات.

المرتبة الثانية: الإيمان المانع من دخول النار ويسمى: [الإيمان الواجب أو الإيمان المطلق].

وحقيقته: يتضمن مطلق الإيمان وزيادة فعل جميع الواجبات وترك المحرمات، وهذا كماله الواجب.

المرتبة الثالثة: وهي أعلى المراتب: الإيمان المرقّي لصاحبه في درج الجنان ويسمى: [الإيمان المستحب، أو الإيمان الكامل].

وحقيقته: تحقيق الإيمان المطلق مع الازدياد من فعل المستحبات وتمام اجتناب المكروهات.

ودليل هذه المراتب قوله تعالى: ﴿ ثُمَّ أَوْرَثْنَا ٱلْكِتَٰبَ ٱلَّذِينَ ٱصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا ۖ فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِۦ وَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌۢ بِٱلْخَيْرَٰتِ بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَضْلُ ٱلْكَبِيرُ ﴿٣٢﴾ ﴾ [فاطر ٣٢]"[١].

يقول الشيخ السعدي رحمه الله: "ولما كانت هذه الأمة أكمل الأمم عقولاً وأحسنهم أفكاراً، وأرقهم قلوباً، وأزكاهم أنفساً، اصطفاهم الله تعالى، واصطفى لهم دين الإسلام، وأورثهم الكتاب المهيمن على سائر الكتب، ولهذا قال: ﴿ ثُمَّ أَوْرَثْنَا ٱلْكِتَٰبَ ٱلَّذِينَ ٱصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا ﴾ وهم هذه الأمة. ﴿فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِۦ ﴾ بالمعاصي، التي هي دون الكفر. ﴿وَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ ﴾ مقتصر على ما يجب عليه، تارك للمحرم. ﴿ وَمِنْهُمْ سَابِقٌۢ بِٱلْخَيْرَٰتِ بِإِذْنِ ٱللَّهِ ﴾ أي: سارع فيها واجتهد، فسبق غيره، وهو: المؤدي للفرائض، المكثر من النوافل، التارك للمحرم والمكروه.

فكلهم اصطفاه اللّه تعالى، لوراثة هذا الكتاب، **وإن تفاوتت مراتبهم**، وتميزت أحوالهم، فلكل منهم قسط من وراثته، حتى الظالم لنفسه، فإن ما معه من أصل الإيمان، وعلوم الإيمان؛ وأعمال الإيمان، من وراثة الكتاب، لأن المراد بوراثة الكتاب: وراثة علمه وعمله، ودراسة ألفاظه، واستخراج معانيه"[٢].

المحور الثالث : أثر الإيمان في عدم الخسران:

إن الإيمان هو:

١ "**أصل الحياة الكبير**، الذي ينبثق منه كل فرع من فروع الخير، وتتعلق به كل ثمرة من ثماره ، وإلا فهو فرع مقطوع من شجرته، صائر إلى ذبول وجفاف.

٢ **وهو المحور الذي تشد إليه جميع خيوط الحياة الرفيعة**، وإلا فهي مفلتة لا تمسك بشيء، ذاهبة بدداً

(١) الإيمان حقيقته، خوارمه، نواقضه عند أهل السنة والجماعة ٢٤- ٢٧ باختصار.

(٢) تيسير الكريم الرحمن ٦٨٩.

مع الأهواء والنزوات .

٣ وهو **المنهج الذي يضم شتات الأعمال**، ويردها إلى نظام تتناسق معه وتتعاون، وتنسلك في طريق واحد، وفي حركة واحدة، لها دافع معلوم، ولها هدف مرسوم .

٤ – إن الإيمان دليل على صحة الفطرة وسلامة التكوين الإنساني ، وتناسقه مع فطرة الكون كله، ودليل التجاوب بين الإنسان والكون من حوله.

فكل عمل لا يرجع إلى هذا الأصل، ولا يشد إلى هذا المحور، ولا ينبع من هذا المنهج، ولا يستند إلى هذا الدليل فهو هدر . والقاعدة الإسلامية صريحة في هذا كل الصراحة، قال تعالى: ﴿ مَّثَلُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِرَبِّهِمۡۖ أَعۡمَٰلُهُمۡ كَرَمَادٍ ٱشۡتَدَّتۡ بِهِ ٱلرِّيحُ فِي يَوۡمٍ عَاصِفٖۖ لَّا يَقۡدِرُونَ مِمَّا كَسَبُواْ عَلَىٰ شَيۡءٖۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلضَّلَٰلُ ٱلۡبَعِيدُ ﴿١٨﴾ ﴾ [إبراهيم: ١٨]، وقال تعالى: ﴿ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَعۡمَٰلُهُمۡ كَسَرَابِۭ بِقِيعَةٖ يَحۡسَبُهُ ٱلظَّمۡـَٔانُ مَآءً حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَهُۥ لَمۡ يَجِدۡهُ شَيۡـٔٗا وَوَجَدَ ٱللَّهَ عِندَهُۥ فَوَفَّىٰهُ حِسَابَهُۥۗ وَٱللَّهُ سَرِيعُ ٱلۡحِسَابِ ﴿٣٩﴾ ﴾[النور: ٣٩]، وهي نصوص صريحة في إهدار قيمة العمل كله، ما لم يستند إلى الإيمان، الذي يجعل له دافعاً موصولاً بالله عز وجل، وهدفاً متناسقاً مع غاية الوجود ﴿ وَمَا خَلَقۡتُ ٱلۡجِنَّ وَٱلۡإِنسَ إِلَّا لِيَعۡبُدُونِ ﴿٥٦﴾ ﴾ [الذاريات: ٥٦]. وهذه هي النظرة المنطقية لعقيدة ترد الأمور كلها إلى الله. فمن انقطع عنه فقد انقطع وفقد حقيقة معناه"[١].

المحور الرابع: علاقة الإيمان بصفة الإنسانية:

في قوله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلۡإِنسَٰنَ لَفِي خُسۡرٍ ﴿٢﴾ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ﴾ ما يدل على أن مقومات الإيمان هي بذاتها مقومات الإنسانية الرفيعة الكريمة ويبرز ذلك من خلال الآتي:

١ التحرر الحقيقي للإنسان من العبودية:

فالتعبد لإله واحد يرفع الإنسان عن العبودية لسواه، ويقيم في نفسه المساواة مع جميع العباد؛ فلا يذل لأحد، ولا يحني رأسه لغير الواحد القهار، قال تعالى: ﴿ يَٰصَٰحِبَيِ ٱلسِّجۡنِ ءَأَرۡبَابٞ مُّتَفَرِّقُونَ خَيۡرٌ أَمِ ٱللَّهُ ٱلۡوَٰحِدُ ٱلۡقَهَّارُ ﴿٣٩﴾ ﴾ [يوسف: ٣٩].

٢ الربانية هي مصدر التلقي:

فهي التي تحدد الجهة التي يتلقى منها الإنسان عقيدته وقيمه وموازينه واعتباراته وشرائعه وقوانينه، فينتفي من الحياة الهوى والمصلحة، وتحل محلهما الشريعة والعدالة. وترفع من شعور المؤمن بقيمة منهجه، وتمده بالاستعلاء على تصورات العقائد المختلفة وقيمها واعتباراتها، وعلى القيم المستمدة من الارتباطات الأرضية الواقعة، قال تعالى: ﴿ ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلٗا رَّجُلٗا فِيهِ شُرَكَآءُ مُتَشَٰكِسُونَ وَرَجُلٗا سَلَمٗا لِّرَجُلٍ هَلۡ يَسۡتَوِيَانِ مَثَلًاۚ ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِۚ بَلۡ أَكۡثَرُهُمۡ لَا يَعۡلَمُونَ ﴿٢٩﴾ ﴾ [الزمر: ٢٩]، وقال تعالى: ﴿ وَإِن تُطِعۡ أَكۡثَرَ مَن فِي ٱلۡأَرۡضِ

---

(١) في ظلال القرآن٦/٣٩٦٦ باختصار وتصرف.

﴿ يُضِلُّوكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِۚ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَإِنۡ هُمۡ إِلَّا يَخۡرُصُونَ ﴿١١٦﴾ ﴾ [الأنعام: ١١٦].

٣ وضوح الصلة بين الخالق والمخلوق من غير واسطة:

فبيان الإيمان لمقام الألوهية ومقام العبودية على حقيقتها الناصعة، مما يصل هذه الخليقة الفانية بالحقيقة الباقية في غير تعقيد، وبلا وساطة في الطريق. ويُودع القلب نوراً، والروح طمأنينة، والنفس أنساً وثقة. وينفي التردد والخوف والقلق والاضطراب كما ينفي الاستكبار في الأرض بغير الحق، والاستعلاء على العباد بالباطل والافتراء! قال تعالى: ﴿إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ ٱللَّهُ مِنَ ٱلۡمُتَّقِينَ ﴿٢٧﴾ ﴾[المائدة: ٢٧].

٤ الاستقامة على المنهج الذي يريده الله هو الطريق لعزة الإنسان:

فلا يكون الخير فلته عارضة، ولا نزوة طارئة، ولا حادثة منقطعة. إنما ينبعث عن دوافع، ويتجه إلى هدف، ويتعاون عليه الأفراد المرتبطون في الله، فتقوم الجماعة المسلمة ذات الهدف الواحد الواضح، والراية الواحدة المتميزة. وتتضامن الأَجيال المتعاقبة الموصولة بهذا الحبل المتين.قال تعالى بعد ذكره لعدد من الأنبياء ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُۖ فَبِهُدَىٰهُمُ ٱقۡتَدِهۡۗ ﴾ [الأنعام: ٩٠].

٥ الاعتقاد بكرامة الإنسان على الله:

وهذا الأمر يرفع من اعتباره في نظر نفسه، ويثير في ضميره الحياء من التدني عن المرتبة التي رفعه الله إليها. وهذا أرفع تصور يتصوره الإنسان لنفسه، أنه كريم عند الله، قال تعالى: ﴿ وَلَقَدۡ كَرَّمۡنَا بَنِيٓ ءَادَمَ وَحَمَلۡنَٰهُمۡ فِي ٱلۡبَرِّ وَٱلۡبَحۡرِ وَرَزَقۡنَٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَفَضَّلۡنَٰهُمۡ عَلَىٰ كَثِيرٖ مِّمَّنۡ خَلَقۡنَا تَفۡضِيلٗا ﴿٧٠﴾ ﴾ [الإسراء: ٧٠]. وكل مذهب أو تصور يحط من قدر الإنسان في نظر نفسه، ويرده إلى منبت حقير، ويفصل بينه وبين الملأ الأعلى، هو تصور أو مذهب يدعوه إلى التدني ولو لم يقل له ذلك صراحة! قال تعالى: ﴿وَلَقَدۡ ذَرَأۡنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرٗا مِّنَ ٱلۡجِنِّ وَٱلۡإِنسِۖ لَهُمۡ قُلُوبٞ لَّا يَفۡقَهُونَ بِهَا وَلَهُمۡ أَعۡيُنٞ لَّا يُبۡصِرُونَ بِهَا وَلَهُمۡ ءَاذَانٞ لَّا يَسۡمَعُونَ بِهَآۚ أُوْلَٰٓئِكَ كَٱلۡأَنۡعَٰمِ بَلۡ هُمۡ أَضَلُّۚ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡغَٰفِلُونَ ﴿١٧٩﴾ ﴾ [الأعراف: ١٧٩].

٦ – الحاسة الأخلاقية:

فهي ثمرة طبيعية وحتمية للإيمان بإله عادل رحيم عفو كريم ودود حليم، يكره الشر ويحب الخير، ويعلم خائنة الأعين وما تخفي الصدور[1].

---

(١) وانظر في ظلال القرآن٦/٣٩٦٦– ٣٩٦٧.

المطلب الثاني

عمل الصالحات

قال تعالى :﴿ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ ﴾ :

نعرض لهذه الصفة من خلال المحاور التالية :

المحور الأول: ربط الفوز بالإيمان والعمل الصالح:

هذا الربط بين الإيمان والعمل الصالح له شواهد كثيرة جداً في القرآن تربو على خمسين موضعاً وسنقتصر على بعضها لبيان أهمية هذا الربط:

قال تعالى:﴿ وَبَشِّرِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أَنَّ لَهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ ﴾[البقرة ٢٥].

قال تعالى: ﴿ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ سَنُدْخِلُهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا لَّهُمْ فِيهَآ أَزْوَٰجٌ مُّطَهَّرَةٌ وَنُدْخِلُهُمْ ظِلًّا ظَلِيلًا ﴿٥٧﴾ ﴾ [النساء: ٥٧]

قال تعالى:﴿ وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ عَظِيمٌ ﴿٩﴾ ﴾[المائدة: ٩].

قال تعالى :﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ يَهْدِيهِمْ رَبُّهُم بِإِيمَٰنِهِمْ تَجْرِي مِن تَحْتِهِمُ ٱلْأَنْهَٰرُ فِي جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ ﴿٩﴾ ﴾ [يونس: ٩].

قال تعالى:﴿ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ طُوبَىٰ لَهُمْ وَحُسْنُ مَـَٔابٍ ﴿٢٩﴾ ﴾ [الرعد: ٢٩].

قال تعالى:﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ كَانَتْ لَهُمْ جَنَّٰتُ ٱلْفِرْدَوْسِ نُزُلًا ﴿١٠٧﴾ ﴾ [الكهف: ١٠٧].

فنجد أن الله عز وجل في هذه الآيات وغيرها ربط البُشْرى لمن أَتْبع العمل الصالح بالإيمان، وتلك البشرى مما يسعى له العبد ويتحقق له به النجاح والفوز الكبير؛ لأنه دخول الجنان، ونيل رضى الرحمن، والتنعم بما لذّ وطاب مما تشتهيه الأنفس وتلذ الأعين، ويصفو به الخاطر، ويأمن به الناجي على مستقبله، فهو خالد، ونعيمه مخلد له، بل ومتجدد، مع تمام اللذة بالأزواج الطاهرات المطهرات، وكمال المسرات بالخدم والأنهار، وجمع ما يخطر على قلب بشر من الملذات، بل وما لا يخطر على قلب بشر.

وذلك كله بسبب إيمانهم، وجزاء عملهم الصالح؛ الذي كان موصلاً لرحمة الله وعفوه ومغفرته، ولهذا جاء وعداً من الله لعباده المؤمنين الذين يعملون الصالحات فكان وعداً مستقبلياً، ووعداً ناجزاً في الحياة الدنيا بالنصرة والتوفيق والسعادة والزيادة من العمل الصالح، لتكون درجاتهم أرفع ومقاماتهم أسمى.

المحور الثاني: أهمية العمل لتحقيق الإيمان:

"العمل الصالح وهو الثمرة الطبيعية للإيمان، والحركة الذاتية التي تبدأ في ذات اللحظة التي تستقر فيها حقيقة الإيمان في القلب، فالإيمان حقيقة إيجابية متحركة، ما إن تستقر في الضمير حتى تسعى بذاتها إلى

تحقيق ذاتها في الخارج في صورة عمل صالح. فهذا هو الإيمان؛ لا يمكن أن يظل خامداً لا يتحرك، كامناً لا يتبدى في صورة حية خارج ذات المؤمن. فإن لم يتحرك هذه الحركة الطبيعية فهو مزيف أو ميت، شأنه شأن الزهرة لا تمسك أريجها. فهو ينبعث منها انبعاثاً طبيعياً، وإلا فهو غير موجود!

فالإيمان حركة وعمل وبناء وتعمير، يُتجه به إلى الله. إنه ليس انكماشاً وسلبية وانزواء في مكنونات الضمير. وليس مجرد النوايا الطيبة التي لا تتمثل في حركة وهذه طبيعة الإسلام البارزة التي تجعل منه قوة بناء كبرى في صميم الحياة"[1].

المحور الثالث: الربط بين العمل وصلاح العمل :

من الملاحظ أن الله تعالى وصف العمل الذي يقي من الخسران بقوله: ﴿ وَعَمِلُواْ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ ﴾ أي أن العمل منه أعمال غير صالحة وأعمال صالحة، وهذه تنبني على الصفة التي قبلها فإذا كانت حقيقة الإيمان واضحة في قلب الإنسان فستكون أعماله موافقة لذلك الإيمان، أما إذا كان في الإيمان خللٌ في التصور أو في الحقيقة فإن العمل سيكون غير صالح، قال تعالى: ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ وَكَانَ عَرْشُهُۥ عَلَى ٱلْمَآءِ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ﴾[هود: ٧].

قال تعالى: ﴿ إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى ٱلْأَرْضِ زِينَةً لَّهَا لِنَبْلُوَهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ﴿٧﴾ ﴾[الكهف: ٧].

وقال تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ مَنْ أَحْسَنَ عَمَلًا ﴿٣٠﴾ ﴾ [الكهف: ٣٠].

وقال تعالى: ﴿ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْمَوْتَ وَٱلْحَيَوٰةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْغَفُورُ ﴿٢﴾ ﴾ [الملك: ٢].

ولذلك لا يكون العمل صالحاً يقي من الخسران إلا بشرطين وهما:

الشرط الأول: الإخلاص لله تعالى في العمل :

وهو أن يكون العمل لله تعالى وحده، لا يريد به الإنسان رياءً ولا سمعةً ولا منصباً، ولا أي أمر من أمور الدنيا، قال تعالى: ﴿ وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعْبُدُواْ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ حُنَفَآءَ ﴾ [البينة:٥].

وقال صلى الله عليه وسلم: (إنما الأعمال بالنيات وإنما لكل امرئ ما نوى، فمن كانت هجرته إلى الله ورسوله فهجرته إلى الله ورسوله، ومن كانت هجرته لدنيا يصيبها أو امرأة يتزوجها فهجرته إلى ما هاجر إليه)[2]. قال سفيان الثوري: "ما عالجت شيئاً أشد علي من نيتي"[3].

فلا شك أن أمر الإخلاص عظيم، وخطر الرياء جسيم في حياة الإنسان. وآفات الإخلاص

---

(١) في ظلال القرآن٦/ ٣٩٦٧ باختصار.

(٢) أخرجه البخاري كتاب بدء الوحي باب كيف كان بدأ وحي النبي صلى الله عليه وسلم (١)، ومسلم كتاب الإمارة باب قوله صلى الله عليه وسلم: (إنما الأعمال بالنيات..) (١٩٠٧) باختلاف يسير .

(٣) تذكرة السامع والمتكلم ٦٨.

كثيرة، والشهوات والمطامع لا تنقطع، فكم ممن عمل مخلصاً ولكن تحولت النية وتقلبت به الأهواء(1).

الشرط الثاني: متابعة سنة النبي صلى الله عليه وسلم:

قال تعالى: ﴿ وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مُخۡلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ حُنَفَآءَ وَيُقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤۡتُواْ ٱلزَّكَوٰةَۚ وَذَٰلِكَ دِينُ ٱلۡقَيِّمَةِ ٥ ﴾ [البينة٥].

"والمتابعة لا تتحقق إلا إذا كانت موافقة للشرع في أمور ستة وهي: السبب، والجنس، والقدر، والصفة، والزمان، والمكان"(2)، جمعها الله تعالى في قوله تعالى لنبيه صلى الله عليه وسلم: ﴿ فَٱسۡتَقِمۡ كَمَآ أُمِرۡتَ وَمَن تَابَ مَعَكَ وَلَا تَطۡغَوۡاْۚ إِنَّهُۥ بِمَا تَعۡمَلُونَ بَصِيرٞ ١١٢ ﴾[هود: ١١٢].

وقال تعالى: ﴿ فَلِذَٰلِكَ فَٱدۡعُۖ وَٱسۡتَقِمۡ كَمَآ أُمِرۡتَۖ وَلَا تَتَّبِعۡ أَهۡوَآءَهُمۡۖ وَقُلۡ ءَامَنتُ بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِن كِتَٰبٖۖ وَأُمِرۡتُ لِأَعۡدِلَ بَيۡنَكُمُۖ ٱللَّهُ رَبُّنَا وَرَبُّكُمۡۖ لَنَآ أَعۡمَٰلُنَا وَلَكُمۡ أَعۡمَٰلُكُمۡۖ لَا حُجَّةَ بَيۡنَنَا وَبَيۡنَكُمُۖ ٱللَّهُ يَجۡمَعُ بَيۡنَنَاۖ وَإِلَيۡهِ ٱلۡمَصِيرُ ١٥ ﴾[الشورى: ١٥].

وقال تعالى: ﴿ ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلۡمَوۡتَ وَٱلۡحَيَوٰةَ لِيَبۡلُوَكُمۡ أَيُّكُمۡ أَحۡسَنُ عَمَلٗاۚ وَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡغَفُورُ ٢ ﴾ [الملك: ٢] قال الفضيل بن عياض أي: " أخلصه وأصوبه. قالوا: يا أبا علي ما أخلصه وأصوبه؟! فقال: إن العمل إذا كان خالصاً و لم يكن صواباً لم يقبل، وإذا كان صوابا و لم يكن خالصاً لم يقبل؛ حتى يكون خالصاً صوابا. والخالص: أن يكون لله. والصواب أن يكون على السنة"(3).

المحور الرابع: الأعمال الصالحة التي تقي الإنسان من الخسران:

الأعمال الصالحة عامة في كل شي ، ويمكن أن نقسمها إلى ثلاثة:

أولاً: أعمال صالحة لا تجوز إلا لله تعالى: ويأثم من صرفها لغير الله ولا تقبل؛ كالصلاة والزكاة والحج ، والدعاء والخوف والرجاء والاستعانة والاستغاثة والحلف..

ثانياً: أعمال صالحة في العادات: كالسعي لطلب الرزق، والنوم، والنكاح، وملاعبة الأهل وملاطفة الأولاد، والأكل. وهذه الأعمال -بالإخلاص والمتابعة- تصبح عبادةً للمرءُ وتُصلِحُ أهدافه، وتحول عمله من عادات ورغبات إلى طاعة وعبادة يتقرب بها إلى ربه ومولاه .

ثالثاً: أعمال صالحة في الترك: كمن يترك الكذب أو الغيبة أو السرقة أو الزنا، أو أي أمر محرم أو مكروه فهذا مع النية يؤجر عليه.

---

(1) للاستزادة عن الإخلاص انظر كتاب طوق النجاة للشيخ فيصل البعداني من إصدارات مجلة البيان.

(2) انظر هذه الأمور في مجموع فتاوى ابن عثيمين ٢٦٢/٧.

(3) شرح نونية ابن القيم ٢٥٣/١، وللاستزادة حول الموضوع انظر: مقدمة كتاب زاد المعاد في هدي خير العباد لابن القيم.

قال تعالى مبيناً أن حياة الإنسان كلها لله تعالى إذا أخلص النية له وحده واتبع سبيل المرسلين: ﴿قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٦٢﴾ لَا شَرِيكَ لَهُ وَبِذَٰلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ ﴿١٦٣﴾﴾ [الأنعام: ١٦٢-١٦٣].

وعن أبي ذر رضي الله عنه: أن ناساً قالوا للنبي صلى الله عليه وسلم: يا رسول الله ذهب أهل الدثور بالأجور يصلون كما نصلي ويصومون كما نصوم ويتصدقون بفضول أموالهم؟ قال صلى الله عليه وسلم: (أو ليس قد جعل الله لكم ما تصدقون؟! إن بكل تسبيحة صدقة، وكل تكبيرة صدقة، وكل تحميدة صدقة، وكل تهليلة صدقة، وأمر بالمعروف صدقة، ونهي عن منكر صدقة، وفي بضع أحدكم صدقة) قالوا: يا رسول الله أياتي أحدنا شهوته ويكون له فيها أجر؟! قال: (أرأيتم لو وضعها في حرام أكان عليه فيها وزر؟ فكذلك إذا وضعها في الحلال كان له أجر)[1].

قال الإمام النووي: " وفي هذا دليل على أن المباحات تصير طاعات بالنيات الصادقات، فالجماع يكون عبادة إذا نوى به: قضاء حق الزوجة ومعاشرتها بالمعروف الذي أمر الله تعالى به، أو طلب ولد صالح، أو إعفاف نفسه، أو إعفاف زوجته، ومنعهما جميعا من النظر إلى حرام، أو الفكر فيه أو الهمّ به، أو غير ذلك من المقاصد الصالحة"[2]

وبعد دراستنا للصفتين السابقتين نعلم أنه يجب على الإنسان أن يصلح نفسه أولاً لينجوا من الخسران، وصلاح النفس لا يكون إلا بالإيمان والعمل الصالح. ثم يأتي دور الإنسان في إصلاح غيره وذلك بالتواصي بالحق والصبر كما سيأتي.

---

(١) أخرجه مسلم كتاب الزكاة باب بيان أن اسم الصدقة يقع على كل نوع من المعروف (١٠٠٦).

(٢) شرح صحيح مسلم ٦٩٧/٢.

المطلب الثالث

التواصي على الحق

قال تعالى: ﴿ وَتَوَاصَوۡاْ ﴾

نعرض لهذه الصفة من خلال المحاور التالية:

المحور الأول: معنى التواصي بالحق:

قال ابن جرير: أي: " وأوصى بعضهم بعضاً بلزوم العمل بما أنزل الله في كتابه؛ من أمره، واجتناب ما نهى عنه فيه"[1].

وبكلمة ﴿ وَتَوَاصَوۡاْ ﴾ تقرر"أن على أهل الإسلام أن يتعاضدوا ويتكاتفوا ويكونوا جماعة واحدة، بل أمة واحدة متماسكة مترابطة. فتواصوا تفيد لغةً التفاعل والاشتراك في الفعل بين الطرفين. ثم إن هذه الصيغة تتحدث عنهم بصيغة -الجمع بل السورة كلها ﴿ ءَامَنُواْ ﴾ ﴿ وَعَمِلُواْ ﴾ ﴿ وَتَوَاصَوۡاْ ﴾- وهكذا معظم الخطاب في القرآن الذي وجه إلى هذه الأمة بصيغة الجماعة"[2].

فمن التواصي بالحق: الأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر، والوعظ والتذكير، والتعليم، والتدريب، والتربية ولذلك وسائل متعددة ووجوه متنوعة.

المحور الثاني: أهمية التواصي بالحق:

"أما التواصي بالحق فتبرز من خلاله صورة الأمة المسلمة ذات الكيان الخاص، والرابطة المميزة، والوجهة الموحدة. الجماعة التي تشعر بكيانها كما تشعر بواجبها. والتي تعرف حقيقة ما هي مقدمة عليه من الإيمان والعمل الصالح، الذي يشمل -فيما يشمل- قيادة البشرية في طريق الإيمان والعمل الصالح؛ فتتواصى فيما بينها بما يعينها على النهوض بالأمانة الكبرى.

فمن خلال: لفظ التواصي، ومعناه، وطبيعته، وحقيقتهن تبرز صورة الأمة المتضامَّة المتضامِنَة، الأمة الخيرة، الواعية، القيِّمَة في الأرض على الحق والعدل والخير"[3].

قال تعالى مادحاً الأمة التي تتواصى بالحق: ﴿ كُنتُمۡ خَيۡرَ أُمَّةٍ أُخۡرِجَتۡ لِلنَّاسِ تَأۡمُرُونَ بِٱلۡمَعۡرُوفِ وَتَنۡهَوۡنَ عَنِ ٱلۡمُنكَرِ وَتُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِۗ ﴾ [آل عمران: ١١٠].

---

(١) جامع البيان ٢٤/٦١٤.

(٢) تفسير سورة العصر – عبدالعزيز قارئ ٦١.

(٣) في ظلال القرآن ٦/ ٣٩٦٨ باختصار وتصرف .

وقال تعالى آمراً بالتواصي بالحق، ومحذرا من إغفال هذا الأمر: ﴿ وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى ٱلْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ ۚ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿١٠٤﴾ وَلَا تَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ تَفَرَّقُوا۟ وَٱخْتَلَفُوا۟ مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلْبَيِّنَٰتُ ۚ وَأُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١٠٥﴾ ﴾ [آل عمران: ١٠٤ – ١٠٥] .

فنص الله تعالى على الأمر بالتواصي بالحق، وبينّ أن عدم التواصي بالحق يجلب الفرقة والتزاع بين الناس.

وبين الله تعالى أن الذين لا يتواصون بالحق ملعونين فقال تعالى: ﴿ لُعِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنۢ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ عَلَىٰ لِسَانِ دَاوُۥدَ وَعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَ ۚ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَوا۟ وَّكَانُوا۟ يَعْتَدُونَ ﴿٧٨﴾ كَانُوا۟ لَا يَتَنَاهَوْنَ عَن مُّنكَرٍ فَعَلُوهُ ۚ لَبِئْسَ مَا كَانُوا۟ يَفْعَلُونَ ﴿٧٩﴾ ﴾ [المائدة: ٧٨ – ٧٩] .

وقارن الله تعالى في القرآن بين من يتواصى بالحق وبين غيره، فقال تعالى: ﴿ وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا رَّجُلَيْنِ أَحَدُهُمَآ أَبْكَمُ لَا يَقْدِرُ عَلَىٰ شَىْءٍ وَهُوَ كَلٌّ عَلَىٰ مَوْلَىٰهُ أَيْنَمَا يُوَجِّههُّ لَا يَأْتِ بِخَيْرٍ ۖ هَلْ يَسْتَوِى هُوَ وَمَن يَأْمُرُ بِٱلْعَدْلِ ۙ وَهُوَ عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٧٦﴾ ﴾ [النحل: ٧٦] .

والتواصي على الحق يؤدي إلى عمل الإنسان بالحق قبل أن يدعو إليه فبذلك يعينه على إصلاح نفسه:

قال ابن عاشور: " وأفادت صيغة التواصي بالحق وبالصبر: أن يكون شأن حياة المؤمنين قائماً على شيوع التآمر بهما ديدنا لهم. وذلك يقتضي اتصاف المؤمنين بإقامة الحق، وصبرهم على المكاره في مصالح الإسلام وأمته، لما يقتضيه عُرْفُ الناس من أن أحداً لا يوصي غيره بملازمة أَمْرٍ إلا وهو يرى ذلك الأمر خَلِيْقَا بالملازمة، إذ قَلَّ أن يُقْدِم أحدٌ على أمر بحق هو لا يفعله، وقد قال تعالى توبيخاً لبني إسرائيل ومن سلك طريقهم وفعل مثلهم واستن بسنتهم: ﴿ أَتَأْمُرُونَ ٱلنَّاسَ بِٱلْبِرِّ وَتَنسَوْنَ أَنفُسَكُمْ وَأَنتُمْ تَتْلُونَ ٱلْكِتَٰبَ ۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٤٤﴾ ﴾ [البقرة: ٤٤]"[1].

"فالتواصي بالحق ضرورة، والنهوض بالحق عسير، والمعوقات عن الحق كثيرة، وعلى هذا فالتواصي: تذكيرٌ وتشجيعٌ وإشعارٌ بالقربى في الهدف والغاية، والأخوة في العبء والأمانة. فهو مضاعفة لمجموع الاتجاهات الفردية، إذ تتفاعل معاً فتتضاعف. وهذا الدين -وهو الحق- لا يقوم إلا في حراسة جماعة متواصية متكافلة متضامنة على هذا المثال"[2].

(١) التحرير والتنوير ٥٣٤/٣٠ باختصار.

(٢) في ظلال القرآن ٦/ ٣٩٦٩ بتصرف يسير .

المحور الثالث: من صور التواصي بالحق:

أولاً: الأمر بالمعروف:

قال الله تعالى: ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِّمَّن دَعَآ إِلَى ٱللَّهِ وَعَمِلَ صَٰلِحًا وَقَالَ إِنَّنِى مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿٣٣﴾ وَلَا تَسْتَوِى ٱلْحَسَنَةُ وَلَا ٱلسَّيِّئَةُ ۚ ٱدْفَعْ بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ فَإِذَا ٱلَّذِى بَيْنَكَ وَبَيْنَهُۥ عَدَٰوَةٌ كَأَنَّهُۥ وَلِىٌّ حَمِيمٌ ﴿٣٤﴾ وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ٱلَّذِينَ صَبَرُوا۟ وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ ﴿٣٥﴾﴾ [فصلت:٣٣–٣٥].

وقال تعالى: ﴿وَتَعَاوَنُوا۟ عَلَى ٱلْبِرِّ وَٱلتَّقْوَىٰ ۖ وَلَا تَعَاوَنُوا۟ عَلَى ٱلْإِثْمِ وَٱلْعُدْوَٰنِ﴾ [المائدة: ٢].

وعن أبي مسعود عقبة بن عمرو الأنصاري رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (من دل على خيرٍ فله مثل أجر فاعله)(١).

وعن أبي هريرة رضي الله عنه، أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: (من دعا إلى هدى كان له من الأجر مثل أجور من تبعه لا ينقص ذلك من أجورهم شيئاً، ومن دعا إلى ضلالة كان عليه من الإثم مثل آثام من تبعه لا ينقص ذلك من آثامهم شيئاً)(٢).

ثانياً: النهي عن المنكر:

وهو من أخطر مجالات التواصي بالحق، وأهماها قال تعالى: ﴿لُعِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنۢ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ عَلَىٰ لِسَانِ دَاوُۥدَ وَعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَ ۚ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَوا۟ وَّكَانُوا۟ يَعْتَدُونَ ﴿٧٨﴾ كَانُوا۟ لَا يَتَنَاهَوْنَ عَن مُّنكَرٍ فَعَلُوهُ ۚ لَبِئْسَ مَا كَانُوا۟ يَفْعَلُونَ ﴿٧٩﴾﴾ [المائدة: ٧٨ – ٧٩].

وعن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: (من رأى منكم منكرا فإن استطاع أن يغيره بيده فليفعل فإن لم يستطع فبلسانه فإن لم يستطع فبقلبه وذلك أضعف الإيمان)(٣).

وعن النعمان بن بشير رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: (مثل القائم على حدود الله والواقع فيها والمداهن فيها مثل قوم استهموا على سفينة فأصاب بعضهم أعلاها وأصاب بعضهم أسفلها وأوعرها فإذا هم استقوا الماء آذوا من فوقهم فقالوا لو أنا خرقنا في موضعنا خرقا و لم نؤذ من فوقنا فإذا هم تركوهم وأمرهم هلكوا جميعا وإن أخذوا على أيديهم نجوا جميعا)(٤).

وعن حذيفة رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: (والذي نفسي بيده، لتأمرنّ

---

(١) أخرجه مسلم في كتاب الإمارة باب فضل إعانة الغازي في سبيل الله بمركوب وغيره وخلافته في أهله بخير (١٨٩٣).

(٢) أخرجه مسلم في كتاب العلم باب من سن سنة حسنة أو سيئة ومن دعا إلى هدى أو ضلالة (٢٦٧٤).

(٣) أخرجه مسلم في كتاب الإيمان باب بيان كون النهي عن المنكر من الإيمان وأن الإيمان يزيد وينقص(٤٩).

(٤) أخرجه البخاري كتاب الشركة باب هل يقرع في القسمة والاستهام فيه (٢٤٩٣)

بالمعروف، ولتنهونّ عن المنكر، أو ليوشكن الله أن يبعث عليكم عقاباً منه، ثم تدعونه فلا يستجاب لكم)[1].

وعن أبي بكر الصديق رضي الله عنه قال: يا أيها الناس، إنكم لتقرأون هذه الآية: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ عَلَيۡكُمۡ أَنفُسَكُمۡۖ لَا يَضُرُّكُم مَّن ضَلَّ إِذَا ٱهۡتَدَيۡتُمۡ ﴾ [المائدة:١٠٥]، وإني سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: (إن الناس إذا رأوا الظالم فلم يأخذوا على يديه أوشك أن يعمّهم الله بعقاب منه)[2].

ثالثاً: دعوة غير المسلمين للإسلام:

قال بعض مشايخنا: "فمن عجائب هذه السورة أنه بكلمة ﴿وَتَوَاصَوۡاْ ﴾ قررت أن أهل هذه الملة – ملة الإسلام– يجب أن يحملوا الرسالة إلى الآخرين، فبعد أن عرفوا الحق عليهم أن يبلغوه غيرهم؛ دعوةً وتعليماً وإرشاداً"[3].

وقد ثبت عن النبي صلى الله عليه وسلم حينما أرسل علي رضي الله عنه لفتح خيبر أنه قال له: (فوالله لأن يهدى بك رجل واحد خير لك من حمر النعم)[4].

رابعاً: رفع الظلم عن المظلومين، والأخذ على يد الظالم:

قال ﷺ: (انصر أخاك ظالماً أو مظلوما) قيل: أنصره مظلوماً، فكيف أنصره ظالماً؟! قال: (تحجزه عن الظلم – ذلك نصره)[5]. وقال ﷺ: (المسلم أخو المسلم لا يظلمه ولا يخذله ولا يسلمه)[6].

قال ابن حجر: "(لا يسلمه) أي: لا يتركه مع من يؤذيه ولا فيما يؤذيه، بل ينصره ويدفع عنه. وهذا أخص من ترك الظلم. وقد يكون ذلك واجباً وقد يكون مندوباً؛ بحسب اختلاف الأحوال"[7].

وقال ﷺ: (ما من امرئ يخذل امر ءًا مسلماً في موضع تنتهك فيه حرمته وينتقص فيه من عرضه إلا خذله الله في موطن يحب فيه نصرته، وما من امرء ينصر مسلماً في موضع ينتقص فيه من عرضه وينتهك من حرمته إلا نصره الله في موطن يحب نصرته)[8].

---

(١) أخرجه الترمذي كتاب الفتن باب ما جاء في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر (٢١٦٩)، وحسنه الألباني في صحيح وضعيف جامع الترمذي.

(٢) جامع الترمذي كتاب الفتن باب ما جاء في نزول العذاب إذا لم يغير المنكر (٢١٦٨). وصححه الألباني في صحيح الجامع (١٩٧٣).

(٣) تفسير سورة العصر – عبدالعزيز قارئ ٦٠.

(٤) أخرجه البخاري كتاب الجهاد والسير باب دعاء النبي صلى الله عليه و سلم إلى الإسلام والنبوة وأن لا يتخذ بعضهم بعضا أربابا من دون الله (٢٩٤٢)، ومسلم في فضائل الصحابة باب من فضائل علي بن أبي طالب رضي الله عنه (٢٤٠٦).

(٥) أخرجه البخاري كتاب الإكراه باب يمين الرجل لصاحبه أنه أخوه إذا خاف عليه القتل أو نحوه (٦٩٥٢) .

(٦) أخرجه البخاري كتاب المظالم باب لا يظلم المسلم ولا يسلمه (٢٤٤٢). ومسلم كتاب البر والصلة والأدب باب تحريم الظلم (٢٨٥٠).

(٧) فتح الباري ١١٧/٥.

(٨) أخرجه أبو داود كتاب الأدب باب من رد عن مسلم غيبته (٤٨٨٤). والبيهقي في شعب الإيمان باب التعاون على البر والتقوى

خامساً: التواصي بالود عن أعراضهم:

قال تعالى: ﴿ لَوۡلَآ إِذۡ سَمِعۡتُمُوهُ ظَنَّ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ وَٱلۡمُؤۡمِنَٰتُ بِأَنفُسِهِمۡ خَيۡرٗا وَقَالُواْ هَٰذَآ إِفۡكٞ مُّبِينٞ ﴿١٢﴾ ﴾[النور: ١٢].

"هذا عتاب من الله تعالى لأهل الإيمان به فيما وقع في أنفسهم من إرجاف من أرجف في أمر عائشة رضي الله عنها. بما أرجف به. فيقول لهم تعالى: هلا أيها الناس إذا سمعتم ما قال أهل الإفك في عائشة ﴿ ظَنَّ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ وَٱلۡمُؤۡمِنَٰتُ بِأَنفُسِهِمۡ خَيۡرٗا ﴾"[١] وذلك لأن المؤمنين بعضهم من بعض.

فإن"الإيمان رحم بين المؤمنين، يوجب عليهم ظن الخير ببعضهم، والكف عن الطعن فيهم، ومنع الطاعنين عنهم كما يمنعوهم على أنفسهم"[٢].

فقد ورد أن الآية هذه نزلت في أبي أيوب الأنصاري وزوجته رضي الله عنهما، وذلك أن أبا أيوب قالت له امرأته أم أيوب: يا أبا أيوب؛ أما تسمع ما يقول الناس في عائشة رضي الله عنها. قال: نعم؛ ، وذلك الكذب. أكنت فاعلة ذلك يا أم أيوب؟ قالت: لا؛ والله ما كنت لأفعله. قال: فعائشة والله خير منك[٣].

وعن أم الدرداء عن أبي الدرداء رضي الله عنهما : أن النبي صلى الله عليه و سلم قال: (من رد عن عرض أخيه رد الله عن وجهه النار يوم القيامة)[٤].

وورد "أن سفيان الواسطي ذكر رجلاً بسوء عند إياس بن معاوية، فنظر إليه وقال: أغزوتَ الروم؟ قال: لا. قال: السّنْدَ والهندَ والتركَ؟ قال: لا. قال: أفسَلِمَ منك الروم والسند والهند، ولم يسلم منك أخوك المسلم؟! قال: فلم أعد بعدها"[٥].

سادساً: الإصلاح بين الناس:

قال تعالى: ﴿ لَّا خَيۡرَ فِي كَثِيرٖ مِّن نَّجۡوَىٰهُمۡ إِلَّا مَنۡ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ أَوۡ مَعۡرُوفٍ أَوۡ إِصۡلَٰحِۭ بَيۡنَ ٱلنَّاسِۚ وَمَن يَفۡعَلۡ ذَٰلِكَ ٱبۡتِغَآءَ مَرۡضَاتِ ٱللَّهِ فَسَوۡفَ نُؤۡتِيهِ أَجۡرًا عَظِيمٗا ﴿١١٤﴾ ﴾ [النساء: ١١٤]، وقال تعالى: ﴿ إِنَّمَا ٱلۡمُؤۡمِنُونَ إِخۡوَةٞ فَأَصۡلِحُواْ بَيۡنَ أَخَوَيۡكُمۡۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمۡ تُرۡحَمُونَ ﴿١٠﴾ ﴾[الحجرات ٩-١٠].

فنحن بحاجة إلى الفرد الصالح الذي يتربى في بيئة ترفرف عليها السعادة؛ بلا نزاع وشقاق، وهنا ينشأ

٦/ ١١٠ (٧٦٣٢). وحسن إسناده الهيثمي في مجمع الزوائد باب فيمن قدر على نصرة مظلوم أو إنكار منكر ٧/٢٦٧، وضعفه الألباني ضعيف سنن أبي داود (٤٨٨٤).

(١) تفسير الطبري ١٧/ ٢١٢.

(٢) موضوعات سور القرآن– سورة النور– عبد الحميد طهماز ٣١.

(٣) أخرجه الطبري في جامع البيان ١٨/ ٧٧، وابن كثير في البداية والنهاية٨/ ٦٠. وفي التفسير ٦/ ٢٦. والواحدي في أسباب النزول (٢٧٠). وذكره ابن هشام في السيرة النبوية ٣/ ٣١٥.

(٤) جامع الترمذي كتاب البر والصلة باب ما جاء في الذب عن عرض المسلم (١٩٣١)، وصححه الألباني في صحيح وضعيف الترمذي.

(٥) البداية النهاية ٩/ ٣٥٠.

الأفراد في جو نفسي رائع بعيد عن التوتر والقلق، وفي مثل هذه البيئة يتخرّج الدعاة والمصلحون والمبدعون في كل مجالات الحياة الدينية والدنيوية .

ولقد أدرك العدو أن فك الرابطة الاجتماعية بين المسلمين معناه: انهيار المجتمع الإسلامي بكامله. فمتى وجدت القلاقل والمشكلات في بيئة؛ فلا تنتظر أن يتخرّج منها جيل صالح ناصح مبدع يخدم دينه وأمته وبلده.

فحاجة الأمة الإسلامية -اليوم خاصة، وفيما يستقبل من الأيام عامة- إلى التواصي على إصلاح ما انصدع من كيانها بسبب الشقاق والنزاع أمر مطلوب شرعاً؛ تأثم الأمة لو لم تقم به.

سابعاً: التواصي بمساعدة الناس في جميع أمورهم :

قال تعالى: ﴿ وَتَعَاوَنُواْ عَلَى ٱلْبِرِّ وَٱلتَّقْوَىٰ ۖ وَلَا تَعَاوَنُواْ عَلَى ٱلْإِثْمِ وَٱلْعُدْوَٰنِ ۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴿٢﴾ ﴾ [المائدة: ٢]

عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (كل سُلامى من الناس عليه صدقة، كل يوم تطلع فيه الشمس تعدل بين الاثنين صدقة، وتعين الرجل في دابته فتحمله عليها أو ترفع له عليها متاعه صدقة، والكلمة الطيبة صدقة، وكل خطوة تمشيها إلى الصلاة صدقة، وتميط الأذى عن الطريق صدقة)(١).

قال أحد السلف: "من شرط الأخوة أن لا تحوج أخاك إلى الاستعانة بك والتماس النصرة منك، ولا تقصر في تفقد أحواله بحيث يشكل عليك موضع حاجته فيحتاج إلى مسألتك"(٢).

ومجالات التواصي بالحق كثيرة، وهذه صُورٌ منها فقط.

المحور الرابع : التجرد في التواصي بالحق :

قال تعالى: ﴿ قُلْ هَلْ مِن شُرَكَآئِكُم مَّن يَهْدِيٓ إِلَى ٱلْحَقِّ ۚ قُلِ ٱللَّهُ يَهْدِي لِلْحَقِّ ۗ أَفَمَن يَهْدِيٓ إِلَى ٱلْحَقِّ أَحَقُّ أَن يُتَّبَعَ أَمَّن لَّا يَهِدِّيٓ إِلَّآ أَن يُهْدَىٰ ۖ فَمَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ ﴿٣٥﴾ ﴾ [يونس: ٣٥].

بقد بين الله تعالى في هذه الآية أن الوصول للحق هو الغاية من الهداية، أن على الإنسان إذا جاءه الحق أو دعي للحق أن يلتزم به ويتجرد في سامعه.

وكتب عمر بن الخطاب إلى معاوية بن أبي سفيان رضي الله عنهما بقوله: "أما بعد فالزم الحق، ينزلك الحق منازل أهل الحق، يوم لا يقضى إلا بالحق"(٣).

(١) أخرجه مسلم كتاب الزكاة باب اسم الصدقة يطلق على كل معروف (١٠٠٩).

(٢) نظم الدرر للبقاعي ١٥٧/٨.

(٣) أخرجه ابن أبي شيبة في المصنف ٢٦٩/٧ رقم (١١٩) .

ولما ولي الصديق رضي الله عنه الخلافة خطب فقال: "أيها الناس إنما أن متبع ولست بمبتدع، فإن أحسنت فأعينوني، وإن زغت فقوموني"[1].

وأوصى عبد الله بن مسعود رضي الله عنه رجلاً فقال: (ومن جاءك بالحق فاقبل منه وإن كان بعيداً، ومن أتاك بباطل فأردده وإن كان حبيباً قريباً"[2].

ويكفينا في ذلك ما جعله الله عز وجل منهجاً لنبينا محمد صلى الله عليه وسلم ومن تبعه على دينه إلى يوم القيامة فقال تعالى: ﴿ قُلْ هَٰذِهِۦ سَبِيلِىٓ أَدْعُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ ۚ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا۠ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِى ۖ وَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٠٨﴾ ﴾ [يوسف: ١٠٨].

وكان من مقالة الأنبياء كلهم لأقوامهم عندما يوصوهم بالحق: ﴿ وَيَٰقَوْمِ لَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مَالًا ۖ إِنْ أَجْرِىَ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ ۚ ﴾ [هود: ٢٩].

(١) أخرجه ابن سعد في الطبقات ٣/٨١-٨٢.

(٢) أخرجه الطبراني في المعجم الكبير (٨٥٣٧).

المطلب الرابع
التواصي بالصبر

قال تعالى :﴿ وَتَوَاصَوۡاْ بِٱلصَّبۡرِ ﴾

نعرض هذه الصفة من خلال المحاور التالية:

المحور الأول: معنى التواصي بالصبر :

قال ابن جرير: أي "وأوصى بعضهم بعضاً بالصبر على العمل بطاعة الله"[(١)].

وقال ابن كثير: "أوصى بعضهم بعضاً بالصبر على المصائب والأقدار، وأذى من يؤذي- ممن يأمرونه بالمعروف وينهونه عن المنكر"[(٢)].

فالصبر يكون على أداء الطاعة على الوجه المشروع وبإخلاص للباري جل وعلا، ويكون على الأذى من المدعوين، ويكون على المشقة والتعب في تبيين الحق لهم، والصبر على عدم الاستجابة منهم.

والتواصي بالصبر مفاعلة بين طرفين لابد للإنسان منها، ويكون بوسائل وأساليب متعددة كالتعليم والقدرة والوعظ والتذكير والوصية وعرض واستعراض سيد الصابرين، ومعالجة نواقض الصبر، والأخذ بالأسباب ونحو ذلك.

المحور الثاني: أهمية التواصي بالصبر:

" إن القيام على الإيمان والعمل الصالح، وحراسة الحق والعدل، من أعسر ما يواجه الفرد والأمة . ولا بد من الصبر. لا بد من الصبر على جهاد النفس، وجهاد الغير، والصبر على الأذى والمشقة، والصبر على تبجح الباطل والشر، والصبر على طول الطريق وبطء المراحل، وانطماس المعالم، وبُعْدُ النهاية!

والتواصي بالصبر يضاعف المقدرة؛ بما يبعثه من إحساس بوحدة الهدف، ووحدة المتجه، وتعاون الجميع، وتزودهم بالحب والعزم والإصرار"[(٣)].

والقيادة في الدنيا والدين لا تنال إلا بالصبر واليقين بالله، قال تعالى: ﴿ وَجَعَلۡنَا مِنۡهُمۡ أَئِمَّةٗ يَهۡدُونَ بِأَمۡرِنَا لَمَّا صَبَرُواْۖ وَكَانُواْ بِـَٔايَٰتِنَا يُوقِنُونَ ٢٤ ﴾ [السجدة ٢٤].

والعاقبة للمتقين الصابرين: قال تعالى: ﴿ تِلۡكَ مِنۡ أَنۢبَآءِ ٱلۡغَيۡبِ نُوحِيهَآ إِلَيۡكَۖ مَا كُنتَ تَعۡلَمُهَآ أَنتَ وَلَا قَوۡمُكَ مِن قَبۡلِ هَٰذَاۖ فَٱصۡبِرۡۖ إِنَّ ٱلۡعَٰقِبَةَ لِلۡمُتَّقِينَ ٤٩ ﴾ [هود ٤٩].

---

(١) جامع البيان٢٤/٦١٤.

(٢) تفسير القرآن العظيم٨/٤٨٠.

(٣) في ظلال القرآن ٦/ ٣٩٦٩ باختصار وتصرف .

المحور الثالث: نموذج من التواصي بالصبر في القرآن :

أولاً: وصية الله للرسول بالصبر كما صبر الأنبياء قبله:

قال تعالى: ﴿ فَٱصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُوْلُواْ ٱلْعَزْمِ مِنَ ٱلرُّسُلِ ﴾ [الأحقاف ٣٥]. وقال تعالى: ﴿ وَٱصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلَّا بِٱللَّهِ ۚ وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلَا تَكُ فِى ضَيْقٍ مِّمَّا يَمْكُرُونَ ﴿١٢٧﴾ ﴾ [النحل: ١٢٧]

فهذا "توجيه لنبينا محمد ﷺ، وهو الذي احتمل ما احتمل، وعاني من قومه ما عاني. وهو الذي نشأ يتيماً، ضَعُفَ عنه الولي والحامي- ومن كل أسباب الأرض؛ واحداً بعد واحد، كما هو مجرد من كل سند أو ظهير. وهو الذي لقي من أقاربه المشركين أشد مما لاقى من الأبعدين. وهو الذي خرج مرات ومرات يستنصر القبائل والأفراد؛ فَرُدَّ في كل مرة بلا نصرة"(١).

"فامتثل ﷺ لأمر ربه فصبر صبراً لم يصبره أحدٌ قبله، حتى رماه المعادون له عن قوس واحدة، وقاموا جميعاً بصده عن الدعوة إلى الله، وفعلوا كل ما يمكنهم من المعاداة والمحاربة"(٢).

"وبعد ذلك كله يحتاج إلى توجيه من ربه بالصبر، ألاَ إنه لطريق شاق، حتى لتحتاج نفس كنفس محمد ﷺ- في تجردها وانقطاعها للدعوة؛ وفي ثباتها وصلابتها، وفي صفائها وشفافيتها- تحتاج إلى التوجيه الرباني بالصبر، وعدم الاستعجال،... إن مشقة هذا الطريق لتحتاج إلى مواساة، وإن صعوبته لتحتاج إلى صبر"(٣).

ثانياً: وصية الله المؤمنين وأمرهم بالصبر:

قال تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱصْبِرُواْ وَصَابِرُواْ وَرَابِطُواْ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٢٠٠﴾ ﴾ [آل عمران ٢٠٠]. "أُمِروا أن يصبروا على دينهم الذي ارتضاه الله لهم؛ وهو الإسلام، فلا يَدَعوه لسرّاء ولا لضرّاءَ ولا لشِدَّة ولا لرِخَاء، حتى يموتوا مسلمين، وأن يصابروا الأعداء الذين يكتمون دينهم"(٤).

"فالصبر هو زاد الطريق في هذه الدعوة، إنه طريق طويل شاق، حافل بالعقبات والأشواك مفروش بالدماء والأشلاء، وبالإيذاء والابتلاء.. الصبر على أشياء كثيرة مما يصادف السالك في هذا الطريق الطويل.. لا تصوره حقيقة الكلمات. فالكلمات لا تنقل المدلول الحقيقي لهذه المعاناة. إنما يدرك هذا المدلول من عانى مشقات الطريق وتذوقها؛ انفعالات وتجارب ومرارات" (٥).

---

(١) في ظلال القرآن ٦/٣٢٧٦. بتصرف يسير .

(٢) تيسير الكريم الرحمن ٧٨٤ بتصرف .

(٣) في ظلال القرآن ٦/٣٢٧٦باختصار.

(٤) تفسير القرآن العظيم ٢/١٩٥.

(٥) في ظلال القرآن١/٥٤٥-٥٤٦.

ثالثاً: لقمان الحكيم يوصي ابنه بعدة وصايا ومنها الصبر:

قال تعالى: ﴿ يَٰبُنَيَّ أَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ وَأۡمُرۡ بِٱلۡمَعۡرُوفِ وَٱنۡهَ عَنِ ٱلۡمُنكَرِ وَٱصۡبِرۡ عَلَىٰ مَآ أَصَابَكَۖ إِنَّ ذَٰلِكَ مِنۡ عَزۡمِ ٱلۡأُمُورِ ﴿١٧﴾ ﴾ [لقمان: ١٧]

أي"واصبر على ما أصابك من الشدائد والمحن، لاسيما فيما أمرت به من إقامة الصلاة، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، فالصبر على إقامة الصلاة: لأن إتمام الصلاة والمحافظة عليها قد يشق، ولذلك يقول الله تعالى: ﴿ وَٱسۡتَعِينُواْ بِٱلصَّبۡرِ وَٱلصَّلَوٰةِۚ وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى ٱلۡخَٰشِعِينَ ﴿٤٥﴾ ﴾[البقرة ٤٥]، وإذا أمرت بمعروف أو نهيت عن منكر وأصابك في ذلك أذي وشدة فاصبر عليها"[١].

ثم قال تعالى في ختام الآية: ﴿إِنَّ ذَٰلِكَ مِنۡ عَزۡمِ ٱلۡأُمُورِ ﴾."أي: أن الأمور التي وصى بها لقمان ابنه، والصبر على أدائها، من الأمور التي يعزم عليها، ويهتم بها، ولا يوفق لها إلا أهل العزائم"[٢].

المحور الرابع: الصبر ثلاثة أنواع:

١ – **صبر على طاعة الله:** قال تعالى: ﴿وَٱصۡبِرۡ نَفۡسَكَ مَعَ ٱلَّذِينَ يَدۡعُونَ رَبَّهُم بِٱلۡغَدَوٰةِ وَٱلۡعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجۡهَهُۥۖ وَلَا تَعۡدُ عَيۡنَاكَ عَنۡهُمۡ تُرِيدُ زِينَةَ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا ﴾[الكهف ٢٨]. والصبر في الطاعة يكون بـــالصبر على الإخلاص فيها. والصبر على المجاهدة أثنائها. والصبر على الثبات عليها.

٢ – **صبر عن معصية الله:** ولذلك كان من السبعة الذين يظلهم الله في ظله يوم لا ظل إلا ظله (ورجل دعته امرأة ذات منصب وجمال فقال إني أخاف الله) [٣]. ولبيان عظم الصبر عن معصية الله وصعوبة ما ابتعد عنه؛ التزاماً بما نهاه الله عنه، وبخوفه من الله، استحق أن يكون تحت ظل عرش الله تعالى.

٣ – **صبر على أقدار الله:** قال ﷺ: (ما يصيب العبد من نصب ولا وصب ولا هم ولا حزن، ولا أذى ولا غم؛ حتى الشوكة يشاكها إلا كفر الله بها من خطاياه)[٤][٥].

---

(١) روح المعاني ٢١/٨٨.

(٢) تفسير السعدي ٥٩٧ .

(٣) تقدم تخريجه.

(٤) أخرجه البخاري كتاب المرض باب ما جاء في كفارة المرضى. ومسلم كتاب البر والصلة والآداب باب ثواب المؤمن فيما يصيبه من مرض أو حزن أو نحو ذلك حتى الشوكة يشاكها (٢٥٧٣) .

(٥) للاستزادة حول الموضوع يمكن الرجوع إلى إحياء علوم الدين لأبي حامد الغزالي، ومدارج السالكين لابن القم، وكتاب الصبر لابن أبي الدنيا.

وأخيراً: بالإيمان والعمل الصالح ، يكمل الإنسان نفسه، وبالتواصي بالحق والصبر يكمل غيره، وبتكميل هذه الأمور، يكون الإنسان قد سلم من الخسارة وفاز بالربح العظيم كما دلت عليه هذه السورة الكريمة.

خاتمة: لمسة بيانية في السورة:

أولاً: قال تعالى في سورة التين: ﴿ ثُمَّ رَدَدْنَٰهُ أَسْفَلَ سَٰفِلِينَ ﴿٥﴾ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَلَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ ﴿٦﴾ ﴾ [التين: ٥ – ٦]: فإنه استثنى من الرد أسفل سافلين من آمن وعمل صالحاً و لم يزد على ذلك، فلم يقل مثل ما قال هنا في سورة العصر:﴿ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَتَوَاصَوْاْ بِٱلْحَقِّ وَتَوَاصَوْاْ بِٱلصَّبْرِ ﴿٣﴾ ﴾ وذلك لاختلاف الموطنين، فإن سورة العصر في بيان الخسران الذي يصيب الإنسان، وسورة التين فيما يُنجي من دركات النار، فتبين لنا أن الإيمان والعمل الصالح يمنعه من الرد أسفل سافلين. ولكن لا يمنعه من الخسران الذي يفوته فيما لو تواصى بالحق وبالصبر فإن كلّ من ترك شيئاً من ذلك خسر شيئاً من الأجر الذي كان يربحه فيما لو فعله.

ثانياً: وتأمل حكمة الله في لغة القرآن لما قال: ﴿ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَفِى خُسْرٍ ﴿٢﴾ ﴾ فإنه ضيّق الاستثناء وخصصه فقال: ﴿ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَتَوَاصَوْاْ بِٱلْحَقِّ وَتَوَاصَوْاْ بِٱلصَّبْرِ ﴿٣﴾ ﴾ ولمّا قال ﴿ ثُمَّ رَدَدْنَٰهُ أَسْفَلَ سَٰفِلِينَ ﴿٥﴾ ﴾ وسّع الاستثناء وعممه فقال : ﴿ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَلَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ ﴿٦﴾ ﴾ و لم يقل ﴿ وَتَوَاصَوْاْ ﴾ فإن التواصي هو أمر الغير بالإيمان والعمل الصالح، وهو قدر زائد على مجرد فعله. فمن لم يكن كذلك فقد خسر هذا الربح فصار في خُسر، ولا يلزم أن يكون في أسفل سافلين.

فإن الإنسان قد يقوم بما يجب عليه ولا يأمر غيره، فإن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر مرتبة زائدة . وقد تكون فرضاً على الأعيان، وقد تكون فرضاً على الكفاية وقد تكون مستحبّة.

والتواصي بالحق يدخل فيه الحق الذي يجب، والحق الذي يُستحب، والصبر يدخل فيه الصبر الذي يجب والصبر الذي يُستحب. فهؤلاء إذا تواصوا بالحق وتواصوا بالصبر حصل لهم من الربح ما خسره أولئك الذين قاموا بما يجب عليهم في أنفسهم و لم يأمروا غيرهم به[1].

---

(١) انظر: لمسات بيانية ص٢٦١-٢٦٢.

تفسير سورة الهمزة

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿ وَيْلٌ لِّكُلِّ هُمَزَةٍ لُّمَزَةٍ (١) ٱلَّذِى جَمَعَ مَالًا وَعَدَّدَهُۥ (٢) يَحْسَبُ أَنَّ مَالَهُۥٓ أَخْلَدَهُۥ (٣) كَلَّا لَيُنۢبَذَنَّ فِى ٱلْحُطَمَةِ (٤) وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا ٱلْحُطَمَةُ (٥) نَارُ ٱللَّهِ ٱلْمُوقَدَةُ (٦) ٱلَّتِى تَطَّلِعُ عَلَى ٱلْأَفْـِٔدَةِ (٧) إِنَّهَا عَلَيْهِم مُّؤْصَدَةٌ (٨) فِى عَمَدٍ مُّمَدَّدَةٍۭ (٩) ﴾.

المبحث الأول

مقدمات حول السورة

أولاً: تسميتها :

سميت في المصاحف ومعظم التفاسير (سورة الهمزة) بلام التعريف[1]. وعنونها البخاري وبعض أصحاب التفاسير (سورة ويل لكل همزة)[2] ، وسميت (سورة الحطمة) لوقوع هذه الكلمة فيها[3].

ثانياً: نزولها ومناسبتها :

وهي مكية بالاتفاق[4].

قيل: أنها نزلت في جماعة من المشركين أقاموا أنفسهم لِلَمز المسلمين وسبهم، واختلاق الأحدوثات السيئة عنهم، وسُمّيَ منهم: الأخنس بن شريق؛ وكان يلمز الناس ويعيبهم مقبلين ومدبرين، والوليد بن المغيرة؛ وكان يغتاب النبي ﷺ من ورائه، ويقدح فيه في وجهه، وأُبَيّ بن خلف، وجميل بن عامر الثقفي.

وقيل: إنها مرسلة على العموم من غير تخصيص، وهو قول الأكثرين[5].

أما عدد آياتها: (٩) آيات، وكلماتها: (٣٣) كلمة، وحروفها: (١٣٠)حرفاً[6].

مناسبتها لما قبلها:

"في سورة العصر أقسم الحقّ جلّ وعلا « بالعصر » على أن الإنسان فى خسر ، مستثنيا الذين آمنوا وعملوا الصالحات وتواصوا بالحق ، وتواصوا بالصبر.

---

(١) التحرير والتنوير ٥٣٥/٣٠.

(٢) أخرجه البخاري كتاب التفسير باب تفسير سورة ﴿وَيْلٌ لِّكُلِّ هُمَزَةٍ لُّمَزَةٍ﴾. وانظر جامع البيان ٩٥٣/٢٤، وابن كثير ٤٨١/٨.

(٣) إملاء ما مَنَّ به الرحمن للعكبري ٢٩٤/٢.

(٤) الجامع لأحكام القرآن ١٨١/٢٠، التحرير والتنوير ٥٣٥/٣٠.

(٥) جامع البيان ٦١٦/٢٤– ٦١٨ ، تفسير القرآن العظيم ١٨١/٨، الجامع لأحكام القرآن ١٨١/٢٠، التحرير والتنوير ٥٣٥/٣٠.

(٦) التفسير القرآني للقرآن ٨٨/٣.

وفى هذه السورة (سورة الهمزة) عرض للإنسان الخاسر ، ومن أبن كان خسرانه ، وإلى أين يكون مصيره."[1].

ثالثاً: موضوعاتها:

١ -وعيد من جعلوا همز المسلمين ولمزهم ضرباً من ضروب أذاهم طمعاً في أن يلجئهم المَلَلُ من أصناف الأذى إلى الانصراف عن الإسلام والرجوع إلى الشرك[2].

٢ -بيان خطر الاستهزاء والانتقاص من الآخرين وخصوصاً أهل الخير والصلاح.

٣ -ذم من يجمع المال ويبخل به.

٤ -ذم الغرور بالمال وأنه لن ينفعه يوم القيامة، ووعيد من هذه صفاتهم.

٥ -ذكر صفة النار وحال الكفار فيها .

رابعاً: المعنى الإجمالي للسورة:

يقول الله تعالى: ﴿ وَيْلٌ لِّكُلِّ هُمَزَةٍ لُّمَزَةٍ ﴾ أي: شر وهلاك لكل مغتاب للناس، طعان فيهم، ﴿ ٱلَّذِى ﴾ الذي كان همُّه جمع المال وتعداده، يظن أنه ضَمِنَ لنفسه بهذا المال الذي جمعه، الخلود في الدنيا والإفلات من الحساب، ولكن ليس الأمر كما ظن، ليُطرحنَّ في النار التي تهشم كل ما يُلْقى فيها. ثم يخاطب الله نبيه صلى الله عليه وسلم ويقول له وما أدراك -أيها الرسول- ما حقيقة النار؟ إنها ﴿ نَارُ ٱللَّهِ ٱلْمُوقَدَةُ ﴾ التي من شدتها تنفُذ من الأجسام إلى القلوب، وليس هذا فحسب بل ﴿ إِنَّهَا عَلَيْهِم مُّؤْصَدَةٌ ﴾ أي: مطبَقة ﴿ فِى عَمَدٍ مُّمَدَّدَةٍ ﴾ أي: في سلاسل وأغلال مطوَّلة؛ لئلا يخرجوا منها[3].

(١) المصدر السابق.

(٢) التحرير والتنوير ٣٠/٥٣٥.

(٣) أيسر التفاسير ص٦٠١.

المبحث الثاني

وقفات حول السورة

المطلب الأول

خطر الغيبة والاستهزاء والانتقاص من الآخرين

قال تعالى: ﴿وَيْلٌ لِّكُلِّ هُمَزَةٍ لُّمَزَةٍ ﴾.

﴿ وَيْلٌ ﴾ دعاء عليهم بالخزي والعذاب والهلكة. وقيل: وادٍ في جهنم[1]، وهذا الوادي يسيل من صديد أهل النار وقيحهم[2]. وكلمة ﴿ وَيْلٌ ﴾ تشمل ذلك كله فهي وعيد وشديد لا يقدر قدره إلا الله عز وجل. ويراد به التنفير من الفعل المذكور بعده لعظم وزره عند الله عز وجل.

وكلمة ﴿ لِّكُلِّ ﴾ تُشْعِر بأن المهددين بهذا الوعيد جماعة، وهم الذين اتخذوا همز المسلمين ولمزهم ديدناً[3]. وفيه إشارة إلى أن كل من ارتكب هذا الجرم فهو متوعد كائناً من كان، وأن من استمرأ هذا النوع من قبائح الأفعال والسلوك استساغه وأكثر منه حتى يصير عادة له، فلا يستهان بقليله.

وقوله تعالى: ﴿ هُمَزَةٍ لُّمَزَةٍ ﴾ "الهماز: بالقول، واللماز: بالفعل. يعني: يزدري بالناس وينتقص بهم. وقيل: طعان معياب. وقيل: يهمزه ويلمزه بلسانه وعينه، ويأكل لحوم الناس، ويطعنُ عليهم،وقيل باليد والعين، واللمزةُ: باللسان. وقيل هُمَزة لحوم الناس[4]. وهذا كقوله تعالى: ﴿ هَمَّازٍ مَّشَّآءِ بِنَمِيمٍ ۝ ﴾ [القلم ١١].

وقيل: هم المشاءون بالنميمة، المفسدون بين الأحبة، الباغون لِلْبُرَآءِ العَيَبَ[5]، قال النبي ﷺ: (شرار عباد الله تعالى المشاءون بالنميمة، المفسدون بين الأحبة، الباغون للبرآء العنت)[6].

وقيل: الهامز: الذي يهمز الناس بيده ويضربهم، واللمزة: الذي يلمزهم بلسانه ويعيبهم[7].

وقيل:الهمزة: الذي يغتاب ويطعن في وجه الرجل، واللمزة:الذي يغتابه من خلفه إذا غاب[8].

---

(١) الجامع لأحكام القرآن ٢٠/١٨١.

(٢) جامع البيان ٢٤/٦١٦.

(٣) التحرير والتنوير٣٠/٥٣٦.

(٤) ذكر هذه الأقوال بأسانيدها ابن جرير في جامع البيان٢٤/٦١٦-٦٢٠، وابن كثير في تفسير القرآن العظيم٨/٤٨١.

(٥) انظر: جامع البيان عن ابن عباس رضي الله عنهما ٢٤/٢١٧.

(٦) أخرجه أحمد ٤/٢٢٧ (١٨٠٢٧)، قال في مجمع الزوائد ٨/٧ "وفيه شهر بن حوشب وبقية رجاله رجال الصحيحين"، وقال الأرنؤوط: "حسن الشواهد وهذا إسناد ضعيف"، وقال الألباني في صحيح الترغيب والترهيب: حسن لغيره (٢٨٢٤).

(٧) جامع البيان ٢٤/٦١٩، معالم التنزيل ٤/٥٢٣.

(٨) جامع البيان ٢٤/٦١٧-٦١٨ ، الجامع لأحكام القرآن ٢٠/١٨١وتفسير القرآن العظيم ٨/٤٨١.

واختار هذا القول النحاس[١]، قال: ومنه قوله تعالى: ﴿ وَمِنْهُم مَّن يَلْمِزُكَ فِي ٱلصَّدَقَٰتِ﴾ [التوبة ٥٨].

وقال أحدهم: تدلى بودي إذا لاقيتني كذبا *** وإن أغيب فأنت الهامز اللمزه

وقال آخر: إذا لقيتك عن سخط تكاشرني *** وإن تغيبت كنت الهامز اللمزه[٢].

والأولى أن يقال: "إن الله عمّ بالقول كل همزة لمزة، كل من كان بالصفة التي وصف هذا الموصوف بها سبيله، كائناً ما كان من الناس"[٣].

و﴿ هُمَزَةٍ لُّمَزَةٍ ﴾ على وزن فُعْلة: صيغة تدل على كثرة صدور الفعل المصاغ، وأنه صار عادة لصاحبه[٤].

ومن هنا يظهر أن الهمز واللمز والانتقاص يكون بالقول والفعل وبالإشارة، وهو أمر واقع -وقد يقع من بعض أهل الخير والصلاح- وكلها مؤاخذ به العبد، فالقاعدة الفقهية تقول: "الإشارة مُنَزّلة منزلة العبارة"[٥]، و"دلالة الفعل كدلالة القول"[٦].

إن الله تعالى يصف في القرآن أحداث الدعوة ويوجهها في الوقت ذاته، فجعله الله السلاح البتار الصاعق الذي يدمر كيد الكائدين ويفضح المعاندين والجاحدين، ويزلزل قلوب الظالمين، ويثبت الله به أرواح المؤمنين، قال تعالى: ﴿ وَنُنَزِّلُ مِنَ ٱلْقُرْءَانِ مَا هُوَ شِفَآءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ ۙ وَلَا يَزِيدُ ٱلظَّٰلِمِينَ إِلَّا خَسَارًا ﴿٨٢﴾ ﴾ [الإسراء٨٢].

وإنا لنرى في عناية الله سبحانه بالرد على الهمزة اللمزة معنيين كبيرين:

الأول : تقبيح الهبوط الأخلاقي وتبشيع هذه الصورة الهابطة من النفوس.

والثاني : المنافحة عن المؤمنين وحفظ نفوسهم من أن تتسرب إليها مهانة الإهانة، وإشعارهم بأن الله يرى ما يقع لهم، ويكرهه، ويعاقب عليه وفي هذا كفاية لرفع أرواحهم واستعلائها على الكيد اللئيم[٧].

---

(١) إعراب القرآن للنحاس ٢٨٧/٥.

(٢) الجامع لأحكام القرآن ١٨٢/٢٠.

(٣) جامع البيان ٦٢٠/٢٤.

(٤) التحرير والتنوير٥٣٧/٣٠.

(٥) انظر: نهاية الإقدام في علم الكلام ١٦٦/١، حاشية الدسوقي على الشرح الكبير ١٨٢/١٤ ، شرح زاد المستقنع للشنقيطي١٩٧/١٣.

(٦) انظر: الموسوعة الفقهية ٩٠٩٥/٢ ، وشرح زاد المستقنع للشنقيطي ١٦٢/٦.

(٧) في ظلال القرآن٣٩٧٣/٦ بتصرف

المطلب الثاني

خوارم العلاقات بين الناس عامة

من خلال أقوال العلماء في الآيات يتبين لنا عدة أمور نهي الشارع الحكيم عنها تنبيهاً على أنها من خوارم العلاقات بين الناس ، ومنها :

أولاً : الغيبة: وهي من أعظم الهمز واللمز، قال تعالى: ﴿وَلَا يَغْتَب بَّعْضُكُم بَعْضًا ۚ أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَن يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا فَكَرِهْتُمُوهُ ۚ وَاتَّقُوا اللَّهَ ۚ إِنَّ اللَّهَ تَوَّابٌ رَّحِيمٌ﴾ [الحجرات١٢].

وقد نبهنا رسول الله ﷺعلى معنى الغيبة وحقيقتها، فقد قال صلى الله عليه وسلم يوماً لأصحابه: (أتدورن ما الغيبة؟) قالوا: الله ورسوله أعلم. قال: (ذكرك أخاك بما يكره). قيل: أرأيت إن كان في أخي ما أقول؟ فقال عليه الصلاة والسلام: (إن كان فيه ما تقول فقد اغتبته، وإن لم يكن فيه ما تقول فقد بهته)[١].

فالغيبة هي: أن تذكر الإنسان في غيبته بسوء وإن كان فيه[٢].

ولقد شبه الله سبحانه الذي يغتاب أحداً من المسلمين بالذي يأكل لحم أخيه ميتاً، وهذا دليل على شناعة ما يفعله ذلك المغتاب، "وهذا من أحسن القياس التمثيلي؛ فإنه شبه تمزيق عرض الأخ بتمزيق لحمه، ولما كان المغتاب يمزق عرض أخيه في غيبته كان بمنزلة من يقطع لحمه في حال غيبة روحه عنه بالموت لما كان المغتاب عاجزا عن دفعه بنفسه بكونه غائبا عرد ذمه؛ كان بمنزلة الميت الذي يقطع لحمه ولا يستطيع أن يدفع عن نفسه، ولما كان مقتضى الأخوة التراحم والتواصل والتناصر فعلق عليها المغتاب ضد مقتضاها- من الذم والعيب والطعن- كان ذلك نظير تقطيعه لحم أخيه، والأخوة تقتضي حفظه وصيانته والذب عنه، ولما كان المغتاب متفكها بغيبته وذمه متحليا بذلك شُبِّه بأكل لحم أخيه بعد تقطيعه، ولما كان المغتاب محبا لذلك معجبا به شُبِّه بمن يحب أكل لحم أخيه ميتا، ومحبته لذلك قدر زائد على مجرد أكله، كما أن أكله قدر زائد على تمزيقه، فتأمل هذا التشبيه والتمثيل وحسن موقعه ومطابقة المعقول فيه للمحسوس، وتأمل إخباره عنهم بكراهة أكل لحم الأخ ميتا، ووصفهم بذلك في آخر الآية، والإنكار عليهم في أولها أن يحب مثل أعمال الكفار أحدهم ذلك!! فكما أن هذا مكروه في طباعهم فكيف يحبون ما هو مثله ونظيره!! فاحتج عليهم بما كرهوه على ما أحبوه، وشبه لهم ما يحبونه بما هو

---

(١) أخرجه مسلم كتاب البر والصلة باب تحريم الغيبة (٢٥٨٩) .

(٢) النهاية في غريب الحديث ٣/٣٩٩.

أكره شيء إليهم؛ وهم أشد شيء نفرة عنه. فلهذا يوجب العقل والفطرة والحكمة أن يكونوا أشد شيء نفرة عما هو نظيره ومشبهه. وبالله التوفيق"[1].

"ومن العجب أن الإنسان يهون عليه التحفظ والاحتراز من أكل الحرام والظلم والزنا والسرقة وشرب الخمر ومن النظر المحرم وغير ذلك، ويصعب عليه التحفظ من حركة لسانه!! حتى يُرى الرجل يُشار إليه بالدين والزهد والعبادة – وهو يتكلم بالكلمة من سخط الله لا يلقى لها بالاً يَزِلُّ بالكلمة الواحدة أبعد ما بين المشرق والمغرب[2]، وكم تَرَى من رجل متورع عن الفواحش والظلم ولسانه يَفرِيْ في أعراض الأحياء والأموات ولا يبالي بما يقول"[3].

فينبغي التدقيق في ضابط الغيبة النبوي للحذر والتباعد عنها، فكل ما يكرهه أخوك من ذكر المعايب والصفات والأحوال فهو غيبة.

ثانياً: البهتان: وهو الكذب والافتراء[4]وهو من أعظم أبواب الهمز بل أشدها، وهو أن تذكر أخاك بما يكره مما ليس فيه، وهو كما قال رسول الله ﷺ (وإن لم يكن فيه ما تقول فقد بهته).

فـــ"البُهتان بالضم: الكذب الذي يبهت سامعه. أي: يدهشه لفظاعته، إذا كذب عليه بما يبهته من شدة نُكره. وإذا رماه في وجهه أو من ورائه بما لم يكن. والبهَّات: الذي يعيب الناس بما لم يفعلوا.

فالبهت والبهتان: استقبالك بأمر تقذفه به وهو منه بريء لايعلمه. وأيضا: الحيرة.

والبهتان: الكذب الذي يُتَحَيَّر من عِظَمِه وشأنه، وقد بهته إذا كذب عليه.

وقال تعالى: ﴿وَلَا يَأْتِينَ بِبُهْتَانٍ﴾ [الممتحنة:١٢] قال الخطابي معناه ههنا: قذف المحصنات، وهو من الكبائر، ويدخل فيه الاغتياب لهن، ورميهن بالمعصية. وقال أيضا: لا تبهتوا الناس بالمعايب كفاحا ومواجهة . وهذا كما يقول الرجل فعلت هذا بين يديك أي بحضرتك"[5].

"وقال الحسن: ذِكْرُ الغير ثَلاثَةٌ: الغيبة والبهتان والإفك، وكلٌ في كتاب الله عز وجل، فالغيبة: أن تقول ما فيه، والبهتان: أن تقول ما ليس فيه، والإفك: أن تقول ما بلغك"[6].

وفي الحكمة: "البهتان على البريء أثقل من السموات"[7].

---

(١) أمثال القرآن لابن القيم ص٣٣.

(٢) إشارة لحديث (إن العبد ليتكلم بالكلمة ما يتبين فيها يزل بها في النار أبعد مما بين المشرق) أخرجه البخاري كتاب الرقاق باب حفظ اللسان، ومسلم في كتاب الزهد والرقائق باب التكلم بالكلمة يهوي بها في النار (٢٩٨٨).

(٣) الداء والدواء ص٢٤٤ ،والجواب الكافي لابن القيم ص١١١.

(٤) النهاية في غريب الحديث ١/١٦٥.

(٥) عمدة القارئ ١/١٥٤-١٥٥.

(٦) إحياء علوم الدين ٣/١٤٤.

(٧) إحياء علوم الدين ٣/١٥٥.

ثالثاً : النميمة: قال تعالى: ﴿هَمَّازٍ مَّشَّآءِۭ بِنَمِيمٍ﴾ [القلم ١١].

والنميمة هي: قال العلماء: "النميمة نقل كلام الناس على جهة الإفساد بينهم"(١).

عن حذيفة بن اليمان ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: (لا يدخل الجنة قتات) (٢)، وفي رواية: (لا يدخل الجنة نمام)(٣). وعن ابن عباس رضي الله عنهما قال: خرج النبي ﷺ، من بعض حيطان المدينة، فسمع صوت رجلين يعذبان في قبريهما، فقال: (أما إنهما ليعذبان وما يعذبان في كبير، أما أحدهما فكان لا يستتر من البول، وأما الآخر فكان يمشي بالنميمة...)(٤).

"قال الغزالي ما ملخصه: ينبغي لمن حملت إليه نميمة؛ أن لا يصدق من نم له، ولا يظن بمن نم عنه ما نقل عنه، ولا يبحث عن تحقيق ما ذكر له، وأن ينهاه ويقبح له فعله، وأن يبغضه إن لم يترجر، وأن لا يرضى لنفسه ما نهى النمام عنه فينم هو على النمام فيصير نماما"(٥).

قال النووي: "وهذا كله إذا لم يكن في النقل مصلحة شرعية، وإلا فهي مستحبة أو واجبة، كمن اطلع من شخص أنه يريد أن يؤذي شخصا ظلما فحذره منه، وكذا من أخبر الإمام أو من له ولاية بسيرة نائبة مثلا فلا منع من ذلك"(٦).

"وقال الغزالي ما ملخصه: النميمة في الأصل نقل القول إلى المقول فيه، ولا اختصاص لها بذلك، بل ضابطها كشف ما يكره كشفه، سواء كرهه المنقول عنه أو المنقول إليه أو غيرهما، وسواء كان المنقول: قولا أم فعلا، وسواء كان: عيباً أم لا، حتى لو رأى شخصاً يخفى ما، له فأفشى كان نميمة.

واختلف في الغيبة والنميمة هل هما متغايرتان أو متحدتان؟ والراجح : التغاير وأن بينهما عموماً وخصوصاً وجهاً، وذلك لأن النميمة نقل حال الشخص لغيره على جهة الإفساد بغير رضاه، سواء كان بعلمه أم بغير علمه. والغيبة ذكره في غيبته بما لا يرضيه. فامتازت النميمة بقصد الإفساد، ولا يشترط ذلك في الغيبة، وامتازت الغيبة بكونها في غيبة المقول فيه، واشتركتا فيما عدا ذلك. ومن العلماء من يشترط في الغيبة أن يكون المقول فيه غائبا"(٧) والله أعلم.

---

(١) شرح النووي على صحيح مسلم ١١٢/٢.

(٢) أخرجه البخاري كتاب الأدب باب ما يكره من النميمة (٦٠٥٦). ومسلم كتاب الإيمان باب غلظ تحريم النميمة (١٠٥).

(٣) أخرجه مسلم كتاب الإيمان باب غلظ تحريم النميمة (١٠٥).

(٤) أخرجه البخاري كتاب الأدب باب النميمة من الكبائر (٦٠٥٥). ومسلم كتاب الطهارة باب الدليل على نجاسة البول ووجوب الاستبراء منه (٢٩٢) مع وجود اختلاف في اللفظ.

(٥) فتح الباري لابن حجر ٤٨٨/١٠، وانظر إحياء علوم الدين١٥٦/٣.

(٦) شرح صحيح مسلم ١١٣/٢ ، وانظر فتح الباري لابن حجر ٤٨٨/١٠.

(٧) فتح الباري لابن حجر ٤٨٨/١٠، إحياء علوم الدين١٥٥/٣-١٥٨.

رابعاً: احتقار المسلمين والسخرية منهم:

وهو أشد أبواب الهمز واللمز وأنواعه ضرراً على الفرد والمجتمع. قال تعالى: ﴿ وَلَا تُصَعِّرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ وَلَا تَمْشِ فِي ٱلْأَرْضِ مَرَحًا ۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ ﴿١٨﴾ ﴾ [لقمان ٢٠] قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا يَسْخَرْ قَوْمٌ مِّن قَوْمٍ عَسَىٰٓ أَن يَكُونُوا۟ خَيْرًا مِّنْهُمْ وَلَا نِسَآءٌ مِّن نِّسَآءٍ عَسَىٰٓ أَن يَكُنَّ خَيْرًا مِّنْهُنَّ﴾.

السخرية هي: "احتقار الناس والاستهزاء بهم، وهذا حرام لأنه قد يكون المحتقَر أعظم قدراً وأحب إلى الله من الساخر"[(١)].

والاحتقار هو: من الحَقْرِ أي الذِلَة تقول: حقر يحقر حقراً واستحقره: رآه حقيراً، وتحقير الكلمة : تصغيرها[(٢)]. وهو: الاستخفاف والاستهانة[(٣)].

فكل ما أشعر بالاحتقار والاستهزاء والوسم بالجهل أو قلة الفهم أو التبسمات والضحكات التي تدل على السخرية؛ كل هذا مما يفسد العلاقة الأخوية بين المسلمين.

قال ﷺ: (بحسب امرئ من الشر **أن يحقر** أخاه المسلم)[(٤)]. وقال ﷺ: (لا تظهر الشماتة لأخيك؛ فيرحمه الله ويبتليك) [(٥)]. وقال ﷺ: (المسلم أخو المسلم لا يظلمه **ولا يحقره** ولا يخذله)[(٦)].

ومن صور الاحتقار التكبر على الناس، قال النبي ﷺ: (الكبر بطَرُ الحق وغمط الناس)[(٧)]، وغَمْطُ الناسِ: الاحتقارُ لهم والازدراءُ بهم[(٨)].

خامساً: التعيير وإظهار الشماتة لهم:

وهو من أكثر صور الهمز واللمز إيلاماً فعن المعرور بن سويد قال: مررنا بأبي ذر رضي الله عنه وعليه بُرْدٌ، وعلى غلامه مثله، فقلنا: يا أبا ذر لو جمعت بينهما كانت حُلَّة؟ فقال: إنه كان بيني وبين رجل من إخوتي كلام، وكانت أمه أعجمية، فعيرته بأمه، فشكاني إلى النبي ﷺ، فلقيت النبي ﷺ فقال: (يا أبا ذر إنك امرؤ فيك جاهلية) قلت: يا رسول الله من سب الرجال سبوا أباه وأمه!! قال: (يا أبا ذر إنك امرؤ فيك جاهلية، هم إخوانكم جعلهم الله تحت أيديكم، فأطعموهم مما تأكلون، وألبسوهم مما

---

(١) تفسير القرآن العظيم ٣٧٦/٧.
(٢) تهذيب اللغة ٤٥٢/١.
(٣) معجم لغة الفقهاء ص٦٠.
(٤) أخرجه مسلم كتاب البر والصلة باب تحريم ظلم المسلم وخذله واحتقاره ودمه وعرضه وماله (٢٥٦٤).
(٥) أخرجه الترمذي كتاب صفة القيامة باب ٥٤ (٢٥٠٦) وقال حديث حسن . وقال الألباني حسن الإسناد مقطوع.
(٦) تقدم تخريجه.
(٧) أخرجه مسلم كتاب الإيمان باب تحريم الكبر وبيانه (٩١).
(٨) الصحاح في اللغة ٢٦/٢.

تلبسون، ولا تكلفوهم ما يغلبهم، فإن كلفتموهم فأعينوهم)[1].

وقال ﷺ: (لا تظهر الشماتة لأخيك ؛ فيرحمه الله ويبتليك) [2].

والناس يكرهون أن تُبْرَزَ أخطاؤهم وعيوبهم أمام الآخرين. فالتعيير والتشهير والنصيحة في العلن، أو ذكر الخطأ في الملأ؛ من أسرع ما يزيل المحبة ويزرع العداوة بين الإخوان، لما يشعر به المنصوح من الفضيحة والتوبيخ بين الناس، وقد يُوَلِّد هذا أيضاً العناد والرغبة في الانتقام من الأخ.

وقد أحسن الشافعي عندما قال[3]:

تعمدني بنصحك في انفراد ... وجنبني النصيحة في الجماعة

فإن النصح بين الناس نوع ... من التوبيخ لا أرضى استماعه

فإن خالفتني وعصيت قولي ... فلا تجزع إذا لم تعط طاعـــة

و"ينبغي أن تكون النصيحة سراً لا يطلع عليها أحد، فما كان على الملأ فهو توبيخ وفضيحة، وما كان في السر فهو شفقة ونصيحة، قال الشافعي: من وعظ أخاه سراً فقد نصحه، ومن وعظه علانية فقد فضحه"[4].

سادساً : التناجي بين اثنين بحضور ثالث:

قال تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا تَنَـٰجَيۡتُمۡ فَلَا تَتَنَـٰجَوۡاْ بِٱلۡإِثۡمِ وَٱلۡعُدۡوَٰنِ وَمَعۡصِيَتِ ٱلرَّسُولِ وَتَنَـٰجَوۡاْ بِٱلۡبِرِّ وَٱلتَّقۡوَىٰۖ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ٱلَّذِيٓ إِلَيۡهِ تُحۡشَرُونَ ۝٩ إِنَّمَا ٱلنَّجۡوَىٰ مِنَ ٱلشَّيۡطَٰنِ لِيَحۡزُنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَلَيۡسَ بِضَآرِّهِمۡ شَيۡـًٔا إِلَّا بِإِذۡنِ ٱللَّهِۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلۡيَتَوَكَّلِ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ﴾ [المجادلة ٩-١٠].

وقال ﷺ: (إذا كنتم ثلاثة فلا يتناجى اثنان دون الآخر حتى تختلطوا بالناس، من أجل أن ذلك يحزنه)[5].

و"لا فرق في المعنى بين الاثنين والجماعة لوجود المعنى في حق الواحد، زاد القرطبي: بل وجوده في العدد الكثير أمكن وأشد، فليكن المنع أولى، وإنما خص الثلاثة بالذكر لأنه أول عدد يتصور فيه ذلك المعنى، فمهما وجد المعنى فيه ألحق به في الحكم.

---

(١) أخرجه البخاري كتاب الإيمان باب المعاصي من أمر الجاهلية (٣٠)، ومسلم كتاب الأيمان باب إطعام المملوك مما يأكل وإلباسه مما يلبس ولا يكلفه ما يغلبه(١٦٦١).

(٢) سبق تخريجه.

(٣) ديوان الشافعي ص٩٠ .

(٤) المهذب من إحياء علوم الدين لصالح الشامي ١/٤٠٠.

(٥) أخرجه البخاري كتاب الاستئذان باب إذا كانوا أكثر من ثلاثة (٦٢٩٠)، ومسلم كتاب السلام باب تحريم مناجاة الاثنين دون الثالث بغير رضاه (٢١٨٤).

قال بعضهم: وكلما كثر الجماعة مع الذي لا يناجى كان أبعد لحصول الحزن ووجود التهمة، فيكون أولى. واختلف فيما إذا انفرد جماعة بالتناجي دون جماعة.

وأرشد هذا التعليل إلى أن المناجي إذا كان ممن إذا خص أحدا بمناجاته أحزن الباقين امتنع ذلك ، إلا أن يكون في أمر مهم لا يقدح في الدين.

وإذا تناجى اثنان فلا يدخل معهما غيرهما حتى يستأذنهما قال ابن عبد البر: لا يجوز لأحد أن يدخل على المتناجيين في حال تناجيهما. قلت –أي ابن حجر– ولا ينبغي لداخل القعود عندهما، ولو تباعد عنهما– إلا بإذنهما، لما افتتحا حديثهما سراً؛ وليس عندهما أحدٌ دل على أن مرادهما ألاَّ يطلع أحد على كلامهما، ويتأكد ذلك إذا كان صوت أحدهما جهوريا لا يتأتى له إخفاء كلامه ممن حضره ، وقد يكون لبعض الناس قوة فهم بحيث إذا سمع بعض الكلام استدل به على باقيه، فالمحافظة على ترك ما يؤذي المؤمن مطلوبة وإن تفاوتت المراتب"[1].

(١) فتح الباري ٨٤/١١ مختصراً.

المطلب الثالث

ذم من يجمع المال ويبخل به

قال تعالى: ﴿ ٱلَّذِى جَمَعَ مَالاً وَعَدَّدَهُۥ ﴾ أي: جمعه بعضه على بعض، وأحصى عدده كقوله: ﴿ وَجَمَعَ فَأَوۡعَىٰٓ ﴾ [المعارج ١٨] .وقيل: ألهاه ماله بالنهار، فإذا كان الليل، نام كأنه جيفة[(١)]. ولعل هذا من الأسباب التي تجعله يتحدث بالناس ويحقِّرَهم.

والمقصود: الذم على إمساك المال عن سبيل الطاعة،كما قال تعالى: ﴿ مَّنَّاعٍ لِّلۡخَيۡرِ مُعۡتَدٍ مُّرِيبٍ ﴾ [ق ٢٥][(٢)] وإنما ينشأ ذلك عن بخل النفس، والتخوف من الفقر، وضعف الإيمان بالله الرزَّاق .

"وتعكس هذه الآية من الصور الواقعية في حياة الدعوة في عهدها الأول . وهي في الوقت ذاته نموذج يتكرر في كل بيئة، إنها صورة اللئيم الصغير النفس ، الذي يُؤْتَى المال فتسيطر نفسه به، حتى ما يطيق نفسه! ويشعر أن المال هو القيمة العليا في الحياة. القيمة التي تهون أمامها جميع القيم وجميع الأخلاق، وأنه وقد ملك المال فقد ملك كرامات الناس وأقدارهم بلا حساب!

كما يظن ويعتقد أن هذا المال إله قادر على كل شيء؛ لا يعجز عن فعل شيء! حتى دفع الموت وتخليد الحياة. ودفع قضاء الله وحسابه وجزائه- إن كان هناك في نظره حساب وجزاء- والعياذ بالله من حاله"[(٣)].

وقد توعد الله تعالى من يكتنز المال ولا يؤدي حق الله تعالى فيه بأشد العذاب فقال تعالى:

﴿وَٱلَّذِينَ يَكۡنِزُونَ ٱلذَّهَبَ وَٱلۡفِضَّةَ وَلَا يُنفِقُونَهَا فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَبَشِّرۡهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٣٤﴾ يَوۡمَ يُحۡمَىٰ عَلَيۡهَا فِى نَارِ جَهَنَّمَ فَتُكۡوَىٰ بِهَا جِبَاهُهُمۡ وَجُنُوبُهُمۡ وَظُهُورُهُمۡۖ هَٰذَا مَا كَنَزۡتُمۡ لِأَنفُسِكُمۡ فَذُوقُواْ مَا كُنتُمۡ تَكۡنِزُونَ ﴿٣٥﴾﴾ [التوبة: ٣٤ – ٣٥].

---

(١) انظر: تفسير القرآن العظيم ٤٨١/٨.

(٢) الجامع لأحكام القرآن ١٨٣/٢٠.

(٣) في ظلال القرآن ٣٩٧٢/٦.

المطلب الرابع

ذم الغرور بالمال وأنه لن ينفعه يوم القيامة

وقوله: ﴿ يَحْسَبُ أَنَّ مَالَهُۥٓ أَخْلَدَهُۥ ﴾ أي: يظن أن جمعه المال يخلده في هذه الدار؟[1] ويبقيه حيا لا يموت[2].

فحين يملك الإنسان المال يشعر أنه يملك كل شيء؛ فهو يشتري ما يريد ، ويسافر أين ما يريد ، ويفعل ما يريد، بل ويسعى الناس عموماً لرضاه، ولذا فإنه يصبح مغروراً متكبراً ؛ ومن هنا يصبح هَمَّه الأول هو المال، فهو يسعى لجمعه، وينشغل في عده وحسابه؛ حتى يخيّل إليه أنه سيكون خالداً في هذه الحياة الدنيا وينسى الآخرة.

وما أكثر الناس الذين يغترون بالمال ويتمنون أن يجمعوه، وأن يكون لهم النصيب الأوفر منه، كما في قصة قارون – وهو الرجل الذي أعطاه الله المال الكثير – حيث قال الله عنه: ﴿ فَخَرَجَ عَلَىٰ قَوْمِهِۦ فِى زِينَتِهِۦ ۖ قَالَ ٱلَّذِينَ يُرِيدُونَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا يَـٰلَيْتَ لَنَا مِثْلَ مَآ أُوتِىَ قَـٰرُونُ إِنَّهُۥ لَذُو حَظٍّ عَظِيمٍ ﴿٧٩﴾ ﴾ [القصص ٧٩]. هذه نظرة أصحاب الدنيا، أما الفريق الآخر فقد حكى الله عنهم: ﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ وَيْلَكُمْ ثَوَابُ ٱللَّهِ خَيْرٌ لِّمَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَـٰلِحًا وَلَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ٱلصَّـٰبِرُونَ ﴿٨٠﴾ ﴾ [القصص ٨٠]، ثم خسف الله الأرض بقارون وعذبه ليكون عبرة لكل من يعرض عن الله بسبب انشغاله بالمال ونسيانه ربه، قال تعالى: ﴿ فَخَسَفْنَا بِهِۦ وَبِدَارِهِ ٱلْأَرْضَ فَمَا كَانَ لَهُۥ مِن فِئَةٍ يَنصُرُونَهُۥ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُنتَصِرِينَ ﴿٨١﴾ ﴾ [القصص ٨١].

وهو كذلك ينشغل بِعدّه بعد جمعه ، فحياته كلها بين جَمْعٍ وعَدٍّ ، ونسي الهدف الأسمى الذي خُلِقَ من أجله[3].

هذا في الدنيا أما في الآخرة فيتبرأ منه ماله الذي كان يعده ويكثره ولا يؤدي حقه قال تعالى: ﴿ وَأَمَّا مَنْ أُوتِىَ كِتَـٰبَهُۥ بِشِمَالِهِۦ فَيَقُولُ يَـٰلَيْتَنِى لَمْ أُوتَ كِتَـٰبِيَهْ ﴿٢٥﴾ وَلَمْ أَدْرِ مَا حِسَابِيَهْ ﴿٢٦﴾ يَـٰلَيْتَهَا كَانَتِ ٱلْقَاضِيَةَ ﴿٢٧﴾ **مَآ أَغْنَىٰ عَنِّى مَالِيَهْ ﴿٢٨﴾ هَلَكَ عَنِّى سُلْطَـٰنِيَهْ ﴿٢٩﴾** ﴾ نعم. لم ينفعه ماله ولا سلطانه فكان جزائه ﴿ خُذُوهُ فَغُلُّوهُ ﴿٣٠﴾ ثُمَّ ٱلْجَحِيمَ صَلُّوهُ

---

(١) انظر: تفسير القرآن العظيم ٤٨١/٨.

(٢) الجامع لأحكام القرآن ١٨٣/٢٠.

(٣) تفسير قصار السور للهميلي (٢٤).

﴿٣١﴾ ثُمَّ فِي سِلْسِلَةٍ ذَرْعُهَا سَبْعُونَ ذِرَاعًا فَاسْلُكُوهُ ﴿٣٢﴾ ﴾ لماذا كل هذا العذاب: ﴿ إِنَّهُ كَانَ لَا يُؤْمِنُ بِاللَّهِ الْعَظِيمِ ﴿٣٣﴾ وَلَا يَحُضُّ عَلَىٰ طَعَامِ الْمِسْكِينِ ﴿٣٤﴾ ﴾ [الحاقة: ٢٥ – ٣٤].

فالمال يوم القيامة لن ينفع من لا يقوم بحقه ومن يكنزه من أجل الفرار من العذاب قال تعالى عن دعاء إبراهيم عليه السلام: ﴿ وَلَا تُخْزِنِي يَوْمَ يُبْعَثُونَ ﴿٨٧﴾ يَوْمَ لَا يَنفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ ﴿٨٨﴾ إِلَّا مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ ﴿٨٩﴾ ﴾ [الشعراء: ٨٧ – ٨٩].

وقال تعالى: ﴿ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ أَنَّ لَهُم مَّا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا وَمِثْلَهُ مَعَهُ لِيَفْتَدُوا بِهِ مِنْ عَذَابِ يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَا تُقُبِّلَ مِنْهُمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٣٦﴾ ﴾ [المائدة: ٣٦].

المطلب الخامس

عقاب من هذه صفاتهم وصفة ذلك العقاب

أولاً: عقاب من هذه صفاتهم:

قال تعالى: ﴿ كَلَّا لَيُنۢبَذَنَّ فِى ٱلْحُطَمَةِ ﴾

﴿ كَلا ﴾ أي: ليس الأمر كما زعم ولا كما حسب. فهو رد لما توهمه الكافر. أي: لا يخلد، ولا يبقى له مال[1].

ثم قال تعالى: ﴿ لَيُنۢبَذَنَّ فِى ٱلْحُطَمَةِ ﴾ أي: ليلقين هذا الذي جمع مالا فعدده ﴿ لَيُنۢبَذَنَّ فِى ٱلْحُطَمَةِ ﴾، وهي اسم من أسماء النار، صفة: لأنها تحطم من فيها[2].

والنبذ: الإلقاء والطرح، وأكثر استعماله في إلقاء ما يكره. قال تعالى: ﴿ فَأَخَذْنَـٰهُ وَجُنُودَهُۥ فَنَبَذْنَـٰهُمْ فِى ٱلْيَمِّ ۖ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَـٰقِبَةُ ٱلظَّـٰلِمِينَ ﴿٤٠﴾ ﴾ [القصص: ٤٠] فشبههم استحقارا لهم بحصيات أخذهن آخذ بكفه فطرحهن[3]، وكلمة النبذ تفيد التحقير والتصغير والإهانة لأن الكافر كان يعتقد أنه من أهل الكرامة[4].

وقد لوحظ فيها التقابل بين الجرم وطريقة الجزاء ونوع العقاب. فصورة الهمزة اللمزة، الذي يدأب على الهزء بالناس وعلى لمزهم في أنفسهم وأعراضهم ، وهو يجمع المال فيظنه كفيلاً بالخلود! صورة هذا المتعالي الساخر المستقوي بالمال ، تقابلها صورة « المنبوذ » المهمل المتردي في ﴿ ٱلْحُطَمَةِ ﴾ التي تحطم كل ما يلقى إليها ، فتحطم كيانه وكبرياءه[5].

---

(١) الجامع لأحكام القرآن ٢٠/١٨٣.

(٢) انظر: تفسير القرآن العظيم ٨/٤٨١، والجامع لأحكام القرآن ٢٠/١٨٤.

(٣) التحرير والتنوير ٣٠/٤٧٤.

(٤) تفسير الرازي ٣٢/٨٨.

(٥) في ظلال القرآن ٦/٣٩٧٣.

ثانياً: من صفات النار :

ثم قال تعالى: ﴿ وَمَآ أَدۡرَىٰكَ مَا ٱلۡحُطَمَةُ ۝٥ ﴾ على التعظيم لشأنها، والتفخيم لأمرها[1].

ثم بينها أكثر ببعض صفاتعها:

الصفة الأولى: ﴿ نَارُ ٱللَّهِ ٱلۡمُوقَدَةُ ﴾ أي: التي أوقد عليها ألف عام، وألف عام، وألف عام، فهي غير خامدة، أعدها الله للعصاة[2] لقول جبريل عليه السلام حين سأله رسول الله ﷺ: (يا جبريل صف لي النار.وانعت لي جهنم؟ قال جبريل:إن الله تبارك وتعالى أمر بجهنم،فأوقد عليها ألف عام حتى ابيضت،ثم أمر فأوقد عليها ألف عام حتى احمرت،ثم أمر فأوقد عليها ألف عام حتى اسودت،فهي سوداء مظلمة لا يضيء شررها ولا يطفأ لهبها)[3].

والتوقد: ابتداء التهاب النار فإذا صارت جمراً فقد خفّ لهبها، أو زال ، فوصف النار بالموقدة يفيد أنها لا تزال تلتهب ولا يزول لهيبها[4].

وإضافتها لله وتخصيصها يوحي بأنها نارٌ فَذَّة ، غير معهودة ، ويخلع عليها رهبة مفزعة مرعبة[5].وكذلك للترويع بها بأنها نار خلقها القادر على خلق الأمور العظيمة[6].

الصفة الثانية: ﴿ ٱلَّتِي تَطَّلِعُ عَلَى ٱلۡأَفۡـِٔدَةِ ﴾ أي: تحرقهم إلى الأفئدة وهم أحياء[7]، أو تأكل النار جميع ما في أجسادهم، حتى إذا بلغت إلى الفؤاد، خلقوا خلقاً جديداً، فرجعت تأكلهم[8].

وخص الأفئدة لأن الألم إذا صار إلى الفؤاد مات صاحبه. أي إنه في حال من يموت؛ وهم لا يموتون، كما قال الله تعالى: ﴿ إِنَّهُۥ مَن يَأۡتِ رَبَّهُۥ مُجۡرِمًا فَإِنَّ لَهُۥ جَهَنَّمَ لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحۡيَىٰ ۝٧٤ ﴾ [طه ٧٤] فهم إذاً أحياء في معنى الأموات[9].

(١) الجامع لأحكام القرآن ١٨٤/٢٠.

(٢) الجامع لأحكام القرآن ١٨٥/٢٠.

(٣) أخرجه الترمذي كتاب صفة جهنم باب ٨ (٢٥٩١) وقال "حديث أبي هريرة في هذا موقوف أصح"، والطبراني في الأوسط ٨٩/٣ (٢٥٨٢) ، والبيهقي في الشعب ٤٨٩/١ (٧٩٩)، وأبو نعيم في الحلية ١٣٩/٦. وضعفه الألباني في السلسلة الضعيفة والموضوعة ٤٧٠/٣ (١٣٠٥).

(٤) التحرير والتنوير٤٧٥/٣٠.

(٥) في ظلال القرآن٣٩٧٣/٦.

(٦) التحرير والتنوير٤٧٥/٣٠.

(٧) انظر: تفسير القرآن العظيم٤٨١/٨ .

(٨) الدر المنثور ٣٩٣/٦، الجامع لأحكام القرآن١٨٥/٢٠.

(٩) الجامع لأحكام القرآن١٨٥/٢٠.

"والاطلاع يجوز أن يكون بمعنى الإتيان مبالغة في طلع، أي الإتيان السريع بقوة واستيلاء، فالمعنى: التي تنفذ إلى الأفئدة فتحرقها في وقت حرق ظاهر الجسد"[١].

فإن من أهم صفات تلك النار أنها تتجاوز الجلد الخارجي ليصل عذابها إلى القلب، القلب الذي كان فيه حب المال الطاغي على كل محبة، فأصبح هو السيد المطاع في هذا القلب[٢]، فخصصت الأفئدة التي هي القلوب بالذكر، لأنها ألطف ما في الأبدان وأشدها تألما بأدنى أذى يصيبها، أو لأنها محل العقائد الزائفة، والنيات الخبيثة، ومنشأ الأعمال السيئة، التي استحق هذا الهمزة اللمزة بسببها العقاب الشديد[٣].

الصفة الثالثة: ﴿ إِنَّهَا عَلَيْهِم مُّؤْصَدَةٌ ﴿٨﴾ ﴾ أي: مطبقة[٤]. أي: مغلقة، ومنه: آصدت الباب إذا أغلقته[٥]. فهي مغلقة عليه، لا ينقذه منها أحد، ولا يسأل عنه فيها أحد!، وقيل: مسدودة الجوانب لا ينفتح منها جانب[٦]. ولا ضوء فيها ولا فُرَج، ولا خروج منها آخر الأبد[٧].

الصفة الرابعة: ﴿ فِي عَمَدٍ مُّمَدَّدَةٍ ﴿٩﴾ ﴾ عمد من حديد، ومن نار. أو الأبواب الممدوة.

وقيل: أدخلهم في عمد فمدت عليهم بعماد، وفي أعناقهم السلاسل فسدت بها الأبواب.

أو هي: القيود الطوال[٨]. موثق فيها إلى عمود كما توثق البهائم بلا احترام!وذلك العمود من نار قد أغلقت ووصدت عليه الأبواب حتى لا يمكنه النفاذ منها بحال.

---

(١) التحرير والتنوير٣٠/٤٧٥.
(٢) تفسير قصار السور للهميلي (٢٤).
(٣) تفسير الوسيط للطنطاوي ٣٠/ ٤٥٦٥.
(٤) جامع البيان ٢٤/٤٤٧ عن ابن عباس.
(٥) تفسير القرآن العظيم ٨/٤٠٩.
(٦) النكت والعيون ٦/٣٣٧.
(٧) تفسير القرآن العظيم ٨/٤٠٩.
(٨) تفسير القرآن العظيم ٨/٤٨١.

تفسير سورة الفيل

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَابِ الْفِيلِ ﴿١﴾ أَلَمْ يَجْعَلْ كَيْدَهُمْ فِي تَضْلِيلٍ ﴿٢﴾ وَأَرْسَلَ عَلَيْهِمْ طَيْرًا أَبَابِيلَ ﴿٣﴾ تَرْمِيهِم بِحِجَارَةٍ مِّن سِجِّيلٍ ﴿٤﴾ فَجَعَلَهُمْ كَعَصْفٍ مَّأْكُولٍ ﴿٥﴾﴾

المطلب الأول

مقدمات حول السورة

أولاً: تسميتها:

ورد تسميتها في كلام بعض السلف سورة (ألم تر)[١]، وكذلك عنونها البخاري[٢]. وسميت في جميع المصاحف وكتب التفسير (سورة الفيل)[٣].

ثانياً: نزولها ومناسبتها:

هي مكية بالاتفاق[٤]، وعدد آياتها: (٥)آيات، وكلماتها: (٢٣)كلمة، وحروفها: (٩٣)حرفاً[٥].

مناسبتها لما قبلها:

" في سورة « الهمزة » عرض لمن جمع المال ، واتخذ منه سلاحا يغمز به الناس ، ويهمزهم ، ويمزق أديمهم ، ويزيل وجودهم الإنساني بين الناس ..

وسورة « الفيل » تعرض لجماعة من تلك الجماعات ، التي اجتمع ليدها قوة من تلك القوى المخيفة ، هي الفيل ، الذي يشبه قوة المال في طغيانه ، حين يجتمع ليد إنسان جهول غشوم ، طاغية ، فيتسلط على الناس ، كما يتسلط صاحب الفيل على صاحب الحمار ، أو الحصان ، مثلا .. فكان عاقبة صاحب هذا الفيل الهلاك والدمار ، كما كان عاقبة صاحب هذا المال ، الذلّ والخزي ، والخسران"[٦].

---

(١) الجامع لأحكام القرآن ٢٠/٢٠٠.

(٢) أخرجه البخاري كتاب التفسير باب تفسير سورة الفيل .

(٣) الجامع لأحكام القرآن ٢٠/٢٠٠، التحرير والتنوير ٣٠/٥٤٣.

(٤) المحرر الوجيز ٥/٥٢٣، زاد المسير ٩/٢٣١، الجامع لأحكام القرآن٢٠/١٨٧ التحرير والتنوير ٣٠/٥٤٣.

(٥) التفسير القرآني للقرآن ٣/٨٩.

(٦) المصدر السابق.

ثالثاً: موضوعها:

١ -التذكير بأن الكعبة بيت الله، وأن الله حماه ممن أرادوا به سوءاً، وأظهر غضبه عليهم فعذبهم ، لأنهم ظَالمون بِطَمعهم في هدم مسجد إبراهيم عليه السلام- الكعبة، وهو عندهم في كتابهم.

٢ -وليكون ما حل بهم تذكرة لقريش: بأن فاعل ذلك هو رب ذلك البيت، فلا حظ للأصنام التي نصبوها حوله في حفظه، وتنبيه قريش؛ و تذكير لهم بما ظهر من كرامة النبي ﷺ عند الله، إذ أهلك أصحاب الفيل في عام ولادته.

٣ -ومن وراء ذلك تثبيت النبي ﷺ بأن الله يدفع عنه كيد المشركين، فإن الذي دفع كيد من يكيد لبيته لأحق بأن يدفع كيد من يكيد لرسوله ﷺ ودينه.

٤ -والتذكير بأن الله غالب على أمره ،وأن لا تغر المشركين قوتهم ووفرة عددهم ولا يوهن النبي ﷺ تألب قبائلهم عليه قال تعالى في قصة قارون: ﴿ أَوَلَمْ يَعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ قَدْ أَهْلَكَ مِن قَبْلِهِۦ مِنَ ٱلْقُرُونِ مَنْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُ قُوَّةً وَأَكْثَرُ جَمْعًا ﴾ [القصص٧٨].

رابعاً: المعنى الإجمالي للسورة:

﴿ أَلَمْ ﴾ تعلم -أيها الرسول- ﴿ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَٰبِ ٱلْفِيلِ ﴾ أي: أبرهة الحبشي وجيشه الذين أرادوا تدمير الكعبة المباركة؟ ﴿ أَلَمْ يَجْعَلْ كَيْدَهُمْ فِى تَضْلِيلٍ ﴾ أي: ما دبَّروه من شر في إبطال وتضييع؟ حيث بعث عليهم ﴿ طَيْرًا أَبَابِيلَ ﴾ أي: في جماعات متتابعة، ﴿ تَرْمِيهِم بِحِجَارَةٍ مِّن سِجِّيلٍ ﴾ أي: تقذفهم بحجارة من طين متحجِّر. ﴿ فَجَعَلَهُمْ كَعَصْفٍ مَّأْكُولٍ ﴾ أي: محطمين كأوراق الزرع اليابسة التي أكلتها البهائم ثم رمت بها[1].

---

(١) التفسير الميسر ٦٠١.

المبحث الأول

قصة أصحاب الفيل

قصة أصحاب الفيل على وجه الإيجاز والاختصار تتلخص في أن أبرهة الأشرم — وكان من ملوك اليمن النصارى- بنى كنيسة هائلة بصنعاء، رفيعة البناء، عالية الفناء، مزخرفة الأرجاء. سمتها العرب القُلَّيس لارتفاعها؛ لأن الناظر إليها تكاد تسقط قلنسوته عن رأسه من ارتفاع بنائها.

فلما فرغ من بنائها عزم على أن يصرف حَجّ العرب إليها كما يُحَج إلى الكعبة بمكة، ونادى بذلك في مملكته، فكرهت العرب ذلك، وغضبت قريش لذلك ، حتى قصدها بعضهم، وتوصل إلى أن دخلها ليلاً. فأحدث فيها وكرّ راجعًا، فلما رأى السدنة ذلك الحدث، رفعوا أمرهم إلى ملكهم أبرهة، فأقسم أبرهة ليسيرن إلى بيت مكة، وليخربنه حجرًا حجرًا.

وقيل: أن فتية من قريش دخلوها فأججوا فيها نارًا، وكان يومًا فيه هواء شديد فأحرقته، وسقطت إلى الأرض.

فتأهب أبرهة لذلك، وسار بجيش كبير، واستصحب معه فيلاً عظيما لم يُرَ مثله، يقال له: محمود- وقيل: كان معه ثمانية أفيال، وقيل: اثنا عشر فيلا- والله أعلم. وذلك ليهدم به الكعبة، بأن يجعل السلاسل في الأركان، وتوضع في عُنُق الفيل، ثم يزجر ليلقي الحائط جملةً واحدة.

فلما سمعت العرب بمسيره أعظموا، ورأوا أن حقًا عليهم المحاجبة دون البيت، وَرَدّ من أراده بكيد. وفي طريقه تصدى له بعض قبائل العرب فهزمهم أبرهة لما يريده الله عز وجل من كرامة البيت وتعظيمه.

فلما انتهى أبرهة إلى مكان قريب من مكة نزل به وأغار جيشه على سَرْح أهل مكة من الإبل وغيرها، فأخذوه. وكان في السرح مائتا بعير لعبد المطلب ، وبعث أبرهة أحد قواده إلى مكة، وأمره أن يأتيه بأشرف قريش، وأن يخبره أن الملك لم يجئ لقتالكم إلا أن تَصُدوه عن البيت. فجاء الرسول فَدُل على عبد المطلب بن هاشم وبلغه عن أبرهة ما قال.

فذهب عبد المطلب مع الرسول إلى أبرهة ، فلما رآه أبرهة أجله، وكان عبد المطلب رجلاً جميلاً حسن المنظر، ونزل أبرهة عن سريره، وجلس معه على البساط، وقال لترجمانه: قل له: حاجتك؟ فقال للترجمان: إن حاجتي أن يرد علي الملك مائتي بعير أصابها لي. فقال أبرهة لترجمانه: قل له: لقد كنت أعجبتني حين رأيتك، ثم قد زَهِدت فيك حين كلمتني، أتكلمني في مائتي بعير أصبتها لك، وتترك بيتاً هو دينك ودين آبائك قد جئتُ لهدمه، لا تكلمني فيه؟! فقال له عبد المطلب: إني أنا رب الإبل، وإن للبيت رباً سيمنعه. قال: ما كان ليمتنع مني! قال: أنت وذاك.

وقيل: إنه ذهب مع عبد المطلب جماعة من أشراف العرب فعرضوا على أبرهة ثلث أموال تهامة على أن يرجع عن البيت، فأبى عليهم، ورد أبرهة على عبد المطلب إبله، ورجع عبد المطلب إلى قريش

فأمرهم بالخروج من مكة، والتحصن في رؤوس الجبال، تخوفاً عليهم من معرة الجيش. ثم قام عبد المطلب فأخذ بحلقة باب الكعبة، وقام معه نفر من قريش يدعون الله ويستنصرونه على أبرهة وجنده، ثم أرسل عبدالمطلب حَلْقة الباب، ثم خرجوا إلى رءوس الجبال . وذُكر أهم تركوا عند البيت مائة بدنة مُقَلَّدة، لعل بعض الجيش ينال منها شيئا بغير حق، فينتقم الله منه.

فلما أصبح أبرهة تهيأ لدخول مكة، وهيأ فيله، وعبأ جيشه، فلما وجهوا الفيل نحو مكة أقبل نفيل بن حبيب حتى قام إلى جنبه ثم أخذ بأذنه وقال ابرك محمود وارجع راشداً من حيث جئت، فإنك في بلد الله الحرام. ثم أرسل أذنه، فبرك الفيل، فضربوا الفيل ليقوم، فأبى، فوجهوه راجعا إلى اليمن فقام يهرول. ووجهوه إلى الشام ففعل مثل ذلك. ووجهوه إلى المشرق ففعل مثل ذلك. ووجهوه إلى مكة فبرك!! وأرسل الله عليهم طيرا من البحر مع كل طائر منها ثلاثة أحجار يحملها: حجر في منقاره، وحجران في رجليه، أمثال الحمص والعدس، لا تصيب منهم أحدًا إلا هلك. وخرجوا هاربين، وقريش وعرب الحجاز ينظرون ماذا أنزل الله بأصحاب الفيل من النقمة.

وقال عطاء بن يَسَار: ليس كلهم أصابه العذاب في الساعة الراهنة، بل منهم من هلك سريعًا، فخرجوا يتساقطون بكل طريق، ويهلكون على كل سهل وأصيب أبرهة في جسده، وخرجوا به معهم يسقط أنْمُلة أنْمُلة، حتى قدموا به صنعاء وهو مثل فرخ الطائر، فما مات حتى انصدع صدره عن قلبه فيما يزعمون.

وذُكر أن قريشاً أصابوا مالاً جزيلاً من أسلابهم، وما كان معهم، وأن عبد المطلب أصاب يومئذ من الذهب ما ملأ حفرة.

وكان ذلك في شهر محرم الموافق لشهر شباط–فبراير– سنة ٥٧٠ بعد ميلاد عيسى عليه السلام، وبعد هذا الحادث بخمسين يوماً ولد النبي ﷺ على أصح الأخبار، وفيها اختلاف كثير[1].

---

(١) هذه القصة مختصرة من رواية ابن إسحاق في السيرة النبوية لابن هشام ١/٥٠-٥٤ ، وتفسير الطبري ٢٤/٦٣٥-٦٤٢ وابن كثير ٨/٤٨٣-٤٨٦ وقد ذكر د.أكرم العمري أسانيد الروايات والحكم عليها عند العلماء في السيرة النبوية الصحيحة١/٩٧.

المبحث الثالث

وقفات مع الآيات

المطلب الأول

حادثة الفيل من نعم الله على قريش

قال تعالى: ﴿ أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَٰبِ ٱلْفِيلِ ﴾

استفهام تقريري[١]، يقول تعالى ذكره لنبيه محمد ﷺ: ألم تنظر يا محمد بعين قلبك، فترى بها ﴿ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَٰبِ ٱلْفِيلِ ﴾ الذين قَدِموا من اليمن يريدون تخريب الكعبة من الحبشة ورئيسهم أبرهة الحبشيّ الأشرم[٢].

ولما تلا عليهم رسول الله ﷺ هذه السورة كان بمكة عدد كثير ممن شهد تلك الوقعة [٣]، وعلى هذا فيجوز أن تكون الرؤية بصرية بالنسبةلمن تجاوز سنه نيفاً وخمسين سنة عند نزول الآية ممن شهد حادث الفيل غلاما أو فتى مثل أبي قحافة وأبي طالب وأبي بن خلف[٤].

وجيء في تعريف الله سبحانه بوصف (رب) مضافاً إلى ضمير النبي ﷺ إيماء إلى أن المقصود من التذكير بهذه القصة تكريم النبي ﷺ إرهاصا لنبوته إذ كان ذلك عام مولده[٥]، وأن الله تعالى هو وحده الرب الحامي القائم على أحوال العباد المستحق وحده للعبادة.

قال ابن كثير: "هذه من النعم التي امتن الله بها على قريش، فيما صرف عنهم من أصحاب الفيل، الذين كانوا قد عزموا على هدم الكعبة ،وكانوا قوماً نصارى، وكان دينهم إذ ذاك أقرب حالاً مما كان عليه قريش من عبادة الأوثان، ولكن كان هذا من باب الإرهاص والتوطئة لمبعث رسول الله ﷺ[٦].

قال ابن إسحاق: "ولما رد الله الحبشة عن مكة عَظَّمت العربُ قريشاً وقالوا: هم أهل الله، قاتل الله عنهم وكفاهم مؤونة عدوهم"[٧].

وهذا التقرير على الإجمال يفسره ما بعده من الآيات في ذكر عاقبتهم ومآل أمرهم.

---

(١) التحرير والتنوير ٥٤٤/٣٠.

(٢) جامع البيان ٦٢٧/٢٤.

(٣) انظر الجامع لأحكام القرآن ١٩٥/٢٠.

(٤) التحرير والتنوير ٥٤٥/٣٠ – ٥٤٦ مختصراً .

(٥) التحرير والتنوير ٥٤٥/٣٠ – ٥٤٦ مختصراً .

(٦) تفسير القرآن العظيم ٤٨٣/٨.

(٧) سيرة ابن هشام ٧٥/١. والجامع لأحكام القرآن١٨١/٢٠.

المطلب الثاني

الكيد عاقبته التضليل

قال تعالى: ﴿ أَلَمۡ يَجۡعَلۡ كَيۡدَهُمۡ فِي تَضۡلِيلٖ ﴾

أي: "ألم يجعل سعي الحبشة أصحاب الفيل في تخريب الكعبة ﴿ فِي تَضۡلِيلٖ ﴾ يعني: في تضليلهم عما أرادوا وحاولوا من تخريبها[1].

وسمى حربهم كيداً؛ لأنه عمل ظاهره الغضب من فعل الكناني الذي قعد في القليس، وإنما هو علة تعللوا بها لإيجاد سبب لحرب أهل مكة، وهدم الكعبة لينصرف العرب إلى حج القليس في صنعاء فيتنصروا.

أو أُرِيْدَ بكيدهم بناءهم القليس، مظهرين أنهم بنوا كنيسة، وهم يريدون أن يبطلوا الحج إلى الكعبة، ويصرفوا العرب إلى صنعاء[2] .

والكيد: الاحتيال على إلحاق ضُرٍّ بالغير ومعالجة إيقاعه.

والتضليل: جعل الغير ضالاّ. أي: لا يهتدي لمراده[3].

وهذه إشارة إلى " إبطالِ وعدم نوالِ المقصود- لأن ضلال الطريق يلزم عدم وصول السائر. والمعنى: أن الله أبطله إبطالاً شديداً، إذ لم ينتفعوا بقوَّتهم، مع ضعف أهل مكة وقلة عددهم. وهذا كقوله تعالى: ﴿ وَمَا كَيۡدُ فِرۡعَوۡنَ إِلَّا فِي تَبَابٖ ﴾ [غافر٣٧] أي: ضياع وتلف. وقد شمل تضليل كيدهم جميع ما حل بهم من أسباب الخيبة وسوء المنقلب[4].

فيُعْلَم بهذا أن كل صاحب كيد لهذا الدين أو لأولياء الله فإن الله تعالى جاعل كيده في نحره.

---

(١) جامع البيان ٦٢٧/٢٤.

(٢) انظر: تفسير الرازي ٩٤/٣٢. التحرير والتنوير ٥٤٨/٣٠.

(٣) التحرير والتنوير ٥٤٨/٣٠.

(٤) التحرير والتنوير ٥٤٩/٣٠ بتصرف.

المطلب الثالث

عذاب أصحاب الفيل

قال تعالى: ﴿ وَأَرْسَلَ عَلَيْهِمْ طَيْرًا أَبَابِيلَ ﴾ أي: "وأرسل عليهم ربك طيراً متفرقة، يتبع بعضها بعضاً من نواح شتى"[1]. ومهمة هذه الطيور: ﴿ تَرْمِيهِم بِحِجَارَةٍ مِّن سِجِّيلٍ ﴾ قال بعض أهل العلم:"حجارة من طين، طبخت بنار جهنم، مكتوب فيها أسماء القوم، لقوله تعالى: ﴿ لِنُرْسِلَ عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِّن طِينٍ ﴿٣٣﴾ ﴾[الذاريات٣٣]"[2]. وعلى هذا فهي "نفس الحجارة التي نزلت على قوم لوط"[3].

فإذا أصاب أحدهم حجراً منها خرج به الجدري وهو لم يُرَ قبل ذلك [4]، وكان الحجر كالحمصة وفوق العدسة[5]. وجِيْءَ بصيغة المضارع لاستحضار الحالة، بحيث تُخَيَّلُ للسامع كالحادث في زمن الحال[6].

فكانت نهايتهم ﴿ فَجَعَلَهُمْ كَعَصْفٍ مَّأْكُولٍ ﴿٥﴾ ﴾ والعصف: ورق الزرع، وهو جمع عصفة . لأن العصف إذا دخلته البهائم فأكلته: داسته بأرجلها، وأكلت أطرافه، وطرحته على الأرض[7].

وهذا تمثيل لحال أصحاب الفيل بعد تلك النضرة والقوة، كيف صاروا متساقطين على الأرض هالكين[8].

---

(١) جامع البيان ٦٢٧/٢٤.

(٢) الجامع لأحكام القرآن١٩٨/٢٠، وعمدة القارئ ٢٩١/١٨.

(٣) جامع البيان ٦٣٥/٢٤.

(٤) جامع البيان ٦٣٣/٢٤ ، وأبو نعيم في الحلية ٣٣٣/٣، والبهقي في الدلائل ١٣٣/١.

(٥) الجامع لأحكام القرآن ١٩٨/٢٠.

(٦) التحرير والتنوير ٥٥٠/٣٠.

(٧) الجامع لأحكام القرآن ١٩٩/٢٠، التحرير والتنوير ٥٥١/٣٠.

(٨) التحرير والتنوير ٥٥١/٣٠.

المطلب الرابع

فوائد تربوية من سورة الفيل

أولاً : بيان حرمة الكعبة ووجوب تعظيم حرمات الله تعالى :

فمع أن الخطاب مُوَجَّه للنبي ﷺ إلا أنه مُوَجَّه للأمة جميعها بأنها إن لم تحترم حرمات الله تعالى فسيحصل لهم ما حصل لأصحاب الفيل.

"فلم ننصركم –يا معشر قريش–على الحبشة لخيريتكم عليهم، ولكن صيانة للبيت العتيق الذي سنشرفه ونعظمه ونوقره ببعثة النبي الأمي محمد –صلوات الله وسلامه عليه– خاتم الأنبياء"[1]،" فقصة أصحاب الفيل هي إحدى آيات قدرة الله وأثر من سخطه على من اجترأ عليه بهتك حَرَمِه"[2].

ولذلك ازداد تعظيم العرب لبيت الله الحرام الذي تكفل بحفظه وحمايته من عبث المفسدين، وكيد الكائدين، وأعظمت العرب قريشاً وقالوا هم أهل الله ، قاتل الله عنهم وكفاهم العدو[3].

وزاد الإسلام ذلك التعظيم مهابة وإجلاً فهذا رسول الله ﷺ لما أطل يوم الحديبية على الثنية التي تهبط به على قريش، بركت ناقته. فزجروها فألَحَّت. فقالوا: خلأت القصواء. أي: حَرَنت. فقال رسول الله ﷺ: (ما خلأت القصواء، وما ذاك لها بخُلُق، ولكن حبسها حابس الفيل) ثم قال صلى الله عليه وسلم: (والذي نفسي بيده،لا يسألوني اليوم خُطَّةً يُعَظمون فيها حُرُمات الله إلا أجبتهم إليها). ثم زجرها فقامت[4].

وقال رسول الله ﷺ يوم فتح مكة: (إن مكة حرمها الله و لم يحرمها الناس فلا يحل لامرئ يؤمن بالله واليوم الآخر أن يسفك بها دما ولا يعضد بها شجرة فإن أحد ترخص لقتال رسول الله صلى الله عليه وسلم فيها فقولوا إن الله قد أذن لرسوله و لم يأذن لكم وإنما أذن لي فيها ساعة من نهار ثم عادت حرمتها اليوم كحرمتها بالأمس وليبلغ الشاهد الغائب)[5].

ثانياً : حكم من أراد الإلحاد في البيت :

قال تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ ٱلَّذِى جَعَلْنَٰهُ لِلنَّاسِ سَوَآءً ٱلْعَٰكِفُ فِيهِ وَٱلْبَادِ ۚ وَمَن يُرِدْ فِيهِ بِإِلْحَادٍ بِظُلْمٍ نُّذِقْهُ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٢٥﴾ ﴾[الحج ٢٥].

---

(١) تفسير القرآن العظيم ٤٨٣/٨.

(٢) محاسن التفسير للقاسمي ٢٦٢/١٧.

(٣) السيرة النبوية لابن هشام١٧٦/١، وتاريخ الطبري ٤٤٤/١، والسيرة للندوي ص٩٢.

(٤) أخرجه البخاري كتاب الشروط باب الشروط في الجهاد والمصالحة مع أهل الحرب وكتابة الشروط (٢٧٣١).

(٥) أخرجه البخاري كتاب العلم باب ليبلغ العلم الشاهد الغائب (١٠٤)، ومسلم في كتاب الحج باب تحريم مكة وصيدها وخلاها وشجرها ولقطتها (١٣٥٤).

قال القرطبي: "ذهب قوم من أهل التأويل إلى أن هذه الآية تدل على أن الإنسان يعاقب على ما ينويه من المعاصي بمكة وإن لم يعمله!، وقد روي نحو ذلك عن ابن مسعود وابن عمر رضي الله عنهم، قالوا: (لو أن رجلا بعدن أبين همّ أن يقتل رجلا بهذا البيت، لأذاقه الله من العذاب الأليم)[1].

قال القرطبي: هذا صحيح وقد جاء هذا المعنى في سورة (ن والقلم) في قصة أصحاب الجنة الذين بيتوا نية عدم إعطاء الفقراء حقهم من الزكاة، فأنزل الله الهلاك على جنتهم.

والظلم يجمع جميع المعاصي -من الكفر إلى الصغائر، فلعظم حرمة المكان توعد الله تعالى على نية السيئة فيه، ومن نوى سيئة و لم يعملها لم يحاسب عليها إلا في مكة، هذا قول ابن مسعود وجماعة من الصحابة وغيرهم"[2].

قال ابن حجر: " واستثنى جماعة ممن ذهب إلى عدم مؤاخذة من وقع منه الهم بالمعصية ما يقع في الحرم المكي ولو لم يصمم لقوله تعالى: ﴿ وَمَن يُرِدْ فِيهِ بِإِلْحَادٍ بِظُلْمٍ نُّذِقْهُ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ ﴾.

ويؤيد ذلك أن الحرم يجب اعتقاد تعظيمه فمن هم بالمعصية فيه خالف الواجب بانتهاك حرمته.

وتعقب هذا البحث بأن تعظيم الله آكد من تعظيم الحرم ومع ذلك فمن هم بمعصيته لا يؤاخذه فكيف يؤاخذا بما دونه؟

ويمكن أن يجاب عن هذا بأن انتهاك حرمة الحرم بالمعصية تستلزم انتهاك حرمة الله لأن تعظيم الحرم من تعظيم الله فصارت المعصية في الحرم أشد من المعصية في غيره وإن اشترك الجميع في ترك تعظيم الله تعالى، نعم من هم بالمعصية قاصدا الاستخفاف بالحرم عصى، ومن هم بمعصية الله قاصدا الاستخفاف بالله كفر، وإنما المعفو عنه من هم بمعصية ذاهلاً عن قصد الاستخفاف"[3].

وعلى هذا فالآية مخصصة لقول النبي ﷺ: (إن الله تجاوز عن أمتي ما حدثت به أنفسها ما لم تعمل أو تتكلم)[4].

ثالثاً: عظم حسد النصارى وحقدهم على البيت ومن يعظمون البيت:

فإن هجومهم على مكة لم يكن بسبب فعل الأعرابي، وإنما جعلوا فعله حجة للاعتداء على الكعبة، وهذا الحسد والبغض فيهم لأهل الإسلام قائم لازم منهم إلى قيام الساعة كما قال تعالى: ﴿ وَلَن تَرْضَىٰ عَنكَ ٱلْيَهُودُ وَلَا ٱلنَّصَـٰرَىٰ حَتَّىٰ تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ ﴾ [البقرة ١٢٠].

---

(١) أخرجه الإمام أحمد٧/١٥٥(٤٠٧١)، والبزار (٢٠٢٤)، والطبري١٦/٥٠٨، وابن أبي حاتم٨/٢٤٨٣ عن ابن مسعود رضي الله عنه ، وصححه ابن كثير ٥/٤١١ وذكر آثاراً أخرى. وانظر الدر المنثور١٠/٤٥٣.

(٢) الجامع لأحكام القرآن ١٢/٣١. باختصار.

(٣) فتحر الباري١١/٣٢٨.

(٤) أخرجه البخاري كتاب الطلاق باب الطلاق في الإغلاق والكره والسكران (٥٢٦٩). ومسلم كتاب الإيمان باب تجاوز الله عن حديث النفس(١٢٧).

رابعاً: أنّ خونة الأمة مخذولون:

فهؤلاء العملاء الذين تعاونوا مع أبرهة وصاروا عيوناً له وجواسيس وأرشدوه إلى بيت الله العتيق ليهدمه، لعنوا في الدنيا والآخرة، لعنهم الناس، ولعنهم الله سبحانه وتعالى، وأصبح قبر أبي رغال [١] رمزاً للخيانة والعمالة، وصار ذلك الرجل مبغوضاً في قلوب الناس[٢] .

خامساً: حقيقة المعركة مع أعداء الله :

في قول عبدالمطلب في القصة: (سنخلي بينه وبين البيت فإن خلى الله بينه وبينه، فوالله ما لنا به قوة) "وهذا تقرير دقيق لحقيقة المعركة بين الله وأعدائه، فمهما كانت قوة العدو وحشوده فإنها لا تستطيع الوقوف لحظة واحدة أمام قدرة الله وبطشه ونقمته، فهو سبحانه واهب الحياة، وسالبها أيَّ وقت شاء"[٣].

---

(١) حيث ورد أنه هو الذي وجهه أهل الطائف ليدل أبرهة على طريق الكعبة. انظر : السيرة النبوية لابن هشام ١/٥٠-٥٤ ، وجامع البيان ٢٤/٦٤٠-٦٤٢ ، وتفسير القرآن العظيم ٨/٤٨٣-٤٨٦ وقال الشيخ أكرم العمري : وأما إسناد الطبري إلى قتادة فحسن.. السيرة النبوية الصحيحة ١/٩٧.

(٢) السيرة النبوية للصلابي ١/٥٥.

(٣) السيرة النبوية لأبي فارس ص١١٢.

تفسير سورة قريش

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿ لِإِيلَٰفِ قُرَيْشٍ ﴿١﴾ إِۦلَٰفِهِمْ رِحْلَةَ ٱلشِّتَآءِ وَٱلصَّيْفِ ﴿٢﴾ فَلْيَعْبُدُوا۟ رَبَّ هَٰذَا ٱلْبَيْتِ ﴿٣﴾ ٱلَّذِىٓ أَطْعَمَهُم مِّن جُوعٍ وَءَامَنَهُم مِّنْ خَوْفٍۭ ﴿٤﴾ ﴾

المبحث الأول

مقدمات حول السورة

أولاً: تسميتها :

عنونها البخاري في صحيحه سورة ﴿ لِإِيلَٰفِ قُرَيْشٍ ﴾[1]، وسميت سورة قريش في المصاحف وكتب التفسير لوقوع اسم قريش فيها ولم يقع في غيرها[2].

ثانياً: نزولها ومناسبتها :

السورة مكية عند جماهير العلماء[3]، قال ابن عطية: بلا خلاف[4].

أما عدد آياتها: (٤)آيات، وكلماتها: (١٩)كلمة، وحروفها: (٧٣)حرفاً[5].

مناسبتها لما قبلها:

" أشارت سورة «الفيل» إلى هذه المنّة العظيمة التي امتن بها اللّه سبحانه وتعالى على « قريش » إذ دفع عن بلدهم الحرام ، وعن بيته الحرام هذا المكروه ، وردّ عنهم هذا البلاء ، وأخذ المعتدى على حرمة هذا البيت أخذ عزيز مقتدر .. وبهذا وجدت قريش في هذا البلد أمنها ، ووجدت في جوار البيت الحرام حماها ، وصار لها في قلوب العرب مكانة عالية ، وقدر عظيم ، لا يستطيع أحد أن يحدّث نفسه بسوء ينال به أحدا من أهل هذا البلد الحرام ، وقد رأى ما صنع اللّه بمن أراد به أو بأهله سوءا ..

وجاءت سورة «قريش» بعد هذا ، وكأنها تعقيب على حادثة الفيل ، ونتيجة لازمة من نتائج هذه الحادثة .. ولهذا وصل كثير من العلماء هذه السورة بسورة الفيل ، وجعل اللام في قوله تعالى:﴿ لِإِيلَٰفِ قُرَيْشٍ ﴿١﴾ ﴾ لام تعليل ، متعلقا بقوله تعالى:﴿ فَجَعَلَهُمْ كَعَصْفٍ مَّأْكُولٍ ﴾ .. أي جعلهم كعصف

---

(١) أخرجه البخاري كتاب التفسير باب تفسير سورة ﴿ لِإِيلَٰفِ قُرَيْشٍ ﴾ .

(٢) التحرير والتنوير ٥٥٤/٣٠.

(٣) الجامع لأحكام القرآن٢٠٠/٢٠.

(٤) المحرر الوجيز ٥٧٤/١٥.

(٥) التفسير القرآني للقرآن ٩٠/٣.

مأكول لإيلاف قريش"[1].

ثالثاً: موضوعها :

١-الأمر بتوحيد الله تعالى صراحة﴿ فَلْيَعْبُدُوا ﴾ وبالإشارة إلى أثر نعم الله تعالى على العباد.

٢- أن عادة الناس مع طول إلفهم للنعم ينسوها، كما نسيت قريش أمنها في بيت الله وفي رحلاتها حيث كانوا يلقبون بآل الله فلا يُمسَوُن بسوء في أسفارهم.

٣- الامتنان على قريش بنعمة الأمن والرزق.

" وهذه السورة متصلة بالتي قبلها في المعنى، يقول: أهلكت أصحاب الفيل لتأتلف أو لتتفق قريش، أو لكي تأمن قريش فتؤلف رحلتها"[2].

رابعاً: المعنى الإجمالي للسورة:

﴿ لِإِيلَٰفِ قُرَيْشٍ ۝١ إِۦلَٰفِهِمْ رِحْلَةَ ٱلشِّتَآءِ ﴾ أي: اعْجَبوا لإلف قريش، وأمنهم، واستقامة مصالحهم، وانتظام رحلتيهم في الشتاء إلى اليمن، وفي الصيف إلى الشام، وتيسير ذلك؛ لجلب ما يحتاجون إليه، وعليه ﴿ فَلْيَعْبُدُوا۟ ﴾ أي: فليشكروا، وليعبدوا ﴿ رَبَّ هَٰذَا ٱلْبَيْتِ ﴾ وهو الكعبة- الذي شرفوا به، وليوحدوه ويخلصوا له العبادة، لأنه ﴿ ٱلَّذِىٓ أَطْعَمَهُم مِّن جُوعٍ وَءَامَنَهُم مِّنْ خَوْفٍۭ ۝٤ ﴾[3].

---

(١) المصدر السابق.

(٢) الجامع لأحكام القرآن٢٠/٢٠٠.

(٣) التفسير الميسر٦٠٢.

المبحث الثاني

وقفات حول السورة

المطلب الأول

نعم الله تعالى على قريش

قال تعالى: ﴿ لِإِيلَٰفِ قُرَيۡشٍ ۝ إِۦلَٰفِهِمۡ رِحۡلَةَ ٱلشِّتَآءِ وَٱلصَّيۡفِ ﴾

عن أم هانئ بنت أبي طالب رضي الله عنهما أن رسول الله ﷺ قال: (فضل الله قريشًا بسبع خلال: أني منهم، وأن النبوة فيهم، والحجابة، والسقاية فيهم، وأن الله نصرهم على الفيل، وأنهم عبدوا الله عز وجل عشر سنين لا يعبده غيرهم، وأن الله أنزل فيهم سورة من القرآن. ثم تلاها رسول الله ﷺ: بسم الله الرحمن الرحيم ﴿ لِإِيلَٰفِ قُرَيۡشٍ ۝ إِۦلَٰفِهِمۡ رِحۡلَةَ ٱلشِّتَآءِ وَٱلصَّيۡفِ ۝ فَلۡيَعۡبُدُواْ رَبَّ هَٰذَا ٱلۡبَيۡتِ ۝ ٱلَّذِيٓ أَطۡعَمَهُم مِّن جُوعٖ وَءَامَنَهُم مِّنۡ خَوۡفِۭ ۝ ﴾[1].

فمكة منطقة لا زرع فيها ولا ماء فمن باب أولى ألا يكون فيها تجارة ولا حركة اقتصادية ، ومع ذلك فقد جعل الله لأهل هذا البيت ــ وهو الكعبة ــ تجارة يكتسبون فيها ، حيث كانت لهم رحلتان: رحلة إلى اليمن في الجنوب في الشتاء ، ورحلة إلى الشام في الشمال في الصيف ، ولولا تيسير الله لهم هاتان الرحلتان لم يكن بالبيت مقام، ولولا تثبيت الله للأمن بجوارهم للبيت ــ لم يستطيعوا العيش .

فقد مكن الله لهم السير في الأرض للتجارة برحلتي الشتاء والصيف، لا يخشون عادياً يعدو عليهم ، وبذلك أمنهم من المجاعات، وأمنهم من المخاوف، لِمَا وَقَر في نفوس العرب من حرمتهم، لأنهم سُكان الحرم وعُمّار الكعبة.

وبما أُلْهِم الناس من جلب المِيْرة إليهم من الآفاق المجاورة؛ كبلاد الحبشة، ورد القبائل عنهم فلا يغير على بلدهم أحد، قال تعالى: ﴿ أَوَلَمۡ يَرَوۡاْ أَنَّا جَعَلۡنَا حَرَمًا ءَامِنٗا وَيُتَخَطَّفُ ٱلنَّاسُ مِنۡ حَوۡلِهِمۡۚ أَفَبِٱلۡبَٰطِلِ يُؤۡمِنُونَ وَبِنِعۡمَةِ ٱللَّهِ يَكۡفُرُونَ ۝ ﴾ [العنكبوت ٦٧] فأكسبهم ذلك مهابة في نفوس الناس وعطفاً منهم.

---

(١) أخرجه البيهقي في مناقب الشافعي ٣٤/١ وهو في المستدرك ٥٣٦/٢ وقال الحاكم: صحيح الإسناد و لم يخرجاه. وللشيخ الألباني مبحث حول هذا الحديث في السلسلة الصحيحة برقم (١٩٤٤) وذهب إلى تحسينه، والله أعلم.

"ولقد كان لحادث الفيل أثر مضاعف في زيادة حرمة البيت عند العرب في جميع أنحاء الجزيرة، وزيادة مكانة أهله وسدنته من قريش، مما ساعدهم على أن يسيروا في الأرض آمنين، حيثما حلوا وجدوا الكرامة والرعاية ، وشجعهم على إنشاء خطين عظيمين من خطوط التجارة عن طريق القوافل إلى اليمن في الشتاء، وإلى الشام في الصيف.

ومع ما كان عليه حال الأمن في شِعَاب الجزيرة من سوء، وعلى ما كان شائعاً من غارات السلب والنهب، فإن حرمة البيت في أنحاء الجزيرة قد كفلت لجيرته الأمن والسلامة في هذه التجارة المغرية، وجعلت لقريش بصفة خاصة ميزة ظاهرة، وفتحت أمامها أبواب الرزق الواسع المكفول، في أمان وسلام وطمأنينة، وأَلِفَت نفوسهم هاتين الرحلتين الآمنتين الرابحتين فصارتا لهم عادة وإلفاً"[1].

وهذا الفضل كان بسبب دعوة إبراهيم عليه السلام حيث قال: ﴿ وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِـۧمُ رَبِّ ٱجْعَلْ هَـٰذَا بَلَدًا ءَامِنًا وَٱرْزُقْ أَهْلَهُۥ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ مَنْ ءَامَنَ مِنْهُم بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ ۖ قَالَ وَمَن كَفَرَ فَأُمَتِّعُهُۥ قَلِيلًا ثُمَّ أَضْطَرُّهُۥٓ إِلَىٰ عَذَابِ ٱلنَّارِ ۖ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ﴿١٢٦﴾ ﴾[البقرة١٢٦].

---

(١) في ظلال القرآن ٦/٣٩٨٢.

المطلب الثاني

إلف نعم الله تعالى

قال تعالى: ﴿ لِإِيلَٰفِ قُرَيۡشٍ ۝١ إِۦلَٰفِهِمۡ رِحۡلَةَ ٱلشِّتَآءِ وَٱلصَّيۡفِ ﴾

والإيلاف: مصدر أألف بهمزتين بمعنى ألف[(١)]، أي: أنَّ قريشاً كانت لهم عادةً يَلْزَمونها وهي رحلة الشتاء والصيف.

وقريش: لقب الجد الذي يجمع بطوناً كثيرةً وهو: فهر بن مالك بن النضر بن كنانة، و جميع أهل مكة هم قريش، وفيهم كانت مناصب أهل مكة في الجاهلية موزعة بينهم.

وقوله ﴿ إِۦلَٰفِهِمۡ ﴾ عطف بيان من ﴿ لِإِيلَٰفِ قُرَيۡشٍ ﴾ وهو من أسلوب الإجمال فالتفصيل للعناية بالخبر ليتمكن في ذهن السامع، ومنه قوله تعالى : ﴿ لَّعَلِّيٓ أَبۡلُغُ ٱلۡأَسۡبَٰبَ ۝٣٦ أَسۡبَٰبَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ.... ﴾ [غافر٣٦-٣٧]. حكاية لكلام فرعون[(٢)].

وهذا افتتاح مبدع إذ كان بمجرور بلام التعليل حيث أن فيه تشويق إلى متعلق هذا المجرور. فيتعلق ﴿ لِإِيلَٰفِ ﴾ بقوله: ﴿ فَلۡيَعۡبُدُوا ﴾.

قال الطبري: "إن هذه اللام بمعنى التعجب، وإن معنى الكلام: اعجبوا لإيلاف قريش رحلة الشتاء والصيف، وتركهم عبادة رب هذا البيت الذي أطعمهم من جوع وآمنهم من خوف"[(٣)].

"وتقديم هذا المجرور للاهتمام به إذ هو من أسباب أمرهم بعبادة الله التي أعرضوا عنها بعبادة الأصنام، وهذا التقديم كذلك جعله شرطا لعامله فاقترن عامله بالفاء التي هي من شأن جواب الشرط"[(٤)] قال في الكشاف : "أي: أن نعم الله عليهم لا تحصى، فإن لم يعبدوه لسائر نعمه فليعبدوه لهذه الواحدة التي هي نعمة ظاهرة"[(٥)].

"والمراد بذلك ما كانوا يألفونه من الرحلة في الشتاء إلى اليمن، وفي الصيف إلى الشام في المتاجر وغير ذلك، ثم يرجعون إلى بلدهم آمنين في أسفارهم؛ لعظمتهم عند الناس، لكونهم سكان حرم الله، فمن عَرَفهم احترمهم، بل من سافر إليهم وسار معهم أمن بهم، هذا حالهم في أسفارهم، ورحلتهم في

---

(١) جامع البيان ٢٤/٦٥٠- ٦٥١.
(٢) التحرير والتنوير ٣٠/٥٥٥-٥٥٦ باختصار .
(٣) جامع البيان ٢٤/٦٤٩.
(٤) التحرير والتنوير ٣٠/٥٥٤.
(٥) الكشاف ٤/٢٣٥ باختصار .

شتائهم وصيفهم. وأما في حال إقامتهم في البلد فكما قال الله: ﴿ أَوَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّا جَعَلْنَا حَرَمًا ءَامِنًا وَيُتَخَطَّفُ ٱلنَّاسُ مِنْ حَوْلِهِمْ ۚ أَفَبِٱلْبَٰطِلِ يُؤْمِنُونَ وَبِنِعْمَةِ ٱللَّهِ يَكْفُرُونَ ﴿٦٧﴾ ﴾ [العنكبوت٦٧]"[(١)].

وهذا الإلف وهذه العادة جعلتهم ينسون الله تعالى ولا يعبدونه حق العبادة بل كانوا يشركون معه غيره. ولذلك أمرنا الله دائماً بالتفكر وتذكر نعمه سبحانه، فنعم الله لا تحصى ولا تعد، فكل ما في الإنسان من خير فهو من الله، قال تعالى: ﴿ وَمَا بِكُم مِّن نِّعْمَةٍ فَمِنَ ٱللَّهِ ﴾[النحل٥٣] فالإنسان إذا أمعن التفكر والتذكر يعيش دائماً مع الله وحمده وشكره بكل أنواع الحمد والشكر .

(١) تفسير القرآن العظيم ٨/٤٩١.

المطلب الثالث

قصة الرحلة

وكان الذي سن لهم هاتين الرحلتين: هاشم بن عبد مناف، وقصة ذلك ما روي عن ابن عباس رضي الله عنهما أن أصحاب الإيلاف هاشم وإخوته الثلاثة عبد شمس والمطلب ونوفل، وأن كلّ واحد منهم أخذ حبلاً -أي عهداً- من أحد الملوك الذين يمرون في تجارهم على بلادهم - وهم: ملك الشام وملك الحبشة وملك اليمن وملك فارس. فأخذ هاشم هذا من ملك الشام وهو ملك الروم، وأخذ عبد شمس من نجاشي الحبشة، وأخذ المطلب من ملك اليمن، وأخذ نوفل من كسرى ملك فارس.

وكانوا يجعلون جُعْلاً لرؤساء القبائل وسادات العشائر التي يمر بها طريق تجارهم- يُسمى الإيلاف أيضاً- يُعطونهم شيئاً من الربح، ويحملون إليهم متاعاً، ويسوقون إليهم إبلاً مع إبلهم، ليكفوهم مؤونة الأسفار، وهم يكفون قريشاً دفع الأعداء، فاجتمع لهم بذلك أمن الطريق كله إلى اليمن وإلى الشام(١).

وقيل: أنهم كانوا يعتريهم خصاصة، فإذا لم يجد أهل بيت طعاماً لقوتهم حمل رب البيت عياله إلى موضع معروف فضرب عليهم خباء، وبقوا فيه حتى يموتوا جوعاً، ويسمى ذلك الاعتفار(٢)، فحدث أن أهل بيت من بني مخزوم أصابتهم فاقة شديدة فَهَمُّوا بالاعتفار، فبلغ خبرهم هاشماً- لأن أحد أبنائهم كان تِرْباً لأسد بن هاشم- فقام هاشم خطيباً في قريش، وقال: إنكم أحدثتم حدثاً؛ تَقِلُّون فيه وتكثر العرب، وتذلون وتعز العرب، وأنتم أهل حرم الله، والناس لكم تبع، ويكاد هذا الاعتفار يأتي عليكم، ثم جمع كل بني أبٍ على رحلتين للتجارات فما ربح الغني قسمه بينه وبين الفقير من عشيرته حتى صار فقيرهم كغنيهم، ولم تزل الرحلتان من إيلاف قريش حتى جاء الإسلام وهم على ذلك(٣).

ولذا ذكَّرَهم الله الرحلتين على سبيل الامتنان والالتزام فقال تعالى: ﴿ فَلْيَعْبُدُوا۟ رَبَّ هَٰذَا ٱلْبَيْتِ ۝٣ ٱلَّذِىٓ أَطْعَمَهُم مِّن جُوعٍ وَءَامَنَهُم مِّنْ خَوْفٍۭ ۝٤ ﴾. ولا يمتنع اجتماع ذلك كله — بل وغيره- من الأسباب، وأياً ما كان الأمر فالرحلة آية عظيمة من الله لقريش على وجوب إفراده بالربوبية والإلوهية دون ما سواه من الأصنام والأنداد التي لا تنفعهم بل تضرهم.

---

(١) المنمق في أخبار قريش١/٨، الأوائل للعسكري١/٢، وانظر الجامع للقرطبي ٢٠/٢٠٥. والتحرير والتنوير٣٠/٥٥٦- ٥٥٧ .

(٢) قال ابن فارس: "بالراء من العفر، وهو التراب، وتأويله على ما أظنه: ذهابهم إلى ذلك الخباء، وموتهم واحدا بعد واحد". نقله القرطبي في الجامع ٢٠/٢٠٥، وانظر تاج العروس٣٢١٦، واللسان ٤/٥٨٣.

(٣) المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام ٨/٢٥٨، وذكرها القرطبي في الجامع ٢٠/٢٠٥، والتحرير والتنوير ٣٠/٤٩٠.

المطلب الرابع

وجوب شكر الله تعالى على نعمه بإخلاص العبادة له

قال تعالى: ﴿ فَلْيَعْبُدُواْ رَبَّ هَـٰذَا ٱلْبَيْتِ ۝٣ ٱلَّذِىٓ أَطْعَمَهُم مِّن جُوعٍ وَءَامَنَهُم مِّنْ خَوْفٍ ۝٤ ﴾

أي: "أمرهم أن يعبدوا رب هذا البيت، وكفاهم المؤونة، وكانت رحلتهم في الشتاء والصيف فلم يكن لهم راحة في شتاء ولا في صيف ف ﴿ أَطْعَمَهُم ﴾بعد ذلك ﴿ مِّن جُوعٍ وَءَامَنَهُم مِّنْ خَوْفٍ ﴾أو ألفوا الرحلة، فكانوا إذا شاءوا ارتحلوا وإذا شاؤا أقاموا، فكان ذلك من نعم الله عليهم[1].

أما الأمن الذي آمنهم الله منه هو: الأمن من العدو والأمن الصحي، وجميع أنواع الأمن التي يطمئن إليها الإنسان[2]. فأمروا أن يألفوا عبادة رب مكة والمنعم عليهم برحلة بالإطعام والأمن كإلفهم رحلة الشتاء والصيف[3].

نعم: ﴿ فَلْيَعْبُدُواْ رَبَّ هَـٰذَا ٱلْبَيْتِ ﴾ فهو الذي كفل لهم الأمن فجعل نفوسهم تألف الرحلة، وتنال من ورائها ما تنال، فهو ﴿ ٱلَّذِىٓ أَطْعَمَهُم مِّن جُوعٍ ﴾ وكان الأصل بحسب حالة أرضهم أن يجوعوا، فأطعمهم الله وأشبعهم من هذا الجوع ﴿ وَءَامَنَهُم مِّنْ خَوْفٍ ﴾، وكان الأصل بحسب ما هم فيه من ضعف وبحسب حالة البيئة من حولهم أن يكونوا في خوف فآمنهم من هذا الخوف!فهو تذكير يستجيش الحياء في النفوس، ويثير الخجل في القلوب[4].

فالذي يستحق أن يعبد هو ﴿ رَبَّ هَـٰذَا ٱلْبَيْتِ ﴾ الذي برحمته استطعتم المعيشة من الرحلات والأمن، والشكر يجب أن يكون لـــ ﴿ رَبَّ هَـٰذَا ٱلْبَيْتِ ﴾ لا إلى الأصنام والأوثان والأحجار ، فلا ينبغي للعاقل أن يصرف أعماله – سواءٌ قلبية أو ظاهرة- إلا للخالق سبحانه، فهو الذي خلق وربى وأعطى، وكل ما في الوجود فمنه سبحانه، فكيف نطلب من غيره!! أو نصرف شيئاً من العبادة لغيره!! فهو خطاب للبشر جميعاً على مدار الزمان . فإن جزاء المنعم أن يشكر ولا يكفر ، وأن يعبد ولا يشرك معه أحد، وأن يطاع ولا يعصى، هذه هي الحقيقة التي يذكرها الله لقريش وكل من يأتي بعدهم.

إن ما نعيشه من نعمة الصحة والأموال والأولاد والأمن وغيرها .... كلها من الله وحده، جعل لها أسباباً على أيدي بعض البشر ، فالمعطي الحقيقي هو الله، ومن المعروف أن مَن أعطى يجب أن يُشْكر، وكلما زاد العطاء وجب أن يزداد الشكر، فكيف إذا كانت كل النعم من المعطي سبحانه ألا يستحق أن يشكر!!.

---

(١) جامع البيان ٢٤/٦٥٠-٦٥١.

(٢) جامع البيان ٢٤/٦٥٦.

(٣) جامع البيان ٢٤/٦٥٣.

(٤) في ظلال القرآن ٦/٣٩٨٤ بتصرف واختصار.

تفسير سورة الماعون

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿ أَرَءَيْتَ ٱلَّذِى يُكَذِّبُ بِٱلدِّينِ ﴿١﴾ فَذَٰلِكَ ٱلَّذِى يَدُعُّ ٱلْيَتِيمَ ﴿٢﴾ وَلَا يَحُضُّ عَلَىٰ طَعَامِ ٱلْمِسْكِينِ ﴿٣﴾ فَوَيْلٌ لِّلْمُصَلِّينَ ﴿٤﴾ ٱلَّذِينَ هُمْ عَن صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ ﴿٥﴾ ٱلَّذِينَ هُمْ يُرَآءُونَ ﴿٦﴾ وَيَمْنَعُونَ ٱلْمَاعُونَ ﴿٧﴾ ﴾

المبحث الأول

مقدمات حول السورة

أولاً: تسميتها ونزولها ومناسبتها:

تُسَمى سورة أرأيت الذي[١]، وسورة اليتيم[٢]، وسورة أرأيت[٣]، والدين[٤]، والتكذيب[٥]، والماعون[٦].

وهي مكية عند الجمهور[٧].

أما عدد آياتها: (٧)آيات، وكلماتها: (٢٥)كلمة، وحروفها: (١٢٥)حرفاً[٨].

مناسبتها لما قبلها:

"جاء في سورة «قريش» تنويه عظيم بشأن الشّبع من الجوع ، والأمن من الخوف ، حيث لا حياة بغير طعام ، ولا طعم لحياة بغير أمن! وجاءت سورة « الماعون » لتضرب ـــ والحديد ساخن ـــ كما يقولون ـــ على أوتار هذه القلوب الجافية ، ولتهزّ تلك المشاعر الجامدة ، التي عرفت طعم الشّبع بعد الجوع ، وذاقت هناءة الأمن بعد الخوف ، حتى تندّ بالمعروف ، وتسخو بالخير ، قبل أن تنسى لذعة الجوع ، ورعدة الخوف"[٩].

ثانياً: موضوعها :

١ - التعجب من حال من كذبوا بالبعث .

---

(١) اللباب لابن عادل١٦/٤٦٥، تفسير أبي زمين٢/٣٢٩، تفسير الثعالبي ٤/٤٤٤ .

(٢) التحرير والتنوير٣٠/٥٦٣ ، فتح القدير ٥/٧١١.

(٣) جامع البيان ٢٤/ ٦٢٧،وفي بعض كتب التفسير .

(٤) نظم الدر ١٠/٢٣، تفسير السراج المنير(٥٢٩٨).

(٥) التحرير والتنوير٣٠/٥٦٣.

(٦) روح المعاني٣٠/٣٠٩ ، وفي معظم المصاحف والتفاسير .

(٧) التحرير والتنوير٣٠/٥٦٣، جامع البيان ٢٤/٦٢٧ ، فتح القدير ٥/٧١١ ، تفسير القرآن العظيم ٨/٤٩٣.

(٨) التفسير القرآني للقرآن ٣/٩١.

(٩) المصدر السابق.

٢ - ذم أعمال وصفات الذين كذبوا بالبعث.

٣ - ذم من مَنَع رعاية اليتيم والمسكين واحتقاره.

٤ - ذم من يتأخر عن الصلاة ويسهو عنها.

٥ - ذم من يمنع تبادل المنافع بين الناس عن طريق الإعارات أو التبرع.

ثالثاً: المعنى الإجمالي للسورة:

قول الله تعالى: ﴿ أَرَءَيْتَ ٱلَّذِى يُكَذِّبُ بِٱلدِّينِ ﴾ أي: أرأيت حال ذلك الذي يكذِّب بالبعث والجزاء؟ ﴿ فَذَٰلِكَ ٱلَّذِى يَدُعُّ ٱلْيَتِيمَ ﴾ أي: يدفع اليتيم بعنف وشدة عن حقه؛ لقساوة قلبه، وكذلك ﴿ وَلَا يَحُضُّ عَلَىٰ طَعَامِ ٱلْمِسْكِينِ ﴾ أي: ولا يحضُّ غيره على إطعام المسكين، فكيف له أن يطعمه بنفسه؟

﴿ فَوَيْلٌ لِّلْمُصَلِّينَ ﴿٤﴾ ٱلَّذِينَ هُمْ عَن صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ ﴾ أي: فعذاب شديد للمصلين الذين هم عن صلاتهم لاهون، لا يقيمونها على وجهها، ولا يؤدونها في وقتها.

﴿ ٱلَّذِينَ هُمْ يُرَآءُونَ ﴾ أي: الذين هم يتظاهرون بأعمال الخير مراءاة للناس.

﴿ وَيَمْنَعُونَ ٱلْمَاعُونَ ﴾ أي: ويمنعون إعارة ما لا تضر إعارته من الآنية وغيرها، فلا هم أحسنوا عبادة ربهم، ولا هم أحسنوا إلى خلقه[1].

---

(١) التفسير الميسر ٦٠١.

المبحث الثاني

وقفات مع الصفات المذمومة في السورة

إنَّ المرء قد يتصف ببعض الصفات المذمومة المذكورة في السورة ، وقد يتصف بها جميعاً ، وكلُ مذموم منهي عنه. فإن المراد النهي عن السيئات بأنواعها والترهيب من فعلها أو مقاربة أسباب ذلك.

المطلب الأول

التكذيب بالدين

قال تعالى: ﴿ أَرَءَيْتَ ٱلَّذِى يُكَذِّبُ بِٱلدِّينِ ﴾

أي: "أرأيت يا محمد الذي يكذّب بثواب الله وعقابه، فلا يطيعه في أمره ونهيه"[١]، فهو مكذب بـــ" المعاد والجزاء والثواب"[٢].

والاستفهام يفيد "التشويق على تَعَرُّفِ المكذب، وأن ذلك مما يجب على المسلم ليحترز عنه وعن فعله، وفيه تعجب منه"[٣].

وهذا يفيد تشويه من أنكر إنكار البعث، بما ينشأ عن إنكاره من المذام ومن مخالفة للحق، وهذا إيذان بأن الإيمان بالبعث والجزاء هو الباعث الحق الذي يغرس في النفس جذور الإقبال على الأعمال الصالحة، حتى يصير ذلك لها خُلقاً إذا شبت عليه، فزكت وانساقت إلى الخير بدون كلفة، ولا احتياج إلى آمر، ولا مخافة ممن يقيم عليه العقوبات بخلاف من إذا اختلى بنفسه وآمن الرقباء جاء بالفحشاء والأعمال النكراء[٤].

وإن التكذيب بالدين – سواء بالكلية أو ببعضه – يقود المرء إلى المهالك الدينية والدنيوية ولذا جعل الله الإيمان باليوم الآخر وما فيه أساس من أسس الإيمان التي لا يقوم بدونها وربى عباده على الإيمان به وهذا ملاحظ في القرآن عموماً وفي معالجة غرائز النفس خصوصاً، وكذلك في السور المكية عموماً والمفصل خصوصاً.

---

(١) جامع البيان ٦٥٧/٢٤.

(٢) تفسير القرآن العظيم ٤٩٣/٨.

(٣) روح المعاني٣٠٩/٣٠.

(٤) انظر التحرير والتنوير٥٦٥/٣٠ .

المطلب الثاني

قهر اليتيم ومنعه الطعام وعدم الإحسان إليه

بعد عرض الاستفهام يَنْتَظِرُ من يسمع الاستفهام أين تتجه الإشارة؟ وما هي النتيجة؟ ومن هو الذي يكذب بالدين؟

وإذا الجواب ﴿فَذَٰلِكَ ٱلَّذِى يَدُعُّ ٱلْيَتِيمَ ۝٢ وَلَا يَحُضُّ عَلَىٰ طَعَامِ ٱلْمِسْكِينِ ۝٣﴾

والمعنى أشار إليه قوله تعالى: ﴿كَلَّا ۖ بَل لَّا تُكْرِمُونَ ٱلْيَتِيمَ ۝١٧ وَلَا تَحَٰٓضُّونَ عَلَىٰ طَعَامِ ٱلْمِسْكِينِ ۝١٨﴾[الفجر ١٧ - ١٨].

ومعنى ﴿يَدُعُّ﴾ يدفع بعنف وقهر، قال تعالى: ﴿يَوْمَ يُدَعُّونَ إِلَىٰ نَارِ جَهَنَّمَ دَعًّا﴾[الطور ١٣][(1)].

"فهذا الذي يكذِّب بالدين، هو الذي يدفع اليتيم عن حقه، ويظلمه، ولا يحث غيره على إطعام المحتاج من الطعام"[(2)].

ونسبة الطعام إلى المسكين إشعار بأن المسكين مالك لما يعطى له كما قال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ فِىٓ أَمْوَٰلِهِمْ حَقٌّ مَّعْلُومٌ ۝٢٤ لِّلسَّآئِلِ وَٱلْمَحْرُومِ ۝٢٥﴾[المعارج ٢٤-٢٥]، فهو بيان لشدة الاستحقاق، وفيه إشارة للنهي عن الامتنان"[(3)].

"وكَنّى بنفي الحض عن نفي الإطعام لأن الذي يشح بالحض على الإطعام هو بالإطعام أشح"[(4)].

فضل رعاية اليتيم والمسكين :

وقد بين الله تعالى في مواضع أخرى من كتابة فضل رعاية المحتاج عموماً، قال تعالى في وصف صفات عباد الله الأبرار وما أعد لهم في الجنة: ﴿إِنَّ ٱلْأَبْرَارَ يَشْرَبُونَ مِن كَأْسٍ كَانَ مِزَاجُهَا كَافُورًا ۝٥ عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا عِبَادُ ٱللَّهِ يُفَجِّرُونَهَا تَفْجِيرًا ۝٦ يُوفُونَ بِٱلنَّذْرِ وَيَخَافُونَ يَوْمًا كَانَ شَرُّهُۥ مُسْتَطِيرًا ۝٧ وَيُطْعِمُونَ ٱلطَّعَامَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ مِسْكِينًا وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا ۝٨ إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ ٱللَّهِ لَا نُرِيدُ مِنكُمْ جَزَآءً وَلَا شُكُورًا ۝٩﴾ [الإنسان٥-٩].

---

(١) التحرير والتنوير٣٠/٥٦٦ مختصراً .

(٢) جامع البيان٢٤/٦٥٨- ٦٥٩مختصراً.

(٣) روح المعاني٣٠/٣١٠.

(٤) التحرير والتنوير٣٠/٥٦٦.

وبين الرسول ﷺ فضل رعاية اليتيم خصوصاً فقال: (أنا وكافل اليتيم هكذا في الجنة) وأشار بالسبابة والوسطى[1].

و "اليُتْم في الناس: فَقْدُ الصَّبيِّ أباهُ قَبْل البُلُوغِ"[2]. ولا يطلق على الرجل بعد البلوغ لحديث (لا يتم بعد احتلام)[3].

بخلاف المرأة فاليَتِيمة تطلق في الشرع[4] حتى على "البكر البالغة التي مات أبوها قبل بلوغها، فلزمها اسم اليتم، فدُعيت به وهي بالغة. وقيل: المرأة لا يزول عنها اسم اليتم ما لم تتزوج فإذا تزوجت ذهب عنها"[5].

(١) أخرجه البخاري كتاب الأدب باب فضل من يعول يتيماً (٦٠٠٥) واللفظ له، ومسلم كتاب الزهد والرقائق باب الإحسان إلى الأرملة والمسكين واليتيم (٢٩٨٣).

(٢) النهاية في غريب الحديث ٥/٦٨٩.

(٣) أخرجه أبو داود كتاب الوصايا باب ما جاء متى ينقطع اليتم (٢٨٧٣) وصححه الألباني في صحيح الجامع (٧٦٠٩).

(٤) انظر: عون المعبود ٦/١١٧.

(٥) النهاية في غريب الحديث ٥/٦٨٩.

المطلب الثالث

السهو عن الصلاة

قال تعالى: ﴿ فَوَيْلٌ لِّلْمُصَلِّينَ ﴿٤﴾ الَّذِينَ هُمْ عَن صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ ﴿٥﴾ ﴾

ولبيان الموضوع أكثر نعرض للنقاط التالية:

أولاً: خطورة تأخير الصلاة والغفلة عنها:

فالويل هو: "الوادي الذي يسيل من صديد أهل جهنم من المنافقين الذين يصلون، لا يريدون الله عز وجل بصلاتهم، وهم في صلاتهم ساهون إذا صلوها[1].

فالمقصود هم " المنافقون، الذين يصلون في العلانية ولا يصلون في السر. ولهذا قال: ﴿ لِّلْمُصَلِّينَ ﴾ أي: الذين هم من أهل الصلاة وقد التزموا بها، ثم هم عنها ساهون، إما عن فعلها بالكلية، وإما عن فعلها في الوقت المقدر لها شرعا، فيخرجها عن وقتها بالكلية، وإما عن وقتها الأول فيؤخرونها إلى آخره دائما أو غالبا. وإما عن أدائها بأركانها وشروطها على الوجه المأمور به. وإما عن الخشوع فيها والتدبر لمعانيها، فاللفظ يشمل هذا كله، ولكل من اتصف بشيء من ذلك قسط من هذه الآية، ومن اتصف بجميع ذلك فقد تم نصيبه منها، وكمل له النفاق العملي"[2].

"والحمد لله الذي قال: ﴿ الَّذِينَ هُمْ عَن صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ ﴿٥﴾ ﴾ و لم يقل: في صلاتهم ساهون"[3].

إن السهو عن الصلاة من الأمور العظيمة في مخالفة أمر الله، ويكفي أن الله وصف به هؤلاء المنافقين في هذه السورة وتوعدهم بأشد الوعيد قال الله تعالى: ﴿ فَوَيْلٌ لِّلْمُصَلِّينَ ﴿٤﴾ الَّذِينَ هُمْ عَن صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ ﴿٥﴾ ﴾

وقال تعالى عن الكفار واعترافهم يوم القيامة بأن تركهم للصلاة كان سبب من أسباب دخول النار: ﴿ مَا سَلَكَكُمْ فِي سَقَرَ ﴿٤٢﴾ قَالُوا لَمْ نَكُ مِنَ الْمُصَلِّينَ ﴿٤٣﴾ ﴾[المدثر ٤٢]، وقال ﷺ: (العهد الذي بيننا وبينهم الصلاة فمن تركها فقد كفر) [4]. وفي حديث جابر رضي الله عنه (إن بين الرجل وبين الشرك والكفر ترك الصلاة)[5].

---

(١) جامع البيان٢٤/٦٥٩مختصراً.

(٢) تفسير القرآن العظيم ٨/٤٩٣، وانظر جامع البيان ٢٤/٦٦٣.

(٣) ذكره ابن كثير في التفسير عن عطاء٨/٤٩٣.

(٤) أخرجه الترمذي كتاب الإيمان باب ترك الصلاة (٢٦٢٣) وقال الإمام الترمذي حديث حسن صحيح .وصححه الألباني في صحيح سنن الترمذي (٢١١٣) ، وصحيح سنن ابن ماجه (١٠٧٩).

(٥) أخرجه مسلم كتاب الإيمان باب بيان إطلاق أسم الكفر على من ترك الصلاة١١٦و١١٧

وعن النبي ﷺ في الرؤيا التي رآها أنه قد رأى عذاب الذي يتكاسل عن الصلاة حيث قال: (أما الذي يثلغ[1] رأسه بالحجر فإنه يأخذ القرآن فيرفضه، وينام عن الصلاة المكتوبة)[2].

ثانياً: الواجب علينا تجاه الصلاة:

قال تعالى عن لقمان ووصيته لابنه: ﴿ يَـٰبُنَيَّ أَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ ﴾.

وأمر سبحانه بإقامة الصلاة فقال: ﴿ وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ ۖ إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ تَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ ﴾ [العنكبوت ٤٥].

وإقامتها: تكون في وقتها، مع جماعة المسجد، والمشي إليها بأدب، وتسوية الصفوف، والخشوع. فإن"إقامتها: بحدودها وفروضها وأوقاتها"[3]. سبب في تقويم حياة الناس وسلوكهم ومعاشهم، وتقويم ما يقعون فيه من انحراف.

وإقامة الصلاة: دليل على صدق الإيمان. قال تعالى: ﴿ ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَمِمَّا رَزَقْنَـٰهُمْ يُنفِقُونَ ۝ أُوْلَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُؤْمِنُونَ حَقًّا ۚ ﴾ [الأنفال ٣-٤].

وقد جعل الله تعالى الصلاة مدار قبول باقي الأعمال الأخرى كما قال رسول الله ﷺ: (أول ما يحاسب به العبد يوم القيامة من عمله صلاته فإن صلحت فقد أفلح وأنجح، وإن فسدت فقد خاب وخسر)[4].

وقال تعالى: ﴿ قَدْ أَفْلَحَ ٱلْمُؤْمِنُونَ ۝ ٱلَّذِينَ هُمْ فِى صَلَاتِهِمْ خَـٰشِعُونَ ۝ ﴾ [المؤمنون ١-٢].

ولذا "كان الرجل من العلماء إذا أقام الصلاة، أو قام إليها: يهاب الرحمنَ أن يمد بصره إلى شئ، وأن يُحَدِّث نفسه بشئ من الدنيا"[5]. ولذا "قيل: الخشوع في الصلاة هو: جمع الهمة، والإعراض عما سواها، والتدبر فيما يجري على لسانه من القراءة والذكر"[6].

"وقد علق الله فلاح المصلين بالخشوع في صلاتهم فدل على أن من لم يخشع فليس من أهل الفلاح، ولو اعتد له بها ثوابا لكان من المفلحين، وأما الاعتداد بها في أحكام الدنيا وسقوط القضاء فإن غلب

---

(١) فيثلغ بها رأسه: يعني يشدخه يقال : ثَلَغت رأسه فأنا أثلغه ثَلْغا إذا شدخته وهشمت جزءاً منه، انظر: غريب الحديث لابن سلام٢/٢٥.

(٢) أخرجه البخاري كتاب التهجد باب عقد الشيطان على قافية الرأس إذا لم يصل بالليل(١١٣٤).

(٣) تفسير القرآن العظيم ٦/ ٣٣٨ .

(٤) أخرجه أبي داود كتاب الصلاة باب قول النبي ﷺ: (كل صلاة لا يتمها صاحبها تتم من تطوعه) ح(٨٦٤) ، وابن ماجه كتاب إقامة الصلاة باب أول ما يحاسب عليه العبد يوم القيامة ح (١٤٢٥) وصححه الألباني في صحيح الجامع (٢٠٢٠).

(٥) الجامع لأحكام القرآن ١٢/١٠٣ .

(٦) تفسير البغوي٥ /٤٠٩ ، والنسفي ٣/ ١١٦.

عليها الخشوع وتعقلها اعتد بها إجماعاً، وكانت السنن والأذكار عقيبها جوابر ومكملات لنقصها، وإن غلب عليه عدم الخشوع فيها وعدم تعقلها فقد اختلف الفقهاء في وجوب إعادتها، واحتجوا بأنها: صلاة لا يثاب عليها، ولم يضمن له فيها الفلاح، فلم تبرأ ذمته منها ويسقط القضاء عنه كصلاة المرائي. قالوا: ولأن الخشوع والعقل: روح الصلاة ومقصودها ولبها فكيف يعتد بصلاة فقدت روحها ولبها وبقيت صورتها وظاهرها، قالوا: ولو ترك العبد واجباً من واجباتها عمداً لأبطلها تركه، وغايته أن يكون بعضاً من أبعاضها بمنزلة فوات عضو من أعضاء العبد المعتق في الكفارة، فكيف إذا عدمت روحها ولبها ومقصودها وصارت بمنزلة العبد الميت إذا لم يعتد بالعبد المقطوع اليد يعتقه تقربا إلى الله تعالى في كفارة واجبة فكيف يعتد بالعبد الميت[1].

وقال بعض السلف: الصلاة كجارية تهدى إلى ملك من الملوك، فما الظن بمن يهدي إليه جارية شلاء أو عوراء أو عمياء أو مقطوعة اليد والرجل!! أو مريضة أو دميمة أو قبيحة!! حتى يهدى إليه جارية ميتة بلا روح!! وجارية قبيحة!! فكيف بالصلاة التي يهديها العبد ويتقرب بها إلى ربه تعالى. والله (طيب لا يقبل إلا طيبا)[2] وليس من العمل الطيب: صلاة لا روح فيها، كما أنه ليس من العتق الطيب عتق عبد لا روح فيه.

قالوا: وتعطيل القلب عن عبودية الحضور والخشوع؛ تعطيل لملك الأعضاء عن عبوديته، وعزل له عنها، فماذا تغني طاعة الرعية وعبوديتها وقد عُزِلَ ملكها وتعطل!!

قالوا: والأعضاء تابعة للقلب تصلح بصلاحه وتفسد بفساده، فإذا لم يكن قائما بعبوديته فالأعضاء أولى أن لا يعتد بعبوديتها، وإذا فسدت عبوديته بالغفلة والوسواس فأنَّى تصح عبودية رعيته وجنده، ومادتهم منه وعن أمره يصدرون وبه يأتمرون ..

وقد قال الله تعالى: ﴿فَوَيْلٌ لِّلْمُصَلِّينَ ﴿٤﴾ الَّذِينَ هُمْ عَن صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ ﴿٥﴾﴾ وليس السهو عنها تركها!! وإلا لم يكونوا مصلين. وإنما هو السهو عن واجبها: إما عن الوقت كما قال ابن مسعود رضي الله عنه وغيره. وإما عن الحضور والخشوع. والصواب: أنه يعم النوعين فإنه سبحانه أثبت لهم صلاة، ووصفهم بالسهو عنها، فهو السهو عن وقتها الواجب، أو عن إخلاصها وحضورها الواجب، ولذلك وصفهم بالرياء، ولو كان السهو سهو ترك لما كان هناك رياء ، قالوا: ولو قدرنا أنه السهو عن واجب فقط؛ فهو تنبيه على التوعد بالويل على سهو الإخلاص والحضور بطريق الأولى"[3].

---

(١) وهذا على سبيل تصوير حال ذلك المصلي وتنفيراً من فعله، وجلباً لطلبه الخشوع في صلاته.

(٢) أخرجه مسلم كتاب الزكاة باب قبول الصدقة من الكسب الطيب وتربيتها (١٠١٥).

(٣) مدارج السالكين ١/٥٢٦.

ثالثاً: ومما يعين على إقامة الصلاة وعدم السهو عنها :

١ -**الإخلاص لله تعالى في الصلاة، قال تعالى:** ﴿ قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٦٢﴾ ﴾ [الأنعام١٦٢].

٢ -**الإقلاع عن الذنوب:** فإن العبد يحرم لذة الطاعة بالذنب يصيبه [1].

٣ -**المحافظة على الصلاة في وقتها:** قال تعالى:﴿إِنَّ الصَّلَاةَ كَانَتْ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ كِتَابًا مَّوْقُوتًا ﴿١٠٣﴾﴾ [النساء ١٠٣].

٤ -**الدعاء:** قال تعالى: ﴿ وَقَالَ رَبُّكُمُ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ ﴾ [غافر ٦٠].

٥ -**الاستعداد للصلاة:** كما قال عليه الصلاة والسلام: (ألا أدلكم على ما يمحو الله به الخطايا ويرفع الله به الدرجات؟) قالوا: بلى يا رسول الله. قال: (إسباغ الوضوء على المكاره، وكثرة الخطى إلى المساجد، وانتظار الصلاة بعد الصلاة، فذلكم الرباط، فذلكم الرباط)[2].

٦ -**فعل سنن الصلاة** : كالترديد مع الأذان، والذكر بعد الأذان، والذكر بعد الوضوء، ولبس ثياب حسنة نظيفة، والذهاب إلى المسجد ماشياً بطمأنينة وسكينة ، ودخول المسجد بالرجل اليمنى، ودعاء دخول المسجد، والصلاة في الصف الأول ... .

وإذا قام العبد المصلى بهذا، وجاهد نفسه على القيام بكل أركان الصلاة وواجباتها وسننها وخشوعها؛ أحس بعد ذلك بمعنى قول الرسول ﷺ لبلال: (أرحنا بالصلاة يا بلال) [3] وبقوله ﷺ (وجعلت قرة عيني في الصلاة)[4]. فلا يسهو عن الصلاة ولا يسهو في الصلاة.

---

(١) انظر: ابن الجوزي في صيد الخاطر ص ٣٩٤، الجواب الكافي ٣٤/١ وفيض القدير ١١٩/١ح(١٣٣) وفتاوى ابن إبراهيم ١٨٥/١٣ والدرر السنية ٤٥٠/٢٠ وفتاوى ابن باز ٢٦٦/٦و٤٣٩و٩٨/٢٣ والله أعلم.

(٢) أخرجه مسلم كتاب الطهارة باب إسباغ الوضوء على المكاره (٢٥١).

(٣) أخرجه أبو داود كتاب الأدب باب صلاة العتمة (٤٩٨٥)،مسند أحمد٥/٣٦٤،وصححه الألباني في صحيح الجامع (٧٨٩٢).

(٤) أخرجه النسائي كتاب عشرة النساء باب حب النساء (٣٩٤٠). وأحمد ١٢٨/٣ح (١٢٣٥١) . وصححه الحاكم على شرط مسلم ١٧٤/٢ح(٢٦٧٦) . سلسلة الأحاديث الصحيحة ٤٢٤/٤ح(١٨٠٩).

المطلب الرابع

الرياء

قال تعالى: ﴿ ٱلَّذِينَ هُمۡ يُرَآءُونَ ٦ ﴾

"الذين هم يراؤن الناس بصلاتهم إذا صلوا، لأنهم لا يصلون رغبة في ثواب، ولا رهبة من عقاب، وإنما يصلونها ليراهم المؤمنون فيظنونهم منهم، فيكُفُّون عن سفك دمائهم، وسبي ذراريهم، وهم المنافقون الذين كانوا على عهد رسول الله ﷺ، يستبطنون الكفر، ويُظهرون الإسلام"[(١)].

**والرياء هو: إظهار العبادة لقصد رؤية الناس لها فيحمدوا صاحبها[(٢)].

قال الفضيل: "ترك العمل لأجل الناس رياء ، والعمل لأجلهم شرك ، والإخلاص الخلاص من هذين ، وأن يعافيك الله منها"[(٣)].

وهو ضد الإخلاص الذي هو: ألا تطلب لعملك شاهداً غير الله تعالى[(٤)].

والفرق بين الرياء والسمعة: أن الرياء يكون في الفعل، والسمعة تكون في القول. وقيل: الرياء أن يعمل لغير الله والسمعة أن يخفي عمله ثم يحدث به الناس [(٥)]. أو أنّ الرياء في كل ما يُرى، والسمعة في كل ما يُسمع. وهو أقرب إلى اللفظة: رياء، سمعة.

والرياء اليسير من الشرك الأصغر الذي أخبر عنه النبي ﷺ حيث قال : (إن أخوف ما أخاف عليكم الشرك الأصغر) قالوا: وما الشرك الأصغر يا رسول الله؟ قال: (الرياء، يقول الله عز وجل لهم يوم القيامة إذا جزى الناس بأعمالهم: اذهبوا إلى الذين كنتم تراؤون في الدنيا، فانظروا هل تجدون عندهم جزاء)[(٦)].

****ومن مضار الرياء:**

١ -من أعظم مضار الرياء ما ورد في قول النبي صلى الله عليه وسلم: (من راءى، راءى الله به، ومن سمّع؛ سمّع الله به)[(٧)] أي:"من رآءى بعمله وسمعه الناس - ليكرموه ويعظموه ويعتقدوا خيره -سمع الله به يوم القيامة الناس، وفضحه. وقيل معناه: من سَمَّع بعيوب الناس وأذاعها؛ أظهر الله عيوبه. وقيل: أسمعه المكروه. وقيل: أراه الله ثواب ذلك من غير أن يعطيه إياه، ليكون حسرة

---

(١) الطبري (٢٤/٦٦٤)

(٢) فتح الباري (١١/٣٤٤).

(٣) وتفسير البغوي١/١٥٧، مدارج السالكين ٣/٩٥.

(٤) التعريفات للجرجاني(١٣-١٤).

(٥) انظر : فتح الباري (١١/٣٤٤).

(٦) مسند أحمد٥/٤٢٨/٢٣٦٨٠ قال:شعيب الأرنؤوط:حديث حسن رجاله رجال الصحيح، السلسلة الصحيحة (٩٥١).

(٧) أخرجه البخاري كتاب الرقائق باب الرياء والسمعة(٦١٤٣).ومسلم كتاب الزهد والرقائق باب من أشرك بعمله غير الله (٢٩٨٦).

عليه وقيل: معناه من أراد بعمله الناس؛ أسمعه الله الناس، وكان ذلك حظه منه"[1].

٢ -"الرياء محبط للأعمال المقترن بها مضيع لثوابها"، وقد يتعدى لغيرها من الأعمال فيرائى بها بعد أخلاصها.

٣ -"الرياء سبب للمقت عند الله ، والمرائي ملعون ومطرود من رحمة الله.

٤ -"الرياء من كبائر المهلكات"[2].

٥ -الرياء غصن من شجرة في القلب، ثمرها في الدنيا: الخوف والغم وضيق الصدر وظلمة القلب. وثمرها في الآخرة: الزقوم والعذاب المقيم -أعاذنا الله منها.

٦ -لا يسلم المرائي من أن يفتضح أمره في الدنيا فيسقط من أعين الناس وتذهب هيبته، ويسمع المكروه جزاء ما قدمت يداه[3].

ويكفي أن الرياء سبب لهلاك العبد يوم القيامة؛ فعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: سمعت من رسول الله ﷺ يقول: (إن أول الناس يقضى يوم القيامة عليه: رجل استشهد فأتى به فعرفه نعمه فعرفها، قال: فما عملت فيها؟ قال: قاتلت فيك حتى استشهدت. قال: كذبت! ولكنك قاتلت لأن يقال جريء، فقد قيل.

ثم أمر به فسحب على وجهه حتى ألقى في النار ورجلٌ تعلم العلم وعلمه وقرأ القرآن فأتى به فعرفه نعمه فعرفها، قال: فما عملت فيها؟ قال تعلمت العلم وعلمته وقرأت فيك القرآن. قال: كذبت!! ولكنك تعلمت العلم ليقال عالم، وقرأت القرآن ليقال هو قارئ، فقد قيل. ثم أمر به فسحب على وجهه حتى ألقى في النار. ورجلٌ وسَّع الله عليه وأعطاه من أصناف المال كله فأتى به فعرفه نعمه فعرفها، قال: فما عملت فيها؟ قال: ما تركت من سبيل تحب أن ينفق فيها إلا أنفقت فيها لك. قال: كذبت!! ولكنك فعلت ليقال هو جواد، فقد قيل ثم أمر به فسحب على وجهه ثم ألقي في النار)[4]"[5].

النار)[4]"[5].

**** وتتلخص طرق معالجة الرياء وتجنبه في :**

١ - تذكر عظمة الله تعالى وحقارة العبد وضعف شكره لله وعبادته له.

٢ - تذكر أن الجزاء من الله هو الجزاء الأوفى، وأن العبد لا يملك لنفسه ضراً ولا نفعا .

٣ - مجاهدة النفس في دفع الرياء وتجنب أسبابه، ودعاء الله تعالى بذلك .

---

(١) شرح النووي على مسلم ١١٦/١٨.

(٢) ذكر هذه الثلاث ابن حجر في الزواجر ٤٧/١، والغزالي في الإحياء ٣١٠/٣ بتصرف .

(٣) نضرة النعيم ٤٥٦٧/١٠.

(٤) أخرجه مسلم في صحيحه كتاب الإمارة باب من قاتل للرياء والسمعة استحق النار١٩٠٥.

(٥) انظر الفوائد ص٢٢٦.

المطلب الخامس

منع الخير عن الغير

قال تعالى : ﴿ وَيَمۡنَعُونَ ٱلۡمَاعُونَ ٧ ﴾

"يمنعون الناس منافع ما عندهم، وأصل الماعون من كلّ شيء منفعته، يقال للماء الذي يترل من السحاب ماعون"[1] "فللّه وصفهم بأنهم يمنعون الناس ما يتعاونونه بينهم، ويمنعون أهل الحاجة والمسكنة ما أوجب الله لهم في أموالهم من الحقوق؛ لأن كل ذلك من المنافع التي ينتفع بها الناس بعضهم من بعض"[2].

"أي: لا أحسنوا عبادة ربهم، ولا أحسنوا إلى خلقه حتى ولا بإعارة ما ينتفع به ويستعان به، مع بقاء عينه ورجوعه إليهم. فهؤلاء لمنع الزكاة وأنواع القُرُبات أولى وأولى"[3].

** **فضل تبادل المنافع بين الناس عن طريق الإعارات أو التبرع:**

لقد حث الإسلام على تبادل المنافع، وبهذا جاءت أحكام الشريعة مبنية على هذا الحق الإنساني العظيم ولذا قال الله تعالى: ﴿ وَيَمۡنَعُونَ ٱلۡمَاعُونَ ٧ ﴾.

وكان من صفات النبي ﷺ التي امتدحته بها أم المؤمنين خديجة رضي الله عنها واستنبطت من ذلك أنها من أسباب نجاته ونصرة الله له، والنجاة من الخزي: (والله ما يخزيك الله أبدا؛ إنك لتصل الرحم، وتحمل الكل، وتُكْسِب المعدوم، وتَقْرِي الضيف، وتُعِيْن على نوائب الحق)[4].

وقال ﷺ : (أحب الناس إلى الله تعالى أنفعهم للناس، وأحب الأعمال إلى الله تعالى سرور تدخله على مسلم، أو تكشف عنه كربة، أو تقضي عنه دينا، أو تطرد عنه جوعا، ولأن أمشي مع أخ في حاجة؛ أحب إلي من أن أعتكف في هذا المسجد- يعني مسجد المدينة- شهرا، ومن كف غضبه ستر الله عورته، ومن كظم غيظه -ولو شاء أن يمضيه أمضاه- ملأ الله قلبه رجاء يوم القيامة، ومن مشى مع أخيه في حاجة حتى يتهيأ له أثبت الله قدمه يوم تزول الأقدام)[5].

وعن جابر رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ:(المؤمن يألف ويؤلف ولا خير فيمن لا يألف ولا يؤلف وخير الناس أنفعهم للناس)[6].

---

(١) جامع البيان ٢٤/٦٦٥-٦٦٦.

(٢) جامع البيان ٢٤/٦٧٨.

(٣) تفسير القرآن العظيم ٨/٤٩٥.

(٤) أخرجه مسلم باب بدء الوحي للنبي ﷺ (١٦٠).

(٥) أخرجه الطبراني في الكبير ١٢/ ٤٥٣/١٣٦٤٦، والأوسط ٦/١٣٩، وقال الألباني حسن لغيره في صحيح الجامع(٢٦٢٣).

(٦) أخرجه الطبراني في الأوسط ٦/٥٨، ومسند الشهاب ١/١٠٨(١٢٩)، وحسنه الألباني في صحيح الجامع (٣٢٨٩) ، والسلسلة

وفي الآية نهي عن فعل ما يؤذي الناس ابتداءً من باب أولى، لأن من نهاهم عن ترك إسداء المعروف ابتداءً أوجب ترك الأذى ابتداءً، ومن تلك الصور:

نهى الشرع أن يمنع جاره من غرز خشبة في جداره أو ما في حكمها، فعن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: (لا يمنع جار جاره أن يغرز خشبه في جداره)[1].

وكذلك نهى عن كل ما يفسد الظن ومجالس الناس، ونهى عن الجلوس في الطريق لأنه يؤذي الناس إلا إذا قام بواجبها، عن حبس الماء فضل الماء.

وقد حث على ما يعين المجتمع على التلاحم والتآخي وحمل بعضهم بعضاً، ومن أبرز تلك الصور: الحث على حقوق الجار، وحقوق الأخوة، والتبرع بالمنافع، وأداء الحقوق وافية، وحسن الظن، وبراءة الذمة.

الصحيحة (٤٢٦).

(١) أخرجه البخاري كتاب المظالم باب لا يمنع جار جاره أن يغرز خشبه في جداره(٢٤٦٣) ، ومسلم كتاب المساقاة باب غرز الخشب في جدار الجار(١٦٠٩).

تفسير سورة الكوثر

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿ إِنَّا أَعْطَيْنَاكَ الْكَوْثَرَ ﴿١﴾ فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَانْحَرْ ﴿٢﴾ إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ الْأَبْتَرُ ﴿٣﴾ ﴾

المبحث الأول

مقدمات حول السور

أولاً: تسميتها:

سميت هذه السورة في جميع المصاحف والتفاسير (سورة الكوثر)[١] وبذلك عنونها الترمذي[٢]. وعنونها البخاري في صحيحه سورة (إنا أعطيناك الكوثر)[٣]، وعن البقاعي أنها تسمى (سورة النحر)[٤].

ثانياً: نزولها ومناسبتها :

" وهي مكية عند الجمهور، واقتصر عليه أكثر المفسرين، قال ابن الجزري : أجمع من نعرفه على أنها مكية"[٥]، وقيل مدنية في قول بعض أهل التفسير[٦].

نزلت حين مات ابن رسول الله ﷺ فذهب أبو لهب إلى المشركين وقال: بُتِرَ محمد الليلة. فأنزل الله في ذلك: ﴿ إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ الْأَبْتَرُ ﴿٣﴾ ﴾"[٧]، وروي أنّ العاص بن وائل إذا ذكر رسول الله ﷺ يقول: دعوه فإنه رجل أبتر لا عقب له، فإذا هلك انقطع ذكره. فأنزل الله هذه السورة"[٨].

---

(١) التحرير والتنوير٣٠/٥٧٢.

(٢) جامع الترمذي كتاب التفسير باب سورة الكوثر .

(٣) أخرجه البخاري كتاب التفسير باب سورة { إنا أعطيناك الكوثر}.

(٤) السراج المنير (٥٣٠٢). روح المعاني٣٠/٣١٢.

(٥) النشر ١/١٩٦.

(٦) الجامع لأحكام القرآن٢٠/٢١٦ ، زاد المسير ٩/٢٤٧ وذلك اعتمادا على ذكر موضوع النحر فيها إن كان المقصود به الأضحية فإنما شرعت بالدينية. ولحديث أنس عن نهر الكوثر وسيأتي.

(٧) الجامع لأحكام القرآن٢٠/٢٢٣ ، والمحرر الوجيز عن عكرمة٥/٥٣٠.

(٨) أخرجه ابن إسحاق بلاغا ١/٣٩٣ من سيرة ابن هشام. وانظر: الطبري ٣٠/٣٢٩، وابن كثير ٤/٥٦٠، والواحدي في أسباب النزول (٥٤١-٥٤٢)، والدر المنثور ٨/٦٥٢. ذكره الألباني في صحيح السيرة النبوية ١/٢١٩.

وعندما قدم كعب بن الأشرف مكة قالت له قريش: أنت سيدهم ألا ترى إلى هذا الصنبور[1] المنبتر من قومه يزعم أنه خير منا، ونحن أهل الحجيج، وأهل السدانة وأهل السقاية؟ فقال: أنتم خير منه. قال: فنزلت: ﴿ إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ ٱلۡأَبۡتَرُ ۝٣ ﴾"[2].

أما عدد آياتها: (٣)آيات، وكلماتها: (١٠)كلمات، وحروفها: (٤٢)حرفاً[3].

مناسبتها لما قبلها:

" في سورة « الماعون » ، توعد اللّه الذين لا يقيمون الصلاة ، ولا يؤدّون الزكاة لأنهم مكذبون بالدين ، غير مؤمنين بالبعث والحساب ، والجزاء ـــ توعد اللّه سبحانه هؤلاء ، بالويل والهلاك ، والعذاب الشديد فى نار جهنم ..

وفى مقابل هذا ، جاءت سورة الكوثر تزفّ إلى سيد المؤمنين باللّه واليوم الآخر ، هذا العطاء الجزيل ، وذلك الفضل الكبير من ربه .. ومن هذا العطاء ، وذلك الفضل ، ينال كلّ مؤمن ومؤمنة نصيبه من فضل اللّه ، وعطائه على قدر ما عمل"[4].

ثالثاً: فضلها :

عن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: "بينا رسول الله ﷺ بين أظهرنا في المسجد، إذ أغفى إغفاءة ثم رفع رأسه مبتسماً، قلنا: ما أضحكك يا رسول الله؟ قال: (أنزلت علي آنفاً سورة) فقرأ: بسم الله الرحمن الرحيم ﴿ إِنَّآ أَعۡطَيۡنَٰكَ ٱلۡكَوۡثَرَ ۝١ فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَٱنۡحَرۡ ۝٢ إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ ٱلۡأَبۡتَرُ ۝٣ ﴾ ثم قال: (أتدرون ما الكوثر؟) قلنا: الله ورسوله أعلم. قال: (فإنه نهر وَعَدنيه ربي- عز وجل، عليه خير كثير. هو حوض تَرِدُ عليه أمتي يوم القيامة، آنيته عدد النجوم فَيختلجُ[5] العبد منهم، فأقول: رب إنه من أمتي؟ فيقول: إنك لا تدري ما أحدث بعدك)"[6].

رابعاً: موضوعها :

١- تتحدث عن فضل الله العظيم على رسوله الكريم تمسح على قلبه ﷺ بالرّوح والندى ، وتقرر حقيقة الخير الباقي الممتد الذي اختاره له ربه؛ وحقيقة الانقطاع والبتر المقدر لأعدائه .

---

(١) الصنبور والمنصبر والصنيبير : أي الضعيف الفرد الذي لا غناء عنده ولا امتناع. غريب الحديث٢/٤٣٦.

(٢) غريب الحديث لإبراهيم الحربي٢/٤٣٥، والنسائي في الكبرى (١١٦٤٣)، وجامع البيان ٧/١٤٢و١٤٥، وابن حبان (٦٥٧٢)، والطبراني في الكبير (١١٦٤٥) عن ابن عباس وعكرمة، وذكره الألباني في صحيح السيرة النبوية ١/٢٢٥.

(٣) التفسير القرآني للقرآن ٣/٩٢.

(٤) المصدر السابق.

(٥) فَيُخْتَلَج: أي يُقْتَطَع ويُنْتَزَع. انظر شرح السيوطي على مسلم ٢/١٣٢.

(٦) أخرجه مسلم كتاب الصلاة باب حجة من قال البسملة آية من أول كل سورة سوى براءة (٤٠٠).

٢- هذه السورة لرسول الله ﷺ كسورة الضحى ، وسورة الشرح . يُسرِّي عنه ربه فيها ، ويَعِده بالخير وأعطاه ما لم يعط أحداً من المرسلين ، ويُوعدُ أعداءه بالبتر ، ويُوَجِهه إلى طريق الشكر .

٣- تمثل صورة من حياة الدعوة ، وحياة الداعية في أول العهد بمكة . صورة من الكيد والأذى للنبي ﷺ ودعوة الله التي يبشر بها؛ وصورة من رعاية الله المباشرة لعبده وللقلة المؤمنة معه؛ ومن تثبيت الله وتطمينه وجميل وعده لنبيه ومرهوب وعيده لشانئه .

٤ - تمثل حقيقة الهدى والخير والإيمان (كثرة وفيضاً وامتداداً)، وحقيقة الضلال والشر والكفران، (قلةً وانحساراً وانبتاراً). وإن ظن الغافلون غير هذا وذاك [١].

خامساً: المعنى الإجمالي للسورة:

يقول الله تعالى لنبيه محمد صلى الله عليه وسلم: ﴿إِنَّآ أَعۡطَيۡنَٰكَ﴾ أيها النبي الخير الكثير في الدنيا والآخرة، ومن ذلك نهر ﴿ٱلۡكَوۡثَرَ﴾ في الجنة الذي حافتاه خيام اللؤلؤ المجوَّف، وطينه المسك.

﴿فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَٱنۡحَرۡ﴾ أي: فأخلص لربك صلاتك كلها، واذبح ذبيحتك له وعلى اسمه وحده.

﴿إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ ٱلۡأَبۡتَرُ﴾ أي: إن مبغضك ومبغض ما جئت به من الهدى والنور، هو المنقطع أثره، المقطوع من كل خير [٢].

---

(١) انظر إيجاز البيان للصابوني ص٣١٧، في ظلال القرآن٦/٣٩٨٧ بتصرف.

(٢) التفسير الميسر ٦٠٢.

المبحث الثاني

وقفات حول السورة

المطلب الأول

نعمة الله وعطائه

قال تعالى: ﴿ إِنَّآ أَعۡطَيۡنَٰكَ ٱلۡكَوۡثَرَ﴾ وهنا مسألتان:

المسألة الأولى: ﴿ إِنَّآ أَعۡطَيۡنَٰكَ ﴾:

﴿ إِنَّآ ﴾: افتتاح الكلام بحرف التأكيد للاهتمام بالخبر، والإشعار بأنه شيء عظيم يستتبع الإشعار بتنويه شأن النبي ﷺ، والكلام مسوق مساق البشارة وإنشاء العطاء لا مساق الأخبار بعطاء سابق.

وضمير العظمة مشعر بالامتنان بعطاء عظيم[1] ، وتذكير بأن المعطي هو الله وحده ليتعلق القلب بمالك الملك والقادر على كل شيء، وأما من سواه فهو لا يضر ولا ينفع.

المسألة الثانية: ما هو الكوثر؟

﴿ ٱلۡكَوۡثَرَ ﴾ أي: "الخير الكثير، والفضل الغزير، الذي من جملته: ما يعطيه الله لنبيه ﷺ يوم القيامة؛ من النهر الذي يقال له ﴿ ٱلۡكَوۡثَرَ ﴾"[2].

فعن أنس ابن مالك رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ: (أعطيتُ الكوثر، فإذا هو نهر يجري، ولم يُشق شقًا، وإذا حافتاه قباب اللؤلؤ، فضربت بيدي في تربته، فإذا مسكه ذَفَرة، وإذا حصاه اللؤلؤ)[3].

وفي رواية: (ذاك نهر أعطانيه الله– يعني في الجنة– أشد بياضاً من اللبن، وأحلى من العسل، فيها طير أعناقها مثل أعناق الجُزُر). فقال عمر: يا رسول الله، إنها لناعمة؟ قال: (أكلها أنعم منها)[4].

وعن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: لما عُرِجَ بالنبي ﷺ إلى السماء قال: (أتيتُ على نهر حافتاه قباب اللؤلؤ المجوف فقلت: ما هذا يا جبريل؟ قال: هذا الكوثر)[5].

---

(١) التحرير والتنوير٣٠/٥٧٢ .

(٢) تيسير الكريم الرحمن ٩٣٥.

(٣)أخرجه أحمد ٣/١٥٢(١٢٥٢٦)، قال شعيب الأرنؤوط "إسناده صحيح على شرط مسلم"، وأبي يعلى ٦/٢٣٦(٣٥٢٩)، وقال محمد بن سليم: إسناده صحيح، وصححه الألباني في السلسلة الصحيحة (٢٥١٣).

(٤) أخرجه الترمذي كتاب صفة الجنة باب ما جاء في صفة طير الجنة (٢٥٤٢)، وصححه الألباني في الصحيحة (٢٥١٤).

(٥) أخرجه البخاري كتاب التفسير باب سورة الكوثر (٤٩٦٤) .

وعن أبي عبيدة رحمه الله، عن عائشة رضي الله عنها قال: سألتها عن قوله تعالى : ﴿ إِنَّآ أَعۡطَيۡنَٰكَ ٱلۡكَوۡثَرَ ﴾ قالت: (نهر عظيم أعطيه نبيكم ﷺ، شاطئاه عليه در مجوف، آنيته كعدد النجوم)[1].

وفي رواية قالت: (نهر في بطنان الجنة). قلت: وما بطنان الجنة؟ قالت: (وسطها)..

وعن سعيد بن جبير رحمه الله ، عن ابن عباس رضي الله عنهما أنه قال في الكوثر: هو الخير الذي أعطاه الله إياه. قال أبو بشر: قلت لسعيد بن جبير: فإن ناسًا يَزْعُمون أنه نهر في الجنة؟ فقال سعيد: النهر الذي في الجنة من الخير الذي أعطاه الله إياه[2].وفي رواية قال ابن عباس الكوثر: الخير الكثير[3].

وصح عن ابن عباس رضي الله عنهما أنه فسره بالنهر أيضاً، قال رضي الله عنه : (الكوثر: نهر في الجنة، حافتاه ذهب وفضة، يجري على الياقوت والدر، ماؤه أبيض من الثلج وأحلى من العسل)[4].

وتفسير الكوثر "بالخير الكثير: يعم النهر وغيره؛ لأن الكوثر من الكثرة، وهو الخير الكثير، ومن ذلك النهر والنبوة والقرآن وثواب الآخرة"[5].

وهذا النص الإلهي "يشير إلى عكس المعنى الذي أطلقه هؤلاء السفهاء﴿ إِنَّآ أَعۡطَيۡنَٰكَ ﴾ ما هو كثير فائض غزير، غير ممنوع ولا مبتور، فإذا أراد أحد أن يتتبع هذا ﴿ ٱلۡكَوۡثَرَ ﴾ الذي أعطاه الله لنبيه فهو واجده حيثما نظر أو تصور. إنه ﴿ ٱلۡكَوۡثَرَ ﴾ ، الذي لا نهاية لفيضه، ولا إحصاء لعوارفه، ولا حَدَّ لمدلوله. ومن ثم تَرْكه بلا تحديد يشمل كل ما يكثر من الخير ويزيد"[6].

---

(١) أخرجه البخاري كتاب التفسير باب سورة الكوثر (٤٩٦٥).

(٢) أخرجه البخاري كتاب التفسير باب سورة الكوثر (٤٩٦٦).

(٣) أخرجه البخاري كتاب الرقاق باب الحوض (٦٥٧٨).

(٤) جامع البيان ٢٤/٦٤٥ ، تفسير القرآن العظيم ٨/٥٠١.

(٥) تفسير القرآن العظيم ٨/٥٠٢ باختصار .

(٦) في ظلال القرآن ٦/٣٩٨٧ باختصار .

المطلب الثاني

شكر الله على نعمه

قال تعالى: ﴿ فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَٱنْحَرْ ﴿٢﴾ ﴾

أي: "كما أعطيناك الخير الكثير في الدنيا والآخرة، ومن ذلك النهرُ الذي تقدم صفته -فأخلص لربك صلاتك المكتوبة والنافلة، ونَحْرَك، فاعبده وحده لا شريك له، وانحر على اسمه وحده لا شريك له. وهذا مثل قول الله تعالى: ﴿ قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٦٢﴾ لَا شَرِيكَ لَهُۥ ۖ وَبِذَٰلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿١٦٣﴾ ﴾ [الأنعام ١٦٢- ١٦٣] ... وهذا بخلاف ما كان المشركون عليه من السجود لغير الله، والذبح على غير اسمه، كما قال تعالى: ﴿ وَلَا تَأْكُلُوا۟ مِمَّا لَمْ يُذْكَرِ ٱسْمُ ٱللَّهِ عَلَيْهِ وَإِنَّهُۥ لَفِسْقٌ﴾ الآية [الأنعام:١٢١]" [١].

كُلُّ ذلك "شكرًا له على ما أعطاك من الكرامة والخير، الذي لا كِفَاء له، وخصك به"[٢]، "وإضافة ﴿ رَبِّ﴾ إلى ضمير المخاطب لقصد تشريف النبي ﷺ وتقريبه، وفيه تعريض بأنه يربه ويرأف به"[٣].

و"خص هاتين العبادتين بالذكر، لأنهما من أفضل العبادات وأجل القربات،ولأن الصلاة تتضمن الخضوع في القلب والجوارح لله، وتنقلها في أنواع العبودية، وفي النحر تقرب إلى الله بأفضل ما عند العبد من النحائر، وإخراج للمال الذي جبلت النفوس على محبته"[٤].

وفي الآية إشارة إلى " عناية هذا الدين بتخليص الحياة كلها من الشرك وآثاره. فهو دين الوحدة بكل معنى من معانيها، كما أنه دين التوحيد الخالص المجرد الواضح. ومن ثَمَّ فهو يتتبع الشرك في كل مظاهره، وفي كل مكامنه؛ ويطارده مطاردة عنيفة دقيقة سواء استكن في الضمير، أم ظهر في العبادة، أم تسرب إلى تقاليد الحياة، فالحياة وحدةٌ؛ ما ظهر منها وما بطن، والإسلام يأخذها كلاً وجزءاً، ويتجه بها إلى الله خالصة واضحة ناصعة، كما في مسألة الذبائح وفي غيرها من شعائر العبادة وتقاليد الحياة"[٥].

---

(١) تفسير القرآن العظيم ٥٠٣/٨ باختصار .

(٢) جامع البيان ٦٥٥/٢٤ .

(٣) التحرير والتنوير ٣٠ /٥٧٤.

(٤) تيسير الكريم الرحمن ٩٣٦.

(٥) في ظلال القرآن ٣٩٨٨/٦ باختصار .

المطلب الثالث

دفاع عن النبي ﷺ

قال تعالى: ﴿ إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ ٱلۡأَبۡتَرُ ﴾

﴿ إِنَّ شَانِئَكَ ﴾أي:" مبغضك وذامك ومنتقصك ﴿ هُوَ ٱلۡأَبۡتَرُ﴾ أي: المقطوع من كل خير، مقطوع العمل، مقطوع الذكر.

وأما محمد ﷺ، فهو الكامل حقًا، الذي له الكمال الممكن في حق المخلوق، من رفع الذكر، وكثرة الأنصار والأتباع ﷺ"[1].

"والأبتر: الذي إذا مات انقطع ذكره، فتوهموا لجهلهم أنه إذا مات بَنُوه ينقطع ذكره، وحاشا وكلا !! بل قد أبقى الله ذكره على رؤس الأشهاد، وأوجب شرعه على رقاب العباد، مستمراً على دوام الآباد، إلى يوم الحشر والمعاد صلوات الله وسلامه عليه دائما إلى يوم التناد"[2].

"ولقد صدق فيهم وعيد الله. فقد انقطع ذكرهم. بينما امتد ذكر محمد ﷺ. ونحن نشهد اليوم مصداق هذا القول الكريم، في صورة باهرة واسعة المدى!

إن الإيمان والحق والخير لا يمكن أن يكون أبتراً. وإنما الكفر والباطل والشر هو الأبتر مهما ترعرع وزها وتجبر في وقت من الأوقات . ولكن البَشَر ينخدعون ويغترون .. فأين الذين كانوا يقولون عن محمد ﷺ قولتهم اللئيمة، ويحسبون حينئذ أنهم قد قضوا على محمد وقطعوا عليه الطريق ؛ أين هم؟ ! وأين ذكراهم؟! وأين آثارهم إلى جوار الكوثر؟!! وصدق الله العظيم. وكذب الكائدون الماكرون"[3].

وهذه بشرى لأتباع الرسول ﷺ السائرين على طريقه وهديه، فإن الله سيتولى الدفاع عنهم وسيبقي ذكرهم الحسن. وفي المقابل فإن أعداء الرسول ﷺ يجب عليهم أن يعودوا عودوا إلى الله قبل أن يبقى الذكر القبيح لهم والعذاب المهين في الآخرة.

عندها نقول للجميع: هلا حرصتم على بقاء ذكركم بعد موتكم، بإخلاص الدين لله وحده، وتجريد المتابعة للهادي الأمين صلى الله عليه وسلم.

---

(١) تيسير الكريم الرحمن ٩٣٦.

(٢) تفسير القرآن العظيم ٥٠٥/٨.

(٣) في ظلال القرآن ٣٩٨٩/٦ باختصار وتصرف .

تفسير سورة الكافرون

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿ قُلْ يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ ﴿١﴾ لَا أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ ﴿٢﴾ وَلَا أَنتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ ﴿٣﴾ وَلَا أَنَا عَابِدٌ مَّا عَبَدتُّمْ ﴿٤﴾ وَلَا أَنتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ ﴿٥﴾ لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ ﴿٦﴾ ﴾

المبحث الأول

مقدمات حول السورة

أولاً: تسميتها :

١ - تُسمى المقشقشة وهو من قشقش المريض إذا صح وبرأ. أي: المبرئ من الشرك والنفاق.

٢ - سورة الإخلاص[(١)].

٣ - عنونها البخاري بقوله ﴿ قُلْ يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ ﴾[(٢)].

٤ - وتسمى سورة العبادة.

٥ - وسورة الدين[(٣)].

٦ - وفي كثير من المصاحف تسمى الكافرون؛ حيث إنها تخاطب كفرة مخصوصين قد علم الله منهم أنهم لا يؤمنون ، فهذه السورة وسورة الإخلاص تشملان على كلمة التوحيد في النفي والإثبات[(٤)].

ثانياً: نزولها ومناسبتها:

هي عند الجمهور مكية[(٥)] ، فقد كان المشركون عرضوا على الرسول ﷺ أن يعبدوا الله سنةً، على أن يعبد نبيّ الله ﷺ آلهتهم سنةً، فأنزل الله هذه السورة.

فرُوي أن الوليد بن المُغيرة والعاص بن وائل، والأسود بن المطلب، وأميَّة بن خلف، لقوا رسول الله، فقالوا: يا محمد، هلمّ فلنعبد ما تعبد، وتعبدْ ما نعبد، ونُشركك في أمرنا كله، فإن كان الذي جئت به

---

(١) الكشاف ٢٣٨/٤، روح المعاني ٣١٩/٣٠، التحرير والتنوير٥٧٩/٣٠.

(٢) أخرجه البخاري كتاب التفسير باب سورة ﴿ قُلْ يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ ﴾.

(٣) التحرير والتنوير٥٧٩/٣٠ نقلاً عن بصائر ذوي التمييز للفيروز آبادي .

(٤) الكشاف ٢٣٨/٤ .

(٥) الدر المنثور٧١١/١٥، روح المعاني٣١٩/٣٠، التحرير والتنوير٥٧٩/٣٠.

خيراً مما بأيدينا، كنا قد شَرَكناك فيه، وأخذنا بحظنا منه؛ وإن كان الذي بأيدينا خيراً مما في يديك، كنت قد شَرِكتنا في أمرنا، وأخذت منه بحظك. فأنزل الله: ﴿ قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْكَٰفِرُونَ ﴾ حتى انقضت السورة[1].

وعن ابن عباس رضي الله عنهما أن قريشاً دعت رسول الله ﷺ إلى أن يعطوه مالاً فيكون أغنى رجل بمكة ويزوّجوه ما أراد من النساء ، فقالوا : هذا لك يا محمد وكف عن شتم آلهتنا ولا تذكر آلهتنا بسوء، فإن لم تفعل فإنا نعرض عليك خصلة واحدة ولك فيها صلاح. قال: ما هي؟ قالوا: تعبد آلهتنا سنة ونعبد إلهك سنة. قال: حتى أنظر ما يأتيني من ربي فجاء الوحي من عند الله ﴿ قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْكَٰفِرُونَ ۝١ لَآ أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ ۝٢ ﴾ الآية، وأنزل الله ﴿ قُلْ أَفَغَيْرَ ٱللَّهِ تَأْمُرُوٓنِّىٓ أَعْبُدُ أَيُّهَا ٱلْجَٰهِلُونَ ۝٦٤ وَلَقَدْ أُوحِىَ إِلَيْكَ وَإِلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكَ لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ۝٦٥ بَلِ ٱللَّهَ فَٱعْبُدْ وَكُن مِّنَ ٱلشَّٰكِرِينَ ۝٦٦ ﴾ [الزمر٦٤-٦٦].[2].

أما عدد آياتها: (٦)آيات، وكلماتها: (٢٨)كلمة، وحروفها: (٩٤)حرفاً[3].

مناسبتها لما قبلها:

" الكوثر الذي أعطاه اللّه سبحانه وتعالى النبي صلوات اللّه وسلامه عليه ـــ كان في مقابله البتر والحرمان من كل خير لمن يشنأ هذا النبي ، الذي وضع اللّه سبحانه وتعالى ، الخير كله في يده .. وهذا مجمل ما تحدثت عنه سورة «الكوثر» وفى سورة «الكافرون» التي تأتى بعد هذه السورة ، موقف بين النبي ـــ صلوات اللّه وسلامه عليه ـــ وما أعطاه اللّه سبحانه من خير كثير ، يفيض من النبع الأعظم، وهو الإيمان باللّه ـــ وبين المشركين الذين عزلوا أنفسهم عن هذا الخير ، وحرموا أن ينالوا شيئا منه .. وفى هذا الموقف يعلن النبي عن هذا الخير الذي من اللّه به عليه ، وأنه ممسك به ، مقيم عليه ، لا يصرفه عنه شيء من هذه الدنيا ..

فهو لا يعبد غير اللّه سبحانه وتعالى ، ولا يتحول عن عبادته أبدا ، ولا ينظر إلى شيء وراءه من مال وبنين!!"[4].

ثالثاً: فضلها :

ورد في الحديث (أنها تعدل ربع القرآن)[5].

---

(١) جامع البيان ٧٠٤/٢٤، الدر المنثور١٥/ ٧١٢ .

(٢) جامع البيان ٧٠٤/٢٤، والطبراني في الصغير٢٦٥/١، وانظر الدر المنثور٧١١/١٥، وضَعَّفَ ابن حجر إسناده في الفتح٧٣٣/٨ .

(٣) التفسير القرآني للقرآن ٩٣/٣.

(٤) المصدر السابق.

(٥) أخرجه الترمذي كتاب فضائل القرآن باب ما جاء في إذا زلزلت(٢٨٩٣). والحاكم في المستدرك٧٥٤/١ رقم ٢٠٧٨. وحسنه الألباني في السلسلة الصحيحة (٥٨٦).

ومن فضلها أنها تقرأ في مواضع وهي:

١- ركعتي الطواف: عن جابر رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قرأ بسورة ﴿ قُلۡ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلۡكَـٰفِرُونَ ﴾، وبـ ﴿ قُلۡ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ﴾ في ركعتي الطواف[1].

٢- ركعتي الفجر: عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قرأ بهما في ركعتي الفجر[2].

٣- الركعتين بعد المغرب: عن ابن عمر رضي الله عنهما أن رسول الله ﷺ قرأ في الركعتين قبل الفجر والركعتين بعد المغرب، بضعاً وعشرين مرة أو: بضع عشرة مرة ﴿ قُلۡ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلۡكَـٰفِرُونَ ﴾ و ﴿ قُلۡ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ۝ ﴾[3].

٤- عند النوم : عن جبلة بن حارثة رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال: (إذا أويت إلى فراشك فاقرأ : ﴿ قُلۡ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلۡكَـٰفِرُونَ ﴾ حتى تمر بآخرها، فإنها براءة من الشرك"[4].

٥- عند الوتر: عن عبد العزيز بن جريج رحمه الله قال: سألنا عائشة رضي الله عنها بأي شيء كان يوتر رسول الله ﷺ؟ قالت: كان يقرأ في الأولى بـ ﴿ سَبِّحِ ٱسۡمَ رَبِّكَ ٱلۡأَعۡلَى ﴾ وفي الثانية بـ ﴿ قُلۡ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلۡكَـٰفِرُونَ ﴾ وفي الثالثة بـ ﴿ قُلۡ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ﴾ **والمعوذتين**[5].

وعلى هذا فكان يفتتح بهما يومه في الفجر، ثم يفتتح بها ليله في سنة المغرب، ثم يختم ليله بهما في صلاة الوتر.

٦- تقرأ في الرُقَى: عن علي رضي الله عنه قال:لدغت النبي ﷺ عقرب وهو يصلي، فلما فرغ قال: (لعن الله العقرب، لا تدع مصلياً ولا غيره) ثم دعا بماء وملح وجعل يمسح عليها ويقرأ: (﴿ قُلۡ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلۡكَـٰفِرُونَ ﴾ و ﴿ قُلۡ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلۡفَلَقِ ۝ ﴾ و ﴿ قُلۡ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلنَّاسِ ۝ ﴾)[6].

---

(١) أخرجه مسلم كتاب الحج باب حجة النبي ﷺ (١٢١٨).

(٢) أخرجه مسلم كتاب صلاة المسافرين وقصرها باب استحباب ركعتي سنة الفجر والحث عليهما وتخفيفهما والمحافظة عليهما وبيان ما يستحب أن يقرأ فيهما (٧٢٦)

(٣) أخرجه أحمد ٢٤/٢ (٤٧٦٣) قال:الأرنؤوط:"إسناده صحيح على شرط الشيخين"، وصححه الألباني في الصحيحة(٣٣٢٨).

(٤) أخرجه أبو داود كتاب الأدب باب ما يقال عند النوم (٥٠٥٥)، والمعجم الكبير ٢٨٧/٢ ح(٢١٩٥)، والمعجم الأوسط ٢٧٥/٢ ح(١٩٦٨)، وصححه الألباني في صحيح الجامع (٢٩٢).

(٥) أخرجه أبو داود كتاب الوتر باب ما يقرأ في الوتر (١٤٢٤)، وصححه الألباني في مشكاة المصابيح (١٢٦٩)، وصحيح سنن أبي داود (١٢٦٢).

(٦) أخرجه الطبراني في الأوسط ٩١/٦، وفي الصغير ٨٧/٢ (٨٣٠)، وصححه الألباني في السلسلة الصحيحة (٥٤٨)، وانظر: الدر المنثور ٧١٩/١٥.

وفي الحث على قراءتها وتكرارها في كل هذه المواضع إشارة إلى تعظيم قدرها ومعانيها، وتأكيد لما اشتملت عليه، فإن الشارع الحكيم قصد تكرارها في كل هذه المواضع لتتكرر في النفوس هذه المبادئ الأصيلة حتى تكون عقيدة راسخة لا تزعزعها الزوابع ولا تزيلها الفتن القوامع، والله أعلم .

رابعاً: موضوعها :

والغرض الذي اشتملت عليه السورة هو:

١ تيئيس للكفار من أن يوافقهم النبي ﷺ في شيء مما هم عليه من الكفر بالقول الفصل المؤكد في الحال والاستقبال.

٢ وأن دين الإسلام لا يخالط شيئاً من دين الشرك[1].

فهذه السورة سورة البراءة من العمل الذي يعمله المشركون، وهي آمرة بالإخلاص فيه[2].

خامساً: المعنى الإجمالي للسورة:

﴿ قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْكَٰفِرُونَ ۝١ ﴾ أي: قل -أيها الرسول- للذين كفروا بالله ورسوله: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْكَٰفِرُونَ ﴾ بالله.﴿ لَآ أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ ﴾ من الأصنام والآلهة الزائفة، ﴿ وَلَآ أَنتُمْ عَٰبِدُونَ مَآ أَعْبُدُ ﴾ من إله واحد، هو الله رب العالمين المستحق وحده للعبادة، ﴿ وَلَآ أَنَا۠ عَابِدٌ مَّا عَبَدتُّمْ ﴾ من الأصنام والآلهة الباطلة، ﴿ وَلَآ أَنتُمْ عَٰبِدُونَ ﴾ مستقبلا ﴿ مَآ أَعْبُدُ ﴾.﴿ لَكُمْ دِينُكُمْ ﴾ الذي أصررتم على اتباعه، ﴿ وَلِيَ دِينِ ﴾ الذي لا أبغي غيره[3].

---

(١) التحرير والتنوير ٣٠/٥٨٠.

(٢) تفسير القرآن العظيم ٨/٥٠٧ بتصرف .

(٣) التفسير الميسر ٦٠٣.

المطلب الثاني
وقفات مع السورة
المطلب الأول
إعلان الانفصال الذي لا يرجى معه اتصال البراءة

قال تعالى: ﴿ قُلۡ يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡكَٰفِرُونَ ﴾ وفيها ثلاث مسائل:

المسألة الأولى: قوله: ﴿ قُلۡ ﴾ للاهتمام بما بعد القول بأنه كلام يُرَاد إبلاغه إلى الناس بوجه خاص، منصوص فيه على أنه مرسل بقول يبلغه، وإلا فإن القرآن كله مأمور بإبلاغه[(١)].

ولهذه الآية نظائر في القرآن مفتتحة بالأمر بالقول وهي خمس سور: الجن والكافرون والإخلاص والمعوذتان. وهناك آيات في وسط السور مفتتحة بالقول كما في قوله تعالى: ﴿ قُلۡ إِنَّ ٱلۡمَوۡتَ ٱلَّذِي تَفِرُّونَ مِنۡهُ فَإِنَّهُۥ مُلَٰقِيكُمۡ ﴾ [الجمعة ٨] وغيرها.

وأمر آخر نلحظه من قوله تعالى: ﴿ قُلۡ ﴾ وهو أنه أمر إلهي حاسم موحي بأن أمر هذه العقيدة أمر الله وحده. ليس لمحمد ﷺ فيه شيء. إنما هو الله الآمر الذي لا مرد لأمره، الحاكم لا راد لحكمه[(٢)]، كما قال تعالى: ﴿ قُلۡ مَا يَكُونُ لِيٓ أَنۡ أُبَدِّلَهُۥ مِن تِلۡقَآيِٕ نَفۡسِيٓۖ إِنۡ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰٓ إِلَيَّۖ ﴾ [يونس ١٥].

المسألة الثانية: ابتدأ خطابهم بالنداء لإبلاغهم لأن النداء يستدعي إقبال أذهانهم على ما سيلقي عليهم[(٣)]، عليهم[(٣)]، وإشارة إلى أن هذا الخطاب موجه لكل: كافر مصر على كفره، في كل زمان، وفي كل مكان، فهو سبحانه يخاطب بهذا القرآن القرون الأولى والقرون المتأخرة، "والنداء شمل كل كافر على وجه الأرض، ولكن المواجهين بهذا الخطاب هم كفارُ قريش"[(٤)].

المسألة الثالثةً: أنهم "نودوا بوصف الكافرين تحقيراً لهم، وتأييداً لوجه التبرؤ منهم، وإيذاناً بأنه لا يخشاهم إذا ناداهم بما يكرهون مما يثير غضبهم لأن الله كفاه إياهم وعصمه من أذاهم"[(٥)].

"فالخطاب من الله كان لرسول الله ﷺ في أشخاص بأعيانهم من المشركين، قد علم أنهم لا يؤمنون أبداً ، وسبق لهم ذلك في السابق من علمه، فأمر نبيه ﷺ أن يؤيسهم من الذي طمعوا فيه، وحدّثوا به أنفسهم، وأن ذلك غير كائن منه ولا منهم في وقت من الأوقات، وآيس نبي الله ﷺ من الطمع في إيمانهم، ومن

---

(١) التحرير والتنوير٣٠/٥٨١.
(٢) في ظلال القرآن ٦/٣٩٩١.
(٣) التحرير والتنوير٣٠/٥٨١.
(٤) تفسير القرآن العظيم ٨/٥٠٧.
(٥) التحرير والتنوير٣٠/٥٨١.

أن يفلحوا أبدا، فكانوا كذلك لم يفلحوا و لم ينجحوا، إلى أن قتل بعضهم يوم بدر بالسيف، وهلك بعضهم كافراً"[1].

ناداهم بحقيقتهم، ووصفهم بصفتهم، إنهم ليسوا على دين، وليسوا بمؤمنين؛ وإنما هم كافرون، وفي هذا البراءة منهم ومن معبوداتهم بانفصال لا يرجى معه اتصال بحال من الأحوال[2].

المطلب الثاني

لا يجتمع دين إسلام ودين الكافرين

المحور الأول: لا نرضي الكافرين ولو مرة على حساب ديننا:

قال تعالى: ﴿ لَآ أَعۡبُدُ مَا تَعۡبُدُونَ ۝٢ ﴾ أي أن عبادتي غير عبادتكم، ومعبودي غير معبودكم، والمقصود أن الله يقول لنبيه محمد صلى الله عليه وسلم تبرأ مما كانوا يعبدون من دون الله، ظاهرًا وباطنًا"[3].

وفيه تحذير من اتباعهم مهما كان الأمر، كما قال تعالى: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن تُطِيعُواْ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يَرُدُّوكُمۡ عَلَىٰٓ أَعۡقَـٰبِكُمۡ فَتَنقَلِبُواْ خَـٰسِرِينَ ۝١٤٩ ﴾[آل عمران ١٤٩]. وقال جل ذكره محذرا منهم، وكاشفا عن حقيقة الكافرين وما تنطوي عليه نواياهم: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ بِطَانَةً مِّن دُونِكُمۡ لَا يَأۡلُونَكُمۡ خَبَالاً وَدُّواْ مَا عَنِتُّمۡ قَدۡ بَدَتِ ٱلۡبَغۡضَآءُ مِنۡ أَفۡوَٰهِهِمۡ وَمَا تُخۡفِى صُدُورُهُمۡ أَكۡبَرُ ۚ قَدۡ بَيَّنَّا لَكُمُ ٱلۡأَيَـٰتِ ۖ إِن كُنتُمۡ تَعۡقِلُونَ ۝١١٨ هَـٰٓأَنتُمۡ أُوْلَآءِ تُحِبُّونَهُمۡ وَلَا يُحِبُّونَكُمۡ وَتُؤۡمِنُونَ بِٱلۡكِتَـٰبِ كُلِّهِۦ وَإِذَا لَقُوكُمۡ قَالُوٓاْ ءَامَنَّا وَإِذَا خَلَوۡاْ عَضُّواْ عَلَيۡكُمُ ٱلۡأَنَامِلَ مِنَ ٱلۡغَيۡظِ ۚ قُلۡ مُوتُواْ بِغَيۡظِكُمۡ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمُۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ۝١١٩ إِن تَمۡسَسۡكُمۡ حَسَنَةٌ تَسُؤۡهُمۡ وَإِن تُصِبۡكُمۡ سَيِّئَةٌ يَفۡرَحُواْ بِهَا ۖ وَإِن تَصۡبِرُواْ وَتَتَّقُواْ لَا يَضُرُّكُمۡ كَيۡدُهُمۡ شَيۡـًٔا ۗ إِنَّ ٱللَّهَ بِمَا يَعۡمَلُونَ مُحِيطٌ ۝١٢٠ ﴾ [آل عمران ١١٨-١٢٠].

المحور الثاني: العبادة المقترنة بالشرك ليست عبادة:

﴿ وَلَآ أَنتُمۡ عَـٰبِدُونَ مَآ أَعۡبُدُ ۝٣ ﴾ أي: "لعدم إخلاصكم في عبادته، فعبادتكم له المقترنة بالشرك لا تسمى عبادة"[4].

---

(١) جامع البيان٧٠٤/٢٤ مختصراً وبتصرف .

(٢) وانظر ظلال القرآن ٣٩٩١/٦.

(٣) تيسير الكريم الرحمن ٩٣٦.

(٤) تيسير الكريم الرحمن ٩٣٦.

أي: "لا تقتدون بأوامر الله وشرعه في عبادته، بل قد اخترعتم شيئًا من تلقاء أنفسكم، كما قال: ﴿ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَمَا تَهْوَى ٱلْأَنفُسُ ۖ وَلَقَدْ جَآءَهُم مِّن رَّبِّهِمُ ٱلْهُدَىٰٓ ﴿٢٣﴾ ﴾ [النجم ٢٣] فتبرأ منهم في جميع ما هم فيه، فإن العابد لا بد له من معبود يعبده، وعبادة يسلكها إليه، فالرسول وأتباعه يعبدون الله بما شرعه؛ ولهذا كانت كلمة الإسلام: (لا إله إلا الله محمد رسول الله) أي: لا معبود إلا الله، ولا طريق إليه إلا بما جاء به الرسول ﷺ، والمشركون يعبدون غير الله عبادة لم يأذن بها الله"[1].

المحور الثالث: توكيد مفهوم التوحيد والبراءة من الشرك:

قال شيخ الإسلام "القرآن ﴿ تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ ﴾ [فصلت: ٤٢]، وهو ﴿ الٓر ۚ كِتَٰبٌ أُحْكِمَتْ ءَايَٰتُهُۥ ثُمَّ فُصِّلَتْ مِن لَّدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ ﴿١﴾ ﴾[هود: ١]. ولو أن رجلاً من بني آدم له علم، أو حكمة، أو خطبة، أو قصيدة، أو مصنف، فهذب ألفاظ ذلك وأتى فيه بمثل هذا التغاير لُعِلم أنه قصد في ذلك حِكْمَةً، وأنه لم يخالف بين الألفاظ مع اتحاد المعنى سُدَى، فكيف بكلام رب العالمين، و أحكم الحاكمين، لاسيما وقد قال فيه: ﴿ قُل لَّئِنِ ٱجْتَمَعَتِ ٱلْإِنسُ وَٱلْجِنُّ عَلَىٰٓ أَن يَأْتُوا۟ بِمِثْلِ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِۦ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا ﴿٨٨﴾ ﴾[الإسراء ٨٨]"[2].

الأول: ﴿ لَآ أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ ﴿٢﴾ ﴾ ﴿ وَلَآ أَنَا۠ عَابِدٌ مَّا عَبَدتُّمْ ﴿٤﴾ ﴾ . فيدل الأول على عدم وجود الفعل، والثاني على أن ذلك قد صار وصفًا لازمًا[3].فعبادتكم غير عبادتي ، ومعبودكم غير معبودي ، لأن الفعل يدل على الحدوث والتجدد والاسم يدل على اللزوم والثبات ، فنفى حدوث ذلك أولاً ودل على لزوم ذلك النفي وثباته ثانياً فليس هنا تكرار إنما هو لغرض لا يفيده الأول.

فقوله: ﴿ وَلَآ أَنَا۠ عَابِدٌ مَّا عَبَدتُّمْ ﴿٤﴾ ﴾ "توكيد للفقرة الأولى في صيغة الجملة الاسمية وهي أدل على ثبات الصفة واستمرارها. وفيه رمز إلى تنزهه ﷺ من عبادة الأصنام من سالف الزمان وإلا لقال: ولا أنا عابد ما كُنا نعبد"[4].

الثاني: ﴿ وَلَآ أَنتُمْ عَٰبِدُونَ مَآ أَعْبُدُ ﴿٣﴾ ﴾ ﴿ وَلَآ أَنتُمْ عَٰبِدُونَ مَآ أَعْبُدُ ﴾ وهذا التكرار لتوكيد الفقرة الثانية. كي لا تبقي مظنةٌ ولا شبهةٌ، ولا مجالٌ لمظنةٍ أو شبهةٍ بعد هذا التوكيد المعزز بكل وسائل التكرار والتوكيد.

فالمقصود: "توكيد مفهوم التوحيد والبراءة من الشرك من ذلك، إلا أن بين الآيتين اختلاف في الصيغة. ففي الآية الأولى أتى بصيغة نفي الفعل، وفي الثانية أتى بصيغة نفي اسم الفاعل. والفرق بين

---

(١) تفسير القرآن العظيم ٥٠٨/٨.

(٢) مجموع الفتاوى ٥٥١/١٦.

(٣) تيسير الكريم الرحمن ٩٣٦.

(٤) التحرير والتنوير٥٨٣/٣٠.

الفعل واسم الفاعل أن الفعل يدل على الحدوث والتجدد والوقوع ولو لمرة واحدة، والاسم يدل على الوصف اللازم ويدل على الثبوت، فكأنه قال:إرضاؤكم بعبادة آلهتكم لا يقع مني ولو لمرة، وأن هذا ليس وصفي ولا شأني[1].

والمراد: ﴿ لَآ أَعۡبُدُ مَا تَعۡبُدُونَ ۝٢ وَلَآ أَنتُمۡ عَٰبِدُونَ مَآ أَعۡبُدُ ﴾ في الماضي، ﴿ وَلَآ أَنَا۠ عَابِدٌ مَّا عَبَدتُّمۡ ۝٤ وَلَآ أَنتُمۡ عَٰبِدُونَ مَآ أَعۡبُدُ ﴾ في المستقبل.

الثالث: أن ذلك تأكيد محض.

قال بعض الأئمة: "المراد بقوله: ﴿ لَآ أَعۡبُدُ مَا تَعۡبُدُونَ ﴾ نفى الفعل لأنها جملة فعلية.

﴿ وَلَآ أَنَا۠ عَابِدٌ مَّا عَبَدتُّمۡ ﴾ نفى قبوله لذلك بالكلية؛ لأن النفي بالجملة الاسمية آكد فكأنه نفى الفعل، وكونه قابلا لذلك. ومعناه: نفي الوقوع ونفي الإمكان الشرعي أيضا. وهو قول حسن أيضا، والله أعلم"[2].

قال شيخ الإسلام: "والنفي بالجملة الثانية أعم من النفي بالأولى فإنه قال ﴿ وَلَآ أَنَا۠ عَابِدٌ مَّا عَبَدتُّمۡ ﴾ بصيغة الماضي، فهو يتناول ما عبدوه في الزمن الماضي، لأن المشركين يعبدون آلهة شتى، وليس معبودهم في كل وقت هو المعبود في الوقت الآخر. كما أن كل طائفة لها معبود سوى معبود الطائفة الأخرى. فقوله ﴿ وَلَآ أَنَا۠ عَابِدٌ مَّا عَبَدتُّمۡ ﴾ يتناول الحال والاستقبال أيضاً ، والنفي بما بعد الفعل فيه زيادة معنى، كما تقول: ما أفعل هذا، وما أنا بفاعله ، فنفسي لا تقبل ولا يصلح لها أن تعبد ما عبدتموه قط، ولو كنتم عبدتموه في الماضي فقط، فأي معبود عبدتموه في وقت فأنا لا أقبل أن أعبده في وقت من الأوقات"[3].

المحور الرابع: التمييز لا التمييع:

قال تعالى في ختام السورة : ﴿ لَكُمۡ دِينُكُمۡ وَلِيَ دِينِ ۝٦ ﴾

كما قال تعالى موجهاً نبيه صلى الله عليه وسلم في التعامل مع المعاندين منهم : ﴿ وَإِن كَذَّبُوكَ فَقُل لِّي عَمَلِي وَلَكُمۡ عَمَلُكُمۡۖ أَنتُم بَرِيٓـُٔونَ مِمَّآ أَعۡمَلُ وَأَنَا۠ بَرِيٓءٞ مِّمَّا تَعۡمَلُونَ ۝٤١ ﴾[يونس٤١] ، وقال في صفة عباده من اتباع المرسلين عليهم الصلاة والسلام : ﴿ وَإِذَا سَمِعُواْ ٱللَّغۡوَ أَعۡرَضُواْ عَنۡهُ وَقَالُواْ لَنَآ أَعۡمَٰلُنَا وَلَكُمۡ أَعۡمَٰلُكُمۡ سَلَٰمٌ عَلَيۡكُمۡ لَا نَبۡتَغِي ٱلۡجَٰهِلِينَ ۝٥٥ ﴾[القصص ٥٥].

---

(١) الضوء المنير ٦/٤٧٥.

(٢) تفسير القرآن العظيم ٨/٥٠٧-٥٠٨،مختصراً وبتصرف .

(٣) مجموع الفتاوى ١٦/٥٥١-٥٥٣ مختصراً .

"﴿ لَكُمۡ دِينُكُمۡ﴾ الكفر ﴿ وَلِيَ دِينِ ﴾ الإسلام"[1]. "وسَمى دينهم ديناً لأنهم اعتقدوه وتولوه"[2].

"إن التوحيد منهج، والشرك منهج آخر ولا يلتقيان. التوحيد منهج يتجه بالإنسان كله إلى الله وحده لا شريك له. ويحدد المنهج الذي يتلقى منه الإنسان؛ عقيدته وشريعته، وقيمه وموازينه. هذا المنهج هو التلقي عن الله، وحده بلا شريك. ومن ثَمَّ تقوم الحياة كلها على هذا الأساس، غير متلبسة بالشرك في أية صورة من صوره الظاهرة والخفية.

إن التصورات الشركية تتلبس بتصورات الإيمان فيمن عرف العقيدة ثم انحرف عنها، وهي تظن بنفسها الهدى: في الوقت الذي تتعقد انحرافاتها وتتلوى!! واختلاط عقائدها وأعمالها وخلط الصالح بالفاسد فيها، قد يُغْرِيَ الداعية بالأمل في اجتذابها إذا أقر الجانب الصالح وحاول تعديل الجانب الفاسد، وهذا الإغراء في منتهى الخطورة!

إن الكفرَ كفرٌ. والإسلام إسلام. والفارق بينهما بعيد. والسبيل هو الخروج عن الكفر بجملته إلى الإسلام بجملته. الانسلاخ من الكفر بكل ما فيه والهجرة إلى الإسلام بكل ما فيه. ف لا ترقيع ، ولا أنصاف حلول، ولا التقاء في منتصف الطريق، مهما تَزَيَّت الجاهلية بزيِّ الإسلام، أو ادَّعَت هذا العنوان!

﴿ لَكُمۡ دِينُكُمۡ وَلِيَ دِينِ ﴾ وهذا هو ديني: التوحيد الخالص، الذي يتلقى ويتوجه، في عقيدته وشريعته كلها من الله دون شريك في كل نواحي الحياة والسلوك.

وبغير هذه الخاتمة. سيبقى الغبش وتبقى المداهنة ويبقى اللبس ويبقى الترقيع. والدعوة إلى الإسلام لا تقوم على هذه الأسس المدخولة الواهنة الضعيفة. إنها لا تقوم إلا على الحسم والصراحة والشجاعة والوضوح . ."[3].

ثم إن النبي ﷺ وضع للمسلمين مبدأ مخالفة غيرهم والتميز عليهم فقال: (من تشبه بقوم فهو منهم)[4]، كما قال تعالى: ﴿ قُلۡ كُلٌّ يَعۡمَلُ عَلَىٰ شَاكِلَتِهِۦ فَرَبُّكُمۡ أَعۡلَمُ بِمَنۡ هُوَ أَهۡدَىٰ سَبِيلاً ﴿٨٤﴾ ﴾[الإسراء٨٤].

وأمره ربه أن يتبرأ منهم إن كذبوه فقال تعالى: ﴿ وَإِن كَذَّبُوكَ فَقُل لِّي عَمَلِي وَلَكُمۡ عَمَلُكُمۡۖ أَنتُم بَرِيٓـُٔونَ مِمَّآ أَعۡمَلُ وَأَنَا۠ بَرِيٓءٞ مِّمَّا تَعۡمَلُونَ ﴿٤١﴾ ﴾ [يونس٤١].

قال شيخ الإسلام :"وهذه السورة يؤمر بها كل مسلم وإن كان قد أشرك بالله قبل قراءتها. فهو يتبرأ في الحاضر والمستقبل مما يعبده المشركون في أي زمان كان، وينفي جواز عبادته لمعبودهم، ويبين أن مثل هذا لا يكون ولا يصلح ولا يسوغ. فهو ينفي جوازه شرعاً ووقوعاً"[5].

---

(١) أخرجه البخاري كتاب التفسير باب تفسير سورة { قال يا أيها الكافرون }.
(٢) الجامع لأحكام القرآن٢٢٩/٢٠.
(٣) في ظلال القرآن ٢٩٩٢/٦-٣٩٩٣بتصرف واختصار ، ويراجع كتاب إبطال نظرية الخلط بين الأديان د. بكر أبو زيد.
(٤) أخرجه أبوداود كتاب اللباس باب في لبس الشهرة(٤٠٣١)، وحسنه لغيره الألباني في صحيح الترغيب(٢٠٨٩).
(٥) مجموع الفتاوى ٤٥٤/١٦.

تفسير سورة النصر

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿ إِذَا جَآءَ نَصۡرُ ٱللَّهِ وَٱلۡفَتۡحُ ۝١ وَرَأَيۡتَ ٱلنَّاسَ يَدۡخُلُونَ فِي دِينِ ٱللَّهِ أَفۡوَاجٗا ۝٢ فَسَبِّحۡ بِحَمۡدِ رَبِّكَ وَٱسۡتَغۡفِرۡهُۚ إِنَّهُۥ كَانَ تَوَّابَۢا ۝٣ ﴾

المبحث الأول

مقدمات حول السور

أولاً: تسميتها :

تُسمى ١- التوديع[١] إشارة إلى اقتراب لحاقه بالرفيق الأعلى.

٢- وسُمِّيت هذه السورة في كلام السلف سورة ﴿ إِذَا جَآءَ نَصۡرُ ٱللَّهِ وَٱلۡفَتۡحُ ﴾[٢].

٣ - وفي المصاحف ومعظم التفاسير (سورة النصر) لذكر نصر الله فيها فسميت بالنصر[٣].

٤ - و في جامع الترمذي (سورة الفتح)[٤] لوقوع هذا اللفظ فيها، فيكون هذا الاسم مشتركا بينها وبين ﴿ إِنَّا فَتَحۡنَا لَكَ فَتۡحٗا مُّبِينٗا ﴾ [الفتح ١].

ثانياً: نزولها ومناسبتها :

هي مدنية باتفاق[٥] وهي آخر سورة نزلت جمعاً[٦].

عن عُبَيدالله بن عبدالله بن عتبة رحمه الله قال: قال لي ابن عباس رضي الله عنهما : يا ابن عتبة، أتعلم آخر سورة من القرآن نزلت؟ قلت: نعم، ﴿ إِذَا جَآءَ نَصۡرُ ٱللَّهِ وَٱلۡفَتۡحُ ﴾ قال: صدقت[٧].

وجاء في سبب نزولها عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: لما نزلت: ﴿ إِذَا جَآءَ نَصۡرُ ٱللَّهِ وَٱلۡفَتۡحُ ﴾ دعا رسول الله ﷺ فاطمة رضي الله وقال: (إنه قد نُعِيت إليّ نفسي)، فبكت ثم ضحكت، وقالت: أخبرني

---

(١) الجامع لأحكام القرآن ٢٢٩/٢٠.

(٢) كما ورد ذلك عن عطاء انظر جامع البيان ٦٧٠/٢٤، وانظر تفسير القرآن العظيم ٥٠٩/٨، والجامع لأحكام القرآن ٢٣١/٢٠.

(٣) التحرير والتنوير٥٨٩/٣٠.

(٤) أخرجه الترمذي كتاب التفسير باب ومن سورة الفتح .

(٥) روح المعاني٣٢٧/٣٠.

(٦) الجامع لأحكام القرآن٢٢٩/٢٠.

(٧) أخرجه مسلم كتاب التفسير (٣٠٢٤).

أنه نُعيت إليه نفسُه فبكيت، ثم قال: (اصبري فإنك أول أهلي لحاقًا بي) فضحكت[1].

عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: كان عمر رضي الله عنه يُدخلني مع أشياخ بدر رضي الله عنهم، فكأن بعضهم وَجَد في نفسه، فقال: لِمَ يُدخل هذا معنا ولنا أبناء مثله؟ فقال عمر: إنه ممن قد علمتم. فدعاهم ذات يوم فأدخله معهم، فما رُؤيتُ أنه دعاني فيهم يومئذ إلا ليُريهم. فقال: ما تقولون في قول الله عز وجل: ﴿ إِذَا جَآءَ نَصۡرُ ٱللَّهِ وَٱلۡفَتۡحُ ﴾؟ فقال بعضهم: أُمرنا أن نَحمد الله ونستغفره إذا نصرنا وفُتح علينا. وسكت بعضهم فلم يقل شيئًا. فقال لي: أكذلك تقول يا ابن عباس؟ فقلت: لا. فقال: ما تقول؟ فقلت: هو أجلُ رسول الله ﷺ أعلمه له، قال: ﴿ إِذَا جَآءَ نَصۡرُ ٱللَّهِ وَٱلۡفَتۡحُ ﴾ فذلك علامة أجلك ﴿ فَسَبِّحۡ بِحَمۡدِ رَبِّكَ وَٱسۡتَغۡفِرۡهُۚ إِنَّهُۥ كَانَ تَوَّابَۢا ﴾ فقال عمر بن الخطاب: لا أعلم منها إلا ما تقول[2].

قالت عائشة رضي الله عنها: كان رسول الله ﷺ يكثر في آخر أمره من قول: (سبحان الله وبحمده، أستغفر الله وأتوب إليه). وقال: (إن ربي كان أخبرني أني سأرى علامة في أمتي، وأمرني إذا رأيتها أن أسبح بحمده وأستغفره، إنه كان توابا، فقد رأيتها : ﴿ إِذَا جَآءَ نَصۡرُ ٱللَّهِ وَٱلۡفَتۡحُ ۝١ وَرَأَيۡتَ ٱلنَّاسَ يَدۡخُلُونَ فِي دِينِ ٱللَّهِ أَفۡوَاجٗا ۝٢ فَسَبِّحۡ بِحَمۡدِ رَبِّكَ وَٱسۡتَغۡفِرۡهُۚ إِنَّهُۥ كَانَ تَوَّابَۢا ۝٣ ﴾) [3].

أما عدد آياتها: (٣)آيات، وكلماتها: (٢٦)كلمة، وحروفها: (٧٤)حرفاً[4].

مناسبتها لما قبلها:

"آذن النبي ــ صلوات اللّه وسلامه عليه ــ المشركين في سورة «الكافرون» التي سبقت هذه السورة ــ آذانهم بكلمة الفصل بينه وبينهم « لَكُمْ دِينُكُمْ وَ لِيَ دِينِ »

.. ووراء هذه الكلمة الحاسمة القاطعة، التي أخذ بها النبي طريقه إلى ربه ومعبوده، واتخذ بها المشركون طريقهم إلى آلهتهم ومعبوداتهم ــ وراء هذه الكلمة تشخص الأبصار إلى مسيرة كلّ من النبي والمشركين الذين أخذوا طريقا غير طريقه ، لترى ماذا ينتهي إليه الطريق بكل منهما ..

وتختفي عن الأبصار طريق أهل الشرك، وتبتلعهم رمال العواصف الهابّة عليهم من صحراء ضلالهم.

أما الطريق الذي أخذه النبي صلوات اللّه وسلامه عليه ، فها هو ذا النصر العظيم يلقاه عليه، وها

---

(١) أخرجه البيهقي في دلائل النبوة ١٦٧/٧، والدارمي ٥١/١ (٧٩)، وحسنه الألباني في مشكاة المصابيح (٥٩٦٩)، وأحمد في المسند بنحوه ٣٤٤/١ (٣٢٠١) وقال شعيب الارنؤوط: إسناده حسن. وبلفظ (ولا أراه إلا حضر أجلي) عن عائشة رضي الله عنها: أخرجه البخاري كتاب المناقب باب علامات النبوة في الإسلام(٣٦٢٦،٣٦٢٤)، ومسلم كتاب فضائل الصحابة باب فضائل فاطمة بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم (٢٤٥٠).

(٢) أخرجه البخاري كتاب التفسير باب قوله تعالى﴿ فَسَبِّحۡ بِحَمۡدِ رَبِّكَ وَٱسۡتَغۡفِرۡهُۚ إِنَّهُۥ كَانَ تَوَّابَۢا ﴾ (٤٩٧٠).

(٣) أخرجه مسلم كتاب صلاة المسافر باب ما يقال في الركوع والسجود (٤٨٤).

(٤) التفسير القرآني للقرآن ٩٤/٣.

هو ذا الفتح المبين ترفرف أعلامه بين يديه، وها هو ذا دين اللّه الذي يدعو إليه ، قد فتحت أبوابه ، ودخل الناس فيه أفواجا"[1].

ثالثاً: موضوعها :

"والغرض منها:

١ -الوعد بنصر كامل من عند الله -وفيه فتح مكة- والبشارة بدخول خلائق كثيرة في الإسلام بجهاد وفتح وبدون ذلك.

٢ -الإيماء إلى أنه حين يقع ذلك فقد اقترب انتقال رسول الله ﷺ إلى ربه.

٣ - وعد من الله بأنه سيغفر له مغفرة تامة، لا مؤاخذة عليه بعدها في شيء؛ مما يختلج في نفسه الخوف أن يكون منه تقصير"[2].

٤ -"وتكشف في الوقت ذاته عن طبيعة هذه العقيدة وحقيقة هذا المنهج، ومدى ما يريد أن يَبْلُغ بالبشرية من الرفعة والكرامة والتجرد والخلوص، هذه القمة السامقة الوضيئة التي لم تبلغها البشرية قط إلا في ظل الإسلام. ولا يمكن أن تبلغها إلا وهي تلبي الأمر الإلهي الكريم"[3].

رابعاً: المعنى الإجمالي للسورة:

قال تعالى: ﴿ إِذَا جَآءَ نَصۡرُ ٱللَّهِ وَٱلۡفَتۡحُ ﴾ أي: إذا تمَّ لك -أيها الرسول- النصر على كفار قريش، وتم لك فتح "مكة"،﴿ وَرَأَيۡتَ ٱلنَّاسَ يَدۡخُلُونَ فِي دِينِ ٱللَّهِ أَفۡوَاجٗا ۝٢ ﴾ أي: ورأيت الكثير من الناس يدخلون في الإسلام جماعات جماعات، ﴿ فَسَبِّحۡ بِحَمۡدِ رَبِّكَ وَٱسۡتَغۡفِرۡهُۚ إِنَّهُۥ كَانَ تَوَّابَۢا ۝٣ ﴾ أي: إذا وقع ذلك فتهيأ للقاء ربك بالإكثار من التسبيح بحمده والإكثار من استغفاره، إنه كان توابًا على المسبحين والمستغفرين، يتوب عليهم ويرحمهم ويقبل توبتهم[4].

---

(١) المصدر السابق.

(٢) التحرير والتنوير ٥٨٩/٣٠ باختصار وتصرف .

(٣) في ظلال القرآن ٣٩٩٤/٦ باختصار وتصرف .

(٤) التفسير الميسر ٦٠٣.

المبحث الثاني
وقفات مع السورة
المطلب الأول
النصر والفتح

أولاً: معنى النصر والفتح :

قال تعالى : ﴿ إِذَا جَآءَ نَصۡرُ ٱللَّهِ وَٱلۡفَتۡحُ ﴾

المراد بهذا النصر: نصر الرسول ﷺ على قريش[1]، بل ونصره على كل من قاتله من الكفار، فإن عاقبة النصر كانت له[2]. واستعمال الماضي في معنى المضارع لتحقق وقوعه، ولأن النصر في خيبر كان بادرة لفتح مكة[3].

المراد بالفتح هاهنا : "فتح مكة قولاً واحداً"[4] عن عمرو بن سلمة رضي الله عنه قال: كنا بماء[5] ممر الناس، وكان يمر بنا الركبان فنسألهم: ما للناس؟ ما للناس؟ ما هذا الرجل؟ فيقولون يزعم أن الله أرسله أوحى إليه، أو أوحى الله بكذا. فكنت أحفظ ذلك الكلام وكأنما يقر في صدري. وكانت العرب تلوم بإسلامهم الفتح،[6] فيقولون: اتركوه وقومه، فإنه إن ظهر عليهم فهو نبي صادق. فلما كانت وقعة الفتح بادر كل قوم بإسلامهم... [7] .

ثانياً: النصر من الله وحده :

﴿ نَصۡرُ ٱللَّهِ ﴾ "إنه نصر الله، يجيء به الله؛ في الوقت الذي يقدره، وفي الصورة التي يريدها، وللغاية التي يرسمها. وليس للنبي ﷺ ولا لأصحابه من أمره شيء، وليس لهم في هذا النصر يدٌ. وليس لأشخاصهم فيه كسب. وليس لذواتهم منه نصيب. وليس لنفوسهم منه حظ! إنما هو أمر الله يحققه بهم أو بدونهم. وحسبهم منه أن يجريه الله على أيديهم، وأن يقيمهم عليه حراساً، ويجعلهم عليه أمناء. هذا هو كل

---

(١) جامع البيان ٢٤/٧٠٥.

(٢) الجامع لأحكام القرآن ٢٠/٢٣٠.

(٣) التحرير والتنوير٣٠/٥٨٨.

(٤) تفسير القرآن العظيم ٨/٥١١، وجامع البيان من غير ذكر : قولاً واحداً ٢٤/٧٠٥.

(٥) أي : اسم منزل ينزل فيه الناس يمرون عليه في أسفارهم .

(٦) أي : تنتظر فتح مكة حتى تعلن إسلامها .

(٧) أخرجه البخاري كتاب المغازي باب من شهد الفتح (٤٣٠٢).

حظهم من النصر ومن الفتح ومن دخول الناس في دين الله أفواجاً"[1] كما قال تعالى: ﴿ وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ رَمَىٰ ۚ وَلِيُبْلِيَ ٱلْمُؤْمِنِينَ مِنْهُ بَلَآءً حَسَنًا ﴾ [الأنفال ١٧].

"وإضافة النصر إلى ﴿ ٱللَّهِ ﴾ تشعر بتعظيم هذا النصر، وأنه نصر عزيز خارق للعادة، أوجد الله أسبابه و لم تجر على متعارف تولد الحوادث عن أمثالها"[2]، كما قال تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن تَنصُرُواْ ٱللَّهَ يَنصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ ﴿٧﴾ ﴾ [محمد ٧].

ثالثاً: من علامات النصر أن يدخل الناس في دين الله أفواجاً :

قال تعالى: ﴿ وَرَأَيْتَ ٱلنَّاسَ يَدْخُلُونَ فِى دِينِ ٱللَّهِ أَفْوَاجًا ﴿٢﴾ ﴾

" يجوز أن تكون الرؤية علمية أي وعلمت علم اليقين أن الناس يدخلون في دين الله أفواجاً. ويجوز أن تكون رؤية بصرية بأن رأى أفواج وفود العرب يردون إلى المدينة يدخلون في الإسلام، وذلك سنة تسع وقد رأى النبي ﷺ ببصره ما علم منه دخولهم كلهم في الإسلام بمن حضر معه الموقف في حجة الوداع فقد كانوا مائة ألف من مختلف قبائل العرب"[3]، وعلم بمن جاءه من الوفود من تلك القبائل يبايعونه على الإسلام حتى سمي ذلك العام عام الوفود[4].

و﴿ دِينِ ٱللَّهِ ﴾ هو الإسلام لقوله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلدِّينَ عِندَ ٱللَّهِ ٱلْإِسْلَٰمُ ﴾ [آل عمران ١٩]. والدخول في الدين: هو "النطق بكلمة الشهادة، والتزام أحكام الدين الناشئة عن تلك الشهادة"[5].

و قوله تعالى: ﴿ أَفْوَاجًا ﴾ "زُمَرَاً، وفوجاً فوجا"[6]، والمقصود: جماعات جماعات، بدلاً من أن كانوا قبل ذلك أفراداً أفراداً، وحتى لو دخلت القبيلة كلها في دين الله لكانت أوزاعاً وليس كلها دفعة واحدة لما يرون من معاداة قومه له واستضعاف العرب له، واستنكارهم مخالفته إياهم شركهم. وعامة الناس تُبَّع للغلبة فلما رأوا نصرته على قومه وفتح الله له دخلوا أفواجاً أفواجاً. وهذا مما ينبغي للداعية مراعاته، بأن يهتم بأفراد الناس وطلاب الحق والعلم ولو كانوا قلة فإذا علم الله صدقه وإخلاصه نشر الخير والصلاح على يديه وتبعه الناس أفواجاً.

(١) في ظلال القرآن٦/٣٩٩٦.
(٢) التحرير والتنوير٣٠/٥٩٠.
(٣) التحرير والتنوير٣٠/٥٩٢.
(٤) انظر السيرة النبوية للصلابي ٢/٢٤٢.
(٥) التحرير والتنوير٣٠/٥٩٢.
(٦) جامع البيان ٢٤/٧٠٥.

المطلب الثاني

الواجب عند النصر وآثره التربوية

قال تعالى : ﴿ فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَٱسْتَغْفِرْهُ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ تَوَّابًا ﴿٣﴾ ﴾

المحور الأول: الواجب عند النصر:

يفسر هذه الآية حال النبي المصطفى والقدوة المجتبى ﷺ حين فتح الله عليه مكة، فقد (دخل رسول الله ﷺ مكة وعليه عمامة سوداء بغير إحرام) [1]، (وهو واضع رأسه تواضعًا لله، حين رأى ما أكرمه الله به من الفتح، حتى إن ذقنه ليكاد يمس واسطة الرحل، ودخل وهو يقرأ سورة الفتح [2]) مستشعرًا بنعمة الفتح وغفران الذنوب، وإفاضة النصر العزيز[3]، وعندما دخل مكة فاتحًا -وهي قلب جزيرة العرب ومركزها الروحي والسياسي- رفع كل شعار من شعائر العدل والمساواة، والتواضع والخضوع، فأردف أسامة بن زيد[4] -وهو ابن مولى رسول الله ﷺ- ولم يردف أحدا من أبناء بني هاشم وأبناء أشراف قريش وهم كثير، وكان ذلك صبح يوم الجمعة لعشرين ليلة خلت من رمضان، سنة ثمانٍ من الهجرة[5].
والسبب في ذلك " أنهم قالوا: أما إذا ظفر بأهل الحرم، وقد كان الله تعالى أجارهم من أصحاب الفيل -الذين لم يقدر أحد على ردهم- فليس لنا به يَدَان، فتبين من هذا القياس المنتج هذه النتيجة البديهية بقصة أصحاب الفيل ما رتبه الله إلا إرهاصاً لنبوته ﷺ وتأسيسا لدعوته فألقوا بأيديهم وأسلموا قيادهم حاضرهم وباديهم.
ولما كان التقدير: فقد سبح الله تعالى نفسه بالحمد بإبعاد نجس الشرك عن جزيرة العرب بالفعل قال تعالى: ﴿ فَسَبِّحْ ﴾ أي: نزه أنت بقولك وفعلك- بالصلاة وغيرها- موافقة لمولاك لما فعل تسبيحاً ملبساً ﴿ بِحَمْدِ ﴾ أي: بكمال ﴿ رَبِّكَ ﴾ الذي أنجز لك الوعد بإكمال الدين وقمع المعتدين، المحسن إليك بجميع ذلك -لأن كله لكرامتك وإلا فهو عزيز حميد على كل حال- تعجباً لتيسير الله على هذا الفتح ما لم يخطر بالبال، وشكرا لما أنعم به سبحانه عليه من أنه أراه تمام ما أرسل لأجله، ولان كل حسنة يعملها أتباعه له مثلها.

---

(١) أخرجه مسلم كتاب الحج باب جواز دخول مكة بغير إحرام (١٣٥٨).

(٢) أخرجه البخاري كتاب المغازي باب أين ركز النبيﷺ الراية (٤٠٣١).

(٣) انظر: صور وعبر من الجهاد النبوي في المدينة ص٣٩٦.

(٤) أخرجه البخاري كتاب المغازي باب دخول النبي صلى الله عليه وسلم من أعلى مكة رقم (٤٠٣٨).

(٥) انظر: فتح الباري ٤/٨ فقد ذكر الروايات والجمع بينها والترجيح، والسيرة النبوية لأبي الحسن الندوي ص٣٣٧.

ولما أمره ﷺ بتنزيهه عن كل نقص ووصفه بكل كمال مضافا الى الرب؛ أمره بما يفهم منه العجز عن الوفاء بحقه لما له من العظمة -المشار إليها بذكره مرتين بالاسم الأعظم، الذي له من الدلالة على العظم والعلو الى محل الغيب الذي لا مطمع في دركه مما تتقطع الأعناق دونه- فقال:﴿ وَٱسۡتَغۡفِرۡهُ ﴾ أي: اطلب غفرانه -إنه كان غفاراً- إيذاناً بأنه لا يقدر أحد أن يقدره حق قدره لتقتدي بك أمتك في المواظبة على الأمان الثاني لهم، فإن الأمان الأول الذي هو وجودك بين أظهرهم قد دنا رجوعه الى معدنه في الرفيق الأعلى والمحل الأقدس، وكذا فعل ﷺ يوم دخل مكة مطأطئاً رأسه حتى إنه ليكاد يمس واسطة الرحل ؛ تواضعا لله تعالى، وإعلاما لأصحابه أن ما وقع إنما هو بحول الله تعالى"[1].

فالواجب عند حصول النصر والظفر أمران :

أولاً: ذكر الله تعالى:

﴿ فَسَبِّحۡ بِحَمۡدِ رَبِّكَ ﴾ أي: فسبح ربك وعظمه بحمده وشكره، على ما أنجز لك من وعده . فإنك حينئذ لاحق به، وذائق ما ذاق مَنْ قبلك من رُسله من الموت[2].

"فنزهه تعالى بكل ذكر يدل على التنزيه، حامداً له جل وعلا زيادة في عبادته والثناء عليه سبحانه، لزيادة إنعامه سبحانه عليك.

فالتسبيح التنزيه المقتضي للتلفظ بكلمة سبحان الله.

وتحميده وهو: إثبات ما يليق به تعالى من المحامد له، لعظم ما أنعم سبحانه به عليه، وأن توقيت الأمور من عنده ليس إلا لحكمة لا يعرفها إلا هو عز وجل"[3].

ثانياً: الاستغفار :

قال تعالى: ﴿ وَٱسۡتَغۡفِرۡهُۚ إِنَّهُۥ كَانَ تَوَّابَۢا ﴾

وفي أمره بهذا الاستغفار بعد النصر فوائد منها:" ليكون ذلك منه شكراً لله تعالى على نعمه، لأن تجديد النعم يوجب تجديد الشكر، وأنه نعي إليه نفسه، فطلب منه أن يَجِدَّ في عمله"[4].

وكذلك "في الاستغفار توجهاً بالذات لحال العبد وتقصيراته،

ويجوز أن يكون طلب الاستغفار بعدهما لما في مشروعية تعقيب العبادة بالاستغفار. وفي تقديمها- النصر والفتح- على الدعاء تعليم أدب الدعاء، وهو: أن لا يسأل فجأة من غير تقديم الثناء على المسؤول منه سبحانه وتعالى"[1].

---

(١) سبل الهدى والرشاد للصالحي ٦/٢٥٥.

(٢) جامع البيان ٢٤/٧٠٧.

(٣) روح المعاني ٣٠/٣٢٩ بتصرف.

(٤) النكت والعيون ٦/٣٦١.

و"الاستغفار ينفي الزهو الذي قد يساور القلب أو يتدسس إليه من سكرة النصر بعد طول الكفاح، وفرحة الظفر بعد طول العناء. وهو مدخل يصعب توَقّيْه في القلب البشري. فمن ەنا عُلّمنا الاستغفار.
والاستغفار مما قد يكون ساور القلب أو تدسس إليه في فترة الكفاح الطويل والعناء القاسي، والشدة الطاغية والكرب الغامر، من ضيق بالشدة، واستبطاء لوعد الله بالنصر، وزلزلة كالتي قال الله عنها: ﴿ أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُواْ ٱلْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُم مَّثَلُ ٱلَّذِينَ خَلَوْاْ مِن قَبْلِكُم ۖ مَّسَّتْهُمُ ٱلْبَأْسَآءُ وَٱلضَّرَّآءُ وَزُلْزِلُواْ حَتَّىٰ يَقُولَ ٱلرَّسُولُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَهُۥ مَتَىٰ نَصْرُ ٱللَّهِ ۗ أَلَآ إِنَّ نَصْرَ ٱللَّهِ قَرِيبٌ ﴿٢١٤﴾ ﴾ [البقرة ٢١٤] فمن هذا يكون الاستغفار.
والاستغفار من التقصير في حمد الله وشكره، فجهد الإنسان- مهما كان- ضعيف محدود، وآلاء الله دائمة الفيض والهملان . . ﴿ وَإِن تَعُدُّواْ نِعْمَتَ ٱللَّهِ لَا تُحْصُوهَآ ۗ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ ﴿٣٤﴾ ﴾ [إبراهيم٣٤] فمن هذا التقصير يكون الاستغفار . ."[٢].
"فالذي فسر به بعض الصحابة من جلساء عمر رضي الله عنهم أجمعين؛ مِنْ أنه: قد أمرنا إذا فتح الله علينا المدائن والحصون أن نحمد الله ونشكره ونسبحه، يعني نصلي ونستغفره -معنى مليح صحيح، وقد ثبت له شاهد من صلاة النبي ﷺ يوم فتح مكة وقت الضحى ثماني ركعات، فيستحب لأمير الجيش إذا فتح بلدًا أن يصلي فيه أول ما يدخله ثماني ركعات،
وهكذا فعل سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه يوم فتح المدائن"[٣].
وقد لبى رسول الله ﷺ أمر ربه فعن عائشة رضي الله عنها قالت: كان رسول الله ﷺ يكثر في آخر أمره من قول: (سبحان الله وبحمده، أستغفر الله وأتوب إليه) فقلت: يا رسول الله أراك تكثر من قول (سبحان الله وبحمده، استغفر الله وأتوب إليه)؟ فقال: (إن ربي كان أخبرني أني سأرى علامة في أمتي، وأمرني إذا رأيتها أن أسبح بحمده وأستغفره، إنه كان توابا، فقد رأيتها:﴿ إِذَا جَآءَ نَصْرُ ٱللَّهِ وَٱلْفَتْحُ ﴿١﴾ وَرَأَيْتَ ٱلنَّاسَ يَدْخُلُونَ فِى دِينِ ٱللَّهِ أَفْوَاجًا ﴿٢﴾ فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَٱسْتَغْفِرْهُ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ تَوَّابًۢا ﴿٣﴾ ﴾[٤]
وكان يقول ﷺ: (والله إني لأستغفر الله وأتوب إليه في اليوم أكثر من سبعين مرة) وفي رواية مسلم (وإني لأستغفر الله في اليوم مائة مرة)[٥].

---

(١) روح المعاني ٣٣١/٣٠ .
(٢) في ظلال القرآن ٣٩٩٦/٦.
(٣) تفسير القرآن العظيم ٥١١/٨.
(٤) تقدم تخريجه .
(٥) أخرجه البخاري كتاب الدعوات باب استغفار النبي ﷺ في اليوم والليلة(٦٣٠٧)، ومسلم كتاب الذكر والدعاء والتوبة والاستغفار باب استحباب الاستغفار (٢٧٠٢).

المحور الثاني: قبول الله توبة عباده:

قال تعالى: ﴿ إِنَّهُۥ كَانَ تَوَّابَۢا ﴾ "أي على المسبحين والمستغفرين، يتوب عليهم ويرحمهم، ويقبل توبتهم"[1]. "وتوّاب من صيغ المبالغة، ففيه دلالة على أنه سبحانه مبالغ في قبول توبة التائبين"[2] "فقد اشتملت الجملة على أربع مؤكدات، هي: إنَّ وكان، وصيغة المبالغة في التواب، وتنوين التعظيم فيه[3].

"وفي اختيار ﴿ إِنَّهُۥ كَانَ تَوَّابَۢا ﴾ على غفاراً مع أنه الذي يستدعيه قوله ﴿ وَٱسْتَغْفِرْهُ ﴾ تنبيه على أن الاستغفار إنما ينفع إذا كان مع التوبة والندم والعزم على عدم العود"[4].

فالله تعالى يحب التوابين، قال تعالى: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلتَّوَّٰبِينَ ﴾[البقرة٢٢٢]، وهو سبحانه يقبل توبتهم قال تعالى:﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى يَقْبَلُ ٱلتَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِۦ وَيَعْفُواْ عَنِ ٱلسَّيِّـَٔاتِ وَيَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ ﴿٢٥﴾ ﴾ [الشورى ٢٥] ، وقال تعالى: ﴿ أَلَمْ يَعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ هُوَ يَقْبَلُ ٱلتَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِۦ ﴾ [التوبة ١٠٤]، قال تعالى: ﴿ وَإِنِّى لَغَفَّارٌ لِّمَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا ثُمَّ ٱهْتَدَىٰ ﴿٨٢﴾ ﴾ [طه٨٢].

المحور الثالث: العناية بإصلاح القلب :

وذلك بإبعاد القلب عن كل عجب يساوره أو غرور ينتابه، ألا ترى أنه صلى الله عليه وسلم بعد هذا الجهاد العظيم والنصر المبين يؤمر بالذكر والاستغفار.

إنه سجل مليء بالطاعة والعبادة، فعلى ماذا يكون الاستغفار؟!!.

إن هذا الاستغفار حتى يذّكر القلب لخالقه، ويردَ الفضل لصاحبه، فلا يحس القلب بالعجب، وبهذا يسلم العمل ويحصل الفوز والنجاح. بل ويستمر العمل والعطاء، فلا يتوقف لأنه اكتفى بالإنجاز السابق، بل يرى من ثمرة انجازه السابق إخباته لمولاه، وتتبع ما يرضاه، وشكره على ما أولاه.

وفي واقعنا المُرِّ نجد أنّ نهاية الأعمال الناجحة المثمرة المديح والرفعة وادعاء الفضل وتعداد الجهود والأسباب المبذولة ، ونحو ذلك مما يفسد قلب صاحبه، ويحبط العمل ويضيع بركته وأجره.

---

(١) الجامع لأحكام القرآن ٢٣٣/٢٠.

(٢) فتح القدير ٥١٦/٥.

(٣) التحرير والتنوير ٥٩٦/٣٠.

(٤) تفسير حقي ٤٦٠/١٧.

تفسير سورة المسد

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿ تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ (١) مَا أَغْنَىٰ عَنْهُ مَالُهُ وَمَا كَسَبَ (٢) سَيَصْلَىٰ نَارًا ذَاتَ لَهَبٍ (٣) وَامْرَأَتُهُ حَمَّالَةَ الْحَطَبِ (٤) فِي جِيدِهَا حَبْلٌ مِّن مَّسَدٍ (٥) ﴾

المبحث الأول

مقدمات حول السورة

أولاً: أسمائها :

١ -سميت هذه السورة في أكثر المصاحف وفي جامع الترمذي وأكثر كتب التفسير (سورة تبت)[1] تسمية لها بأول كلمة فيها.

٢ -وسميت في بعض المصاحف وفي بعض التفاسير (سورة المسد)[2] لوروده فيها.

٣ -وسماها جمع من المفسرين (سورة أبي لهب) على تقدير: سورة ذكر أبي لهب[3].

٤ -وعنونها أبو حيان (سورة اللهب) و لم أره لغيره[4].

ثانياً: نزولها ومناسبتها:

قال القرطبي : هي مكية بإجماع[5] .

عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: صَعِدَ النبي ﷺ الصفا ذات يوم، فقال: (يا صباحاه). فاجتمعت إليه قريش، فقالوا: ما لك؟ فقال: (أرأيتم لو أخبرتكم أن العدو يُصَبّحكم أو يُمَسّيكم، أما كنتم تصدقوني؟) قالوا: بلى. قال: (فإني نذير لكم بين يدي عذاب شديد). فقال أبو لهب: تباً لك! ألهذا جمعتنا؟ فأنزل الله: ﴿ تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ ﴾ [6].

أما عدد آياتها: (٥)آيات، وكلماتها: (٢٣)كلمة، وحروفها: (٧٧)حرفاً[7].

---

(١) جامع البيان ٢٤/٦٧٣ ، تفسير القرآن العظيم ٨/٥١٤، الجامع لأحكام القرآن٢٠/٢٣٤ وغيرهم.

(٢) معالم التتريل ٨/٥٧٨،ابن أبي حاتم ١٢/٤٦٣، الدر ١٥/٦٦٥ ، والتحرير والتنوير٣٠/٥٩٩.

(٣) النسفي ٤/٣٦١.

(٤) البحر المحيط ٨/٥٢٤.

(٥) الجامع لأحكام القرآن ٢٠/٢٣٤، وانظر التحرير والتنوير٣٠/٥٩٩.

(٦) أخرجه البخاري كتاب التفسير باب قوله تعالى: ﴿ وَتَبَّ (١) مَا أَغْنَىٰ عَنْهُ مَالُهُ ﴾ (٤٩٧٢). ومسلم كتاب الإيمان باب ﴿ وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ ﴾ (٢٠٨) بزيادة ، وانظر جامع البيان ٢٤/٧١٥.

(٧) التفسير القرآني للقرآن ٣/٩٥.

مناسبتها لما قبلها:

"كانت سورة « النصر » مددا من أمداد السماء ، تحمل بين يديها هذه البشريات المسعدة للنبيّ وللمؤمنين ، وتريهم رأى العين عزّة الإسلام ، وغلبته ، وتخلع عليهم حلل النصر ، وتعقد على جبينهم إكليل الفوز والظفر.

وتحت سنابك خيل الإسلام المعقود بنواصيها النصر ، والتي هى على وعد من اللّه به ـــ حطام هذا الطاغية العنيد الذي يمثّل ضلال المشركين كلّهم ، ويجمع فى كيانه وحده ، سفههم ، وعنادهم ، وما كادوا به للنبيّ والمؤمنين .. إنه أبو لهب .. وامرأته حمالة الحطب"[1].

ثالثاً: موضوعها :

١ زجر أبي لهب وزوجته على إساءتهما للنبي ﷺ ووعيده على ذلك، وإشارة إلى الوعيد لكل من تسول له نفسه النيل من رسولنا محمد ﷺ وشرعه.

٢ هذه السورة تبين عناية الله بعباده الصالحين- وعلى رأسهم الرسول ﷺ ، في الدنيا والآخرة.

٣ فيها بيان مصير الذي يعارض الدعوة ويؤذي الرسول ﷺ أو دعوته إلى الله عز وجل.

٤ -تضمنت أنّ الله تعالى يتولى الدفاع والرد على المسيئين والمستهزئين بالرسول صلى الله عليه وسلم أو شريعته.

٥ -فيها بيان الذم العظيم، والخزي العظيم يوم القيامة للمكذبين والمستهزئين، كما وعد الله تعالى نبيه بذلك في بداية الأمر بالتبليغ، قال تعالى: ﴿ وَٱصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَٱهْجُرْهُمْ هَجْرًا جَمِيلًا ﴿١٠﴾ وَذَرْنِي وَٱلْمُكَذِّبِينَ أُو۟لِى ٱلنَّعْمَةِ وَمَهِّلْهُمْ قَلِيلًا ﴿١١﴾ إِنَّ لَدَيْنَآ أَنكَالًا وَجَحِيمًا ﴿١٢﴾ وَطَعَامًا ذَا غُصَّةٍ وَعَذَابًا أَلِيمًا ﴿١٣﴾ ﴾ [المزمل ١٠-١٣].

رابعاً: المعنى الإجمالي للسورة:

﴿ تَبَّتْ يَدَآ أَبِى لَهَبٍ وَتَبَّ ﴿١﴾ ﴾ أي: خسرت يدا أبي لهب وشقي بإيذائه رسول الله محمدا صلى الله عليه وسلم، وقد تحقق خسران أبي لهب.﴿ مَآ أَغْنَىٰ عَنْهُ مَالُهُۥ وَمَا كَسَبَ ﴿٢﴾ ﴾ أي: ما أغنى عنه ماله وولده، فلن يَرُدَّا عنه شيئًا من عذاب الله إذا نزل به.

﴿ سَيَصْلَىٰ نَارًا ذَاتَ لَهَبٍ ﴿٣﴾ وَٱمْرَأَتُهُۥ حَمَّالَةَ ٱلْحَطَبِ ﴿٤﴾ ﴾ أي: سيدخل نارًا متأججة، هو وامرأته التي كانت تحمل الشوك، فتطرحه في طريق النبي صلى الله عليه وسلم؛ لأذيَّته.

﴿ فِى جِيدِهَا حَبْلٌ مِّن مَّسَدٍۭ ﴿٥﴾ ﴾ أي: في عنقها حبل محكم الفَتْلِ مِن ليف شديد خشن، تُرْفَع به في نار جهنم، ثم تُرْمى إلى أسفلها[2].

---

(١) المصدر السابق.

(٢) التفسير الميسر ٦٠٣.

المبحث الثاني

وقفات مع الآيات

المطلب الأول

دعاء القرآن على المؤذين للرسول ﷺ

قال تعالى: ﴿ تَبَّتۡ يَدَآ ﴾ "خسرت يدا أبي لهب وهو دعاء عليه من الله "[1]، "وخص اليدين بالتباب؛ لأن العمل أكثر ما يكون بهما، أي خسرتا وخسر هو. وقد يعبر عن النفس باليد، كما قال الله تعالى: ﴿ ذَٰلِكَ بِمَا قَدَّمَتۡ يَدَاكَ ﴾ [الحج: ١٠]أي نفسك"[2].

"وافتتاح السورة بالتباب مشعر بأنها نزلت للتوبيخ والوعيد فذلك براعة استهلال مثل ما تفتتح أشعار الهجاء بما يؤذن بالذم والشتم"[3].

﴿ أَبِي لَهَبٖ ﴾ "هذا هو أحد أعمام رسول الله ﷺ واسمه: عبد العُزّى بن عبد المطلب، وكنيته أبو عُتبة ، وكان كثير الأذية لرسول الله ﷺ والبغض له، والازدراء به، والتنقص له ولدينه"[4]. .

وإنما سُمِّيَ بأبي لهب لإشراق وجهه وحسنه[5]، "وكناه الله في السورة بأبي لهب "لمعانٍ منها:

١- أن اسمه عبد العزى، والعزى: صنم، و لم يضف الله في كتابه العبودية إلى صنم .

٢- وأنه كان بكنيته أشهر فصرح بها.

٣- و أن الاسم أشرف من الكنية، فحطه الله عز وجل عن الأشرف إلى الأنقص. ولذلك دعا الله تعالى الأنبياء بأسمائهم، و لم يُكَنِّ عن أحد منهم.

٤- و أن الله تعالى أراد أن يحقق نسبته، بأن يدخله النار، فيكون أباً لها، تحقيقا للنسب، وإمضاء للفأل والطيرة التي اختارها لنفسه"[6]، "لأن الأب يطلق على ملازم ما أضيف إليه كما كنى رسول الله ﷺ عبدالرحمن بن صخر بأبي هريرة لأنه حمل هرة في كم قميصه، فكانت كنية أبي لهب صالحة موافقة لحاله من استحقاق لهب جهنم كناية عن كونه جهنمياً"[7].

---

(١) جامع البيان ٧١٤/٢٤.

(٢) الجامع لأحكام القرآن ٢٣٥/٢٠.

(٣) التحرير والتنوير ٦٠٠/٣٠.

(٤) تفسير القرآن العظيم ٥١٤/٨.

(٥) الدر المنثور ٧٣٤/١٥، تفسير القرآن العظيم ٥١٤/٨.

(٦) الجامع لأحكام القرآن ٢٣٦/٢٠-٢٣٧ بتصرف واختصار.

(٧) التحرير والتنوير ٦٠٢/٣٠ مختصراً .

عن عبدالرحمن بن أبي الزناد عن أبيه رحمهما الله قال: أخبرني رجل -يقال له: ربيعة بن عِبَاد رضي الله عنه، قال: رأيت النبي ﷺ في الجاهلية في سوق ذي المجاز وهو يقول: (يا أيها الناس، قولوا لا إله إلا الله تفلحوا) والناس مجتمعون عليه، ووراءه رجل وضيء الوجه أحولُ ذو غديرتين، يقول : إنه صابئ كاذب. يتبعه حيث ذهب، فسألت عنه فقالوا: هذا عمه أبولهب[1].

وعن ربيعة بن عِبَاد رضي الله عنه قال: "إني لَمَعَ أبي- رجل شاب- أنظر إلى رسول الله ﷺ يتبع القبائل ووراءه رجل أحول وضيء، ذو جُمَّة -يَقِفُ رسول الله ﷺ على القبيلة فيقول: (يا بني فلان، إني رسول الله إليكم، آمركم أن تعبدوا الله لا تشركوا به شيئا، وأن تصدقوني وتمنعوني حتى أنفِّذَ عن الله ما بعثني به). وإذا فرغ من مقالته قال الآخر من خلفه: يا بني فلان، هذا يريد منكم أن تسلُخوا اللات والعزى، وحلفاءكم من الجن من بني مالك بن أُقَيْش، إلى ما جاء به من البدعة والضلالة، فلا تسمعوا له ولا تتبعوه. فقلت لأبي: من هذا؟ قال: عمه أبو لهب"[2].

﴿ وَتَبَّ﴾ "تحقق خسارته وهلاكه" [3]، " فالتب الأول دعاء، والثاني خبر، كما يقال: أهلكه الله وقد هلك"[4].

---

(١) أخرجه أحمد ٣٩٢/٣ (١٦٠٦٤) قال شعيب الأرنؤوط: إسناده حسن، والبيهقي في الدلائل ١٨٦/٢، والطبراني في التاريخ ٣٤٨/٢، والحاكم في المستدرك١/١٥، والطبراني في الكبير٥/٥٨.

(٢) أخرجه ابن هبة الله في تاريخ دمشق٦٧/١٦٦-١٦٧ السيرة النبوية لابن هشام ٤٢٣/١.

(٣) تفسير القرآن العظيم ٥١٥/٨.

(٤) الجامع لأحكام القرآن ٢٣٦/٢٠.

المطلب الثاني

المستهزئين بالرسول ومن يعاونهم وجزائهم

أولا: لن ينفع المستهزئين بالرسول ودعوته أموالهم ولا كسبهم:

كثيراً ما يفكر الناس بأن المال يمكن أن يدفع عنهم الكثير من الشرور ، ولذا قال الله تعالى:﴿ مَآ أَغۡنَىٰ عَنۡهُ مَالُهُۥ وَمَا كَسَبَ ﴾ والكسب هنا الولد[1]. أي: "ما دفع عنه عذاب الله ما جمع من المال، ولا ما كسب من جاه وولد"[2]. فعن ابن مسعود رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ لما دعا قومه إلى الإيمان قال أبو لهب: إذا كان ما يقول ابن أخي حقاً، فإني أفتدي نفسي يوم القيامة من العذاب بمالي وولدي، فأنزل الله: ﴿مَآ أَغۡنَىٰ عَنۡهُ مَالُهُۥ وَمَا كَسَبَ﴾[3].

إن "ماله الذي عنده والذي كسب بعمله لن يُغْنِي عنه شيئاً من عذاب الجبَّار ولو كان كثيراً نعم قد ينفع المال ويغني مع أهل الدنيا بالرشاوى وغيرها لضعف أهل الدنيا وعدم إحاطتهم بكل ما يدور حولهم ولعجزهم أحيانا ولأسباب أخرى، أما مع الله العليم البصير القوي القاهر القادر فلا ينفع إلا ما ارتضاه- سبحانه - وهو العمل الصالح"[4] ، وكذلك لا ينفع الشكل الحسن والمظهر البراق كما كان حال أبي لهب لعنه الله.

ثانياً: مصير المستهزئين المحاربين لرسول الله صلى الله عليه وسلم والصالحين من عباد الله:

﴿ سَيَصۡلَىٰ نَارٗا ذَاتَ لَهَبٖ﴾ أي:"يَشْوى بها ويَحُسُّ بإحراقها"[5].

﴿ نَارٗا ذَاتَ لَهَبٖ﴾"أي: ذات شرر ولهيب وإحراق شديد"[6]، "وذَكَرَ اللهب: تصويراً وتشخيصاً للنار وإيحاءً بتوقدها وتلهبها"[7].

ثالثاً:جزاء من أعان الذين يؤذون الرسول ﷺ والذين آمنوا:

﴿ وَٱمۡرَأَتُهُۥ ﴾ "وزوجته من سادات نساء قريش، وهي: أم جميل، واسمها: أروى بنتُ حرب بن أمية، وأخت أبي سفيان. وكانت عونًا لزوجها على كفره وجحوده وعناده؛ فلهذا تكون يوم القيامة عَونًا

(١) الدر المنثور ٧٣٤/١٥.

(٢) الجامع لأحكام القرآن ٢٣٨/٢٠ مختصراً.

(٣) ذكره ابن كثير في التفسير ٥١٥/٨.

(٤) انظر: المحرر الوجيز ٥٩٦/١٥.

(٥) التحرير والتنوير٦٠٤/٣٠-٦٠٥.

(٦) تفسير القرآن العظيم ٥١٥/٨.

(٧) في ظلال القرآن ٤٠٠٠/٦.

عليه في عذابه في نار جهنم"[1].

﴿ حَمَّالَةَ ٱلۡحَطَبِ﴾ كانت تجيء بالشوك فتطرحه في طريق رسول الله ﷺ[2]، أذى ونكالاً له ولأصحابه رضي الله عنهم.

﴿ فِي جِيدِهَا﴾ أي: عُنقِها ﴿ حَبۡلٞ مِّن مَّسَدِۭ ﴾ أي: من لِيْفٍ، عن سعيد بن المسيب قال: كانت لها قلادة فاخرة من جوهر، فقالت: واللات والعزى لأُنْفِقَنَّها في عداوة محمد. ويكون ذلك عذابا في جيدها يوم القيامة[3].

"إن هذه المرأة الشقية التي كانت تتعاون مع زوجها على أذية الرسول ﷺ بطرق عديدة وتسعى في الصد عن دعوته بقدر ما تستطيع لإعاقة الدعوة الإسلامية فجمعت على ظهرها الأوزار ، فأصبحت بمنزلة من يجمع الحطب، و لذا فهي تجمع الحطب في النار لتضعه على زوجها، متقلدة حبل من مسد [4].

رابعاً: الجزاء من جنس العمل:

"فلما حصل لأبي لهب وعيدٌ موافق لكنيته، جعل لامرأته وعيدٌ موافق لفظه فعلها- وهو حمل الحطب في الدنيا- فأُنذرت بأنها تحمل الحطب في جهنم ليوقد به على زوجها، وذلك خزي لها ولزوجها؛ إذ جعل شدة عذابه على يد أحب الناس إليه، وجعلها سببا لعذاب أعز الناس عليها"[5] ومن أطاعته في الصد عن دين الله عز وجل وأذية الدعاة إليه .

خامساً: معجزة ظاهرة على النبوة وصدق الرسالة:

"وفي هذه السورة معجزة ظاهرة ودليل واضح على النبوة، فإنه منذ نزل قوله تعالى : ﴿ سَيَصۡلَىٰ نَارٗا ذَاتَ لَهَبٖ ۝٣ وَٱمۡرَأَتُهُۥ حَمَّالَةَ ٱلۡحَطَبِ ۝٤ فِي جِيدِهَا حَبۡلٞ مِّن مَّسَدِۭ ۝٥ ﴾ فأخبر عنهما بالشقاء وعدم الإيمان، لم يقيض لهما أن يؤمنا، ولا واحد منهما لا ظاهرًا ولا باطنًا، لا مسرًا ولا معلنًا، فكان هذا من أقوى الأدلة الباهرة على النبوة الظاهرة"[6].

(١) تفسير القرآن العظيم ٥١٥/٨.
(٢) جامع البيان ٧١٩/٢٤ ورجحه ، الدر المنثور ٧٣٨/١٥.
(٣) الجامع لأحكام القرآن ٢٤٢/٢٠.
(٤) معالم التنزيل ٥٨٣/٨، وتفسير القرآن العظيم ٥١٥/٨، والبيضاوي ٥٤٥، وتيسير الكريم الرحمن ٩٣٦.
(٥) التحرير والتنوير٦٠٥/٣٠.
(٦) تفسير القرآن العظيم ٥١٧/٨.

المطلب الثالث

قصة هلاك أبي لهب

ذكر ابن إسحاق بسنده: قال أبو رافع -رضي الله عنه - مولى رسول الله ﷺ: كنت غلاماً للعباس بن عبدالمطلب رضي الله عنه، وكان الإسلام قد دخلنا أهل البيت، فأسلم العباس وأسلمت أم الفضل رضي الله عنها، وكان العباس يهاب قومه ويكره خلافهم وكان يكتم إسلامه، وكان ذا مال كثير متفرق في قومه. وكان أبو لهب قد تخلف عن بدر فبعث مكانه العاص بن هشام بن المغيرة-وكذلك كانوا صنعوا- لم يتخلف منهم رجل إلا بعث مكانه رجلا.

فلما جاءه الخبر عن مصاب أصحاب بدر من قريش كبته الله وأخزاه، ووجدنا في أنفسنا قوةً وعزاً، قال: وكنت رجلاً ضعيفاً، وكنت أعمل الأقداح أنحتها في حجرة زمزم، فوالله إني لجالس فيها أنحت أقداحي وعندي أم الفضل جالسة؛ وقد سرنا ما جاءنا من الخبر. إذ أقبل أبو لهب يجر رجليه بِشَرٍ حتى جلس على طِنْبِ الحجرة فكان ظهره إلى ظهري، فبينا هو جالس إذ قال الناس: هذا أبو سفيان قد قدم.

قال: فقال أبو لهب: هلم إلي فعندك لعمري الخبر، قال: فجلس إليه والناس قيام عليه فقال: يا ابن أخي أخبرني كيف كان أمر الناس؟ قال: والله ما هو إلا أن لقينا القوم فمنحناهم أكتافنا يقتلوننا كيف شاءوا، ويأسروننا كيف شاءوا، وأيم الله مع ذلك ما لمت الناس، لقينا رجالاً بيضاً على خيلٍ بُلْقٍ بين السماء والأرض، والله ما تَلِيق شيئاً-أي ماتبقي- ولا يَقُوم لها شئ.

قال أبو رافع: فرفعت طنب الحجرة بيدي ثم قلت: تلك والله الملائكة! قال: فرفع أبو لهب يده فضرب وجهي ضربة شديدة. قال: وثاورته فاحتملني وضرب بي الأرض ثم برك على يضربني، وكنت رجلاً ضعيفاً، فقامت أم الفضل إلى عمود من عمد الحجرة فأخذته فضربته به ضربة فبلغت في رأسه شجة منكرة، وقالت: استضعفته أن غاب عنه سيده؟! فقام موليا ذليلاً، فو الله ما عاش إلا سبع ليال حتى رماه الله بالعدسة-قرحة قاتلة كالطاعون- فقتلته.

وزاد يونس عن ابن إسحاق: فلقد تركه ابناه بعد موته ثلاثاً ما دفناه حتى أنتن. حتى قال لهم رجل من قريش: ويحكما ألا تستحيان أن أباكما قد أنتن في بيته لا تدفنانه؟ فقالا: إنا نخشى عدوة هذه القرحة. فقال: انطلقا فأنا أعينكما عليه.

فوالله ما غسلوه إلا قذفا بالماء عليه من بعيد ما يدنون منه، ثم احتملوه إلى أعلى مكة فأسندوه إلى جدار ثم رضموا عليه بالحجارة[1].

وهنا يظهر شيء من معنى قوله تعالى: ﴿ مَآ أَغْنَىٰ عَنْهُ مَالُهُۥ وَمَا كَسَبَ ۝ ﴾ والله تعالى أعلم.

---

(١) أخرج الحاكم في المستدرك ٣/٣٦٥ (٥٤٠٦) بعضه، وانظر: السيرة النبوية لابن هشام ١/٦٤٥، والسيرة النبوية لابن كثير ٢/٤٧٩، والقرطبي في الجامع لأحكام القرآن٢٠/٢٤٣.

تفسير سورة الإخلاص

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿ قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ (١) اللَّهُ الصَّمَدُ (٢) لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ (٣) وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ (٤) ﴾

المبحث الأول

مقدمات حول السورة

أولاً: تسميتها:

سُمِّيَت:

١ -سورة قل هو الله أحد.

٢ -وسورة الله الواحد الصمد.

٣ -وسورة التوحيد لأنها تشمل على إثبات أنه تعالى واحد.

٤ -وسورة الأساس لاشتمالها على أصول الدين توحيد الله وهو أساس الإسلام ،...وغيرها من الأسماء.

٥ -واشتهر اسم سورة الإخلاص لاختصاره وجمعه معاني هذه السورة لأن فيها تعليم الناس إخلاص العبادة لله تعالى[(١)].

وذُكر: أن سورة الكافرون والإخلاص تسميان المشقشقتين أي المبرئتين من الشرك ومن النفاق[(٢)].

ثانياً: سبب نزولها ومناسبتها:

هي مكية في قول الجمهور [(٣)]، فعن أبيّ بن كعب رضي الله عنه : أن المشركين قالوا للنبي ﷺ: يا محمد، انسب لنا ربك. فأنزل الله: ﴿ قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ (١) اللَّهُ الصَّمَدُ (٢) لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ (٣) وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ (٤) ﴾ فالصمد الذي لم يلد و لم يولد لأنه ليس شيء يولد إلا سيموت ولا شيء يموت إلا سيورث وإن الله عز وجل لا يموت ولا يورث ﴿ وَلَمْ يَكُن لَّهُ كُفُوًا أَحَدٌ ﴾ قال: لم يكن له شبيه ولا عدل وليس كمثله شيء[(٤)].

---

(١) التحرير والتنوير٣٠/٦٠٩-٦١٠، وذكر الفخر الرازي أسماء أخرى تصل إلى عشرين اسماً و لم يذكر أسانيدها. انظر: التفسير الكبير ٣٢/١٧٥-١٧٦.

(٢) الكشاف٤/٢٣٨.

(٣) نقل أنها مدنية عن غير واحد من السلف ، انظر التحرير والتنوير٢٤/٦١١.

(٤) أخرجه أحمد ٥/١٣٣ (٢١٢٥٧)، والترمذي كتاب تفسير القرآن باب ومن سورة الإخلاص (٣٣٦٤)، والطبري ٢٤/٧٢٨، والواحدي في أسباب النزول (٣٤٦)، وصححه الألباني في صحيح سنن الترمذي من غير قوله: والصمد الذي... (٢٦٨٠).

وعن جابر رضي الله عنه : أن أعرابيًا جاء إلى النبي ﷺ، فقال: انسب لنا ربك؟! فأنزل الله عز وجل : ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ﴾إلى آخرها"[1]. فالجهل بالله هو سبب نزول هذه السورة.

أما عدد آياتها: (٤)آيات، وكلماتها: (١١)كلمة، وحروفها: (٤٧)حرفاً[2].

مناسبتها لما قبلها:

" كانت عداوة أبى لهب وزوجه للنبيّ ، ممثلة في عداوتهما لدعوة التوحيد التي كانت عنوان رسالة النبيّ ، صلوات اللّه وسلامه عليه ، وكلمته الأولى إلى قومه ..

و قد ساقت هذه الكلمة أبا لهب وزوجه، ومن تبعهما في جحود هذه الكلمة، والتنكر لها ؛ ساقتهم إلى هذا البلاء الذي لقياه في الدنيا ، وإلى هذا العذاب الأليم في جهنم المرصودة لهما في الآخرة.

وسورة « الإخلاص » وما تحمل من إقرار بإخلاص وحدانية اللّه من كل شرك ـــ هى مركب النجاة لمن أراد أن ينجو بنفسه من هذا البلاء ، وأن يخرج من تلك السفينة الغارقة التي ركبها أبو لهب وزوجه ، ومن اتخذ سبيله معهما من مشركي قريش ومشركاتها .. وها هو ذا النبي الكريم ، يؤذّن في القوم ، بسورة الإخلاص ، ومركب الخلاص"[3].

ثالثاً : موضوعها :

١ - إثبات وحدانية الله تعالى.

٢ - وأنه لا يقصد في الحوائج غيره.

٣ - وتنزيهه عن سمات المخلوقات وإبطال أن يكون له ابن.

٤ - وإبطال أن يكون له مثيل أو شبيه[4].

فهي مشتملة على توحيد الأسماء والصفات[5] وتوحيد الإلوهية والربوبية.

رابعاً : فضلها:

عن عائشة رضي الله عنها قالت: بعث النبي ﷺ رجلاً على سَرِيَّة، وكان يقرأ لأصحابه في صلاتهم، فيختم بـ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ﴾ فلما رجعوا ذكروا ذلك للنبي ﷺ، فقال: (سلوه: لأيّ شيء يصنع

---

(١) أخرجه الترمذي كتاب تفسير القرآن باب سورة الإخلاص(٢٦٨٠)، والطبري في جامع البيان ٧٢٩/٢٤، والواحدي في أسباب النزول (٣٤٦)، والطبراني في الأوسط٥٦/٦(٥٦٨٧) وعزاه في الدر المنثور٧٤١/١٥ إلى ابن المنذر.

(٢) التفسير القرآني للقرآن ٩٦/٣.

(٣) المصدر السابق.

(٤) التحرير والتنوير٦١٢/٢٤ بتصرف.

(٥) تيسير الكريم الرحمن ٩٣٧ وتيسير اللطيف المنان ص٢٧.

ذلك؟). فسألوه، فقال: لأنها صفة الرحمن، وأنا أحب أن أقرأ بها. فقال النبي ﷺ: (أخبروه أن الله تعالى يحبه)[1].

وعن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: كان رجل من الأنصار يَؤمُهم في مسجد قُبَاء، فكان كلما افتتح سورة يقرأ بها لهم في الصلاة مما يقرأ به افتتح بـ ﴿قُلۡ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ﴾ حتى يَفرُغ منها، ثم يقرأ سورة أخرى معها ... فقال ﷺ: (يا فلان ما حملك على لزوم هذه السورة في كل ركعة؟!) قال: إني أحبها. فقال ﷺ: (حُبك إياها أدخلك الجنة)[2].

وعن سهل بن معاذ بن أنس الجهني رحمه الله ، عن أبيه رضي الله عنه ، عن رسول الله ﷺ قال: (من قرأ ﴿قُلۡ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ﴾ حتى يختمها، عشر مرات، بنى الله له قصرًا في الجنة). فقال عمر: إذن نستكثر يا رسول الله. فقال ﷺ: (الله أكثر)[3].

وعن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ لأصحابه: (أيعجز أحدكم أن يقرأ ثلث القرآن في ليلة؟!) ، فشق ذلك عليهم وقالوا: أينا يُطيق ذلك يا رسول الله؟ فقال: (الله الواحد الصمد ثلث القرآن)[4].

خامساً: معنى أنها تعدل ثلث القرآن:

ومعنى أنها تعدل ثلث القرآن أي:

- "في ثواب القراءة فهي تعدل ثلث القرآن إذا قرئ بدونها حتى لو كررها القارئ ثلاث مرات كان له ثواب من قرأ القرآن كله، وقيل: لا يكون تكريرها ثلاث مرات بمنزلة قراءة ختمة كاملة
- وإنها تعدل ثلث القرآن إذا قرأها من لا يحسن غيرها من سور القرآن.
- وإنها تعدل ثلث معاني القرآن باعتبار أجناس المعاني لأن معاني القرآن أحكام وأخبار وتوحيد وقد انفردت هذه السورة بجمعها أصول العقيدة الإسلامية"[5].
- "وهذه السورة لها فضل عظيم. فهي تعدل ثلث القرآن لكن لا تقوم مقام ثلث القرآن. بدليل أن الإنسان لو كررها في الصلاة الفريضة ثلاث مرات لم تكفه عن الفاتحة، مع أنه إذا قرأها ثلاث مرات فكأنما قرأ القرآن كله، لكنها لا تجزىء عنه، ولا تستغرب أن يكون الشيء معادلاً للشيء ولا يجزىء عنه. فها هو النبي عليه الصلاة والسلام أخبر أن من قال: (لا إله إلا الله وحده لا

---

(١) أخرجه البخاري كتاب التوحيد باب ما جاء إلى دعاء النبي ﷺ إلى توحيد الله تبارك وتعالى (٧٣٧٥) ومسلم كتاب صلاة المسافر باب فضل قراءة قل هو الله أحد (٨١٣).

(٢) أخرجه البخاري كتاب الأذان باب الجمع بين السورتين في الركعة.. (٧٧٤) ، وقد أوردت الشاهد فقط من القصة .

(٣) أخرجه أحمد ٣/ ١٨ (١١١٤٩) ، قال : شعيب الأرنؤوط : إسناده جيد.

(٤) أخرجه البخاري كتاب فضائل القرآن باب فضل قل هو الله أحد (٥٠١٥).

(٥) التحرير والتنوير ٦٢١/٢٤.

شريك له. له الملك وله الحمد، وهو على كل شيء قدير، فكأنما أعتق أربعة أنفس من بني إسماعيل، أو من ولد إسماعيل)، ومع ذلك لو كان عليه رقبة كفارة، وقال هذا الذكر، لم يكفه عن الكفارة. فلا يلزم من معادلة الشيء للشيء أن يكون قائماً مقامه في الإجزاء"[1]،

"ولا تقوم مقام آيات المواريث والطلاق والخلع والعدد ونحوها، بل هذه الآيات في وقتها، وعند الحاجة إليها أنفع من تلاوة سورة الإخلاص"[2].

سادساً: مواضع قراءتها:

ورد في السنة النبوية مواضع تُقْرَأُ فيها سورة الكافرون وأشهرها:

١- ركعتا الطواف: عن جابر رضي الله عنه : أن رسول الله ﷺ قرأ بسورة ﴿ قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْكَٰفِرُونَ ﴾، وبـــ﴿ قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ﴾ في ركعتي الطواف[3].

٢- **ركعتا الفجر:** فعن أبي هريرة رضي الله عنه: أن رسول الله ﷺ قرأ بهما في ركعتي الفجر[4].

٣- **الركعتان بعد المغرب:** عن ابن عمر رضي الله عنهما : أن رسول الله ﷺ قرأ في الركعتين قبل الفجر والركعتين بعد المغرب، بضعا وعشرين مرة - أو: بضع عشرة مرة ﴿ قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْكَٰفِرُونَ ﴾ و ﴿ قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ۝١ ﴾[5].

٤- عند النوم: فعن عائشة رضي الله عنها أن النبي ﷺ كان إذا أوى إلى فراشه كُل ليلة جمع كفيه، ثم نفث فيهما فقرأ فيهما : ﴿ قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ﴾ و ﴿ قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلْفَلَقِ ﴾ و ﴿ قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلنَّاسِ ۝١ ﴾ ثم يمسح بهما ما استطاع من جسده، يبدأ بهما على رأسه ووجهه، وما أقبل من جسده، يفعل ذلك ثلاث مرات[6].

٥- في أذكار الصباح والمساء: فعن معاذ بن عبد الله بن خُبيب، عن أبيه رضي الله عنه قال:أصابنا طَش وظلمة،فانتظرنا رسول الله ﷺ يصلي بنا، فخرج فأخذ بيدي،

---

(١) تفسير جزء عم للعثيمين ٣٥١.

(٢) تفسير ابن كثير ٤٣٣/٦.

(٣) أخرجه مسلم كتاب الحج باب حجة النبي ﷺ (١٢١٨).

(٤) أخرجه مسلم كتاب صلاة المسافرين وقصرها باب استحباب ركعتي سنة الفجر والحث عليهما وتخفيفهما والمحافظة عليهما وبيان ما يستحب أن يقرأ فيهما (٧٢٦).

(٥) أخرجه أحمد ٢٤/٢ رقم (٤٧٦٣)تعليق شعيب الأرنؤوط: إسناده صحيح على شرط الشيخين ، السلسلة الصحيحة(٣٣٢٨).

(٦) أخرجه البخاري كتاب فضائل القرآن باب فضل المعوذات (٥٠١٧).

فقال:(قل).فسكت. قال: (قل). قلت: ما أقول؟ قال: (قل: ﴿ قُلۡ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ﴾ والمعوذتين حين تمسي وحين تصبح ثلاثًا تكفيك كل شيء)[1].

٦- في صلاة الوتر: عن عبدالعزيز بن جريج رحمه الله قال: سألنا عائشة رضي الله عنها بأي شيء كان يوتر رسول الله ﷺ ؟ قالت: كان يقرأ في الأولى بـ ﴿ سَبِّحِ ٱسۡمَ رَبِّكَ ٱلۡأَعۡلَى ﴾ وفي الثانية بـ ﴿ قُلۡ يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡكَٰفِرُونَ ﴾ وفي الثالثة بـ ﴿ قُلۡ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ﴾ **والمعوذتين**[2].

سابعاً: المعنى الإجمالي للسورة:

﴿ قُلۡ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ۝١ ﴾أي: قل -أيها الرسول-: هو الله المتفرد بالألوهية والربوبية والأسماء والصفات، لا يشاركه أحد فيها.﴿ ٱللَّهُ ٱلصَّمَدُ ۝٢ ﴾ أي: الله وحده المقصود في قضاء الحوائج والرغائب.﴿ لَمۡ يَلِدۡ وَلَمۡ يُولَدۡ ۝٣ ﴾أي: ليس له ولد ولا والد ولا صاحبة.﴿ وَلَمۡ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدٌۢ ۝٤ ﴾أي: ولم يكن له مماثلا ولا مشابهًا أحد من خلقه، لا في أسمائه ولا في صفاته، ولا في أفعاله، تبارك وتعالى وتقدَّس[3].

---

(١) أخرجه النسائي كتاب الاستعاذة باب(١)رقم (٥٤٢٨)، والترمذي كتاب الدعوات باب (١١٦)رقم (٣٥٧٥) وحسنه الألباني في صحيح سنن الترمذي (٢٨٢٩).

(٢) أخرجه أبو داود كتاب الوتر باب ما يقرأ في الوتر (١٤٢٤)، وصححه الألباني في مشكاة المصابيح (١٢٦٩)، وصحيح سنن أبي داود (١٢٦٢).

(٣) التفسير الميسر ٦٠٤.

المبحث الثاني

وقفات في معاني السورة

المطلب الأول

وجوب معرفة الله

﴿ قُلْ ﴾: "قولاً جازمًا به، معتقدًا له، عارفًا بمعناه"[1]،"وافتتاح هذه السورة بالأمر بالقول لإظهار العناية بما بعد فعل القول"[2].

﴿ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ﴾ "قد انحصرت فيه الأحدية فهو الأحد المنفرد بالكمال، الذي له الأسماء الحسنى، والصفات الكاملة العليا، والأفعال المقدسة، الذي لا نظير له ولا مثيل"[3].

"وضمير ﴿ هُوَ ﴾ ضمير الشأن لإفادة الاهتمام بالجملة التي بعده وإذا سمعه الذين سألوا تطلعوا إلى ما بعده ،ويجوز أن يكون ﴿ هُوَ ﴾ أيضاً عائداً إلى الرب"[4]المسؤول عنه.

﴿ أَحَدٌ ﴾ "لفظ أدق من لفظ «واحد» لأنه يضيف إلى معنى «واحد» أن لا شي ء غيره معه. وأن ليس كمثله شيء"[5].

ففي الآية أمرٌ بالبلاغ والدعوة إلى التوحيد. أي: يا محمد، ويا أصحاب محمد، ويا كل المسلمين.. وحدوا الله وادعوا الناس كافة إلى توحيد الله.

وهل دعوات الأنبياء إلا على هذا الأس اس العظيم ﴿ ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ ﴾[6]، كما قال تعالى عنهم: ﴿ وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِى كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولاً أَنِ ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ وَٱجْتَنِبُواْ ٱلطَّٰغُوتَ ﴾ [النحل٣٦].

---

(١) تيسير الكريم الرحمن ٩٣٧.

(٢) التحرير والتنوير ٦١٢/٢٤.

(٣) تيسير الكريم الرحمن ٩٣٧.

(٤) التحرير والتنوير ٦١٢/٢٤.

(٥) في ظلال القرآن ٤٠٠٢/٦ .

(٦) وردت هذه الجملة من الآية في مواطن متعددة في القرآن فقد وردت في سورة الأعراف الآية(٥٩) عن نوح، و الآية(٦٥)عن هود، والآية (٧٣)عن صالح، والآية (٨٥)عن شعيب، وذكرت كذلك في سورة هود والمؤمنون والعنكبوت وغيرها من سور القرآن.

﴿ ٱللَّهُ ٱلصَّمَدُ ﴾ الصمد فيه معان كثيرة منها: الذي ليس بأجوف ولا يأكل ولا يشرب. ومنها: الذي لا يخرج منه شيء. ومنها: الذي لم يلد و لم يولد. ومنها: السيد الذي انتهى سؤدده. ومنها: الباقي الذي لا يفنى[١].

"قال الطبراني في كتاب السنة بعد إيراده كثيرًا من هذه الأقوال في تفسير ﴿ ٱلصَّمَدُ ﴾: وكل هذه صحيحة، وهي صفات ربنا عز وجل"[٢].

فهو سبحانه " المقصود في جميع الحوائج. فأهل العالم العلوي والسفلي مفتقرون إليه غاية الافتقار، يسألونه حوائجهم، ويرغبون إليه في مهماتهم، لأنه الكامل في أوصافه. العليم: الذي قد كمل في علمه. الحليم: الذي قد كمل في حلمه. الرحيم: الذي كمل في رحمته. ووسعت رحمته كل شيء، وهكذا سائر أوصافه"[٣].

إنه الحي القيوم، الرحمن الرحيم الذي خلق كل شيء وسخر لنا كثيراً مما خلق.

قال تعالى: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ فَالِقُ ٱلْحَبِّ وَٱلنَّوَىٰ ۖ يُخْرِجُ ٱلْحَىَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ وَمُخْرِجُ ٱلْمَيِّتِ مِنَ ٱلْحَىِّ ۚ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ ۖ فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ ﴿٩٥﴾ فَالِقُ ٱلْإِصْبَاحِ وَجَعَلَ ٱلَّيْلَ سَكَنًا وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ حُسْبَانًا ۚ ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ ﴿٩٦﴾ وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلنُّجُومَ لِتَهْتَدُواْ بِهَا فِى ظُلُمَٰتِ ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ ۗ قَدْ فَصَّلْنَا ٱلْأَيَٰتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿٩٧﴾ وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنشَأَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ فَمُسْتَقَرٌّ وَمُسْتَوْدَعٌ ۗ قَدْ فَصَّلْنَا ٱلْأَيَٰتِ لِقَوْمٍ يَفْقَهُونَ ﴿٩٨﴾ وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجْنَا بِهِۦ نَبَاتَ كُلِّ شَىْءٍ فَأَخْرَجْنَا مِنْهُ خَضِرًا نُّخْرِجُ مِنْهُ حَبًّا مُّتَرَاكِبًا وَمِنَ ٱلنَّخْلِ مِن طَلْعِهَا قِنْوَانٌ دَانِيَةٌ وَجَنَّٰتٍ مِّنْ أَعْنَابٍ وَٱلزَّيْتُونَ وَٱلرُّمَّانَ مُشْتَبِهًا وَغَيْرَ مُتَشَٰبِهٍ ۗ ٱنظُرُوٓاْ إِلَىٰ ثَمَرِهِۦٓ إِذَآ أَثْمَرَ وَيَنْعِهِۦٓ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكُمْ لَأَيَٰتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٩٩﴾ ﴾ [الأنعام ٩٥-٩٩].

وقال سبحانه: ﴿ إِنَّ رَبَّكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ يُغْشِى ٱلَّيْلَ ٱلنَّهَارَ يَطْلُبُهُۥ حَثِيثًا وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ وَٱلنُّجُومَ مُسَخَّرَٰتٍۭ بِأَمْرِهِۦٓ ۗ أَلَا لَهُ ٱلْخَلْقُ وَٱلْأَمْرُ ۗ تَبَارَكَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٥٤﴾ ﴾ [الاعراف٥٤].

ويقول عز وجل: ﴿ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً ۖ لَّكُم مِّنْهُ شَرَابٌ وَمِنْهُ شَجَرٌ فِيهِ تُسِيمُونَ ﴿١٠﴾ يُنۢبِتُ لَكُم بِهِ ٱلزَّرْعَ وَٱلزَّيْتُونَ وَٱلنَّخِيلَ وَٱلْأَعْنَٰبَ وَمِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ ۗ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَأَيَةً لِّقَوْمٍ

---

(١) انظر: جامع البيان ٢٤/٧٣١-٧٣٧ فقد ذكر هذه المعاني وذكر الروايات فيها عن الصحابة والتابعين رضي الله عنهم.
(٢) تفسير القرآن العظيم ٨/٥٢٩.
(٣) تيسير الكريم الرحمن٩٣٧.

يَتَفَكَّرُونَ ﴿١١﴾ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلَّيۡلَ وَٱلنَّهَارَ وَٱلشَّمۡسَ وَٱلۡقَمَرَۖ وَٱلنُّجُومُ مُسَخَّرَٰتُۢ بِأَمۡرِهِۦٓۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٖ لِّقَوۡمٖ يَعۡقِلُونَ ﴿١٢﴾ وَمَا ذَرَأَ لَكُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ مُخۡتَلِفًا أَلۡوَٰنُهُۥٓۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَةٗ لِّقَوۡمٖ يَذَّكَّرُونَ ﴿١٣﴾ وَهُوَ ٱلَّذِي سَخَّرَ ٱلۡبَحۡرَ لِتَأۡكُلُواْ مِنۡهُ لَحۡمٗا طَرِيّٗا وَتَسۡتَخۡرِجُواْ مِنۡهُ حِلۡيَةٗ تَلۡبَسُونَهَا وَتَرَى ٱلۡفُلۡكَ مَوَاخِرَ فِيهِ وَلِتَبۡتَغُواْ مِن فَضۡلِهِۦ وَلَعَلَّكُمۡ تَشۡكُرُونَ ﴿١٤﴾ وَأَلۡقَىٰ فِي ٱلۡأَرۡضِ رَوَٰسِيَ أَن تَمِيدَ بِكُمۡ وَأَنۡهَٰرٗا وَسُبُلٗا لَّعَلَّكُمۡ تَهۡتَدُونَ ﴿١٥﴾ وَعَلَٰمَٰتٖۚ وَبِٱلنَّجۡمِ هُمۡ يَهۡتَدُونَ ﴿١٦﴾ أَفَمَن يَخۡلُقُ كَمَن لَّا يَخۡلُقُۚ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿١٧﴾ وَإِن تَعُدُّواْ نِعۡمَةَ ٱللَّهِ لَا تُحۡصُوهَآۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَغَفُورٞ رَّحِيمٞ ﴿١٨﴾ ﴾ [النحل١٠-١٨].

وقال تعالى: ﴿ وَٱللَّهُ أَخۡرَجَكُم مِّنۢ بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمۡ لَا تَعۡلَمُونَ شَيۡـٔٗا وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمۡعَ وَٱلۡأَبۡصَٰرَ وَٱلۡأَفۡـِٔدَةَ لَعَلَّكُمۡ تَشۡكُرُونَ ﴿٧٨﴾ أَلَمۡ يَرَوۡاْ إِلَى ٱلطَّيۡرِ مُسَخَّرَٰتٖ فِي جَوِّ ٱلسَّمَآءِ مَا يُمۡسِكُهُنَّ إِلَّا ٱللَّهُۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٖ لِّقَوۡمٖ يُؤۡمِنُونَ ﴿٧٩﴾ وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّنۢ بُيُوتِكُمۡ سَكَنٗا وَجَعَلَ لَكُم مِّن جُلُودِ ٱلۡأَنۡعَٰمِ بُيُوتٗا تَسۡتَخِفُّونَهَا يَوۡمَ ظَعۡنِكُمۡ وَيَوۡمَ إِقَامَتِكُمۡ وَمِنۡ أَصۡوَافِهَا وَأَوۡبَارِهَا وَأَشۡعَارِهَآ أَثَٰثٗا وَمَتَٰعًا إِلَىٰ حِينٖ ﴿٨٠﴾ وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّمَّا خَلَقَ ظِلَٰلٗا وَجَعَلَ لَكُم مِّنَ ٱلۡجِبَالِ أَكۡنَٰنٗا وَجَعَلَ لَكُمۡ سَرَٰبِيلَ تَقِيكُمُ ٱلۡحَرَّ وَسَرَٰبِيلَ تَقِيكُم بَأۡسَكُمۡۚ كَذَٰلِكَ يُتِمُّ نِعۡمَتَهُۥ عَلَيۡكُمۡ لَعَلَّكُمۡ تُسۡلِمُونَ ﴿٨١﴾ ﴾ [النحل٧٨-٨١].

ذلك غيض من فيض مما عرَّفنا الله به عن نفسه، وهي آيات تربط القلب البشري بربه، وتغرس فيه حبه. ولا شك أن معرفة الله بأسمائه وصفاته وأفعاله وتصحيح التصور عنه سبحانه سيكون له أعظم الأثر في إصلاح النفس وإصلاح الحياة.

المطلب الثاني

تنزيهه سبحانه عن كل نقص

ومن كماله سبحانه أنه ﴿لَمۡ يَلِدۡ وَلَمۡ يُولَدۡ﴾ وذلك لكمال غناه[1] "لأن من يُصْمَدُ إليه لا يكون من حاله أن يلد، لأن طلب الولد لقصد الاستعانة به في إقامة شؤون الوالد، وتدارك عجزه، ولذلك استدل على إبطال قولهم باتخاذ الله الولد بإثبات أنه الغني في قوله تعالى ﴿وَقَالُواْ ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ وَلَدٗاۗ سُبۡحَٰنَهُۥۖ بَل لَّهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۖ كُلّٞ لَّهُۥ قَٰنِتُونَ ١١٦﴾ [البقرة١١٦] فبعد أن أبطلت الآية الأولى من هذه السورة تَعَدد الإله، أبطلت هذه الآية تعدد الإله بطريق تولد إله عن إله لأن المتولد مساو لما تولد عنه"[2].

"والتعدد بالتولد مساوياً في الاستحالة لتعدد الإله، لفساد الأكوان المشار إليه بقوله تعالى: ﴿لَوۡ كَانَ فِيهِمَآ ءَالِهَةٌ إِلَّا ٱللَّهُ لَفَسَدَتَاۚ فَسُبۡحَٰنَ ٱللَّهِ رَبِّ ٱلۡعَرۡشِ عَمَّا يَصِفُونَ ٢٢﴾ [الانبياء٢٢] ولأنه لو تولد عن الله موجود آخر لنفى ذلك الأحدية. وبذلك يبطل اعتقاد من يقول: إن الملائكة بنات الله –تعالى عما يقولون– فعبدوا الملائكة قال تعالى: ﴿وَقَالُواْ ٱتَّخَذَ ٱلرَّحۡمَٰنُ وَلَدٗاۗ سُبۡحَٰنَهُۥۚ بَلۡ عِبَادٞ مُّكۡرَمُونَ ٢٦﴾ [الأنبياء٢٦].

وجملة ﴿وَلَمۡ يُولَدۡ﴾ عطف على جملة ﴿لَمۡ يَلِدۡ﴾ أي و لم يلده غيره وهي بمنزلة الاحتراس سداً لتجويز أن يكون له والد، وإنما قدم نفي الولد: بأنه أهم؛ إذ قد نسب أهل الضلالة الولد إلى الله تعالى ، و لم ينسبوا إلى الله والداً. وفيه: الإيماء إلى أن من يكون مولوداً مثل عيسى لا يكون إلهاً، لأنه لو كان الإله مولوداً لكان وجوده مسبوقاً بعدم لا محالة، وذلك محالٌ لأنه لو كان مسبوقاً بعدم لكان مفتقراً إلى من يخصصه بالوجود بعد العدم، فبطلت بذلك عقيدة النصارى بإلهية عيسى عليه السلام بتوهمهم أنه ابن الله وأن ابن الله لا يكون إلاّ إلهاً"[3].

﴿وَلَمۡ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدُۢ﴾ أي: لم يكن له شبيه ولا مِثْلٌ [4] لا في أسمائه ولا في أوصافه، ولا في أفعاله، تبارك وتعالى[5]. "لأنه ليس شيء يولد إلا سيموت، وليس شيء يموت إلا سيورث، وإن الله جل جلاله لا يموت ولا يورث"[6]، وهذا كما قال تعالى : ﴿بَدِيعُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۖ أَنَّىٰ يَكُونُ لَهُۥ وَلَدٞ وَلَمۡ تَكُن لَّهُۥ صَٰحِبَةٞۖ وَخَلَقَ كُلَّ شَيۡءٖۖ وَهُوَ بِكُلِّ شَيۡءٍ عَلِيمٞ ١٠١﴾[الأنعام ١٠١] أي: هو مالك كل شيء وخالقه،

(١) تيسير الكريم الرحمن ٩٣٧.
(٢) التحرير والتنوير ٦١٨/٢٤.
(٣) التحرير والتنوير ٦١٨/٢٤.
(٤) جامع البيان ٧٣٨/٢٤.
(٥) تيسير الكريم الرحمن٩٣٧.
(٦) أخرجه الطبري عن أبي العالية ٧٣٤/٢٤.

فكيف يكون له من خلقه نظير يساميه، أو قريب يدانيه، تعالى وتقدس وتتره.

قال الله تعالى: ﴿ وَقَالُواْ ٱتَّخَذَ ٱلرَّحْمَـٰنُ وَلَدًا ﴿٨٨﴾ لَّقَدْ جِئْتُمْ شَيْـًٔا إِدًّا ﴿٨٩﴾ تَكَادُ ٱلسَّمَـٰوَٰتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ وَتَنشَقُّ ٱلْأَرْضُ وَتَخِرُّ ٱلْجِبَالُ هَدًّا ﴿٩٠﴾ أَن دَعَوْاْ لِلرَّحْمَـٰنِ وَلَدًا ﴿٩١﴾ وَمَا يَنۢبَغِى لِلرَّحْمَـٰنِ أَن يَتَّخِذَ وَلَدًا ﴿٩٢﴾ إِن كُلُّ مَن فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ إِلَّآ ءَاتِى ٱلرَّحْمَـٰنِ عَبْدًا ﴿٩٣﴾ لَّقَدْ أَحْصَىٰهُمْ وَعَدَّهُمْ عَدًّا ﴿٩٤﴾ وَكُلُّهُمْ ءَاتِيهِ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ فَرْدًا ﴿٩٥﴾ ﴾[مريم ٨٨ -٩٥].

وقال تعالى: ﴿ وَقَالُواْ ٱتَّخَذَ ٱلرَّحْمَـٰنُ وَلَدًا ۗ سُبْحَـٰنَهُۥ ۚ بَلْ عِبَادٌ مُّكْرَمُونَ ﴿٢٦﴾ لَا يَسْبِقُونَهُۥ بِٱلْقَوْلِ وَهُم بِأَمْرِهِۦ يَعْمَلُونَ ﴿٢٧﴾ ﴾[الأنبياء٢٦ - ٢٧].

وقال تعالى: ﴿ وَجَعَلُواْ بَيْنَهُۥ وَبَيْنَ ٱلْجِنَّةِ نَسَبًا ۚ وَلَقَدْ عَلِمَتِ ٱلْجِنَّةُ إِنَّهُمْ لَمُحْضَرُونَ ﴿١٥٨﴾ سُبْحَـٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿١٥٩﴾ ﴾[الصافات١٥٨،١٥٩] وفي الصحيح: (لا أحد أصبر على أذى سمعه من الله، إنهم يجعلون له ولداً، وهو يرزقهم ويعافيهم)[١].

(١) أخرجه البخاري كتاب الأدب باب الصبر على الأذى (٦٠٩٩).

المطلب الثالث

تحقيق التوحيد لله

إذا استقرت هذه المعاني، ووضح هذا التصور لمعاني تلك السورة العظيمة ، خلص القلب من كل غاشية ومن كل شائبة، ومن كل تعلق بغير الله الواحد المتفرد بكل شيء في كل شيء.

ومن هنا ينبثق منهج كامل للحياة ، قائم على ذلك التفسير وتلك المعاني:

فالتوحيد لله منهج لعبادة الله وحده ، ومنهج للاتجاه إلى الله وحده في الرغبة والرهبة، في السراء والضراء في النعماء والبأساء، ومنهج للتلقي عن الله وحده، تلقي العقيدة والتصور والقيم والموازين، والشرائع والقوانين والأوضاع والنظم، والآداب والتقاليد، فالتلقي لا يكون إلا عن الله وحده، والعمل لله وحده، وفي سبيل الله وحده.

من أجل هذا كله كانت الدعوة في مراحلها الأولى قاصرة على تقرير حقيقة التوحيد في القلوب، لأن التوحيد منهج للحياة، وليس كلمة تقال باللسان أو حتى صورة تستقر في الضمير. إنما هو الأمر كله، والدين كله؛ وما بعده من تفصيلات وتفريعات لا يعدو أن يكون الثمرة الطبيعية لاستقرار هذه الحقيقة بهذه الصورة في القلوب.

والانحرافات التي أصابت أهل الكتاب من قبل وغيرهم من أهل الشرك والوثنية ، والتي أفسدت عقائدهم وتصوراتهم وحياتهم، نشأت أول ما نشأت عن انطماس صورة التوحيد الخالص. ثم تبع هذا الانطماس ما تبعه من سائر الانحرافات[1].

(١) وانظر: في ظلال القرآن ٦/٤٠٠٢-٤٠٠٤.

تفسير المعوذتين

المبحث الأول

المعوذتين وأحكام الاستعاذة

المطلب الأول

مقدمات حول المعوذتين

أولاً: أسماؤهما:

سورة الفلق وسورة الناس لهما عدة أسماء منها :

١- المعوذتين: "ووصف السورتين بذلك يجعلهما كالذي يدل الخائف على المكان الذي يعصمه من مخيفه أو كالذي يدخله المعاذ"[١] .

٢- المشقشقتين: بتقديم الشينين على القاف في الموضعين من قولهم خطيب مشقشق أي: مسترسل القول تشبيهاً له بالفحل الكريم من الإبل يهدر بشقشقة، وهي كاللحم يبرز من فيه إذا غضب [٢]، **والمقصود** المبرئتين من الشرك ومن النفاق ، وذكر صاحب الكشاف عن سورة الكافرون والإخلاص تسميان المشقشقتين[٣].

٣- المقشوشتين : بتقديم القاف على الشين في الموضعين أي تبرئان من الشرك ومن النفاق[٤]كذلك، فيكون اسم المقشقشة مشتركاً بين أربع سور: الفلق، والناس، وبراءة، والكافرون[٥].

ثانياً: نزولهما ومناسبتهما:

الأصح -والله أعلم- أنهما مدنيتان، فعن ابن عباس رضي الله عنهما: " أن من سورة القدر إلى آخر القرآن مكية، إلا إذا زلزلت الأرض وإذا جاء نصر الله وقل هو الله أحد وقل أعوذ برب الفلق وقل أعوذ برب الناس فإنهن مدنيات"[٦].

---

(١) التحرير والتوير٣٠/٦٢٣ .
(٢) الإتقان١/١٥٩، التحرير والتنوير ٣٠/٦٢٤ .
(٣) الكشاف ٤/٢٣٨.
(٤) الجامع لأحكام القرآن٢٠/٢٥١، التحرير والتنوير ٣٠/٦٢٤ .
(٥) التحرير والتوير٣٠/٦٢٤ .
(٦) الناسخ والمنسوخ ٣/ ١٥٣، البيهقي في الدلائل ٧/١٤٤ .

وأما سبب نزولهما: فعن زيد بن أرقم رضي الله عنه قال: سَحَر النبيَّ ﷺ رجلٌ من اليهود، فاشتكى لذلك أياماً، قال: فجاءه جبريل فقال: إن رجلاً من اليهود سحرك، عقد لك عُقَدًا في بئر كذا وكذا، فَأَرْسِلِ إليها من يجيء بها. فبعث رسول الله ﷺ عليًا رضي الله تعالى عنه فاستخرجها، فجاء بها فحللها قال: فقام رسول الله ﷺ كأنما نَشط من عقال. فما ذكر ذلك لليهودي ولا رآه في وجهه حتى مات[1].

وعن ابن عباس رضي الله عنهما قال: كان رجل من اليهود يدخل على النبي ﷺ، وكان يأمنه، فعقد له عقداً فوضعه في بئر رجل من الأنصار، فاشتكى لذلك أياما فأتاه ملكان يعودانه فقعد أحدهما عند رأسه والآخر عند رجليه، فقال أحدهما: أتدري ما وجعه؟ قال: فلان الذي كان يدخل عليه عقد له عقداً فألقاه في بئر فلان الأنصاري، فلو أرسل إليه رجلاً وأخذ منه العقد لوجد الماء قد اصفر ، فأتاه جبريل فنزل عليه بالمعوذتين وقال: إن رجلاً من اليهود سحرك والسحر في بئر فلان. قال: فبعث رجلاً فوجد الماء قد اصْفَرَّ. فأخذ العقد فجاء بها فأمره أن يحل العقد، ويقرأ آية، فحلَّها فجعل يقرأ ويحل ، فجعل كلما حل عقدة وجد لذلك خفة فبرأ [2].

قال ابن كثير: " ولعل هذا كان من شكواه عليه السلام حين سُحر، ثم عافاه الله تعالى وشفاه، ورد كيد السحرَة الحسَّاد من اليهود في رؤوسهم، وجعل تدميرهم في تدبيرهم، وفضحهم"[3].

عدُّهما:

سورة الفلق: عدد آياها: (٥)آيات، وكلماها: (٢٣)كلمة، وحروفها: (٧٤)حرفاً[4].

سورة الناس: عدد آياها: (٦)آيات، وكلماها: (٢٠)كلمة، وحروفها: (٧٩)حرفاً[5].

---

(١) أخرجه أحمد ٣٦٧/٤(١٩٢٨٦) تعليق شعيب الأرنؤوط: حديث صحيح بغير هذه السياقة، والنسائي كتاب تحريم الدم باب سحرة أهل الكتاب (٤٠٨٠).

(٢) السلسلة الصحيحة ٢٦٤/٦برقم (٢٧٦١) وذكر أنه مروي بعدة طرق وأن رواية ابن عباس أخرجها الثعلبي. نقلاً عن التلخيص للحافظ٤٠/٤. وأصل الخبر في الصحيحين عن عائشة رضي الله عنها قالت: كان رسول الله صلى الله عليه وسلم سحر حتى كان يرى أنه يأتي النساء ولا يأتيهن قال سفيان وهذا أشد ما يكون من السحر إذا كان كذا فقال: (يا عائشة أعلمت أن الله قد أفتاني فيما استفتيته فيه، أتاني رجلان فقعد أحدهما عند رأسي والآخر عند رجلي، فقال الذي عند رأسي للآخر: ما بال الرجل؟ قال: مطبوب قال: ومن طبه؟ قال لبيد بن أعصم -رجل من بني زُريق حليف ليهود كان منافقا. قال وفيم؟ قال في مشط ومشاطة. قال: وأين؟ قال: في جف طلعة ذكر تحت رعوفة في بئر ذروان). قالت: فأتى النبي صلى الله عليه وسلم البئر حتى استخرجه فقال: (هذه البئر التي أريتها وكأن ماءها نقاعة الحناء، وكأن نخلها رؤوس الشياطين). قال فاستخرج قالت فقلت أفلا؟ - أي تنشرت — فقال: (أما والله فقد شفاني الله وأكره أن أثير على أحد من الناس شرا) البخاري كتاب الطب باب هل يستخرج السحر (٥٤٣٢) و كتاب الجزية والموادعة باب هل يعفى عن الذمي إذا سحر (٣٠٠٤)، ومسلم كتاب السلام باب السحر (٢١٨٩).

(٣) تفسير القرآن العظيم ٥٣٧/٨.

(٤) التفسير القرآني للقرآن ٩٧/٣.

(٥) المصدر السابق ٩٨/٣.

مناسبتهما لما قبلها:

تضمنت "سورة «الإخلاص» ما ينبغي أن يكون عليه مفهوم المخلوقين للخالق سبحانه وتعالى ، من تفرده بالألوهية ، وتتريهه أن يكون والدا أو مولودا ، وعن أن تكون له نسبة إلى المخلوقات ، إلا نسبة الدلالة على قدرته وحكمته ، وعلمه ، وأنها جميعها مفتقرة إليه في وجودها ، وفى بقائها ، وأنه سبحانه لا مثيل له ، ولا شبيه ، ولا كفء ولا ندّ ..

هذا ما أمر اللّه سبحانه النبي أن يؤمن به أولا ، ثم أن يؤذن به في الناس ..

ثم جاءت بعد هذا سورتا المعوذتين ؛ « الفلق » و«الناس » تقرران هذه الحقيقة ، وتؤكدانها في مجال التطبيق العملي لآثارها ، وذلك بدعوة النبيّ والناس جميعا أن يعوذوا بربهم ، وأن يستظلوا بحمى ربوبيته من كل ما يسوءهم ، أو ما يتوقع أن يعرض له بسوء ، فذلك هو الإيمان باللّه سبحانه ، والإقرار بسلطانه القائم على هذا الوجود ، وأنه وحده الذي تتجه الوجوه كلها إليه في السراء والضراء .. فهو سبحانه القادر على كل شيء ، وهو سبحانه الذي بيده مقاليد كل شيء .. أما المخلوقون فهم جميعا على سواء في الحاجة إلى اللّه ، وفى الافتقار إليه ، غنيهم وفقيرهم ، قويهم وضعيفهم : ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ أَنتُمُ ٱلۡفُقَرَآءُ إِلَى ٱللَّهِۖ وَٱللَّهُ هُوَ ٱلۡغَنِيُّ ٱلۡحَمِيدُ ١٥﴾ [فاطر: ١٥]

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ تَدۡعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ عِبَادٌ أَمۡثَالُكُمۡۖ فَٱدۡعُوهُمۡ فَلۡيَسۡتَجِيبُواْ لَكُمۡ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ ١٩٤ ﴾ [الأعراف: ١٩٤].

وقد صدّرت سورة الإخلاص ، والمعوذتين بعدها ، بقوله تعالى : « قل » وهذا الأمر بالقول داخل في مقول القول الذي يقوله النبي ، ويقوله كل من يتأسّون به ، فمطلوب من النبي ، ومن المؤمنين أن يقولوا : « قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ .. قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ الْفَلَقِ .. قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ » .. فهذا الأمر بالقول ، هو قرآن متعبد به ، وهو يعنى أن القرآن كلمات اللّه ، وأنه لا تبديل لكلمات اللّه ، وأن هذه الكلمات قد انطبعت في قلب النبيّ صلوات اللّه وسلامه عليه ، فهو يقرؤها من كتاب قلبه كما أنزلت عليه ، دون تبديل فيها .."[1].

ثالثاً : موضوعهما :

"سورة الفلق وسورة الناس توجيه من الله سبحانه وتعالى لنبيه ﷺ ابتداء وللمؤمنين من بعده جميعاً، للعياذ بكنفه، واللياذ بحماه، من كل مخوف: خافٍ وظاهرٍ، مجهولٍ ومعلومٍ، على وجه الإجمال وعلى وجه التفصيل. فيفتح الله سبحانه لهم حِمَاه، ويبسط لهم كنفه، ويقول لهم في مودة وعطف: تعالوا إلى هنا. تعالوا إلى الحمى. تعالوا إلى مأمنكم الذي تطمئنون فيه. تعالوا فأنا أعلم أنكم ضعاف وأن لكم أعداء وأن حولكم مخاوف وهنا الأمن والطمأنينة والسلام"[2].

---

(١) المصدر السابق في الموضعين.

(٢) في ظلال القرآن ٦/٤٠٠٦ .

رابعاً : فضلهما:

عن ابن عابس الجهني رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال له: (يا بن عابس ألا أدلك) أو قال: (ألا أخبرك بأفضل ما يتعوذ به المتعوذون؟) قال: بلى يا رسول الله. قال: (﴿ قُلۡ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلۡفَلَقِ ﴾ و﴿ قُلۡ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلنَّاسِ ﴾ هاتين السورتين)(١).

وعن عقبة بن عامر رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: (ألم تر آيات أنزلت هذه الليلة لم يُر مثلهن قط؟ قل : ﴿ قُلۡ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلۡفَلَقِ ﴾ و ﴿ قُلۡ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلنَّاسِ ﴾)(٢).

وعن عقبة بن عامر رضي الله عنه قال: اتبعت رسول الله ﷺ وهو راكب فوضعت يدي على قدمه فقلت: أقرئني يا رسول الله سورة هود وسورة يوسف. فقال: (لن تقرأ شيئاً أبلغ عند الله من ﴿ قُلۡ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلۡفَلَقِ ﴾ و ﴿ قُلۡ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلنَّاسِ ﴾)(٣).

وعن جابر رضي الله عنه قال: قال لي رسول الله ﷺ: (اقرأ يا جابر). قلت: ماذا بأبي أنت وأمي؟ قال: (اقرأ ﴿ قُلۡ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلۡفَلَقِ ﴾ و ﴿ قُلۡ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلنَّاسِ ﴾) فقرأهما. فقال: (اقرأ بهما فلن تقرأ بمثلهما)(٤).

خامساً: مواضع الاستعاذة بهما:

ورد في السنة النبوية مواضع تقرأ فيها المعوذتان، وأشهرها:

١ - **عند المرض:** عن عائشة رضي الله عنها قالت :أن رسول الله ﷺ كان إذا اشتكى نفث على نفسه بالمعوذات ومسح عنه بيده فلما اشتكى وجعه الذي توفي فيه طفقت أنفث على نفسه بالمعوذات التي كان ينفث وأمسح بيد النبي ﷺ عنه(٥).

٢ - **عند النوم:** عن عائشة رضي الله عنها أن النبي ﷺ كان إذا آوى إلى فراشه كل ليلة جمع كفيه ثم نفث فيهما وقرأ فيهما: ﴿ قُلۡ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ﴾ و ﴿ قُلۡ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلۡفَلَقِ ﴾ و﴿ قُلۡ أَعُوذُ بِرَبِّ

---

(١) أخرجه النسائي في السنة كتاب الاستعاذة باب ٢ (٥٤٣٢) وصححه الألباني في صحيح النسائي (٥٠٢٠) وفي الصحيحة (١١٠٤).

(٢) أخرجه مسلم كتاب المساجد ومواضع الصلاة باب فضل قراءة المعوذتين (٨١٤).

(٣) أخرجه النسائي في السنة كتاب الافتتاح باب الفضل في قراءة المعوذتين (٩٥٣)، والإمام أحمد ١٤٩/٤(١٧٣٧٩) وصححه الألباني في صحيح الجامع (٥٢١٧).

(٤) أخرجه ابن حبان ٧٦/٣ رقم (٧٩٦)، وصححه الألباني في صحيح الترغيب والترهيب ٩٤/٢(١٤٨٦).

(٥) أخرجه البخاري كتاب المغازي باب مرض النبي ﷺ ووفاته(٤٤٣٩) واللفظ له، ومسلم كتاب السلام باب رقية المريض بالمعوذات والنفث (٢١٩٢).

﴿ ٱلنَّاسِ ﴾ ثم يمسح بهما ما استطاع من جسده، يبدأ بهما على رأسه ووجهه وما أقبل من جسده، يفعل ذلك ثلاث مرات[١].

٣ -**دبر كل صلاة:** عن عقبة بن عامر رضي الله عنه قال:(أمرني رسول الله صلى الله عليه وسلم أن أقرأ بالمعوذتين في دبر كل صلاة)[٢].

٤ -**عند السفر والخلوة والوحشة:** عن عبد الله بن خبيب رضي الله عنه قال: كنت مع رسول الله ﷺ في طريق مكة فأصبت خلوة من رسول الله ﷺ فدنوت منه فقال: (قل) فقلت: ما أقول؟! قال: (قل) قلت: ما أقول؟! قال: ﴿ قُلۡ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلۡفَلَقِ ﴾ حتى ختمها، ثم قال: ﴿ قُلۡ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلنَّاسِ ﴾ حتى ختمها ثم قال: (ما تعوذ الناس بأفضل منهما)[٣].

٥ -**الرقية بهما من السحر والعين:** قال الترمذي: باب ما جاء في الرقية بالمعوذتين وذكر تحته حديث أبي سعيد رضي الله عنه أنه قال: كان رسول الله ﷺ يتعوذ من الجان وعين الإنسان حتى نزلت المعوذتان فلما نزلتا أخذ بهما وترك ما سواهما[٤].

٦ -**عند الصباح والمساء:** عن عبد الله بن خبيب عن أبيه رضي الله عنهما قال خرجنا في ليلة مطيرة وظلمة شديدة نطلب رسول الله ﷺ يصلي لنا قال فأدركته فقال: (قل) فلم أقل شيئا ثم قال: (قل) فلم أقل شيئا قال: (قل) فقلت: ما أقول؟ قال: (قل: ﴿ قُلۡ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ﴾ والمعوذتين حين تمسي وتصبح ثلاث مرات تكفيك من كل شيء)[٥].

٧ -**عند لدغ العقرب:** عن علي رضي الله عنه قال: بينا رسول الله ﷺ ذات ليلة يصلي فوضع يده على الأرض فلدغته عقرب، فتناولها رسول الله ﷺ بنعله فقتلها، فلما انصرف قال: (لعن الله العقرب لا تدع مصليا ولا غيره أو نبيا ولا غيره إلا لدغتهم) ثم دعا بملح وماء فجعله في إناء ثم جعل يصبه على إصبعه حيث لدغته ويمسحها ويعوذها بالمعوذتين[٦].

---

(١) أخرجه البخاري كتاب فضائل القرآن باب فضل المعوذتين (٥٠١٧).

(٢) أخرجه الترمذي كتاب فضائل القرآن عن رسول الله ﷺ باب ما جاء في المعوذتين (٢٩٠٣)، وأبي داود كتاب الوتر باب في الاستغفار رقم (١٥٢٣)، وصحيح سنن أبي داود (١٣٤٨).

(٣) أخرجه النسائي كتاب الاستعاذة (٥٤٢٩) وصححه الألباني في صحيح الجامع (٤٣٩٦).

(٤) أخرجه الترمذي كتاب الطب عن النبيﷺ باب ما جاء في الرقية بالمعوذتين (٢٠٥٨). وحسنه الألباني في الكلم الطيب(٢٤٧).

(٥) أخرجه الترمذي كتاب الدعوات عن النبي ﷺ باب (١١٧) رقم (٣٥٧٥)وحسنه الألباني في صحيح سنن الترمذي (٢٨٢٩) وصحيح الكلم ص(١٩).

(٦) أخرجه ابن أبي شيبة في سنده ٥/٤٤رقم (٢٣٥٥٣)، وصححه الألباني في مشكاة المصابيح (٤٥٦٧) .

٨ -**القراءة بها في صلاة الفجر:** عن عقبة بن عامر: أنه سأل النبي ﷺ عن المعوذتين قال عقبة فأَمَّنَا بهما رسول الله ﷺ في صلاة الفجر[١]

٩ -**في الوتر**: عن عبدالعزيز بن جريج رحمه الله قال: سألنا عائشة رضي الله عنها بأي شيء كان يوتر رسول الله ﷺ؟ قالت: كان يقرأ في الأولى بـــ ﴿سَبِّحِ ٱسْمَ رَبِّكَ ٱلْأَعْلَى﴾ وفي الثانية بـ ﴿قُلْ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلْكَـٰفِرُونَ﴾ وفي الثالثة ب ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ﴾ والمعوذتين[٢].

١٠ -**عند رؤية القمر من كسوفه:** عن عائشة رضي الله عنها: أن النبي ﷺ نظر إلى القمر فقال يا عائشة استعيذي بالله من شر هذا؟ فإن هذا الغاسق إذا وقب[٣].

"قال الطيبي: إنما استعاذ من كسوفه لأنه من آيات الله الدالة على حدوث بَلِيَّةٍ، ونزول نازلةٍ ، كما قال عليه الصلاة والسلام: (ولكن يخوف الله بها عباده)[٤]"[٥].

(١) أخرجه النسائي في السنن كتاب الافتتاح باب القراءة في الصبح بالمعوذتين(٩٥٢)، وصححه الألباني .

(٢) أخرجه أبو داود كتاب الوتر باب ما يقرأ في الوتر (١٤٢٤)، وصححه الألباني في مشكاة المصابيح (١٢٦٩)، وصحيح سنن أبي داود (١٢٦٢).

(٣) أخرجه الترمذي كتاب تفسير القرآن باب ومن سورة المعوذتين (٣٣٦٦)، صحيح سنن الترمذي (٢٦٨١).

(٤) أخرجه البخاري كتاب الكسوف باب الذكر في الكسوف(١٠١٠)، ومسلم في الكسوف باب ذكر النداء بصلاة الكسوف الصلاة جامعة (٩١٢).

(٥) تحفة الأحوذي ٢١٣/٩.

سادساً : المعنى الإجمالي للسورتين:

سورة الفلق:

﴿ قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلْفَلَقِ ﴾ أي: قل -أيها الرسول-: أعوذ وأعتصم برب الفلق، وهو الصبح. ﴿ مِن شَرِّ مَا خَلَقَ ﴾ من شر جميع المخلوقات وأذاها، ﴿ وَمِن شَرِّ غَاسِقٍ إِذَا وَقَبَ ﴾ ومن شر ليل شديد الظلمة إذا دخل وتغلغل، وما فيه من الشرور والمؤذيات.

﴿ وَمِن شَرِّ ٱلنَّفَّـٰثَـٰتِ فِى ٱلْعُقَدِ ﴾ ومن شر الساحرات اللاتي ينفخن فيما يعقدن من عُقَد بقصد السحر، ﴿ وَمِن شَرِّ حَاسِدٍ إِذَا حَسَدَ ﴿٥﴾ ﴾ ومن شر حاسد مبغض للناس إذا حسدهم على ما وهبهم الله من نعم، وأراد زوالها عنهم، وإيقاع الأذى بهم[1].

سورة الناس:

﴿ قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلنَّاسِ ﴾ أي: قل -أيها الرسول-: أعوذ وأعتصم برب الناس، القادر وحده على ردِّ شر الوسواس، ﴿ مَلِكِ ٱلنَّاسِ ﴾ ملك الناس المتصرف في كل شؤونهم، الغنيِّ عنهم، ﴿ إِلَـٰهِ ٱلنَّاسِ ﴾ إله الناس الذي لا معبود بحق سواه، ﴿ مِن شَرِّ ٱلْوَسْوَاسِ ٱلْخَنَّاسِ ﴾ من أذى الشيطان الذي يوسوس عند الغفلة، ويختفي عند ذكر الله.

﴿ ٱلَّذِى يُوَسْوِسُ فِى صُدُورِ ٱلنَّاسِ ﴾ الذي يبثُّ الشر والشكوك في صدور الناس، ﴿ مِنَ ٱلْجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ ﴿٦﴾ ﴾ من شياطين الجن والإنس[2].

(١) التفسير الميسر٦٠٤.

(٢) المرجع السابق.

المطلب الثاني

أحكام حول المعوذتين

المسالة الأولى : تعريف الاستعاذة :

الاستعاذة لغة هي : عاذَ به يَعُوذ : لاَذَ به ولَجَأَ إِليه واعْتَصَم[1] .

ولفظ عاذ وما تصرف منه يدل على التحرز والتحصن والنجاة.

وفي أصله وجهان: الأول: مأخوذ من الستر، فالعائذ قد استتر من عدوه بمن استعاذ به منه.

والثاني: مأخوذ من المجاورة والالتصاق، فالعائذ قد استمسك بالمستعاذ واعتصم به ولزمه.

ولذلك فالوجهان حق لأن المستعيذ مستتر بمعاذ– وهو الله– مستمسك به[2] .

" فالاستعاذة في كلام العرب: الاستجارة والتحيز إلى الشيء على معنى الامتناع به من المكروه[3].

وشرعاً : اللجوء إلى الله عز وجل والاعتصام به من شر كل ذي شر[4].

المسألة الثانية : أركان الاستعاذة :

الركن الأول: مستعاذ به: "ويسمى المَعَاذُ والمستعاذ، وهو الله وحده، ولا تنبغي الاستعاذة إلا به جل وعلا"[5].

الركن الثاني : مستعاذ منه: والمستعاذ منه كل ما يصيب الإنسان من الأذى، "ولا يخلو من قسمين:

القسم الأول: شر راجع إلى الإنسان نفسه: وهو الذنوب التي تقع منه.

القسم الثاني: شر بالإنسان من غيره: وذلك الغير إما:

١ –مكلف: وهو إما أن يكون إنسان مثله أو من الجن.

٢ –غير مكلف: مثل الهوام وذوات الحُمَةِ[6] ونحوها.

وقد تضمنت المعوذتان الاستعاذة من هذه الشرور[7] كما سيأتي بيانه.

الركن الثالث: مستعيذ: وهو الإنسان المؤمن بالله تعالى.

الركن الرابع : أداة الاستعاذة : **وهي** أسماء الله تعالى وصفاته .

---

(١) تاج العروس ٢٤٠٦.

(٢) التفسير القيم ٥٣٨-٥٣٩ بتصرف واختصار.

(٣) الجامع لأحكام القرآن ٦٤/١.

(٤) تفسير ابن كثير ١١٤/١، وقال الماوردي في النكت ٢٩٥/٢: استدفاع الأذى بالأعلى من وجه الخضوع والتذلل.

(٥) نضرة النعيم ٢٠٢/٢.

(٦) كل ما يلدغ من العقارب والحيات ونحوها .

(٧) التفسير القيم ٥٤٣-٥٤٤.

المسألة الثالثة : حكم الاستعاذة وصيغتها:

أولاً : الحكم العام للاستعاذة :

الاستعاذة لا تكون إلا بالله وحده لا شريك له ولا يستعاذ بأحد من خلقه، والذي يصرف هذه العبادة لغير الله فقد ارتكب شركاً أكبر[1]. وقد أخبر سبحانه عمن استعاذ بخلقه أن استعاذته زادته طغياناً ورهقا، فقال تعالى: ﴿ وَأَنَّهُۥ كَانَ رِجَالٌ مِّنَ ٱلۡإِنسِ يَعُوذُونَ بِرِجَالٍ مِّنَ ٱلۡجِنِّ فَزَادُوهُمۡ رَهَقًا ﴾ [الجن ٦].

قال ابن كثير: "كانت عادة العرب في جاهليتها إذا نزلوا واديا أو مكاناً موحشاً يعوذون بعظيم ذلك المكان من الجان أن يصيبهم بشيء يسوؤهم، فلما رأت الجن أن الإنس يعوذون بهم من خوفهم منهم زادوهم خوفاً وإرهاباً وذعراً حتى يبقوا أشد منهم مخافة وأكثر تعوذاً"[2].

ثانياً : حكم الاستعاذة :

الاستعاذة عند قراءة القرآن مأمور بها، والجمهور على أنها مندوبة، وذُكر عن عطاء أنها واجبة[3].

قال ابن جرير: " وإنما هو –أي الأمر بها– إعلام وندب. وذلك أنه لا خلاف بين الجميع أن من قرأ القرآن و لم يستعذ بالله من الشيطان الرجيم قبل قراءته أو بعدها أنه لم يضيع فرضاً واجباً"[4].

والاستعاذة في المواطن الأخرى حكمها أيضاً الندب[5].

ثالثاً: صيغتها :

١– صيغتها عند قراءة القرآن: أعوذ بالله من الشيطان الرجيم وهذا اختيار الجمهور [6] وذلك لورود هذه الصيغة في نص القرآن، قال تعالى: ﴿فَإِذَا قَرَأۡتَ ٱلۡقُرۡءَانَ فَٱسۡتَعِذۡ بِٱللَّهِ مِنَ ٱلشَّيۡطَٰنِ ٱلرَّجِيمِ﴾ [النحل ٩٨]. وبها كان النبي ﷺ يستعيذ غالباً. **وربما استعاذ النبي** ﷺ كما في صلاة الليل: (أعوذ بالله السميع العليم من الشيطان الرجيم من همزه ونفخه ونفثه. ثم يقرأ) وأحياناً يزيد (السميع العليم) وهي صحيحة أيضاً[7].

٢– أما **الاستعاذة في المواطن الأخرى** فلها صيغ عديدة جاءت بها الآيات والأحاديث النبوية، ومنها: ﴿ قُلۡ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلۡفَلَقِ ﴾ ﴿ قُلۡ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلنَّاسِ ﴾ ....والأحاديث (اللهم إني أعوذ بك... ، أعوذ بالله وقدرته... ، أعوذ بكلمات الله التامات... ، .....)[8].

---

(١) انظر: تيسير العزيز الحميد عند باب : من الشرك أن يستعاذ بغير الله.

(٢) تفسير ابن كثير ٢٣٩/٨ .

(٣) انظر: البحر المحيط ٥١٧/٥.

(٤) جامع البيان ٢٩٤/١٧ .

(٥) انظر: الجامع لأحكام القرآن ٨٨/١ ، فقد توسع كثيراً في المسألة وذكر أحكاماً أخرى .

(٦) انظر: الكشف عن وجوه القراءات السبع ٩/١ ، و الإقناع في القرآءات السبع ١٥١/١ والجامع لأحكام القرآن ٨٦/١–٨٩ .

(٧) أخرجه أبو داود كتاب الصلاة باب من رأى الاستفتاح بسبحانك اللهم وبحمدك (٧٧٥) والترمذي كتاب الصلاة باب ما يقول عند افتتاح الصلاة (٢٤٢) وابن ماجة كتاب إقامة الصلاة باب الاستعاذة في الصلاة (٨٠٧) وغيرهم. وصححه الألباني وجمع رواياته في إرواء الغليل ٥١/٢–٥٧.

(٨) سيأتي بيان بعض الصيغ ومواضعها في المسائل التالية.

المسألة الرابعة : مواضع الاستعاذة في القرآن :

ورد في القرآن الكريم بعض الأمور التي يستعاذ منها ونوردها هنا على سبيل الإجمال:

١ -**الاستعاذة عند وسوسة الشيطان ونزغه**[1]: قال تعالى: ﴿ وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ نَزْغٌ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ ۚ إِنَّهُۥ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٠٠﴾ ﴾ [الأعراف ٢٠٠]. وقال تعالى: ﴿ قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلنَّاسِ ﴿١﴾ مَلِكِ ٱلنَّاسِ ﴿٢﴾ إِلَٰهِ ٱلنَّاسِ ﴿٣﴾ مِن شَرِّ ٱلْوَسْوَاسِ ٱلْخَنَّاسِ ﴿٤﴾ ٱلَّذِى يُوَسْوِسُ فِى صُدُورِ ٱلنَّاسِ ﴿٥﴾ مِنَ ٱلْجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ ﴿٦﴾ ﴾.

٢ -**الاستعاذة من الشياطين وحضورهم أي أمر من أمور الإنسان** : قال تعالى: ﴿ وَقُل رَّبِّ أَعُوذُ بِكَ مِنْ هَمَزَٰتِ ٱلشَّيَٰطِينِ ﴿٩٧﴾ وَأَعُوذُ بِكَ رَبِّ أَن يَحْضُرُونِ ﴿٩٨﴾ ﴾ [المؤمنون ٩٧-٩٨]. كالغضب مثلاً، فعن سليمان بن صرد رضي الله عنه قال: استب رجلان عند النبي ﷺ ونحن عنده جلوس وأحدهما يسب صاحبه مغضباً قد احمر وجهه فقال النبي ﷺ: (إني لأعلم كلمة لو قالها لذهب عنه ما يجد لو قال أعوذ بالله من الشيطان الرجيم)[2].

٣ -**الاستعاذة عند قراءة القرآن:** قال تعالى:﴿ فَإِذَا قَرَأْتَ ٱلْقُرْءَانَ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ ٱلرَّجِيمِ﴾ [النحل٩٨].

٤ -**الاستعاذة من الوقوع في الظلم:** قال تعالى: ﴿ قَالَ مَعَاذَ ٱللَّهِ أَن نَّأْخُذَ إِلَّا مَن وَجَدْنَا مَتَٰعَنَا عِندَهُۥٓ إِنَّآ إِذًا لَّظَٰلِمُونَ ﴾ [يوسف ٧٩].

٥ -**الاستعاذة من المتكبرين عن الحق المحتقرين له** : قال تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُجَٰدِلُونَ فِىٓ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ بِغَيْرِ سُلْطَٰنٍ أَتَىٰهُمْ ۙ إِن فِى صُدُورِهِمْ إِلَّا كِبْرٌ مَّا هُم بِبَٰلِغِيهِ ۚ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ ۖ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾ [غافر ٥٦]. وقال: ﴿ وَقَالَ مُوسَىٰٓ إِنِّى عُذْتُ بِرَبِّى وَرَبِّكُم مِّن كُلِّ مُتَكَبِّرٍ لَّا يُؤْمِنُ بِيَوْمِ ٱلْحِسَابِ ﴾ [غافر٢٧].

٦ -**الاستعاذة من الوقوع في المحرمات** : قال تعالى: ﴿ وَرَٰوَدَتْهُ ٱلَّتِى هُوَ فِى بَيْتِهَا عَن نَّفْسِهِۦ وَغَلَّقَتِ ٱلْأَبْوَٰبَ وَقَالَتْ هَيْتَ لَكَ ۚ قَالَ مَعَاذَ ٱللَّهِ ۖ إِنَّهُۥ رَبِّىٓ أَحْسَنَ مَثْوَاىَ ۖ إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴾ [يوسف ٢٣].

٧ -**الاستعاذة من الوقوع في الجهل:** قال تعالى: ﴿قَالَ أَعُوذُ بِٱللَّهِ أَنْ أَكُونَ مِنَ ٱلْجَٰهِلِينَ﴾[البقرة ٧٦].

---

(١) نَزْغُ الشيطانِ وسَاوِسُه ونَخْسُه في القلب بما يُسَوِّلُ للإنسان مِن المَعاصي، يعني: يُلْقِي في قلبه ما يُفْسِدُه على أَصحابه. انظر اللسان ٨/٤٥٤ .

(٢) أخرجه البخاري كتاب الأدب باب ما ينهى عن السباب واللعن (٦٠٤٨) واللفظ له، ومسلم كتاب البر والصلة باب فضل من يملك نفسه عند الغضب.. (٢٦١٠).

٨ -**الاستعاذة عند ولادة المولود**: قال تعالى: ﴿ فَلَمَّا وَضَعَتْهَا قَالَتْ رَبِّ إِنِّي وَضَعْتُهَآ أُنثَىٰ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا وَضَعَتْ وَلَيْسَ ٱلذَّكَرُ كَٱلْأُنثَىٰ وَإِنِّي سَمَّيْتُهَا مَرْيَمَ وَإِنِّيٓ أُعِيذُهَا بِكَ وَذُرِّيَّتَهَا مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ ٱلرَّجِيمِ ﴿٣٦﴾ ﴾ [مريم ٣٦].

٩ -**الاستعاذة من كل الشرور** : قال تعالى: ﴿ قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلْفَلَقِ ﴿١﴾ مِن شَرِّ مَا خَلَقَ ﴿٢﴾ وَمِن شَرِّ غَاسِقٍ إِذَا وَقَبَ ﴿٣﴾ وَمِن شَرِّ ٱلنَّفَّٰثَٰتِ فِي ٱلْعُقَدِ ﴿٤﴾ وَمِن شَرِّ حَاسِدٍ إِذَا حَسَدَ ﴿٥﴾ ﴾.

المسألة الخامسة: مواضع الاستعاذة في السنة:

١ -**الاستعاذة من شرور الأعمال**:كما في قوله ﷺ سيد الاستغفار: (أعوذ بك من شر ما صنعت)[١].

٢ -**الاستعاذة من الأذى**: وعن عثمان بن أبي العاص الثقفي رضي الله عنه أنه شكا إلى رسول الله ﷺ وجعاً يجده في جسده منذ أسلم فقال له رسول الله ﷺ: (ضع يدك على الذي تألم من جسدك وقل : باسم الله ثلاثا، وقل سبع مرات: أعوذ بالله وقدرته من شر ما أجد وأحاذر)[٢].

وعن عبدالله بن عمر رضي الله عنهما قال: كان من دعاء رسول الله ﷺ: (اللهم إني أعوذ بك من زوال نعمتك، وتحول عافيتك، وفجاءة نقمتك، وجميع سخطك)[٣].

٣- الاستعاذة عند الزواج : قال رسول الله ﷺ: (إذا تزوج أحدكم امرأة أو اشترى خادما فليقل : اللهم إني أسألك خيرها وخير ما جبلتها عليه وأعوذ بك من شرها وشر ما جبلتها عليه..)[٤].

٤- الاستعاذة عند نزول منزل: عن خولة بنت حكيم السلمية رضي الله عنها قالت: سمعت رسول الله ﷺ يقول:(من نزل منزلاً ثم قال: أعوذ بكلمات الله التامات من شر ما خلق. لم يضره شئ حتى يرتحل من منزله ذلك)[٥].

٥- الاستعاذة من العذاب والفتن : عن ابن عباس رضي الله عنهما أن رسول الله ﷺ كان يعلمهم هذا الدعاء كما يعلمهم السورة من القرآن يقول: (قولوا: اللهم إنا نعوذ بك من عذاب جهنم ، وأعوذ بك من عذاب القبر، وأعوذ بك من فتنة المسيح الدجال، وأعوذ بك من فتنة المحيا والممات)[٦].

---

(١) أخرجه البخاري كتاب الدعوات باب أفضل الاستغفار (٦٣٠٦).

(٢) أخرجه مسلم كتاب السلام باب استحباب وضع يده على موضع الألم (٢٢٠٢).

(٣) أخرجه مسلم كتاب الذكر باب أكثر أهل الجنة الفقراء وأهل النار النساء وبيان الفتنة (٢٧٣٩).

(٤) أخرجه أبو داود كتاب النكاح باب في جامع النكاح (٢١٦٠)واللفظ له ، وابن ماجه كتاب التجارات باب شراء الرقيق (٢٢٥٢) وحسنه الألباني ، صحيح سنن ابن ماجه (١٨٢٥).

(٥) أخرجه مسلم كتاب الذكر باب التعوذ من سوء القضاء وغيره (٢٧٠٨).

(٦) أخرجه مسلم كتاب المساجد باب ما يستعاذ منه في صلاة (٥٩٠).

وعن عائشة رضي الله عنها قالت: فقدت رسول الله ﷺ ليلة من الفراش فالتمسته فوقعت يدي على بطن قدميه وهو في المسجد وهما منصوبتان وهو يقول: (اللهم أعوذ برضاك من سخطك، وبمعافاتك من عقوبتك، وأعوذ بك منك لا أحصى ثناء عليك أنت كما أثنيت على نفسك)[1].

٦- **الاستعاذة عندما يرى الإنسان في منامه ما يكره** : قال النبي ﷺ: (الرؤيا الصالحة من الله، والحلم من الشيطان، فمن رأى شيئاً يكرهه فلينفث عن شماله ثلاثاً وليتعوذ من الشيطان فإنها لا تضره)[2].

ومواضع حصر الاستعاذة في السنة لا يمكننا في هذا الموضع لكثرة الأحاديث في ذلك، وتكفينا منه الإشارة.

المسألة السادسة: من فوائد الاستعاذة :

١ -أنها "حصن حصين من الشيطان الرجيم .

٢ -أنّ من استعاذ بالله واعتصم به أعاذه الله .

٣ -أنها صمام أمن في الحياة وجُنَّة من كل خطر .

٤ -إظهار الضعف والذلة والانكسار لله وتلك حقيقة العبودية .

٥ -أنّ الوقاية خير من العلاج .

٦ -أنّ الأخذ بالأسباب لا ينافي التوكل على الله .

٧ -أنّ الاستعاذة تزيل الغضب وتريح النفس .

٨ -أنّ الاستعاذة تقي الإنسان من شرور جوارحه .

٩ -أنّ الاستعاذة مظهر من أهم مظاهر الاستغفار .

١٠ -في الاستعاذة بالمعوذتين أثناء المرض إتباع لسنة المصطفى ﷺ وكفى بذلك بركة .

١١ -أنه بالاستعاذة من جار السوء يحمى الإنسان نفسه ويصون عرضه.

١٢ -أنّ الاستعاذة تقي الإنسان من ضرر الحيوان المؤذي كالأفعى ونحوها .

١٣ -أنه بالاستعاذة من الشيطان يندفع الأثر النفسي السيئ الناجم عن الحُلم

١٤ -أنه بالاستعاذة يتجنب الإنسان الضرر حتى يرحل من مترله الذي تعوذ فيه"[3] .

---

(١) أخرجه مسلم كتاب الصلاة باب ما يقال في الركوع والسجود (٤٨٦).

(٢) أخرجه البخاري في كتاب التعبير باب من رأى النبي صلى الله عليه وسلم في المنام (٦٩٩٥) ، ومسلم كتاب الرؤيا أول حديث في الكتاب (٢٢٦١).

(٣) نضرة النعيم ٢٢٦/٢ بتصرف يسير.

المطلب الثالث

الرقية وأحكامها

الرقية لغةً: بضم الراء وسكون القاف، جمعه رُقَى ورُقَيات؛ العوذة يتلفظ بها للمريض[1].

والمراد بالرقية: "ما يرقى به من الدّعاء لطلب الشّفاء"[2] مع النفث أو المسح على موضع الألم. وهي مشروعة ونافعة – بإذن الله – إذا كانت من القرآن والأدعية الصحيحة.

ويمكن إجمال أحكام الرقية في النقاط التالية :

أولاً : حكم الرقية :

لا شك ولا ريب أن العلاج بالقرآن الكريم وبما ثبت عن النبي – ﷺ – من الرقى هو علاج نافع وشفاء تام قال تعالى: ﴿ قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ هُدًى وَشِفَآءٌ ﴾[فصلت ٤٤] ، وقال: ﴿ وَنُنَزِّلُ مِنَ ٱلْقُرْءَانِ مَا هُوَ شِفَآءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴾ [الإسراء٨٢]، و(من) هنا لبيان الجنس، فإن القران كله شفاء[3]. وقال تعالى: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدْ جَآءَتْكُم مَّوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَشِفَآءٌ لِّمَا فِى ٱلصُّدُورِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴿٥٧﴾ ﴾ [يونس ٥٧].

فالقرآن هو الشفاء التام من جميع الأدواء، وكيف تقاوم الأدواء كلام رب الأرض والسماء الذي لو نزل على الجبال لصدعها، أو على الأرض لقطعها، قال ابن القيم رحمه الله: "فمن لم يشفه القرآن فلا شفاه الله ومن لم يكفه فلا كفاه الله"[4].

وقال رحمه الله تعالى: "لقد مر بي وقت في مكة سقمت فيه، ولا أجد طبيباً ولا دواء فكنت أعالج نفسي بالفاتحة، فأرى لها تأثيرا عجيبا، آخذ شربة من ماء زمزم وأقرؤها عليها مرارا ثم أشربه فوجدت بذلك البرء التام، ثم صرت أعتمد ذلك عند كثير من الأوجاع فأنتفع به غاية الانتفاع، فكنت أصف ذلك لمن يشتكي ألماً فكان كثيرٌ منهم يبرأ سريعاً"[5].

وكذلك العلاج بالرقى النبوية الثابتة من أنفع الأدوية، والدعاء إذا سلم من الموانع من أنفع الأسباب في دفع المكروه وحصول المطلوب، فهو من أنفع الأدوية، وخاصة مع الإلحاح فيه، وهو عدو البلاء، يدافعه ويعالجه، ويمنع نزوله، أو يخففه إذا نزل[6].

---

(١) معجم لغة الفقهاء ٢٢٦.

(٢) قاله الطيبي. انظر: فيض القدير ٤٩٠/١، وحاشية العدوي على الرسالة٤٥٢/١.

(٣) الجواب الكافي ص٢٠.

(٤) زاد المعاد ٣٥٢/٤.

(٥) انظر : زاد المعاد ١٧٨/٤ ، والجواب الكافي ص٢١.

(٦) انظر: الجواب الكافي ص ٢٢– ٢٥ .

ثالثاً: شروط جواز الرقية :

وقد أجمع العلماء على جواز الرقى عند اجتماع ثلاثة شروط :

١- أن تكون بكلام الله تعالى أو بأسمائه وصفاته أو كلام رسوله ﷺ .

٢- أن تكون باللسان العربي أو بما يعرف معناه من غيره .

٣- أن يعتقد أن الرقية لا تؤثر بذاها بل بقدرة الله تعالى- والرقية إنما هي سبب من الأسباب[١].

وهناك أحاديث جاءت في النهي عن الرقية كما ورد في قوله عليه الصلاة والسلام: (إن الرقى والتمائم والتولة شرك)[٢] قال في فتح المجيد: "هذا يشير إلى أن الرقى الموصوفة بكونها شركاً، وهي التي يستعان بها بغير الله، وأما إذا لم يذكر فيها إلا أسماء الله وصفاته وآياته، والمأثور عن النبي ﷺ، فهذا حسن جائز أو مستحب"[٣].

ثالثاً: شروط الشفاء من الرقية :

إن الآيات والأذكار والدعوات والتعوذات – التي يُستشفى بها ويُرقى بها – هي في نفسها نافعة شافية بأمرالله، ولكن تستدعي قبول وقوة الفاعل وتأثيره فمتى تخلف الشفاء كان لضعف تأثير الفاعل، أو لعدم قبول المنفعل، أو لمانع قوي فيه يمنع أن ينجح فيه الدواء؛ فإن العلاج بالرقى يكون بأمرين:

أمر من جهة المريض، وأمر من جهة المعالج.

فالذي من جهة المريض يكون بقوة نفسه وصدق توجهه إلى الله تعالى، واعتقاده الجازم بأن القرآن شفاء ورحمة للمؤمنين، والتعوذ الصحيح الذي قد تواطأ عليه القلب واللسان ؛ فإن هذا نوع محاربة، والمحارب لا يتم له الانتصار من عدوه إلا بأمرين: أن يكون السلاح صحيحاً في نفسه جيداً، وأن يكون الساعد قوياً.

الأمر الثاني: من جهة المعالج بالقرآن والسنة؛ أن يكون فيه هذان الأمران أيضاً، ولهذا قال ابن التين رحمه الله: "الرقى بالمعوذات وغيرها من أسماء الله هو الطب الروحاني إذا كان على لسان الأبرار من الخلق حصل الشفاء بإذن الله تعالى"[٤].

---

(١) انظر فتح الباري١٠/ ١٩٥، وفتاوى العلامة ابن باز ٣٨٤/٢ .

(٢) أخرجه أبو داود كتاب الطب باب في تعليق التمائم (٣٨٨٣) وابن ماجه (٣٥٣٠).

(٣) فتح المجيد شرح كتاب التوحيد ١٤٧.

(٤) فتح الباري ١٩٦/١٠.

تفسير سورة الفلق

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿ قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ الْفَلَقِ ﴿١﴾ مِن شَرِّ مَا خَلَقَ ﴿٢﴾ وَمِن شَرِّ غَاسِقٍ إِذَا وَقَبَ ﴿٣﴾ وَمِن شَرِّ النَّفَّاثَاتِ فِي الْعُقَدِ ﴿٤﴾ وَمِن شَرِّ حَاسِدٍ إِذَا حَسَدَ ﴿٥﴾ ﴾ .

المبحث الأول

وقفات مع المستعاذ به والمستعاذ منه

المطلب الأول

المستعاذ به

﴿ قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ الْفَلَقِ ﴾ الفلق : الصبح[١]، وقيل: فالق الحب والنوى، وفالق الإصباح [٢] "فالاستعاذة برب الصبح الذي يُؤَمِّن بالنور من شر كل غامض مستور، أو الاستعاذة برب الخلق الذي يُؤَمِّن من شر خلقه، فالمعنى يتناسق مع ما بعده"[٣] .

"فحقيقة الفلق: الانشقاق عن باطن شيء، هو هنا: ظهور الصبح بعد ظلمة الليل، ورب الفلق: هو الله، لأنه الذي خلق أسباب ظهور الصبح، وتخصيص وصف الله بأنه رب الفلق دون وصف آخر؛ لأن شراً كثيراً يحدث في الليل: من لصوص، وسباع، وذوات سموم، وتعذر السير، وعسر النجدة ، وبعد الاستغاثة، واشتداد آلام المرضى، حتى ظن بعض أهل الضلالة الليل إله الشر.

فالمعنى: أعوذ بفالق الصبح منجاة من شرور الليل، فإنه قادر على أن ينجيني في الليل من الشر، كما أنجى أهل الأرض كلهم بأن خلق لهم الصبح، فوصف الله بالصفة التي فيها تمهيد للإجابة"[٤].

وهي الحكمة في اختيار هذا الفلق ليستعاذ بربه .. فهو أقرب لطلب المستعيذ، وهو أقرب إلى حاجته، والتجاءه بربه سبحانه فهو العظيم المحيط علمه وأمره بهذه المخلوقات كلها.

---

(١) رجح هذا المعنى ابن كثير في تفسيره ٥٣٥/٨، والطبري٢٢٥/٣٠، وكذلك الإمام البخاري انظر: الفتح ٧٤١/٨.

(٢) تيسير الكريم الرحمن ٩٣٧ باختصار.

(٣) في ظلال القرآن ٤٠٠٧/٦.

(٤) التحرير والتنوير٦٢٦/٣٠ بتصرف.

المطلب الثاني

المستعاذ منه

والاستعاذة هنا من عدة أمور:

١ - ﴿ مِن شَرِّ مَا خَلَقَ﴾ .

"من شر جميع المخلوقات" [(١)] "فللخلائق شرور في حالات اتصال بعضها ببعض. كما أن لها خيراً ونفعاً في حالات أخرى .

والاستعاذة بالله هنا من شرها ليبقى خيرها، والله الذي خلقها قادر على توجيهها وتدبير الحالات التي يتضح فيها خيرها لا شرها"[(٢)].

ثم " عطف أشياء خاصة هي مما شمله عموم ﴿ مِن شَرِّ مَا خَلَقَ﴾ وهي ثلاثة أنواع من الشرور: أحدهما: وقت يغلب وقوع الشر فيه وهو الليل. والثاني: صنف من الناس أقيمت صناعتهم على إرادة الشر بالغير. والثالث: صنف من الناس ذو خلق من شأنه أن يبعث على إلحاق الأذى بمن تعلق به "[(٣)] فقال:

٢ - ﴿ وَمِن شَرِّ غَاسِقٍ إِذَا وَقَبَ ﴿٣﴾ ﴾

" الغاسق: الليل. والوقب: غروب الشمس" [(٤)] أي: من شر ما يكون في الليل حين يغشى الناس، وتنتشر فيه كثيرٌ من الأرواح الشريرة، والحيوانات المؤذية"[(٥)].

"فهو الليل وما فيه. الليل حين يتدفق فيغمر البسيطة. والليل حينئذ مخوف بذاته. فضلاً على ما يثيره من توقع للمجهول الخافي من كل شيء: من وحش مفترس يهجم. ومتلصص فاتك يقتحم . وعدو مخادع يتمكن. وحشرة سامة تزحف. ومن وساوس وهواجس وهموم وأشجان تتسرب في الليل، وتخنق المشاعر والوجدان، ومن شيطان تساعده الظلمة على الانطلاق والإيحاء. ومن شهوة تستيقظ في الوحدة والظلام. ومن ظاهر وخاف يدب ويثب، في الغاسق إذا وقب"[(٦)].

---

(١) تفسير القرآن العظيم ٥٣٥/٨.

(٢) في ظلال القرآن ٤٠٠٧/٦.

(٣) التحرير والتنوير٥٢٧/٣٠.

(٤) تفسير القرآن العظيم ٥٣٦/٨.

(٥) تيسير الكريم الرحمن ٩٣٧.

(٦) في ظلال القرآن ٤٠٠٧/٦.

"وتنكير﴿ غَاسِقٍ﴾للجنس لأن المراد جنس الليل، وتنكير ﴿ غَاسِقٍ﴾في مقام الدعاء يراد به العموم لأن مقام الدعاء يناسب التعميم.

وتقييد ذلك بظرف ﴿ إِذَا وَقَبَ﴾ أي: إذا اشتد ظلمته، لأن ذلك وقت يتحينه الشطار وأصحاب الدعارة والعبث، لتحقق غلبة الغفلة والنوم على الناس فيه"(١).

٣ - ﴿ وَمِن شَرِّ ٱلنَّفَّـٰثَـٰتِ فِى ٱلْعُقَدِ ﴾

أي: "السواحر إذا رقين ونفثن في العقد"(٢).

والسحر هو: "عُقَدٌ ورُقَى يَتَكَلَّم به أو يكتبه الساحر أو يعمل شيئاً يؤثر في بدن المسحور أو قلبه من غير مباشرة له"(٣).

"وإنما جيء بصفة المؤنث لأشصن الغالب عند العرب أن يتعاطى السحر النساء، فالأوهام الباطلة تتفشى بينهن لأهن لا يجدون ما يشغلن به أوقاهن، وعطف ﴿ ٱلنَّفَّـٰثَـٰتِ فِى ٱلْعُقَدِ ﴾ على شر الليل لأن الليل وقت يتحين فيه السحرة إجراء شعوذهم لئلا يطلع عليهم أحد.

وإنما جعلت الاستعاذة من النفاثات لا من –النفث فلم يقل: إذا نفثن في العقد – للإشارة إلى أن الساحر يحرص على أن لا يترك شيئاً مما يحقق له ما يعمله لأجله إلا احتال على إيصاله إليه، فربما أغرى به من يغتاله أو من يتجسس على أحواله، ليُري لمن يسألونه السحر أنّ سحره لا يتخلف ولا يخطئ"(٤).

وقال ابن القيم: "والجواب المحقق إن ﴿ ٱلنَّفَّـٰثَـٰتِ﴾ هنا: هن الأرواح والأنفس النفاثات، لا النساء النفاثات؛ لأن تأثير السحر إنما هو من جهة الأنفس الخبيثة والأرواح الشريرة، وسلطانه إنما يظهر منها، فلهذا ذكرت النفاثات هنا بلفظ التأنيث دون التذكير والله أعلم"(٥).

٤ - ﴿ وَمِن شَرِّ حَاسِدٍ إِذَا حَسَدَ ۝٥ ﴾.

والحاسد هنا: "هو الذي يحب زوال النعمة عن المحسود"(٦).

لأن "الحاسد هو: **الذي يكره نعمة الله على غيره**، فتجده يضيق ذرعاً إذا أنعم الله على هذا الإنسان بمال، أو جاه، أو علم أو غير ذلك فيحسده. ولكن **الحُسَّاد نوعان:** نوع يحسد ويكره في قلبه نعمة الله

---

(١) التحرير والتنوير٣٠/٥٢٧.
(٢) المغني ٨/١٥٠.
(٣) تفسير القرآن العظيم ٨/٥٣٦.
(٤) التحرير والتنوير٣٠/٥٢٨ مختصراً.
(٥) بدائع الفوائد٢/٤٤٧-٤٤٨ ، وانظر البحر المحيط ٨/٥٣١ ، وتفسير جزء عمّ لابن عثيمين ص٣٥٧.
(٦) تيسير الكريم الرحمن ٩٣٧.

على غيره، لكن لا يتعرض للمحسود بشيء، تجده مهموماً مغموماً من نعم الله على غيره، لكنه لا يعتدي على صاحبه. **والشر والبلاء** إنما هو بالحاسد إذا حسد. ولهذا قال: ﴿ إِذَا حَسَدَ ﴾"[1].

"فإن مما يدعو الحاسد إلى أذى المحسود أن يتطلب حصول أذاه لتوهم أن السحر يزيل النعمة التي حسده عليها، ولأن ثوران وجدان الحسد يكثر في وقت الليل، لأن الليل وقت الخلوة وخطور الخواطر النفسية والتفكر في الأحوال الحافة بالحاسد والمحسود"[2].

"وقد يغلب الحسد صبر الحاسد وأناته فيحمله على إيصال الأذى للمحسود بإتلاف أسباب نعمته أو إهلاكها رأساً، وقد كان الحسد أول أسباب الجنايات في الدنيا إذ حسد أحد ابني آدم أخاه على أن قُبِل قربانه ولم يقبل من الآخر، كما قصه الله تعالى في سورة المائدة .

وتقييد الاستعاذة من شره بوقت ﴿ إِذَا حَسَدَ ﴾؛ لأنه حينئذ يندفع إلى عمل الشر بالمحسود حين يجيش الحسد في نفسه فتتحرك له الحيل والنوايا لإلحاق الضر به"[3].

وهذا " تعميم في كل ما يستعاذ منه، وقد خص شرّ هؤلاء من كلّ شر لخفاء أمره، وأنه يلحق الإنسان من حيث لا يعلم، كأنما يغتال به. وعُرِّفَت النفاثات؛ لأن كل نفاثة شريرة. ونُكِّرَ غاسق: لأنّ كل غاسق لا يكون فيه الشر، إنما يكون في بعض دون بعض. وكذلك كل حاسد لا يضرّ. ورب حسد محمود؛ وهو الحسد في الخيرات. ومنه قوله ﷺ: (لا حسد إلا في اثنتين رجل آتاه الله مالا فسلط على هلكته في الحق ورجل آتاه الله الحكمة فهو يقضي بها ويعلمها) [4] "[5].

"وأعيدت كلمة ﴿ مِن شَرِّ ﴾ بعد حرف العطف في هذه الجملة. وفي الجملتين المعطوفتين عليها مع أن حرف العطف مغن عن إعادة العامل؛ قصداً لتأكيد الدعاء تعرضاً للإجابة. وهذا من الابتهال فيناسبه الإطناب"[6].

---

(١) تفسير جزء عمّ لابن عثيمين ص ٣٥٧ ، وانظر مجموع فتاوى شيخ الإسلام ١٢٩/١٠، وحاشية ابن القيم على سنن أبي داود ١٦٨/١٣، والبحر المحيط ٥٣١/٨.

(٢) التحرير والتنوير٥٢٨/٣٠.

(٣) التحرير والتنوير٥٢٨/٣٠.

(٤) أخرجه البخاري كتاب العلم باب الاغتباط في العلم والحكمة (٨٠) ومسلم كتاب صلاة المسافرين باب من يقوم بالقرآن ويعلمه (٨١٦).

(٥) الكشاف ٢٤٤/٤.

(٦) التحرير والتنوير٥٢٧/٣٠.

المبحث الثاني

خطر السحر والحسد وطرق الوقاية منهما

المطلب الأول

خطورة السحر وطرق الوقاية منه

أولاً : خطورة السحر : تتمثل خطورة السحر في حرمته إجمالا ومن الحكم في تحريمه:

١ -أن السحر علم يتعلم من الشياطين؛ قال تعالى: ﴿ وَلَٰكِنَّ ٱلشَّيَٰطِينَ كَفَرُواْ يُعَلِّمُونَ ٱلنَّاسَ ٱلسِّحۡرَ﴾ [البقرة ١٠٢].

٢ -السحرة لا يفلحون، قال تعالى: ﴿ قَالَ مُوسَىٰٓ أَتَقُولُونَ لِلۡحَقِّ لَمَّا جَآءَكُمۡۖ أَسِحۡرٌ هَٰذَا وَلَا يُفۡلِحُ ٱلسَّٰحِرُونَ ﴿٧٧﴾ ﴾ [يونس٧٧].

٣ -الله تعالى لا يصلح عمل السحرة المفسدين قال تعالى: ﴿ فَلَمَّآ أَلۡقَوۡاْ قَالَ مُوسَىٰ مَا جِئۡتُم بِهِ ٱلسِّحۡرُۖ إِنَّ ٱللَّهَ سَيُبۡطِلُهُۥٓۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُصۡلِحُ عَمَلَ ٱلۡمُفۡسِدِينَ ﴿٨١﴾ ﴾ [يونس٨١]. وقال تعالى: ﴿ وَلَا يُفۡلِحُ ٱلسَّاحِرُ حَيۡثُ أَتَىٰ ﴿٦٩﴾ ﴾ [طه٦٩].

٤ -السحر من الموبقات: قال رسول الله ﷺ: (اجتنبوا الموبقات الشرك بالله والسحر)[١].

٥ -السحر كفر بالله: قال رسول الله ﷺ: (من أتى عرافاً أو ساحراً أو كاهناً يؤمن بما يقول فقد كفر بما أنزل على محمد ﷺ)[٢]، قال الذهبي: الساحر لا بد وأن يكفر إذ ليس للشيطان غرض في تعليمه الإنسان السحر إلا ليشرك بالله، وحد الساحر القتل لأنه كفر بالله[٣].

٦ -قال رسول الله ﷺ: (من أتى عرافاً فسأله عن شيء لم تقبل له صلاة أربعين ليلة)[٤].

ثانياً: من مضار السحر:

١ - يفرق بين المرء وزوجه.

٢ - الساحر معول هدم في المجتمع.

٣ - عمل بغيض وخلق ذميم.

---

(١) أخرجه البخاري كتاب الطب باب الشرك والسحر من الموبقات (٥٧٦٤)، ومسلم كتاب الإيمان باب بيان الكبائر وأكبرها (٨٩) بزيادة.

(٢) الترغيب والترهيب ٤/٣٦وقال: رواه الطبراني في الكبير ورواته ثقات، وصححه الألباني في صحيح الترغيب (٣٠٤٧) .

(٣) الكبائر (١٤٠١٦) باختصار وتصرف يسير.

(٤) أخرجه مسلم كتاب السلام باب تحريم الكهانة..(٢٢٣٠).

٤ - يغضب الرب ويسخط العبد.

٥ - يورث الخسران في الدنيا والآخرة.

٦ - هلاك للساحر وضرر بالمسحور[١].

ثانياً : كيفية العلاج من السحر والوقاية منه:

١ - التصبح بسبع تمرات مطلقاً وأفضلها عجوة عالية المدينة: قال النبي ﷺ(من اصطبح كل يوم تمرات عجوة من تمر المدينة لم يضره سمّ ولا سحر ذلك اليوم إلى الليل).

وعن سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه: أن رسول الله ﷺ- قال: (مَن اصْطَّبَحَ كلَّ يوم سَبْعَ تمرات من عجوة، لم يضُرَّه سُمّ ولا سِحْر ذلك اليوم إلى الليل)[٢]. وفي رواية: سمعتُ رسول اللهﷺ يقول: (مَن تَصَبَّحَ بسبعِ تمرات عجوة لم يضرَّه ذلك اليوم سُمّ ولا سحر)[٣]. وفي أخرى: (من أكل سبع تمرات مما بين لابتي المدينة على الريق لم يضره يومه ذلك سم ولا سحر وإن أكلها حين يمسى لم يضره سم حتى يصبح)[٤].

٢ - الإستعاذة بالله منه: قال تعالى: ﴿ وَمِن شَرِّ ٱلنَّفَّٰثَٰتِ فِي ٱلۡعُقَدِ ﴾.

٣ - تقوى الله: قال تعالى: ﴿ وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجۡعَل لَّهُۥ مَخۡرَجٗا ﴾[الطلاق ٢].

٤ - التوكل على الله والاعتماد عليه فمن يتوكل على الله فهو حسبه، قال تعالى: ﴿ وَمَن يَتَوَكَّلۡ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسۡبُهُۥٓ ﴾ [الطلاق٣].

٥ - الإكثار من قراءة القرآن والأدعية المأثورة في كل وقت وفي كل حال.

٦ - الرقية الشرعية.

٧ - استخراج السحر وإبطاله وهذه من طرق علاج السحر بعد وقوعه.

٨ - استعمال الأدوية المباحة والتي يعرفها الأطباء وأهل العلم[٥].

---

(١) نضرة النعيم ٤٦٠١/١٠.

(٢) أخرجه البخاري كتاب الطب باب الدواء بالعجوة للسحر (٥٧٦٨) واللفظ له ، ومسلم كتاب الأشربة باب فضل تمر المدينة (٢٠٤٧).

(٣) أخرجه أبو داود في كتاب الطب باب في تمر العجوة (٣٨٧٦) وصححه الألباني.

(٤) أخرجه أحمد ١٦٨/١(١٤٤٢). قال الهيثمى ٤١/٥رجاله رجال الصحيح . وأصله في صحيح مسلم (٢٠٤٧).

(٥) نضرة النعيم ٤٦٠١/١٠، عالم السحر والشعوذة د.عمر الأشقر ١٩٩-٢٠٧.

المطلب الثاني

خطورة الحسد وطرق الوقاية منه

أولاً : خطورة الحسد :

ذكر الله تعالى أن الحسد من صفات الكفار قال تعالى: ﴿ وَدَّ كَثِيرٌ مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ لَوْ يَرُدُّونَكُم مِّنۢ بَعْدِ إِيمَٰنِكُمْ كُفَّارًا حَسَدًا مِّنْ عِندِ أَنفُسِهِم ﴾ [البقرة ١٠٩]. وذمهم فقال تعالى: ﴿ أَمْ يَحْسُدُونَ ٱلنَّاسَ عَلَىٰ مَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ ﴾ [النساء٥٤].

وقد ذم النبي ﷺ الحسد والحاسد فقال: (..ولا يجتمعان في قلب عبد الإيمان والحسد)[١]، وقال: (لا يزال الناس بخير ما لم يتحاسدوا)[٢]. وقال: (العين حق)[٣].

قال الماوردي: " اعلم أن الحسد خلق ذميم، مع أضراره بالبدن، وإفساد للدين حتى لقد أمر الله بالاستعاذة منه فقال: ﴿ وَمِن شَرِّ حَاسِدٍ إِذَا حَسَدَ ۝ ﴾ وناهيك بحال ذلك شراً ولو لم يكن من ذم الحسد إلا أنه خلق دنيء، يتوجه نحو الأكفاء والأقارب، ويختص بالمخالط والصاحب، وهو كذلك بالنفس مضر، وعلى الهم مصر حتى ربما أفضى بصاحبه إلى التلف من غير نكاية بعدو ولا إضرار بمحسود"[٤].

وأضف على ذلك أن "البخل والحسد مشتركان في أن صاحبهما يريد منع النعمة عن الغير، ثم يتميز البخيل بعدم دفع ذي النعمة شيئاً، والحاسد يتمنى إلا يعطى أحد سواه شيئاً"[٥].

قال بعض الأدباء: "ما رأيت ظالماً أشبه بمظلوم من الحسود نفس دائم، وهمّ لازم وقلب هائم"[٦].

ثانياً : دواعي الحسد :

١ - بغض المَحْسود فيأسى عليه بفضيلة تظهر.

٢ - أن يظهر من المحسود فضل يعجز عنه يكره تقدمه فيه.

٣ - أن يكون في الحاسد شح بالفضائل، فيعترض على قضاء الله له[٧].

---

(١) أخرجه النسائي في السنن كتاب الجهاد فضل من عمل في سبيل الله على قدمه (٢٩١٢) وحسنه الألباني.

(٢) أخرجه الطبراني ٣٠٩/٨ ، رقم (٨١٥٧) . قال الهيثمى ٧٨/٨ رجاله ثقات. وصححه الألباني (٣٣٨٦) الصحيحة.

(٣) أخرجه البخاري في كتاب الطب باب العين حق(٥٧٤٠)، ومسلم في كتاب السلام باب الطب والمرض والرقى (٢١٨٧).

(٤) أدب الدنيا والدين للماوردي ٢٦٠-٢٦١.

(٥) الكليات ٢٤٢.

(٦) أدب الدنيا والدين للماوردي ١٧٦.

(٧) هذه الثلاثة أمور ذكرها الماوردي في أدب الدنيا والدين ١٧٦.

٤ - الخوف من فوت المقاصد، وهذا يختص بمتزاحمين على مقصود واحد[1]، وهي أمور الدنيا، وأما أمور الآخرة فإنها لا تضيق على المتزاحمين.

ثالثاً: مضار الحسد:

١ -إسخاط الله تعالى في معارضته، إذ ليس يرى قضاء الله عدلاً ولا لنعمه من الناس أهلاً.

٢ -حسرات النفس وسقام الجسد.

٣ -انخفاض المنزلة، وانحطاط المرتبة.

٤ -مقت الناس له، وعداوتهم.

٥ -يجلب النقم ويزيل النعم.

٦ -منبع الشرور العظيمة ومفتاح العواقب الوخيمة.

٧ -يورث الحقد والضغينة في القلب.

٨ -معول هدم في المجتمع.

٩ -دليل على سفول الخلق ودناءة النفس[2].

رابعاً : دواء الحسد :

١ -علاج الحسد عن الحاسد :

مرض الحسد يمكن أن يعالج بأمور: إتباع دين الله تعالى، والتوبة إلى الله تعالى، والرجوع إلى الله في آدابه فيقهر نفسه على اجتناب مذموم الأخلاق، وتذكر أن العقل السليم يستقبح هذا الأمر، أن يجاهد نفسه على عدم التفكير في نعم غيره ويرضى بقضاء ربه له، وإشغال الذهن بالتفكر في آيات الله ونعم الله عليه، الدعاء لمن يتميز بنعمة من الله ..وغيرها من الأسباب المعينة.

٢ -علاج الحسد عند المحسود :

قال ابن القيم: "ويندفع شر الحاسد عن المحسود بعشرة أسباب:

١ – التعوذ بالله من شره، والتحصن به واللجوء إليه.

٢ – تقوى الله، فمن اتقى الله حفظه و لم يكله إلى غيره.

---

(١) إحياء علوم الدين ٣/٢٠٠.

(٢) نضرة النعيم ١٠/ ٤٤٢٩.

٣ – الصبر على عدوه، وأن لا يقاتله ولا يشكوه.

٤ – التوكل على الله فمن توكل على الله فهو حسبه.

٥ – فراغ القلب من الاشتغال به الفكر فيه وأن لا يخافه.

٦ – الإقبال على الله تعالى وعلى عبادته، قال تعالى: ﴿ لَهُۥ مُعَقِّبَٰتٌ مِّنۢ بَيۡنِ يَدَيۡهِ وَمِنۡ خَلۡفِهِۦ يَحۡفَظُونَهُۥ مِنۡ أَمۡرِ ٱللَّهِۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوۡمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُواْ مَا بِأَنفُسِهِمۡۗ وَإِذَآ أَرَادَ ٱللَّهُ بِقَوۡمٖ سُوٓءٗا فَلَا مَرَدَّ لَهُۥۚ وَمَا لَهُم مِّن دُونِهِۦ مِن وَالٍ ﴿١١﴾ ﴾ [الرعد ١١].

٧ – تجريد التوبة إلى الله لأن الله يقول: ﴿ وَمَآ أَصَٰبَكُم مِّن مُّصِيبَةٖ فَبِمَا كَسَبَتۡ أَيۡدِيكُمۡ وَيَعۡفُواْ عَن كَثِيرٖ ﴿٣٠﴾ ﴾ [التوبة ٣٠].

٨ – الصدقة والإحسان ما أمكن، فما حرس إنسان نعمة بمثل شكرها ولا عرضها للزوال بمثل العمل فيها بمعاصي الله، وقد ورد عن النبي ﷺ أنه قال: (صنائع المعروف تقي مصارع السوء)[1].

٩ – إطفاء نار الحاسد بالإحسان إليه وهذا من أعظمها قال تعالى: ﴿ وَلَا تَسۡتَوِي ٱلۡحَسَنَةُ وَلَا ٱلسَّيِّئَةُۚ ٱدۡفَعۡ بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُ فَإِذَا ٱلَّذِي بَيۡنَكَ وَبَيۡنَهُۥ عَدَٰوَةٞ كَأَنَّهُۥ وَلِيٌّ حَمِيمٞ ﴿٣٤﴾ وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ٱلَّذِينَ صَبَرُواْ وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٖ ﴿٣٥﴾ ﴾ [فصلت٣٤-٣٥].

١٠ تجريد التوحيد، والترحل بالفكر في الأسباب إلى المسبب فهو الذي يكشفها عنه قال تعالى: ﴿ وَإِن يَمۡسَسۡكَ ٱللَّهُ بِضُرّٖ فَلَا كَاشِفَ لَهُۥٓ إِلَّا هُوَۖ وَإِن يُرِدۡكَ بِخَيۡرٖ فَلَا رَآدَّ لِفَضۡلِهِۦۚ يُصِيبُ بِهِۦ مَن يَشَآءُ مِنۡ عِبَادِهِۦۚ وَهُوَ ٱلۡغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٠٧﴾ ﴾ [يونس١٠٧]"[2].

(١) صحيح الترغيب والترهيب ٢٦١/١(٨٩٠) وقال الألباني حسن لغيره .

(٢) مختصراً من بدائع الفوائد ٤٦٣/٢-٤٧٠، وانظر التفسير القيم لابن القيم ٥٨٥-٥٩٣، وبدائع التفسير ٤١٦/٥-٤٢٥-الضوء المنير٥٣١/٥ باختصار وزيادة في الأدلة ، وانظر تفسير سورة الناس للشيخ محمد ابن عبد الوهاب ص ٥٠ معالم في طريق طلب العلم للسدحان ٩٣-١١٤.

تفسير سورة الناس

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿ قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلنَّاسِ ۝١ مَلِكِ ٱلنَّاسِ ۝٢ إِلَٰهِ ٱلنَّاسِ ۝٣ مِن شَرِّ ٱلْوَسْوَاسِ ٱلْخَنَّاسِ ۝٤ ٱلَّذِى يُوَسْوِسُ فِى صُدُورِ ٱلنَّاسِ ۝٥ مِنَ ٱلْجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ ۝٦ ﴾

تنقسم السورة إلى قسمين ، ندرسها في المطالب التالية :

المبحث الأول

وقفات مع المستعاذ به والمستعاذ منه

المطلب الأول

المستعاذ به

الله سبحانه وتعالى برحمته يوجه رسوله ﷺ وأمته إلى العياذ به والالتجاء إليه بقوله : ﴿ قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلنَّاسِ ۝١ مَلِكِ ٱلنَّاسِ ۝٢ إِلَٰهِ ٱلنَّاسِ ﴾ .

ويتبين هذا في عدة نقاط :

أولاً : ما يستفاد من قوله تعالى : ﴿ قُلْ ﴾ :

"الأمر بالقول يقتضي المحافظة على هذه الألفاظ لأنها التي عينها الله للنبي ﷺ ليتعوذ بها فإجابتها مرجوة، فالهدف من الأمر إنشاء معنى في النفس تدل عليه هذه الأقوال الخاصة، وإذ قد كانت من القرآن فالمحافظة على ألفاظها متعينة والتعوذ يحصل بمعناها وبألفاظها حتى كلمة ﴿ قُلْ ﴾ .

والخطاب في ﴿ قُلْ ﴾ للنبي ﷺ وإذا قد كان قرآنا كان خطاب النبي ﷺ به يشمل الأمة حيث لا دليل على تخصيصه به، فلذلك أمر النبي ﷺ بعض أصحابه بالتعوذ بهذه السورة"[1].

ثانياً : يبين سبحانه الاستعاذة به بصفات :

ربط سبحانه الاستعاذة بصفات معينة، وهذه الصفات:

الرب: الرب الراعي والحامي لعباده.

والملك: الحاكم المتصرف في ملكه، وكل ما سوى الله مملوك له.

(١) التحرير والتنوير٣٠/٦٢٥-٦٢٦.

والإله: هو المعبود، والله سبحانه هو المستحق للعبادة وحده دون من سواه.

ولماذا هذه الصفات الثلاث ؟

وهذا الربط والاصطفاء لهذه الصفات يتطلب استحضار معاني هذه الصفات حين الاستعاذة، فهذه الصفات الثلاث حماية من الشر الذي يتدسس إلى الصدور وهي لا تعرف كيف تدفعه لأنه مستور .

قال القرطبي: "وإنما ذكر أنه ﴿ بِرَبِّ ٱلنَّاسِ ﴾، وإن كان ربا لجميع الخلق لأمرين:

أحدهما: لأن الناس معظمون، فأعلم بذكرهم أنه رب لهم وإن عُظموا.

الثاني: لأنه أمر بالاستعاذة من شرهم، فأعلم بذكرهم أنه هو الذي يعيذ منهم"[(١)].

وأمر ثالث وهو: "أن الشر المستعاذ منه مَصَبُّه إلى الناس فناسب أن يستحضر المستعاذ إليه بعنوان أنه رب من يلقون الشر ومن يُلْقَى إليهم، ليصرف هؤلاء ويدفع عن الآخرين"[(٢)].

"إنما قال: ﴿ مَلِكِ ٱلنَّاسِ ۝ إِلَـٰهِ ٱلنَّاسِ ﴾ لأن في الناس ملوكاً؛ يُذَكِّرُ أنه ملكهم، وفي الناس من يعبد غيره؛ فَذَكّر أنه إلههم ومعبودهم، وأنه الذي يجب أن يستعاذ به ويلجأ إليه، دون الملوك والعظماء"[(٣)].

"وقد رتبت أوصاف الله بالنسبة إلى الناس ترتيباً مدرجاً: **رب ثم ملك ثم إله:**

١ -فالله خالق الناس، ثم هم غير خارجين عن حكمه إذا شاء أن يتصرف في شؤونهم، ثم زِيدَ بياناً بوصف إلهيته لهم ليتبين أن ربوبيته لهم وحاكميته فيهم ليست كربوبية بعضهم بعضا وحاكمية بعضهم في بعض.

٢ -وفي هذا الترتيب إشعار بمراتب النظر في معرفة الله تعالى، فإن الناظر يعلن بادئ ذي بدء بأن له رباً، بسبب ما يشعر به من: وجود نفسه ، ونعمة تركيبه. ثم يتغلغل في النظر فيشعر بأن ربه هو الملك الحق الغني عن الخلق. ثم يعلم أنه المستحق للعبادة فهو إله الناس كلهم"[(٤)].

٣ -"بدأ باسم الربّ، وهو اسم لمن قام بتدبيره، وإصلاحه من أوائل عمره إلى أن صار عاقلاً كاملاً، فحينئذ عرف بالدليل أنه عبد مملوك"[(٥)].

---

(١) الجامع لأحكام القرآن ٢٦٠/٢٠.
(٢) التحرير والتنوير ٦٣٢/٣٠.
(٣) الجامع لأحكام القرآن ٢٦١/٢٠.
(٤) التحرير والتنوير٦٣٢/٣٠- ٦٣٣.
(٥) فتح القدير ٥٣١/٥.

٤ -وبدأ بالربوبية لأنها الأعم فتشمل كل شيء من حيوان وجماد، وهي أول ما يُسْأَل عنه ﴿ قُلْ مَن رَّبُّ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ قُلِ ٱللَّهُ ۚ قُلْ أَفَٱتَّخَذْتُم مِّن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَ لَا يَمْلِكُونَ لِأَنفُسِهِمْ نَفْعًا وَلَا ضَرًّا ۚ قُلْ هَلْ يَسْتَوِى ٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْبَصِيرُ أَمْ هَلْ تَسْتَوِى ٱلظُّلُمَـٰتُ وَٱلنُّورُ ۗ أَمْ جَعَلُوا۟ لِلَّهِ شُرَكَآءَ خَلَقُوا۟ كَخَلْقِهِۦ فَتَشَـٰبَهَ ٱلْخَلْقُ عَلَيْهِمْ ۚ قُلِ ٱللَّهُ خَـٰلِقُ كُلِّ شَىْءٍ وَهُوَ ٱلْوَٰحِدُ ٱلْقَهَّـٰرُ ﴿١٦﴾ ﴾[الرعد١٦].

ثم المُلك وهو أكثر من الإلهية وعامة الخلق مقرون بالربوبية، ولكن أشكل عليهم وألبس عندهم ملك غيره؛ حقيقة مما هو غير خارج عن ملكه سبحانه، أو توهماً كما في الأشجار والأحجار والمعبودات.

ثم الألوهية هي عقيدة خلاصة المكلفين من الإنس والجن، وهي سر إرسال الرسل قال تعالى: ﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِىٓ إِلَيْهِ أَنَّهُۥ لَآ إِلَـٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعْبُدُونِ ﴿٢٥﴾ ﴾ [الأنبياء ٢٥].

ثالثاً: فائدة تخصيص الناس بإضافة تلك الصفات:

خصص الله الربوبية والملك والإلوهية للناس مع أن الله رَبُّ كل شيء، وملك كل شيء، وإله كل شيء لمميزات وإشارات منها:

١- "استشعار قرب الله ورعايته لمن هو ربهم وملكهم وإلههم في موقف العياذ والاحتماء"[١]، وهذا يستلزم الإخلاص والصدق في تلك الاستعاذة.

٢- "إشارة إلى كل الناس بدون تخصيص جنس أو لون "[٢]، فلا يخرج شيء عن ربوبيته وملكه ولو كان كافراً أو شيطاناً ظالماً.

٣- "وكرر لفظ الناس في الثلاث مواضع: لأن عطف البيان يحتاج إلى مزية إظهار، ولأن التكرار يقتضي مزيد شرف للناس"[٣].

(١) في ظلال القرآن ٦/٤٠١٠.

(٢) التحرير والتنوير ٣٠/٦٣٣بتصرف .

(٣) فتح القدير ٥/٥٣١.

المطلب الثاني

المستعاذ منه

قال تعالى: ﴿ مِن شَرِّ ٱلۡوَسۡوَاسِ ٱلۡخَنَّاسِ ۝ ٱلَّذِى يُوَسۡوِسُ فِى صُدُورِ ٱلنَّاسِ ۝ مِنَ ٱلۡجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ ۝ ﴾

وفي هذه الجملة عدة نقاط:

أولا: يبين لنا الله سبحانه وتعالى هنا صفة هذا المستعاذ منه وهي:

١- ﴿ مِن شَرِّ ٱلۡوَسۡوَاسِ ﴾ "يعني: من شر الشيطان. والوسوسة: حديث النفس"[(١)] "وهي: الكلام الخفي، وإطلاق ﴿ ٱلۡوَسۡوَاسِ ﴾ يشمل: الشياطين التي تلقي في أنفس الناس الخواطر الشريرة، قال تعالى: ﴿ فَوَسۡوَسَ إِلَيۡهِ ٱلشَّيۡطَٰنُ ﴾ [طه ٢٠]ويشمل الوسواس: كل من يتكلم كلاماً خفياً من الناس – وهم أصحاب المكائد والمؤامرات – المقصود منها إلحاق الأذى؛ من اغتيال نفوس، أو سرقة أموال، أو إغراء بالضلال والإعراض عن الهدى. لأن شأن مذاكرة هؤلاء بعضهم مع بعض أن تكون سراً لئلا يطلع عليها من يريدون الإيقاع به"[(٢)].

٢- ﴿ ٱلۡخَنَّاسِ ﴾ : "مأخوذ من خنس، ومعناه: الاختفاء بعد الظهور، وقيل: الرجوع للوراء، والخناس مأخوذ من هذين المعنيين. كما قال ابن عباس رضي الله عنهما: (الشيطان جاثم على قلب ابن آدم فإذا ذكر الله تعالى خنس، وإذا غفل وسوس)[(٣)] أي: تأخر وأقصر، فسمي بالخناس لأنه جبان يهرب ويتوارى عند ذكر الله، "ثم إذا غفل الإنسان عاوده بالوسوسة [(٤)]. والمراد: أن الخنس صار عادة له[(٥)].

قال القرطبي: "ووصف بالخناس لأنه كثير الاختفاء، ومنه قوله تعالى: ﴿ فَلَآ أُقۡسِمُ بِٱلۡخُنَّسِ ﴾ [التكوير ١٥] يعني النجوم، لاختفائها بعد ظهورها. وقيل:لأنه يخنس إذا ذكر العبدُ الله، أي يتأخر. وقيل: سمي خناساً لأنه يرجع إذا غفل العبد عن ذكر الله"[(٦)]. "فهو يتصل بعقل الإنسان وعزمه من غير شعور منه

---

(١) الجامع لأحكام القرآن٢٠/٢٦١.

(٢) التحرير والتنوير٣٠/٦٣٣.

(٣) أخرجه ابن أبي شيبة في الصنف ٧/١٣٥ (٣٤٧٧٤) وعبد الرزاق في مصنفه ٧/١٣٥ (٣٤٧٧٤)، والحاكم في المستدرك ٢/٥٩١ (٣٩٩١) وقال الحاكم: صحيح على شرط الشيخين و لم يخرجاه. والبيهقي في شعب الإيمان ٢/١٦٩ (٦٦٦) والمقدسي في المختارة ١٠٥/٣٦٧ (٣٩٣)، وذكره البخاري تعليقاً في كتاب التفسير باب سورة الناس .

(٤) وانظر بدائع الفوائد ٢/٤٧٩ ط الباز الأولى ١٤١٦ه، وانظر التفسير القيم ٢/٣١٩.

(٥) التحرير والتنوير٣٠/٦٣٤.

(٦) الجامع لأحكام القرآن٢٠/٢٦٢.

فكأنه خنس فيه، وأهل المكر والكيد والتختل خناسون؛ لأنهم يتحيلون غفلات الناس ويتسترون بأنواع الحيل لكيلا يشعر الناس بهم"[1].

ثانياً : حدد الله تعالى عمل هذا المستعاذ منه:

﴿ ٱلَّذِى يُوَسۡوِسُ فِى صُدُورِ ٱلنَّاسِ ﴾ : "ووسوسته: هو الدعاء لطاعته بكلام خفي، يصل مفهومه إلى القلب من غير سماع صوت"[2] كما قال تعالى: ﴿ وَكَذَٰلِكَ جَعَلۡنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا شَيَٰطِينَ ٱلۡإِنسِ وَٱلۡجِنِّ يُوحِى بَعۡضُهُمۡ إِلَىٰ بَعۡضٍ زُخۡرُفَ ٱلۡقَوۡلِ غُرُورًا ﴾ [الأنعام١١٢].

وبيان العمل: "لتقريب تصوير الوسوسة كي يتقيها المرء إذا اعترته لخفائها وذلك بأن بَيّنَ أن مكان إلقاء الوسوسة هو صدور الناس وبواطنهم فعبر بها عن الإحساس النفسي"[3] قال تعالى: ﴿ فَإِنَّهَا لَا تَعۡمَى ٱلۡأَبۡصَٰرُ وَلَٰكِن تَعۡمَى ٱلۡقُلُوبُ ٱلَّتِى فِى ٱلصُّدُورِ ﴾ [الحج٤٦]، وقال تعالى: ﴿ إِن فِى صُدُورِهِمۡ إِلَّا كِبۡرٌ مَّا هُم بِبَٰلِغِيهِ ﴾ [غافر٥٦]، وقال النبي صلى الله عليه وسلم (الإثم ما حاك في الصدر وتردد في القلب)[4].

(في صدور) كل (الناس) بلا استثناء، ولكن من يستمع إليه ويصغي إليه ويعمل بوسوسته يهلك وأما من طرحه وذكر الله فقد نجا.

فالوسواس الخناس هو: "الشيطان الموكل بالإنسان، فإنه ما من أحد من بني آدم إلا وله قرين يُزَين له الفواحش"[5] وقد ثبت في الصحيح أنه: (ما منكم من أحد إلا قد وُكِل به قرينة)، قالوا: وأنت يا رسول الله؟ قال: (نعم، إلا أن الله أعانني عليه، فأسلم، فلا يأمرني إلا بخير)[6].

وعن أنس رضي الله عنه في قصة زيارة صفية رضي الله عنها النبي ﷺ وهو معتكف، وخروجه معها ليلا ليردها إلى منزلها، فلقيه رجلان من الأنصار، فلما رأيا رسول الله ﷺ أسرعا، فقال رسول الله: (على

(١) التحرير والتنوير٦٣٤/٣٠.
(٢) الجامع لأحكام القرآن٢٦٣/٢٠.
(٣) التحرير والتنوير٦٣٤/٣٠.
(٤) أخرجه مسلم كتاب البر والصلة والآداب باب تفسير البر والإثم (٢٥٥٣) .
(٥) تفسير القرآن العظيم ٥٣٩/٨.
(٦) أخرجه مسلم كتاب صفة القيامة والجنة والنار باب تحريش الشيطان وبعثه سراياه لفتنة الناس وأن مع كل إنسان قرينا (٢٨١٤).

رسلكما، إنها صفية بنت حُيي). فقالا: سبحان الله يا رسول الله!!. فقال: (إن الشيطان يجري من ابن آدم مجرى الدم، وإني خشيت أن يقذف في قلوبكما شيئًا، أو قال: شرًا)[1].

ثالثاً : حدد شخصية المستعاذ منه :

﴿ مِنَ ٱلْجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ ﴾: "﴿ مِنَ ﴾ هنا بيانية بينت ﴿ ٱلَّذِى يُوَسْوِسُ فِى صُدُورِ ٱلنَّاسِ ﴾ فهو إما صنف من الجِنَّة وهو أصله، وصنف من الناس وما هو إلا تبع وولي للصنف الأول"[2].

عن أبي ذر رضي الله عنه قال: أتيت رسول الله ﷺ وهو في المسجد، فجلست، فقال: (يا أبا ذر، هل صليت؟). قلت: لا. قال: (قم فصل). قال: فقمت فصليت، ثم جلست فقال: (يا أبا ذر تعوذ بالله من شر شياطين الإنس والجن). قال: قلت: يا رسول الله، وللإنس شياطين؟ قال: (نعم)...الحديث[3].

وجمع الله هذين الصنفين في قوله: ﴿ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِىٍّ عَدُوًّا شَيَٰطِينَ ٱلْإِنسِ وَٱلْجِنِّ يُوحِى بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ زُخْرُفَ ٱلْقَوْلِ غُرُورًا ﴾ [الأنعام١١٢].

قال الحسن: هما شيطانان، أما شيطان الجن فيوسوس في صدور الناس، وأما شيطان الإنس فيأتي علانية، وقال قتادة: إن من الجن شياطين، وإن من الإنس شياطين، فتعوذ بالله من شياطين الإنس والجن[4].

"ووجه الحاجة إلى هذا البيان خفاء ما ينجر من وسوسة نوع الإنسان، لأن الأمم اعتادوا أن يحذرهم المصلحون من وسوسة الشيطان، وربما لا يخطر بالبال أن من الوسواس ما هو شر من وسواس الشياطين، وهو وسوسة أهل نوعهم وهو أشد خطراً وهم بالتعوذ منهم أجدر؛ لأنهم منهم أقرب، وعليهم أخطر وأنهم في وسائل الضر أدخل وأقدر.

وقدم ﴿ ٱلْجِنَّةِ ﴾ على ﴿ ٱلنَّاسِ ﴾ هنا لأنهم أصل الوسواس كما علمت، بخلاف تقديم الإنس على الجن في قوله تعالى: ﴿ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِىٍّ عَدُوًّا شَيَٰطِينَ ٱلْإِنسِ وَٱلْجِنِّ ﴾ لأن خبثاء الناس أشد مخالطة للأنبياء من الشياطين، لأن الله عصم أنبياءه من تسلط الشياطين على نفوسهم قال تعالى: ﴿ إِنَّ عِبَادِى لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَٰنٌ إِلَّا مَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلْغَاوِينَ ﴿٤٢﴾ ﴾"[5] [الأعراف ٤٢].

---

(١) أخرجه البخاري كتاب بدأ الخلق باب صفة إبليس وجنوده (٢٠٣٥). ومسلم كتاب السلام باب بيان أنه يستحب لمن رؤي خاليا بامرأة وكانت زوجته أو محرما له أن يقول هذه فلانة ليدفع ظن السوء به (٢١٧٤) .

(٢) التحرير والتنوير٢٠/٦٣٥.

(٣) أخرجه النسائي في السنن كتاب الاستعاذة باب الاستعاذة من شر شياطين الإنس (٥٥٠٧)، وأحمد ١٧٨/٥رقم (٢١٥٨٦) ، مصنف وعبد الرزاق في مصنفه (٢٥٧٩) ، وضعف إسناده: الهيثمي ٣٩٥/١و٣٨٦/٨ والألباني في ضعيف النسائي(٥٥٠٧).

(٤) الجامع لأحكام القرآن٢٠/٢٦٣.

(٥) التحرير والتنوير ٦٣٥/٢٠.

رابعاً : فائدة تكرار لفظ الناس:

"وتكرير كلمة ﴿ٱلنَّاسِ﴾ في هذه الآيات المرتين الأوليين باعتبار معنى واحد لقصد تأكيد ربوبية الله تعالى وملكه وإلهيته للناس، وأما تكريره المرة الثالثة بقوله: ﴿فِي صُدُورِ ٱلنَّاسِ﴾ فهو إظهار لأجل بُعد المُعاد إليه الضمير، وأما تكريره المرة الرابعة بقوله: ﴿مِنَ ٱلْجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ﴾ فلأنه بيانٌ لأحد صنفي الذي يوسوس في صدور الناس، وذلك غير ما صدق كلمة ﴿ٱلنَّاسِ﴾ في المرات السابقة"(1).

خامساً :فائدة هذا التدرج وهذه المقدمات في ذكر شخصية المستعاذ منه :

"هذا الترتيب يثير في الحس اليقظة والتلفت والانتباه لتبين حقيقة الوسواس الخناس، بعد إطلاق صفته في أول الكلام؛ ولإدراك طريقة فعله التي يتحقق بها شره، تأهباً لدفعه أو مراقبته!

والنفس حين تعرف بعد هذا التشويق والإيقاظ أن الوسواس الخناس يوسوس في صدور الناس خفية وسراً، وأنه من الجِنَّة الخافية، وهو كذلك الناس الذين يتدسسون إلى الصدور تدسس الجِنَّة، ويوسوسون وسوسة الشياطين. إنّ النفس حين تعرف هذا تتأهب للدفاع، وقد عرفت المكمن والمدخل والطريق!"(2).

---

(1) التحرير والتنوير٢٠/٦٣٥-٦٣٦.

(2) في ظلال القرآن ٦/٤٠١١ باختصار.

المبحث الثاني

وقفات حول وسوسة شياطين الإنس والجن

أولاً: طريق معرفة وسوسة الجن:

"ووسوسة الجِنة لا ندري كيف تتم، ولكنا نجد آثارها في واقع النفوس وواقع الحياة. ونعرف أن المعركة بين آدم وإبليس قائمة؛ وأن الشيطان قد أعلنها حرباً تنبثق من خليقة الشر فيه، ومن كبريائه وحسده وحقده على الإنسان! وأنه قد استصدر بها من الله إذناً، فأذن فيها سبحانه لحكمة يراها"(1) فهو مع كل واحد منا كما قال المصطفى ﷺ: (ما منكم من أحد إلا وقد وكل به قرينه من الجن) قالوا: وإياك يا رسول الله!! قال: (وإياي إلا أن الله أعانني عليه فأسلم فلا يأمرني إلا بخير)(2).

وقد بين الله ورسوله لنا طرق إغوا ء الشيطان وفتنته، وحذرنا الشارع الحكيم منه أشد التحذير، ومن سلوك طريقه، وبين لنا ما يعصمنا من ذلك، ووعدنا بالمغفرة والتوبة لو رجعنا إلى الله سبحانه، واستعذنا من ذلك الشيطان وشر أعمالنا التي اتبعنا فيها الشيطان وإغواءه ووسوسته وتزيينه.

ثانياً: طريق معرفة وسوسة الإنس :

"وأما الناس فنعرف عن وسوستهم الشيء الكثير، فنعرف منها ما هو أشد من وسوسة الشياطين! فمن هؤلاء: رفيق السوء فهو يوسوس بالشر إلى رفيقه من حيث لا يحترس. وكذلك أعوان السوء الذين يوسوسون لكل مسؤول حتى تتركه فاسداً مفسداً. وكذلك النمام الواشي الذي يفسد بين الناس. ومروجي ومشيعي الشهوات، وغيرهم كثير وأمثلتهم في الواقع كثيرة، فهم معرفون في كلامهم وسمتهم ولباسهم، قوم قيظهم الشيطان لخدمته بل هم شر من الشيطان!!"(3).

ثالثاً : وسوسة الجن والإنس باقية إلى قيام الساعة :

وسوسة الجن والإنس معركة قائمة إلى يوم القيامة، يترقبون الغفلة من بني آدم قال تعالى: ﴿ وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُواْ لِءَادَمَ فَسَجَدُوٓاْ إِلَّآ إِبْلِيسَ قَالَ ءَأَسْجُدُ لِمَنْ خَلَقْتَ طِينًا ﴿٦١﴾ قَالَ أَرَءَيْتَكَ هَٰذَا ٱلَّذِى كَرَّمْتَ عَلَىَّ لَئِنْ أَخَّرْتَنِ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ لَأَحْتَنِكَنَّ ذُرِّيَّتَهُۥٓ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٦٢﴾ قَالَ ٱذْهَبْ فَمَن تَبِعَكَ مِنْهُمْ فَإِنَّ جَهَنَّمَ جَزَآؤُكُمْ جَزَآءً مَّوْفُورًا ﴿٦٣﴾ وَٱسْتَفْزِزْ مَنِ ٱسْتَطَعْتَ مِنْهُم بِصَوْتِكَ وَأَجْلِبْ عَلَيْهِم بِخَيْلِكَ

---

(1) في ظلال القرآن ٦/٤٠١١ باختصار .

(2) أخرجه مسلم كتاب صفة القيامة والجنة والنار باب تحريش الشيطان وبعثه سراياه لفتنة الناس وأن مع كل إنسان قرينا (٢٨١٤).

(3) في ظلال القرآن٦/٤٠١٢مختصراً .

وَرَجِلِكَ وَشَارِكْهُمْ فِي ٱلْأَمْوَٰلِ وَٱلْأَوْلَٰدِ وَعِدْهُمْ ۚ وَمَا يَعِدُهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ إِلَّا غُرُورًا ﴿٦٤﴾ إِنَّ عِبَادِى لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَٰنٌ ۚ وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ وَكِيلًا ﴿٦٥﴾ ﴾ [الإسراء ٦١-٦٥].

رابعاً : حكم حديث النفس:

إن حديث النفس من الوسوسة التي يقذفها الشيطان في قلب ابن آدم، ولذا فإن الشارع الحكيم رفع المؤاخذة عن ابن آدم في تلك الخواطر والأفكار التي قد تمر بخاطره، ولكن شرط أن لا تتحول إلى إرادة، فقد ثبت عن النبي ﷺأنه قال: (إن الله عزَّ وجلّ تجاوز لأمتي ما حدثت به أنفسها ما لم تعمل أو تتكلم به)[١].

خامساً : طريق النجاة من خطر الجن والإنس :

"إذا كان الله قد أذن لإبليس بالوسوسة، فهو لم يسلطه إلا على الذين يغفلون عن ربهم وملكهم وإلههم، فأما من يذكرونه فهم في نجوة من الشر ودواعيه الخفية قال تعالى: ﴿ إِنَّهُۥ لَيْسَ لَهُۥ سُلْطَٰنٌ عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٩٩﴾ ﴾[النحل٩٩]، فالخير إذن يستند إلى القوة التي لا قوة سواها، يستند إلى الرب الملك الإله، والشر يستند إلى وسواس خناس، يضعف عن المواجهة، ويخنس عند اللقاء ، وينهزم أمام الاستعاذة بالله. فهذه الصفة تدل من جهة على تخفيه واختبائه حتى يجد الفرصة سانحة فيدب ويوسوس. وتوحي بضعفه أمام من يستيقظ لمكره، ويحمي مداخل صدره. فهو سواء كان من الجنة أم كان من الناس إذا وُجْه خنس، وعاد من حيث أتى، وقبع واختفى. أو كما قال ابن عباس رضي الله عنهما في تمثيله المصور الدقيق: (فإذا ذكر الله تعالى خنس، وإذا غفل وسوس)[٢].

وهذا الفهم، يقوي القلب على مواجهة الوسواس، لأنه ضعيف أمام عدة المؤمن في المعركة، فهو يحمي القلب من الهزيمة، ويفعمه بالقوة والثقة والطمأنينة.

و لم يترك الله الإنسان أمام هذه الوساوس مجرداً من العدة"[٣] بل جعل الله له جُنّة بالإيمان، إذ جعله للإنسان حصناً حصيناً قال تعالى: ﴿ إِنَّ عِبَادِى لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَٰنٌ إِلَّا مَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلْغَاوِينَ ﴾ [الحجر ٤٢]. فالإيمان حصن ومنعة وسلاح، فإذا أغفل الإنسان جنته وعدته وسلاحه فهو إذن وحده الملوم.

ومن أهم شعب الإيمان التي يذهب الله بها وسوسة شياطين الإنس والجن:

١ **-الاستعاذة بالله من الشيطان الرجيم:** قال تعالى: ﴿ وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ نَزْغٌ فَٱسْتَعِذْ

---

(١) أخرجه البخاري كتاب الأيمان والنذور باب إذا حنث ناسيا (٥٢٦٩) ومسلم كتاب الإيمان باب تجاوز الله عن حديث النفس والخواطر بالقلب إذا لم تستقر (١٢٧).

(٢) تقدم تخريجه .

(٣) في ظلال القرآن ٤٠١١/٦ بتصرف واختصار .

بِٱللَّهِۚ إِنَّهُۥ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴾ [الأعراف ٢٠٠]. قال تعالى : ﴿ وَقُل رَّبِّ أَعُوذُ بِكَ مِنْ هَمَزَٰتِ ٱلشَّيَٰطِينِ ﴿٩٧﴾ وَأَعُوذُ بِكَ رَبِّ أَن يَحْضُرُونِ ﴿٩٨﴾ ﴾ [المؤمنون ٩٧-٩٨].

٢ - **ذكر الله تعالى:** قال تعالى : ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْاْ إِذَا مَسَّهُمْ طَٰٓئِفٌ مِّنَ ٱلشَّيْطَٰنِ تَذَكَّرُواْ فَإِذَا هُم مُّبْصِرُونَ ﴾ [الأعراف ٢٠١]. وعن معاذ بن جبل رضي الله عنه قال: عَثَر بالنبي ﷺ حمارُهُ، فقلت: تَعِس الشيطان. فقال النبي ﷺ: (لا تقل: تعس الشيطان؛ فإنك إذا قلت: تعس الشيطان، تعاظَم. وقال: بقوتي صرعته، وإذا قلت: بسم الله، تصاغر حتى يصير مثل الذباب)[1].

٣ - **الصلة الدائمة بالله عز وجل** : باللسان والجنان والعمل وهو حقيقة الذكر . . فعن ابن عباس رضي الله عنهما قال: (الشيطان جاثم على قلب ابن آدم فإذا ذكر الله تعالى خنس، وإذا غفل وسوس)[2].

٤ - **ذكر الله تعالى ودعاؤه والاستعاذة به** : عن خولة بنت حكيم السلمية قالت: سمعت رسول الله ﷺ يقول: (من نزل منزلا ثم قال أعوذ بكلمات الله التامات من شر ما خلق لم يضره شئ حتى يرتحل من منزله ذلك)[3].

٥ - **النفث:** قال النبي ﷺ (الرؤيا الصالحة من الله والحلم من الشيطان فمن رأى شيئا يكرهه فلينفث عن شماله ثلاثا وليتعوذ من الشيطان فإنها لا تضره)[4].

---

(١) أخرجه أبو داود في سننه كتاب باب ٨٥ رقم (٤٩٨٢)، وأحمد ٥/٥٩ (٢٠٦١٠)، وصححه الألباني في صحيح الترغيب والترهيب (٣١٢٨).

(٢) تقدم تخريجه .

(٣) أخرجه مسلم كتاب الذكر والدعاء والتوبة والاستغفار باب في التعوذ من سوء القضاء ودرك الشقاء وغيره (٢٧٠٨).

(٤) أخرجه البخاري كتاب التعبير باب من رأي النبيﷺ في منامه(٦٩٩٥)، صحيح مسلم كتاب الرؤيا باب ١ (٢٢٦١).

الخاتمة

الحمد رب العالمين، والصلاة والسلام على نبينا الأمين، محمد ﷺ وعلى من استن بسنته واقتدى بهديه إلى يوم الدين، وبعد:

إنَّ القرآن الكريم كما وصفه الله ﴿ قُلْ نَزَّلَهُۥ رُوحُ ٱلْقُدُسِ مِن رَّبِّكَ بِٱلْحَقِّ لِيُثَبِّتَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَهُدًى وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ ﴿١٠٢﴾ ﴾ [النحل ١٠٢] وقال تعالى: ﴿ وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا ۚ مَا كُنتَ تَدْرِى مَا ٱلْكِتَٰبُ وَلَا ٱلْإِيمَٰنُ وَلَٰكِن جَعَلْنَٰهُ نُورًا نَّهْدِى بِهِۦ مَن نَّشَآءُ مِنْ عِبَادِنَا ۚ وَإِنَّكَ لَتَهْدِىٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٥٢﴾ ﴾[الشورى ٥٢]

فهو بلا شك منهج كامل شامل لجميع شؤون الحياة، ويقود إلى حياة أخروية فيها السعادة والهناء، والرضا بفضل بديع الأرض والسماوات.

إنَّه العقيدة والعبادة، والتعامل والأخلاق، وهو العلم والعمل، وفيه الصبر والرضا، وغير ذلك من شؤون الحياة، علمنا ذلك من خلال عرضنا لهذه السور العظيمة، التي خاطبت العقول والقلوب، خاطبت المؤمنين والكافرين، وحاجّت المنكرين المستكبرين، وربت العقلاء المتفكرين في آيات رب العالمين.

نخرج من هذه السور بعد عرض جوانب منها، بفوائد جمة، وأخلاق متعددة، وحجج مقنعة، وآيات باهرة، وحِكَمٍ متميزة.

وقد تبين من خلال عرض آيات هذه السور النتائج والتوصيات الإجمالية التالية:

النتائج:

١ نبه الله تعالى في هذه السور على أخلاق هي عماد الأخلاق، ومنها تنبثق وتترتب عليها جميع الفضائل والمحامد، فلنتأمل في هذه الأخلاق: خُلُق الشكر، وحماية حمى التوحيد، وإقامة الصلاة، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، والصبر، وبذل المعروف ، وكفِّ الأذى ، وإتِّباع الهدى.

٢ –هذه الأخلاق هي أخلاق لا إله إلا الله، أخلاق التوحيد، وهي أخلاق العبادة، فإنك ترى أن الله تعالى ضمن آياته: الأمر بالتوحيد وهو عقيدة، والشكر والصلاة وهما عبادة، ليبين لنا أن هذه أخلاق أيضاً ولا تتم على أكمل وجه إلا إذا تمت الأخلاق، فلنتأمل هذه الأخلاق وتناسقها في الآيات لنرى ترابطها وشمولها وأهميتها.

٣ بيَّن الله تعالى في هذه السور أسس التوحيد، بحجة ظاهرة، يخاطب فيها العقول والقلوب، عن طريق بيان قدرته وعظمته ونعمته واستحقاقه بذلك للعبادة وحده لا شريك له.

٤ ربط الخالق عباده بالإيمان بالغيب الذي يجعلهم يطبقون ما تعلموه من هذه الآيات، فالجزاء والحساب هو الحافز على العمل والاجتهاد، والخسران والبوار في ترك ما شرعه.

٥ أظهر الربُّ للمكلفين أنَّ الجزاء والحساب غيب، ينبهنا عليه ربنا ولا نعلم كنهه وكيفيته إلا بما أخبرنا الله به وأخبرنا به رسوله ﷺ، لأن عقولنا الضعيفة الضيقة لا تستطيع الإلمام بهذا الغيب وكنهه، ولكن نحن مطالبون بالعمل، ولسنا مطالبون بمعرفة الغيب.

٦ أن من خلق الله من يتأثر بآيات الله فيكون التأثر واضحاً على جميع تصرفاته، وشخصيته الإسلامية متميزة عن أي شخصية أخرى، وتجعل لهم قيمة عند الخلق وقبل ذلك عند الخالق جل وعلا.

٧ أن الذين لا يتأثرون بآيات الله، ولا يقيمون لها اعتباراً، ويستبدلونها بكل ما يبعدهم عن هديها، فأولئك ليس لهم قيمة نافعة في مجتمع الحياة ، ولا في آخرتهم.

٨ عظم إعجاز القرآن في أسلوبه وترتيبه ومضمونه ، يتضح ذلك من أوجه التناسب بين قصار السور. **وأن كتاب الله قد حوى على إيجاز ألفاظه سعادة الدنيا وراحتها ، وسعادة الآخرة ونعيمها.**

٩ أنَّ النبي صلى الله عليه وسلم هو القدوة العملية في كل شؤون الحياة ، وهذا يتضح بجلاء في معاني تلك السور وألفاظها. وأن أعظم أسباب الثبات في الملمات والمهام الجسام هو حسن الاقتداء والسير على أثر الحبيب صلى الله عليه وسلم فهو القائد لمصلحة الدنيا والدين .

التوصيات:

١.

٢. من أراد أن يوجه الناس ويرشدهم إلى دين الله تعالى ، فعليه أن يبدأ بإصلاح القلوب ، وإزالة ما فيها من شوائب الاعتقادات، وتعليق تلك القلوب بخالقها جل وعلا ، لكي يسهل بعد ذلك عليها تقبل الأوامر والنواهي ، والالتزام بذلك.

٣.

٤.

٥.

٦.

٧.

هذا باختصار شديد أهم ما وصلت إليه في ما تحدثت عنه الآيات وركزت عليه وعلى بيانه، فما كان في عملي هذا من صواب فمن الله وحده، وما كان فيه من خطأ فمني ومن الشيطان،

وأسأل الله تعالى أن يعلمنا ما ينفعنا، وأن يلهمنا العلم النافع والعمل الصالح، وأن يجبر تقصيرنا ويعفو عن خطأنا.

كما أسأله سبحانه أن يجزي خيراً كل من ساعدني في هذا البحث أو أسدى إلي نصيحة، أو صحح لي معلومة، أو ساعدني على استخراجها.

كما أسأله سبحانه أن يكون هذا العمل خالصاً لوجهه الكريم، وأن يبارك في صوابه، وأن ينفع به كل طالب للحق وللطريق المستقيم.

وصلى الله وسلم على نبينا محمد وعلى آله وصحبه وسلم.

ثبت المراجع

١ -الإبطال لنظرية الخلط بين دين الإسلام وغيره من الأديان- تأليف الشيخ بكر بن عبدالله أبو زيد- دار العاصمة الرياض-ط١(١٤٢١هــ).

٢ -الإتقان في علوم القرآن – جلال الدين السيوطي- دار التراث- القاهرة .

٣ -الأحاديث المختارة- الحافظ أبوعبدالله محمد بن عبدالواحد بن أحمد الحنبلي المقدسي المشهور بالضياء المقدسي-تحقيق: عبدالملك بن عبدالله بن دهيش- مكتبة النهضة الحديثة - مكة المكرمة ط ١ – (١٤١٠هــ).

٤ -أحكام الجنائز وبدعها - للمحدِّث محمّد ناصر الدّين الألباني، الطبعة (٤ت)، المكتب الإسلامي، بيروت ١٤٠٦هــ.

٥ -أحكام القرآن – محمد بن عبدالله المعروف بابن العربي – تحقيق : على بن محمد البجاوي – دار المعرفة – بيروت .

٦ -أحكام القرآن- أحمد بن علي الرازي الجصاص أبو بكر- دار إحياء التراث العربي - بيروت ، (١٤٠٥هــ)- محمد الصادق قمحاوي .

٧ -إحياء علوم الدين – أبو حامد الغزالي – دار المعرفة – بيروت .

٨ -أدب الدنيا والدين، علي بن محمد الماوردي تحقيق مصطفى السقا - الطبعة الرابعة - بيروت : دار الكتب العلمية ١٣٩٨ه/١٩٧٨م.

٩ -الأدب المفرد – محمد بن إسماعيل البخاري- دار الصدّيق- الطبعة : ط١: ١٤٢١هــ.

١٠ إرشاد العقل السليم إلى مزايا القرآن الكريم - محمد بن محمد العمادي أبو السعود - دار إحياء التراث العربي – بيروت .

١١ إرواء الغليل في تخريج أحاديث منار السبيل- محمد ناصر الدين الألباني- نشر: المكتب الإسلامي – بيروت-ط٢ (١٤٠٥هــ- ١٩٨٥م).

١٢ أسباب نزول القرآن – على بن أحمد الواحدي- دار القبلة – ط٢(١٤٠٤هــ).

١٣ الاستقامة، لابن تيمية، تحقيق الدكتور محمد رشال سالم، ط. جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية، الرياض، ١٤٠٤/ ١٩٨٣.

١٤ أسرار ترتيب القرآن- عبدالرحمن بن أبي بكر بن محمد السيوطي أبو الفضل – تحقيق : عبدالقادر أحمد عطا دار الاعتصام - القاهرة

١٥ الأصول الثلاثة وأدلتها للشيخ محمد بن عبد الوهاب، الناشر: مكتبة دار البيان، دمشق، بدون رقم طبعة، ١٣٨٧هــ-١٩٦٧م.

١٦ إعراب القرآن : لأبي جعفر أحمد بن محمد بن إسماعيل النحّاس ، تحقيق : الدكتور زهير غازي زاهد ، طبعة عالم الكتب - بيروت ، الطبعة الثانية ١٤٠٩ هــ .

١٧ إغاثة اللهفان من مصائد الشيطان - محمد بن أبي بكر أيوب الزرعي أبو عبدالله- تحقيق: محمد حامد الفقي - دار المعرفة – بيروت - الطبعة الثانية (١٣٩٥هــ) .

١٨ الإقناع في القراءات السبع – أحمد بن علي بن الباذش – تحقيق: د. عبدالمجيد قطامش – مكة المكرمة – مركز البحث العلمي بجامعة أم القرى- ١٤٠٣هـ.
١٩ أمثال القرآن – محمد بن أبي بكر أيوب الزرعي أبو عبدالله –دراسة وتحقيق : ناصر بن سعد الرشيد ، مطابع الصفا ، مكة المكرمة ، المملكة العربية السعودية ، الثانية ، ١٤٠٢ هـ /١٩٨٢م
٢٠ إملاء ما منَّ به الرحمن من وجوه الإعراب والقراءات في جميع القرآن- أبوالبقاء عبدالله بن الحسين بن عبدالله العكبري- تصحيح وتحقيق: إبراهيم عطوة عوض- مطبعة مصطفى البابي الحلبي وأولاده بمصر -الطبعة الثانية- ١٣٨٩هـ-١٩٦٩م.
٢١ أنوار التتريل وأسرار التأويل – المشهور بـ(تفسير البيضاوي)، لأبي الخير عبد الله بن عمر البيضاوي- دار الفكر، ١٤٠٢هـ.
٢٢ أنوار التتريل وأسرار التأويل – تفسير البيضاوي : ط : مصطفى البابي الحلبي – القاهرة – ١٣٨٨ هـ – ١٩٦٨ م.
٢٣ الأوائل – للعسكري الحسن بن عبدالله بن سهل العسكري ت٣٩٥هـ- دار الكتب العلمية – بيروت – لبنان – الطبعة الأولى ١٤٠٧هـ – ١٩٨٧م.
٢٤ إيجاز البيان في سور القرآن- محمد بن علي الصابوني-مكتبة الغزالي – الطبعة الثانية ١٣٩٩هـ ١٩٧٩م.
٢٥ أيسر التفاسير لكلام العلي الكبير- أبو بكر الجزائري : جابر بن موسى بن عبدالقادر بن جابر – مكتبة العلوم والحكم- المدينة المنورة- السعودية-ط٥- (١٤٢٤هـ/٢٠٠٣م).
٢٦ الإيمان – شيخ الإسلام أحمد بن عبدالحليم بن تيمية، تحقيق: عصام الدين الصبابطي، الناشر : دار الحديث، القاهرة، ط الأولى ١٤١٤هـ-١٩٩٣م.
٢٧ الإيمان أولاً لو كانوا يعلمون- مقالة من إعداد: أبي عبد الرحمن هشام بن فهمي العارف المقدسي – نشرتها جريدة القدس العدد ١١٧٧٢ تاريخ ١٤٢٣/٣/١٩ الموافق ٢٠٠٢/٥/٣١م ، ونشرها في كتاب كلمات في الدعوة والمنهاج (نور على الدرب) – سلسلة اقرأ (١) – منشورات الدعوة السلفية كتاب رقم (٧٧) .
٢٨ الإيمان حقيقته، خوارمه، نواقضه عند أهل السنة والجماعة- عبدالله بن عبدالحميد الأثري- تقديم : د.عبد الرحمن بن صالح المحمود.
٢٩ بحر العلوم ـ أبو الليث نصر بن محمد بن إبراهيم السمرقندي الفقيه الحنفي- تحقيق : د.محمود مطرجي-نشر دار الفكر – بيروت.
٣٠ البحر المحيط – محمد بن يوسف أبي حيان الأندلسي – دار الفكر – بيروت ط٢(١٤٠٣هـ).
٣١ بدائع التفسير- ابن القيم: محمد بن أبي بكر أيوب الزرعي أبو عبدالله – جمع وتحقيق: يسري محمد- دار ابن الجوزي- الدمام – ط١(١٤١٤).

٣٢ بدائع الفوائد- ابن القيم: محمد بن أبي بكر أيوب الزرعي أبو عبدالله - تحقيق : هشام عبدالعزيز عطا ، عادل عبدالحميد العدوي ، أشرف أحمد الحج - مكتبة نزار مصطفى الباز - مكة المكرمة-ط ١ (١٤١٦هـ ١٩٩٦م).
٣٣ بداية الهداية وتهذيب النفوس بالآداب الشرعية- أبو حامد محمد بن محمد بن محمد بن احمد الغزالي- مطبعة محمد شاهين- القاهرة.
٣٤ البداية والنهاية — الحافظ ابن كثير الدمشقي — دار الكتب العلمية — بيروت — ط٣(١٤٠٧هـ).
٣٥ بصائر ذوي التمييز في لطائف الكتاب العزيز، لمحمد بن يعقوب الفيروزآبادي تحقيق محمد علي النجار، المكتبة العلمية ــ بيروت.
٣٦ بغية الطلاب من موضوعات سورة الأحزاب -دراسة موضوعية- د.محمد بن عبدالعزيز العواجي- دار طيبة الخضراء - مكة المكرمة ط١ (١٤٣٠هـ).
٣٧ بينات الرسول ومعجزاته — عبدالمجيد بن عزيز الزنداني — مركز البحوث بجامعة الإيمان باليمن- صنعاء — الطبعة الثانية ١٤٢٤هـ ٢٠٠٤م.
٣٨ تاج العروس من جواهر القاموس ، محمد مرتضى الزبيدى ، المطبعة الخيرية القاهرة سنة ١٣٠٦ هـ .
٣٩ تاريخ أبي سعيد هاشم بن مرثد الطبراني عن أبي زكريا يحيى بن معين المتوفى سنة ٢٣٣هـ ، تحقيق : نظر محمد الفاريابي - الطبعة الأولى ١٤١٠هـ.
٤٠ التاريخ الإسلامي مواقف وعبر- د.عبدالعزيز بن عبدالله الحميدي- دار الدعوة- الإسكندرية- ط ١ (١٤١٨هـ).
٤١ تاريخ الرسل والملوك ، لأبى جعفر محمد بن جرير الطبري ، تحقيق أبو الفضل إبراهيم ، طبعة دار المعارف القاهرة سنة ١٣٨٣ هـ ١٩٦٤م .
٤٢ تاريخ دمشق — على بن العسن بن هبة الله الشافعي المعروف بابن عساكر — دار الفكر بيروت- ط(١٤١٥هـ) .
٤٣ التبيان في إعراب القرآن - لأبي البقاء محب الدين عبدالله بن أبي عبدالله الحسين بن أبي البقاء عبد الله بن الحسين العكبري. تحقيق : علي محمد البجاوي. ط : عيسى الحلبي - القاهرة - ١٣٩٦ هـ .
٤٤ التحرير والتنوير — ابن عاشور — الدار التونسية للنشر — تونس- ١٩٨٤م.
٤٥ تحفة الأحوذي بشرح جامع الترمذي- محمد عبد الرحمن بن عبد الرحيم المباركفوري أبو العلا — دار الكتب العلمية — بيروت .
٤٦ تذكرة السامع والمتكلم في أدب العالم والمتعلم - بدر الدين محمود إبراهيم ابن جماعة الكناني الحموي المصري ، بيروت ، دار الكتب العلمية .
٤٧ الترغيب والترهيب- لزكي الدين عبدالعظيم بن عبدالقوي المنذري- - مكتبة دار التراث- القاهرة.
٤٨ التعريفات - للشريف الجرجاني مكتبة لبنان - بيروت سنة١٩٧٨م .
٤٩ تفسير الخازن المسمى (لباب التأويل في معاني التنزيل) — الخازن: علاء الدين علي بن محمد بن إبراهيم البغدادي - دار الفكر - بيروت - لبنان —(١٣٩٩ هـ١٩٧٩م).

٥٠ تفسير السراج المنير ــ المؤلف: شمس الدين محمد بن أحمد الشربيني- دار الكتب العلمية ــ بيروت.

٥١ تفسير السور القصار - جمال الهميلي – مذكرة مرقومة بالحاسب.

٥٢ تفسير الفخر الرازي – المشتهر بالتفسير الكبير ومفاتيح الغيب – فخر الدين الرازي- دار الفكر- بيروت – ط٣(١٤٠٥هـ).

٥٣ تفسير القرآن العزيز- ابن أبي زمنين: محمَّد بن عبدالله- تحقيق: أبو عبدالله حسين بن عكاشة ومحمَّد بن مصطفى الكنز - الفاروق الحديثة للنشر- القاهرة- ط١- ١٤٢٣هـ، ٢٠٠٢م.

٥٤ تفسير القرآن العظيم – إسماعيل بن عمر بن كثير القرشي – تحقيق سامي بن محمد السلامة – دار طيبة للنشر والتوزيع – ط١ (١٤١٨هـ-١٩٩٧مـ).

٥٥ تفسير القرآن العظيم- عبدالرحمن بن أبي حاتم الرازي- تحقيق: أسعد محمد الطيب- مكتبة نزار مصطفي الباز – مكة المكرمة- ط١(١٤١٧هـ).

٥٦ التفسير القرآني للقرآن - تأليف : د. عبدالكريم الخطيب - نشر : دار الفكر العربي – القاهرة – ١٩٧٠م .

٥٧ التفسير القيم، محمد بن أبي بكر الشهير بابن قيم الجوزية- جمع: محمد أويس الندوي، تحقيق: محمد حامد الفقي، طبع دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ١٣٩٨هـ.

٥٨ التفسير الميسر- عدد من أساتذة التفسير تحت إشراف الدكتور عبدالله بن عبدالمحسن التركي- موقع مجمع الملك فهد لطباعة المصحف الشريف.

٥٩ التفسير الوسيط- د.محمد سيد طنطاوي- نشر مطبعة السعادة – القاهرة - الطبعة الثالثة ١٤١٠هـ/١٩٩٠م.

٦٠ تفسير جزء عم (تفسير القرآن الكريم) –محمد بن صالح العثيمين – اعتنى به: فهد بن ناصر السليمان –دار الثريا للنشر- الطبعة الثانية ١٤٢٣هـ ٢٠٠٢م.

٦١ تفسير سورة العصر – عبدالعزيز بن عبدالفتاح القارئ- مكتبة الدار – المدينة المنورة – الطبعة الأولى ١٤١٤هـ.

٦٢ تفسير سورة الناس - محمد بن عبدالوهاب – تحقيق: د. فهد بن عبدالرحمن الرومي – نشر مجلة البحوث الإسلامية- دار الإفتاء بالرياض.

٦٣ تلخيص الحبير في أحاديث الرافعي الكبير- أحمد بن علي بن حجر أبو الفضل العسقلاني- تحقيق: السيد عبدالله هاشم اليماني المدني - المدينة المنورة (١٣٨٤هـ - ١٩٦٤م).

٦٤ التمهيد لما في الموطأ من المعاني والأسانيد - أبو عمر يوسف بن عبد الله بن عبد البر النمري - وزارة عموم الأوقاف والشؤون الإسلامية - المغرب ، (١٣٨٧هـ)- تحقيق : مصطفى بن أحمد العلوي ،محمد عبد الكبير البكري .

٦٥ تهذيب الأسماء واللغات- أبو زكريا محي الدين بن شرف النووي - دار الكتب العلمية - بيروت.

٦٦ تهذيب اللغة - أبو منصور محمد بن أحمد الأزهري - مطبعة الدار المصرية للتأليف والنشر والترجمة- القاهرة - سنة ١٩٦٦م .

٦٧ تهذيب تاريخ دمشق: علي بن الحسين بن هبة الله المعروف بابن عساكر، هذبه ورتبه: عبد القادر بدران، الطبعة الثانية، دار المسيرة، بيروت ١٣٩٩هـ - ١٩٧٩م.
٦٨ تيسير العزيز الحميد - سليمان بن عبد الله بن عبد الوهاب.
٦٩ تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان – عبدالرحمن بن ناصر السعدي – تحقيق: د. عبدالرحمن بن معلا اللويحق- مؤسسة الرسالة – بيروت – ط١(١٤١٦هـ- ١٩٩٦م).
٧٠ تيسير اللطيف المنان في خلاصة تفسير القرآن- عبد الرحمن بن ناصر السعدي – طبع ونشر وزارة الشؤون الإسلامية والأوقاف والدعوة والإرشاد – السعودية – ط١- ١٤٢٢هـ.
٧١ جامع الأصول جامع الأصول في أحاديث الرسول: مجد الدين أبو السعادات المبارك بن محمد بن الأثير الجزري، تحقيق عبد القادر الأرناؤوط، (الطبعة بدون)، مكتبة الحلواني، مطبعة الملاح، مكتبة دار البيان، ١٣٩١هـ - ١٩٧١م.
٧٢ جامع البيان عن تفسير آي القرآن – محمد بن جرير الطبري – تحقيق د.عبدالله بن عبدالمحسن التركي – مركز البحوث والدراسات الإسلامية – القاهرة -ط١ (١٤٢٢هـ ٢٠٠١مـ).
٧٣ جامع الترمذي – محمد بن عيسى الترمذي - بيت الأفكار الدولية للنشر والتوزيع – الرياض – (١٤١٩هـ١٩٨٩م)- اعتناء فريق بيت الأفكار الدولية.
٧٤ الجامع لأحكام القرآن – محمد بن أحمد الأنصاري القرطبي – دار الكتاب العربي.
٧٥ الجواب الكافي – ابن القيم الجوزية – دار الكتاب العربي بيروت- ط٢-١٤١٤هـ.
٧٦ الجواب الكافي لمن سأل عن الدواء الشافي (الداء والدواء) - محمد بن أبي بكر أيوب الزرعي أبو عبد الله- دار الكتب العلمية – بيروت .
٧٧ الجواهر الحسان في تفسير القرآن(تفسير الثعالبي) - لابن مخلوف الثعالبي - مؤسسة الأعلمي للمطبوعات - بيروت .
٧٨ حاشية ابن القيم على سنن أبي داود - محمد بن أبي بكر بن قيم الجوزية- دار الكتب العلمية – بيروت - الطبعة الثانية ، ١٤١٥هـ.
٧٩ حاشية الأصول الثلاثة - تأليف: عبدالرحمن بن محمد بن قاسم الحنبلي النجدي – نشر: دار الزاحم - الطبعة الثانية ١٤٢٣هـ-٢٠٠٢م .
٨٠ حاشية الدسوقي على الشرح الكبير - محمد عرفة الدسوقي – نشر: دار الفكر للطباعة والنشر .
٨١ حاشية العدوي على الرسالة- علي العدوي- مطبوع مع شرح الخرشي- نشر: دار الكتاب الإسلامي لإحياء ونشر التراث الإسلامي- القاهرة - مصر.
٨٢ الحجة للقراء السبعة - أبو علي الحسن بن عبدالغفار الفارسي - تحقيق: بدر الدين قهوجي و بشير جويجاتي - دمشق - دار المأمون.
٨٣ حلية الأولياء وطبقات الأصفياء- أبو نعيم أحمد بن عبدالله الأصبهاني - دار الكتاب العربي – بيروت- ط٤ (١٤٠٥هـ).

٨٤ الدر المنثور في التفسير بالمأثور – لجلال الدين السيوطي – تحقيق د.عبدالله بن عبدالمحسن التركي – مركز هجر للبحوث والدراسات الإسلامية والعربية – القاهرة – ط١(١٤٢٤هـ– ٢٠٠٣مـ).
٨٥ درء تعارض العقل والنقل، لابن تيمية، تحقيق د.محمد رشاد سالم، مكتبة ابن تيمية – القاهرة.
٨٦ دراسات قرآنية – محمد قطب – دار الشروق– القاهرة –ط٨(١٤٢٥).
٨٧ الدرر السنية في الأجوبة النجدية ــ جمع الشيخ عبد الرحمن بن محمد بن قاسم ــ ط المكتب الإسلامي بيروت من مطبوعات دار الإفتاء بالمملكة العربية السعودية وقد طبع بأمر جلالة الملك فيصل - ط الثانية عام ١٣٨٥هـ.
٨٨ دلائل النبوة ومعرفة أحوال صاحب الشريعة، للحافظ أبي بكر أحمد البيهقي، تحقيق عبد المعطي قلعجي، دار الكتب العلمية، بيروت -ط١، (١٤٠٥هـ).
٨٩ دلائل النبوة، أبو نعيم الأصفهاني، تحقيق: محمد رواس قلعجي، وعبد البر عباس، ط ٢.، بيروت، دار النفائس، ١٤٠٦ هـ/ ١٩٨٦ م.
٩٠ الديباج على مسلم- الحافظ عبدالرحمن بن أبي بكر السيوطي - حقق أصله وعلق عليه: أبو اسحق الحويني الاثري- دار ابن عفان للنشر والتوزيع المملكة العربية السعودية الخبر-ط١ (١٤١٦ هـ ١٩٩٦م)
٩١ ديوان الشافعي ، صححه وقدم له الدكتور إحسان عباس ، ط١ ، دار صادر ، بيروت ، ١٩٩٦م.
٩٢ الرحيق المختوم : صفي الرحمن المباركفوري - الجامعة السلفية - مكتبة دار السلام - الرياض ٤١٤١هـ - ٤٩٩١م.
٩٣ روح البيان- (تفسير حقي) - للبروسوى إسماعيل حقى البروسوى ــ ط دار الفكر بدون تاريخ.
٩٤ روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني – شهاب الدين محمود الألوسي البغدادي- دار الفكر- بيروت – ط٣-١٤٠٣.
٩٥ الروض الأنف في شرح السيرة النبوية لابن هشام- السهيلي- دار الكتب الحديثة- (ط١٣٨٧هـ).
٩٦ رياض الصالحين- الإمام النووي- المكتب الإسلامي – بيروت - تحقيق : تحقيق: محمد ناصر الدين الألباني.
٩٧ زاد المسير في علم التفسير – عبد الرحمن بن على الجوزي- المكتب الإسلامي – بيروت- ط٤(١٤٠٧هـ- ١٩٨٧م).
٩٨ زاد المعاد في هدي خير العباد – ابن القيم: محمد بن أبي بكر أيوب الزرعي أبو عبدالله - تحقيق: شعيب الأرناؤوط - عبدالقادر الأرناؤوط- مؤسسة الرسالة- بيروت، ومكتبة المنار الإسلامية – الكويت- ط١٤ (١٤٠٧هـ ١٩٨٦م).
٩٩ زوائد عبدالله بن احمد بن حنبل في المسند مع دراسة عن الإمام عبدالله وجهوده في خدمه السنة - د.عامر حسن صبري- دار البشائر الإسلامية- بيروت -١٤١٠هـ ١٩٩٠م.
١٠٠ -الزواجر عن اقتراف الكبائر - ابن حجر الهيثمي - تحقيق مركز الدراسات والبحوث بمكتبة نزار مصطفى الباز - نشر المكتبة العصرية - لبنان - صيدا – بيروت- ١٤٢٠هـ - ١٩٩٩م

١٠١ –سبل الهدى والرشاد في سيرة خير العباد (السيرة الشامية) – محمد بن يوسف الصالحي الشامي– تحقيق: مصطفى عبدالواحد – نشر وزارة الأوقاف المصرية، المجلس الأعلى للشئون الإسلامية– لجنة إحياء التراث الإسلامي– القاهرة (١٤١٤هـ ١٩٩٣م).

١٠٢ –سلسلة أعمال القلوب – محمد المنجد – دار الضياء – القاهرة – ط١(١٤٢٤هـ).

١٠٣ –سلسلة الأحاديث الصحيحة – محمد ناصر الدين الألباني– المكتب الإسلامي – بيروت – ط٤(١٤٠٥هـ-١٩٨٥مـ).

١٠٤ –سنن ابن ماجة – محمد بن يزيد ابن ماجة القزويني – بيت الأفكار الدولية للنشر والتوزيع – الرياض – (١٤١٩هـ١٩٨٩م)– اعتناء فريق بيت الأفكار الدولية.

١٠٥ –سنن أبي داود – سليمان بن الأشعث السجستاني – بيت الأفكار الدولية للنشر والتوزيع – الرياض – (١٤١٩هـ١٩٨٩م)– اعتناء فريق بيت الأفكار الدولية.

١٠٦ –سنن الدارمي : عبدالله بن عبدالرحمن بن الفضل بن بهرام الدارمي، (الطبعة بدون)، دار الكتب العلمية، بيروت لبنان، (التاريخ بدون).

١٠٧ –السنن الكبرى – النسائي: أحمد بن شعيب أبو عبدالرحمن النسائي– تحقيق: د.عبدالغفار سليمان البنداري، سيد كسروي حسن – دار الكتب العلمية – بيروت – ط١ (١٤١١هـ ١٩٩١م).

١٠٨ –السنن الكبرى– البيهقي: أحمد بن الحسين بن علي بن موسى أبو بكر البيهقي– تحقيق: محمد عبدالقادر عطا – مكتبة دار الباز – مكة المكرمة – (١٤١٤هـ ١٩٩٤م).

١٠٩ –السنن الكبرى:أبو بكر أحمد بن الحسين بن علي البيهقي، الطبعة الأولى، مطبعة مجلس دائرة المعارف العثمانية بالهند، حيدر آباد الدكن،١٣٤٧هـ.سنن البيهقي

١١٠ –سنن النسائي – أحمد بن شعيب النسائي – بيت الأفكار الدولية للنشر والتوزيع – الرياض – (١٤١٩هـ-١٩٨٩مـ)– اعتناء فريق بيت الأفكار الدولية .

١١١ –السيرة النبوية – ابن كثير: الإمام أبي الفداء إسماعيل– تحقيق مصطفى عبدالواحد– دار الفكر– بيروت، لبنان– ط٢ (١٣٩٨هـ).

١١٢ –السيرة النبوية – ابن هشام – تحقيق مصطفى السقا– مؤسسة علوم القرآن (دمشق بيروت)– دار القبلتين للثقافة الإسلامية – جدة.

١١٣ –السيرة النبوية – ابن هشام: عبدالملك بن هشام بن أيوب الحميري المعافري أبو محمد– تحقيق طه عبد الرءوف سعد– نشر دار الجيل– بيروت – (١٤١١هـ)

١١٤ –السيرة النبوية – الذهبي: محمد بن أحمد – تحقيق: حسام الدين القدسي– مكتبة الهلال– بيروت.

١١٥ –السيرة النبوية – الندوي: أبو الحسن علي الحسني الندوي – دار الشروق – جدة– ط٣ (١٤٠١ هـ).

١١٦ –السيرة النبوية الصحيحة – أكرم ضياء العمري – مكتبة العبيكان– الرياض– ط٣(١٤١٨هـ).

١١٧ –السيرة النبوية عرض وقائع وتحليل أحداث – على محمد الصلابي – مكتبة الصحابة – الشارقة – ط١(١٤٢٢هـ).

١١٨ -السيرة النبوية -لابن كثير - أبي الفداء إسماعيل بن كثير - تحقيق مصطفى عبدالواحد - دار المعرفة للطباعة والنشر والتوزيع- بيروت — لبنان.

١١٩ -السيرة النبوية لأبي حاتم البستي، مؤسسة الكتب الثقافية، بيروت ط١ (١٤٠٧هـ - ١٩٨٧م).

١٢٠ -السيرة النبوية لأبي محمد عبدالملك بن هشام الحميري النحوي. مع شرح أبي ذر الخشني. تحقيق: د.همام عبدالرحيم سعيد ومحمد عبدالله أبو صعيلك- مكتبة المنار- ط١ (١٤٠٩هـ).

١٢١ -السيرة النبوية، دراسة تحليلية، محمد أبو فارس ، دار الفرقان، عمان- الطبعة الأولى ١٤١٨هـ- ١٩٩٧م.

١٢٢ -سيرة خاتم النبيين للأطفال-الندوي: أبو الحسن علي الحسني الندوي- القاهرة- دار الكلمة١٩٩٨،

١٢٣ -شرح البخاري لابن بطال - أبو الحسن علي بن خلف بن عبدالملك بن بطال البكري القرطبي- مكتبة الرشد السعودية / الرياض - ١٤٢٣هـ - ٢٠٠٣م- الطبعة: الثانية.

١٢٤ -شرح القواعد الفقهية - الشيخ أحمد بن محمد الزرقاء ــ دار القلم - دمشق - الطبعة الثانية ١٤٠٩ هـ.

١٢٥ -الشَّرح الممتع على زاد المستقنع -—محمد بن صالح العثيمين — بإشراف مؤسسة الشيخ محمد بن صالح العثيمين الخيرية -دار ابن الجوزي للنشر- السعودية -الدمام- الطبعة الأولى ١٤٢٢هـ ٢٠٠١م.

١٢٦ -شرح زاد المستقنع- محمد المختار الشنقيطي- مذكرة .

١٢٧ -شرح سنن ابن ماجه - السيوطي ، عبدالغني فخر الحسن الدهلوي - قديمي كتب خانة — كراتشي.

١٢٨ -شرح نونية ابن القيم (توضيح المقاصد وتصحيح القواعد في شرح قصيدة الإمام ابن القيم) - أحمد بن إبراهيم بن عيسى - تحقيق: زهير الشاويش - المكتب الإسلامي — بيروت - الطبعة الثالثة ١٤٠٦هـ.

١٢٩ -شعب الإيمان — أبو بكر أحمد بن الحسيني البيهقي — تحقيق: محمد السعيد بسيوني زغلول - دار الكتب العلمية - بيروت — ط١(١٤١٠هـ).

١٣٠ -شعب الإيمان — البيهقي: أبو بكر أحمد بن الحسين بن علي بن موسى الخُسْرَوْجِردي الخراساني البيهقي- حققه وخرجه: د.عبدالعلي عبدالحميد حامد- نشر: مكتبة الرشد للنشر والتوزيع بالرياض بالتعاون مع الدار السلفية ببومباي بالهند- ط١ (١٤٢٣هـ ٢٠٠٣م).

١٣١ - الصبر - أبو بكر عبدالله بن محمد بن عبيد بن أبي الدنيا القرشي - تحقيق محمد خير يوسف- دار ابن حزم — بيروت- الطبعة الأولى ١٤١٨ هـ.

١٣٢ -الصحاح (تاج اللغة وصحاح العربية) - إسماعيل بن حماد الجوهري - دار العلم للملايين- بيروت- الطبعة الرابعة- يناير ١٩٩٠.

١٣٣ -صحيح ابن حبان بترتيب ابن لبان - محمد بن حبان بن أحمد البستي - تحقيق شعيب الأرناؤوط - مؤسسة الرسالة - بيروت- ط٢(١٤١٤هـ).

١٣٤ -صحيح ابن خزيمة - محمد بن إسحاق بن خزيمة أبو بكر السلمي النيسابوري - تحقيق: د.محمد مصطفى الأعظمي -نشر: المكتب الإسلامي - بيروت - (١٣٩٠هـ ١٩٧٠م).

١٣٥ -صحيح الأدب المفرد - محمد ناصر الدين الألباني - دار الصديق للنشر والتوزيع - الجبيل- ط٢(١٤١٤هـ-١٩٩٤م).

١٣٦ -صحيح البخاري: أبو عبد الله محمد بن إسماعيل البخاري، تحقيق: مصطفى البغا، دمشق، دار ابن كثير، ١٤٠٧ هـ.

١٣٧ -صحيح الترغيب والترهيب - محمد ناصر الدين الألباني- مكتبة المعارف - الرياض -ط٥.

١٣٨ -صحيح الجامع الصغير وزياداته - محمد ناصر الدين الألباني - تعليق وفهرسة زهير الشاويش - المكتب الإسلامي - بيروت - ط١(١٤٠٨هـ-١٩٨٨مـ).

١٣٩ -صحيح السيرة النبوية - (ما صح من سيرة رسول الله صلى الله عليه وسلم وذكر أيامه وغزواته وسراياه والوفود إليه) - محمد ناصر الدين الألباني - الطبعة الأولى - المكتبة الإسلامية - عمان - الأردن.

١٤٠ -صحيح سنن ابن ماجة: ناصر الدين الألباني، مكتب التربية العربية لدول الخليج الرياض، الطبعة الثالثة، ١٤٠٨هـ- ١٩٨٨م.

١٤١ -صحيح سنن أبي داود: ناصر الدين الألباني، مكتب التربية العربية لدول الخليج الرياض، الطبعة الثالثة، ١٤٠٨هـ- ١٩٨٨م.

١٤٢ -صحيح سنن الترمذي: ناصر الدين الألباني، مكتب التربية العربية لدول الخليج الرياض، الطبعة الثالثة، ١٤٠٨هـ- ١٩٨٨م.

١٤٣ -صحيح سنن النسائي: ناصر الدين الألباني، مكتب التربية العربية لدول الخليج الرياض، الطبعة الثالثة، ١٤٠٨هـ- ١٩٨٨م.

١٤٤ -صحيح مسلم: مسلم بن الحجاج، ت ٢٦١ ه، تحقيق: محمد فؤاد عبد الباقي، البابي الحلبي بمصر ١٩٥٥.

١٤٥ -صور وعبر من الجهاد النبوي في المدينة - د. محمد فوزي فيض الله - دار القلم - دمشق - الدار الشامية - بيروت ، الطبعة الأولى - ١٤١٦هـ ١٩٩٦م .

١٤٦ -صيد الخاطر - ابن الجوزي - تحقيق: محمد محي الدين الأصفر - دار الإشراق - ط١(١٤١١هـ).

١٤٧ -ضعيف الترغيب والترهيب- محمد ناصر الدين الألباني - مكتبة المعارف - الرياض.

١٤٨ -ضعيف سنن ابن ماجة - محمد ناصر الدين الألباني - تعليق وفهرسة زهير الشاويش - المكتب الإسلامي - بيروت - ط١(١٤٠٨هـ-١٩٨٨مـ).

١٤٩ -ضعيف سنن الترمذي- محمد ناصر الدين الألباني – تعليق وفهرسة زهير الشاويش – المكتب الإسلامي – بيروت – ط١(١٤٠٨هـ-١٩٨٨مـ).

١٥٠ -الضوء المنير على التفسير- أبو عبدالله محمد بن أبي بكر بن أيوب الزرعي الدمشقي الشهير بابن قيم الجوزية -،جمع: علي الحمد الصالحي- نشر: مؤسسة النور بالرياض.

١٥١ -الطبقات الكبرى - ابن سعد: محمد بن سعد الزهري، دار صادر، ودار بيروت للطباعة والنشر، ١٣٧٦هـ- ١٩٥٧م.

١٥٢ -طريق النبوة والرسالة- د.حسين مؤنس- دار الرشاد- ط٢(١٤١٨هـ ١٩٩٧م).

١٥٣ -طوق النجاة – فيصل بن محمد البعداني – مطبوعات مجلة البيان – الرياض – السعودية.

١٥٤ -عالم السحر والشعوذة- د. عمر سليمان الأشقر.ط الأولى ١٤١٠هـ مكتبة الفلاح للنشروالتوزيع ، الكويت ، دار النفائس الكويت.

١٥٥ -العبودية- شيخ الإسلام أحمد بن عبدالحيم بن تيمية- المكتب الإسلامي.

١٥٦ -عدّة الصابرين وذخيرة الشّاكرين - للإمام محمَّد بن أبي بكر بن القيّم – تحقيق: محمَّد عثمان الخشت - دار الكتاب العربي - الطّبعة الثّانية ١٤٠٦ هـ .

١٥٧ -العدة شرح العمدة- بهاء الدين المقدسي- قدم له وعلق عليه: محب الدين الخطيب- الطبعة الثانية- مصر- المكتبة السلفية.

١٥٨ -العدة في شرح العمدة – بهاء الدين المقدسي – تحقيق د/ عبدالله بن عبد المحسن التركي – مؤسسة الرسالة – بيروت – ط١ (١٤٢١هـ).

١٥٩ -عمدة القاري شرح صحيح البخاري- بدر الدين العيني- دار الفكر - بيروت (١٣٩٩ هـ).

١٦٠ -عون المعبود شرح سنن أبي داود- محمد شمس الحق العظيم آبادي أبو الطيب- دار الكتب العلمية – بيروت - الطبعة الثانية ، (١٤١٥هـ).

١٦١ -غرائب القرآن ورغائب الفرقان- (تفسير النيسابوري)- نظام الدين الحسن بن محمد بن حسين القمي النيسابوري- نشر دار الكتب العلمية - بيروت ١٤١٦ هـ - ١٩٩٦ م ط١

١٦٢ -غرائب القرآن ورغائب الفرقان، نظام الدين النيسابوري، تحقيق: إبراهيم عطوة عوض، القاهرة، مكتبة ومطبعة الحلبي، ١٩٦٢ م.

١٦٣ -غريب الحديث - القاسم بن سلام الهروي أبو عبيد - دار الكتاب العربي – بيروت - ط١(١٣٩٦)- تحقيق : د. محمد عبد المعيد خان .

١٦٤ -غريب الحديث - حمد بن محمد بن إبراهيم الخطابي البستي أبو سليمان - جامعة أم القرى - مكة المكرمة - ط (١٤٠٢هـ)- تحقيق : عبد الكريم إبراهيم العزباوي.

١٦٥ -غريب الحديث- أبو إسحاق إبراهيم الحربي- تحقيق: د. سليمان بن إبراهيم العايد- جامعة أم القرى- ١٤٠٥هـ ١٩٨٥ م.

١٦٦ -الفتاوى الكبرى- أحمد بن عبدالحليم بن تيمية الحراني أبو العباس - دار المعرفة – بيروت- ط١(١٣٨٦هـ).

١٦٧ -فتاوى ورسائل الشيخ محمد بن إبراهيم آل الشيخ- جمع وترتيب محمد بن عبدالرحمن بن قاسم- مطبعة الحكومة بمكة المكرمة- ط الأولى ١٣٩٩هـ.
١٦٨ -فتح الباري بشرح صحيح البخاري، ابن حجر العسقلاني، تحقيق: محب الدين الخطيب، رقم كتبه وأبوابه وأحاديثه: محمد فؤاد عبد الباقي، القاهرة، دار الريان للتراث، ١٤٠٧ هـ.
١٦٩ -فتح الرحيم الملك العلام – عبدالرحمن بن ناصر السعدي – اعتنى به : د.عبدالرزاق بن عبدالمحسن البدر- دار ابن الجوزي – الدمام – السعودية – ط٣ - ١٤٢٤هـ.
١٧٠ -فتح القدير الجامع بين فني الرواية والدراية من علم التفسير – محمد بن على الشوكاني – دار الوفاء للطباعة والنشر والتوزيع – المنصورة – ط١(١٤١٥)هـ.
١٧١ -فتح المجيد شرح كتاب التوحيد- الشيخ عبدالرحمن بن حسن بن عبدالوهاب- طبعة دار البيان ـ دمشق.
١٧٢ -فضائل الأوقات - أبو بكر احمد بن الحسين البيهقي - دراسة و تحقيق سلطان بن عبدالمحسن بن عبدالعزيز الخميس ؛ ١٤١٠هـ.
١٧٣ -فقه الأدعية والأذكار – عبد الرزاق بن عبد المحسن البدر – دار ابن عفان للنشر والتوزيع – الرياض ١٤١٩هـ.
١٧٤ -فقه السنة – السيد سابق – شركة منار الدولية – القاهرة – (١٤١٦هـ- ١٩٩٥م).
١٧٥ -الفوائد – ابن القيم الجوزية - تحقيق محمد عثمان – دار الكتب العلمية - بيروت- ط ٣- ١٤١٥هـ.
١٧٦ -في ظلال القرآن – سيد قطب – دار العلم للطباعة والنشر – جدة – ط ١٢ (١٤٠٦هـ ١٩٨٦م).
١٧٧ -فيض القدير شرح الجامع الصغير- المكتبة التجارية الكبرى – مصر- الطبعة الأولى ، ١٣٥٦هـ.
١٧٨ -القاموس المحيط – الفيروز آبادي – مؤسسة الرسالة – بيروت – ط٢(١٠٧هـ- ١٩٨٧م).
١٧٩ -القيامة الكبرى- د. عمر بن سليمان الأشقر- دار النفائس- الأردن- ط الثامنة- ١٤١٩هـ- ١٩٩٩م.
١٨٠ -الكبائر- محمد بن عثمان الذهبي- دار الندوة الجديدة – بيروت .
١٨١ -كتاب الزهد – أحمد بن حنبل.
١٨٢ -الكشاف عن حقائق التزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل – جار اله محمود بن عمر الزمخشري الخوارزمي- دار المعارف – بيروت .
١٨٣ -كشف الستور في نهي النساء عن زيارة القبور - للشيخ حماد الأنصاري - مجلة الجامعة الإسلامية عدد(٥٢)- المدينة المنورة - السعودية.
١٨٤ -الكشف عن وجوه القراءات السبع وعللها وحججها - مكي بن أبي طالب القيسي - تحقيق: د. محيي الدين رمضان - مؤسسة الرسالة - الطبعة الثانية ١٤٠١هـ.

١٨٥ -الكشف والبيان عن تفسير القرآن- الثعلبي: أبو إسحاق أحمد بن إبراهيم الثعلبي النيسابورى- دار إحياء التراث العربي- بيروت (١٤٢٢هـ).
١٨٦ -الكلام على مسألة السماع- أبو عبدالله محمد بن أبي بكر بن أيوب الزرعي الدمشقي الشهير بابن قيم الجوزية - تحقيق: راشد بن عبدالعزيز الحمد - نشر دار العاصمة، الرياض، ط١، ١٤٠٩هـ.
١٨٧ -الكليات: معجم المصطلحات والفروق اللغوية: أبو البقاء الكفوي، تحقيق: عدنان درويش، ومحمد المصري، بيروت، مؤسسة الرسالة، ١٩٩٣ م.
١٨٨ -اللباب في علوم الكتاب- أبو حفص عمر بن علي ابن عادل الدمشقي الحنبلي - تحقيق : الشيخ عادل أحمد عبدالموجود، والشيخ علي محمد معوض -دار الكتب العلمية - بيروت - لبنان - ط١ (١٤١٩هـ-١٩٩٨ م).
١٨٩ -لسان العرب - محمد بن مكرم بن منظور الأفريقي المصري - دار صادر - بيروت - ط١.
١٩٠ -لطائف الإشارات-(تفسير القشيري) - عبدالكريم القشيرى ـ ط دار الكتاب العربى بالقاهرة.
١٩١ -لقاء الباب المفتوح - (لقاءات الباب المفتوح سلسلة لقاءات كان يعقدها فضيلة الشيخ محمد بن صالح العثيمين - طيب الله ثراه - بمترله كل خميس من شوال ١٤١٢هـ حتى صفر ١٤٢١هـ)- دار الوطن للنشر والتوزيع - الرياض- السعودية.
١٩٢ - لمسات بيانية في نصوص من التتريل- د. فاضل صالح السامرائي - جامعة الشارقة- بحث منشور على الشبكة في موقع صيد الفوائد - والمكتبة الشاملة.
١٩٣ -مجمع الزوائد ومنبع الفوائد- علي بن أبي بكر الهيثمي- دار السعادة- القاهرة-ودار الكتاب العربي- بيروت- ط ٣ (١٤٠٢ هـ).
١٩٤ -مجموع فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية - جمع وترتيب / عبد الرحمن بن محمد بن قاسم ومساعده ابنه محمد - الرئاسة العامة لشؤون الحرمين - المملكة العربية السعودية . (١٤٠٤هـ).
١٩٥ -مجموع فتاوى ورسائل ابن عثيمين - محمد بن صالح العثيمين - جمع وترتيب: فهد بن ناصر السليمان -دار الهداية للنشر- الطبعة الثالثة ١٤٢٥هـ ٢٠٠٤م.
١٩٦ -مجموع فتاوى ومقالات متنوعة - عبدالعزيز بن عبدالله بن باز - جمع وترتيب: د. محمد بن سعد الشويعر - نشر مؤسسة الحرمين الخيرية- الطبعة الرابعة ١٤٢٣هـ.
١٩٧ -محاسن التأويل - محمد جمال الدين القاسمي.
١٩٨ -المحرر الوجيز في الكتاب العزيز - عبد الحق بن عطية الأندلسي- مؤسسة دار العلوم- الدوحة - ط١(١٣٩٨هـ- ١٩٧٧م).
١٩٩ -محمد رسول الله - محمد صادق عرجون - دار القلم - ط٢(١٤١٥هـ).
٢٠٠ -مختصر معارج القبول- حافظ بن أحمد آل حَكَمِي- اختصار الشيخ هشام بن عبدالقادر آل عُقدة- دار طيبة الخَضراء ١٤٢١ هـ
٢٠١ -مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين - محمد بن أبي بكر أيوب الزرعي أبو عبد الله - دار الكتاب العربي - بيروت -الطبعة الثانية ، ١٣٩٣ - ١٩٧٣.

٢٠٢ -مدارك التنزيل وحقائق التأويل- (تفسير النسفي) - أبوالبركات عبدالله بن أحمد بن محمود النسفي، مطبوعات محمد علي صبيح وأولاده - ميدان الأزهر - القاهرة.

٢٠٣ -المستدرك على الصحيحين – محمد بن عبدالله الحاكم النيسابوري – تحقيق: مصطفى عبدالقادر عطا- دار الكتب العلمية - بيروت – ط١ (١٤١١هـ- ١٩٩٠م).

٢٠٤ -مسند أبي داود الطيالسي- سليمان بن داود أبو داود الفارسي البصري الطيالسي - دار المعرفة – بيروت.

٢٠٥ -مسند الإمام أحمد – أحمد بن حنبل الشيباني – مؤسسة قرطبة – القاهرة – مذيل بأحكام شعيب الأرنؤوط عليها.

٢٠٦ -مسند الإمام أحمد – مؤسسة الرسالة – بيروت – ط١(١٤١٨هـ-١٩٩٧مـ)- بإشراف المحقق الشيخ شعيب الأرنؤوط.

٢٠٧ -مسند الحميدى ، لأبى بكر عبد الله بن الزبير الحميدى ، مراجعة حبيب الرحمن الأعظمى ، طبعة دار الكتب العلمية بيروت سنة١٣٨١ هـ .

٢٠٨ -مشكاة المصابيح – محمد بن عبد الله الخطيب – المكتب الإسلامي – بيروت – ط٣- ١٤٠٥هـ- تحقيق : الشيخ الألباني .

٢٠٩ -المصنف في الأحاديث والآثار - أبو بكر عبد الله بن محمد بن أبي شيبة الكوفي - مكتبة الرشد – الرياض - الطبعة الأولى ، ١٤٠٩ - تحقيق : كمال يوسف الحوت.

٢١٠ -المصنف- لأبي بكر عبد الرزاق الصنعاني- تحقيق: حبيب الرحمن الأعظمي- المكتب الإسلامي- بيروت (١٩٨٣م).

٢١١ -معارج القبول بشرح سلم الوصول – حافظ حكمي – دار ابن القيم - الدمام – ط١(١٤١٠هـ).

٢١٢ -معالم التنزيل معالم التنزيل- أبومحمد الحسين بن مسعود البغوي -حققه محمد عبدالله النمر، عثمان جمعة ضميرية، سليمان مسلم الحرش - دار طيبة – الرياض –ط٤ (١٤١٧هـ ١٩٩٧م).

٢١٣ -معالم في طريق طلب العلم – عبدالعزيز بن محمد السدحان – دار العاصمة – الرياض السعودية- ط٣ – ١٤٢٠هـ ١٩٩٩م.

٢١٤ -المعجم الأوسط- سليمان بن أحمد الطبراني- تحقيق: طارق بن عوض الله الحسيني - دار الحرمين – القاهرة- ط١٤١٥هـ.

٢١٥ -المعجم الصغير- سليمان بن أحمد الطبراني- تحقيق: محمد شكور محمود الحاج أمرير- المكتب الإسلامي- بيروت- ودار عمار بعمان- الأولى ١٤٠٥هـ.

٢١٦ -المعجم الكبير – سليمان بن أحمد الطبراني – تحقيق: حمدي بن عبدالمجيد السلفي – مكتبة العلوم والحكم- الموصل- ط٢(١٤٠٤هـ).

٢١٧ -معجم لغة الفقهاء عربي إنجليزي فرنسي- محمد رواس – دار النفائس – ط(١٤١٦هـ).

٢١٨ -معجم مقايس اللغة ، لأحمد بن فارس ، تحقيق عبد السلام محمد هارون ، طبعة مطبعة مصطفى البابى الحلبى ، القاهرة سنة ١٩٧٠م .
٢١٩ -المغني – ابن قدامه – تحقيق د/ عبدالله بن عبد المحسن التركي و د/ عبد الفتاح محمد الحلو- هجر للنشر والتوزيع – القاهرة – ط٢(١٤١٢هـ- ١٩٩٢مـ).
٢٢٠ -مفتاح دار السعادة، ابن القيم، بيروت، دار الكتب العلمية .
٢٢١ -مفردات ألفاظ القرآن- الراغب الأصفهاني- تحقيق:صفوان عدنان داوودي- دار القلم- دمشق- ودار الشامية- بيروت- ط١ (١٤١٢هـ ١٩٩٢م).
٢٢٢ -المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام – د. جواد علي - دار العلم للملايين، بيروت- ومكتبة النهضة، بغداد - الطبعة الثانية عام ١٩٧٦م.
٢٢٣ -من موضوعات سور القرآن – سورة النور – عبد الحميد محمود طهماز – دار القلم دمشق – الدار الشامية بيروت –ط١(١٤١٢هـ-١٩٩٢مـ).
٢٢٤ -منامات الرسول ﷺ- عبد القادر الشيخ إبراهيم- دار القلم العربي- حلب- ط١(١٤١٩هـ).
٢٢٥ -المنمق في أخبار قريش- ابن حبيب : محمد بن حبيب (ت ٢٤٥هـ) - تحقيق خورشيد أحمد - ط١ ، بيروت ، عالم الكتب ، ١٤٠٥ هـ .
٢٢٦ -المنهاج شرح صحيح مسلم بن الحجاج- أبو زكريا يحيى بن شرف بن مري النووي- دار إحياء التراث العربي – بيروت - الطبعة الثانية ، (١٣٩٢هـ) .
٢٢٧ -المهذب من إحياء علوم الدين – صالح احمد الشامي – دار القلم ، الدار الشامية – دمشق ،بيروت- ط٢(١٤١٩هـ- ١٩٩٨م).
٢٢٨ -الموافقات في أصول الشريعة – لأبي إسحاق الشاطبي – مكتبة الرياض الحديثة- الرياض.
٢٢٩ -الموسوعة الحديثية – مسند الإمام أحمد – مؤسسة الرسالة – بيروت – ط١(١٤١٨هـ- ١٩٩٧مـ)- بإشراف المحقق الشيخ شعيب الأرنؤوط.
٢٣٠ -الموسوعة الفقهية الكويتية- وزارة الأوقاف والشئون الإسلامية – الكويت - الطبعة : ١٤٠٤ - ١٤٢٧ هـ.
٢٣١ -موسوعة شروح الموطأ – تحقيق : عبد الله بن عبد المحسن التركي- مركز هجر – القاهرة – ط١(١٤٢٦هـ).
٢٣٢ -موطأ الإمام مالك - مالك بن أنس أبو عبدالله الأصبحي- دار إحياء التراث العربي – مصر – محمد فؤاد عبد الباقي .
٢٣٣ -الناسخ والمنسوخ في القرآن العزيز : لأبي عبيد القاسم بن سلام الهروي ، دراسة وتحقيق : محمد ابن صالح المديفر ، مكتبة الرشد - الرياض ، الطبعة الأولى ١٤١١ هـ .
٢٣٤ -الناسخ والمنسوخ في كتاب الله عز وجل واختلاف العلماء في ذلك – أحمد بن محمد النحاس – تحقيق ودراسة د/ سليمان بن إبراهيم اللاحم – مؤسسة الرسالة – ط١(١٤١٢هـ- ١٩٩١مـ).

٢٣٥ -نضرة النعيم في مكارم وأخلاق الرسول الكريم — إعداد مجموعة من المتخصصين- دار الوسيلة — جدة- ط١(١٤١٨هـ).
٢٣٦ -نظم الدرر في تناسب الآيات والسور — بهاء الدين إبراهيم بن عمر البقاعي — دار الكتاب الإسلامي — القاهرة — ط٢(١٤١٣هـ).
٢٣٧ -النكت والعيون- أبو الحسن علي بن محمد بن حبيب الماوردي - تحقيق: السيد بن عبدالمقصود بن عبدالرحيم - دار الكتب الثقافية - بيروت — ط١ (١٤١٢هـ ١٩٩٢م).
٢٣٨ -نهاية الإقدام فى علم الكلام ، لأبى الفتح محمد بن عبد الكريم الشهرستانى ، تحقيق ألفردجيوم ، طبعة اكسفورد سنة ١٩٣٤م .
٢٣٩ -النهاية في غريب الحديث — ابن الأثير — تحقيق طاهر احمد الزاوي ومحمود محمد الطانحي- المكتبة العلمية — بيروت.
٢٤٠ -النهج الأسمى في شرح أسماء الله الحسني - محمد الحمود النجدي- مكتبة الإمام الذهبي بالكويت- الطبعة الأولى - ١٤١٢هـ.
٢٤١ -هكذا كان النبي صلى الله عليه وسلم في رمضان — فيصل بن محمد البعداني — مطبوعات مجلة البيان — الرياض — السعودية.
٢٤٢ -الوحي وتبليغ الرسالة — د.يحيى بن إبراهيم اليحي- دار الخضيري للنشر والتوزيع — المدينة النبوية- ط١ (١٤٢٠هـ).
٢٤٣ -وقفات تربوية مع السيرة النبوية- عبدالحميد البلالي- ط٣ (١٤١١هـ).

فهرس المحتويات

ي